موسوعة عجائب الصدقات المختصرة

١

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة
عجائب الصدقات
المختصرة

تأليف

عليش متولي بدوي البِنِّى

قدم لها

فضيلة الدكتور عادل عبدالله الفلاح

وكيل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (دولة الكويت)

وفضيلة الشيخ مصطفى أبو السعود وهدان. رحمه الله.

الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية . سابقاً . بالأزهر الشريف

تحت إشراف لجنة آسيا (دولة الكويت)

طبع على نفقة بعض المحسنين، تقبل الله منهم

وغفر الله لهم ولوالديهم وللمسلمين

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١م

الإهداء

أهدى كتابى هذا إلى والِدَىَّ ،

امتثالا لقول الرحمن الرحيم

﴿وبالوالدين إحسانا﴾ (الإسراء / ٢٣)

وأدعو لهما كما علّمنا ربنا العليم بقوله تعالى :

﴿وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا﴾ (الإسراء / ٢٤)

اللهم وارحم سائر المؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدين.

كلمة لجنة آسيا (دولة الكويت)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أشرف المرسلين وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين، وبعد فقد حث الإسلام الأغنياء على الإنفاق في سبيل الله تعالي بسخاء وطيب نفس، وذلك بأسلوب الإحسان، فترى المسلم يبحث بنفسه عن وجوه البِرّ فيُسْهِمُ فيها، طاعة لله تعالى وشكرًا، غير مقتصر على الزكاة المفروضة، بل يتعدَّاها إلى صدقة التطوع، وذلك طمعا فى مرضات ربه، وطلبا لثوابه الجزيل، وتحصينا لماله، ووقاية لنفسه وعياله من الأمراض والعلل...

وبعد، فهذا هو اللقاء التاسع للجنة آسيا بدولة الكويت مع الأخ فضيلة الشيخ عليش متولي، فقد التقينا معه قبل ذلك في:

١-الضمير الديني وأثره في زيادة العمل والإنتاج.

٢-حقيقة (الجِنْس) في الإسلام.

٣-عجائب الصدقات.

٤-مختارات من عجائب الصدقات.

٥-موسوعة تفسير سورة يوسف (الأم) ثلاث مجلدات.

٦-موسوعة تفسير سورة يوسف (الميسرة) مجلدان.

٧-موسوعة تفسير سورة يوسف (المختصرة) مجلد واحد.

٨-منازل الأصفياء بين الذكر والدعاء.

٩-موسوعة (عجائب الصدقات).

١٠ - موسوعة (عجائب الصدقات) المختصرة.

وهو هذا الكتاب القيم، المعروض في مجلد واحد، عرضا طيبا مباركا، وقد جمع فيه المؤلف كل ما استطاع من أنواع الصدقات، لتكون هدى ونورًا للمحسنين ، ومن المعلوم أن للصدقات بنوعيها، المفروضة وغير المفروضة، شأن عظيم في الإسلام، وكم في كتاب الله الكريم من آيات بينات ، تحث على الصدقة وترفع مقام المتصدقين إلى أعلى عليين ، وكم فى السنة المطهرة من أحاديث شريفة، تدعو كل مسلم ومسلمة إلى البذل والإنفاق في سبيل الله تعالى، طلبا لمرضاته، وطمعا في حسن ثوابه.

هذا وإني أسأل الله تعالى جل شأنه، أن يتقبل هذا العمل الطيب من مؤلفه الصابر المحتسب، وأن يجعله فى ميزان حسناته يوم الدين، كما أسأل الله الكريم، أن يَمُنَّ على من تبرع وتصدق بطبع هذا الكتاب، بواسع فضله وعظيم عطائه، وأن يثقّل به موازينه يوم لاينفع مال ولابنون. إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن يرحم به والديه وأهله أجمعين. (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)، وصلى اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه أجمعين، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

د / عادل عبد الله الفلاح

وكيل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت

ومدير عام لجنة آسيا بدولة الكويت

تقديم

لفضيلة الشيخ مصطفى أبو السعود وهدان

الحمد لله المتفضل على عباده بالنعم، جليلها وصغيرها، كثيرها وقليلها، عطاء منه سبحانه غير ممنون، وهو سبحانه الذى جعل شكر النعم بأداء حقها، وإخراج نصيب الفقير والمسكين فيها، فريضة أو تطوعا، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد بن عبد الله، الذى كان أَجْرَى بالخير من الريح المرسلة، فكان نعم القدوة لخير أمة أخرجت للناس، فاللهم اجزه عنا خير ماجزيت به نبيا عن أمته، واجعله شفيعا لنا عندما يقوم الناس لرب العالمين، وبعد

فيقول الله عز ذكره وجل ثناؤه: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ (البقرة:٢٧٦)

إن الإسلام ديننا الحنيف، إنما قام وترعرع واشتدّ بنيانه بتعاون أبنائه، وبتكافلهم فيما بينهم، تحقيقا للأمان ، والاستقرار النفسي، والمادي، والاقتصادى، والاجتماعى، فلو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولاعريان ولامغبون ولا مهضوم، ولا استقرّت الجنوب فى المضاجع، ولَجَفَّت العيون من المدامع - كما كتب المنفلوطى رحمه الله تعالى - فالمال عصب الحياة، والعامل الأهم فى إقامة المشروعات الإنتاجيّة، التى يمثل المال أحد عوامل قيامها، بل هو العامل الأهم - كما قدمنا

- وكما قال شوقى - رحمه الله- يامال الدنيا أنت، والناس حيث كنت، سحَرْت القرون، وسَخِرْتَ من قارون، وسَعَّرْت النار يانيرون،...

وكما أن الفقر ابتلاء وامتحان من الله تعالى للعبد، فإن الغنى ووفرة المال ابتلاء وامتحان أيضا من الله تعالى للعبد، فيشكرالنعمة أو يكفرها، فإذا شكرها بارك الله له فيها، وإذا كفرها وجحدها انْتَزَعها الله من يده، وما أَمْرُ قارون عن أذهاننا ببعيد، بل إن القرآن الكريم سجَّل ذلك فى آيات تتلى، وعظات تَتْرَى إلى يوم الدين.

والكتاب الذى نقدم له اليوم (موسوعة عجائب الصدقات المختصرة)، مشكاة في عالم النور، تضىء الطريق ليسير من أراد على نهجها، أو يحيد من لم يوفقه الله عن طريقها، فإن ذلك بلاغ للناس، وَدَاع يُنَادى في البَرِيَّة: أيها الناس: إن المال ظل زائل، وعارية مُسْتَرَدَّة، وأنتم مستخلفون فيه، والله ناظر ماذا تفعلون، فمن استجاب فقد نال الخير كله، ومن أعرض أعرض الله عنه.

وإنا إذ نقدم هذه الطبعة، نرجوا الله تعالى أن يجعل نفع هذا الكتاب شاملا، وأن يأخذ بأيدى الأغنياء إلى مَنْ أَغْنَى الأغنياءَ، وأْفقَر الفقراءَ، ليبلو بعضهم ببعض، والله من وراء القصد، فهو نعم المولى ونعم النصير،

مصطفى أبو السعود وهدان - رحمه الله -

الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية سابقا

مقدمة المؤلف

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه كان بعباده خبيرًا بصيرًا، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وَصَفيُّه من خلقه وخليله، كان أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان يعطي عطاء من لايخشى الفقر أبدًا، اللهم صل وسلم وبارك وأنعم عليه، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وعلى الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فقد شاءت حكمة الله تعالى أن يتفاوت الناس في الأرزاق، والأقدار، والمواهب، والقوة، وغير ذلك، ابتلاء واختبارا، وقد عالج الإسلام مشكلة التفاوت بين الناس في الأرزاق عن طريق الزكاة المفروضة، تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم، وكذلك عن طريق الصدقة المندوبة، التي لها الأثر البالغ في إكمال النقص الحادث في حاجات الفقراء إذَا لَمْ تَفِ بها الزكاة المفروضة، ولقد أثبت الواقع الملموس، أن الزكاة المفروضة والصدقة المندوبة، هما الحصن الحصين للفقراء والمساكين، والدرع الواقي للعجزة والمحتاجين، ودليل الرحمة والتآخى والتكافل بين المسلمين

لقد شرع الله تعالى لعباده الزكاة المفروضة، وجعلها حقا معلوما للسائل والمحروم فى مال الأغنياء،..

وإلى جانبها شرع سبحانه صدقة التطوع تدعيما للصدقة المفروضة والتى قد لا تفى بحاجة المحتاجين، وجعلها بابا واسعا من أبواب رحمته تعالى وفضله ومنته، وكذلك شرع الله تعالي الصلاة المفروضة وصلاة النافلة، والصيام المفروض، وصيام التطوع، والحج المفروض على المستطيع، وحج النافلة، ففتح عز ذكره وجل ثناؤه بالنوافل التطوعية طريقا واسعا لمرضات الله تعالى ونيل الدرجات العلا فى جنات ونعيم، ولما كانت صدقة التطوع متعددة ومتنوعة ولايعلمها الكثير من الناس، ويترتب على الجهل بها فوْت الكثير من الحسنات والقربات التى تُدْخِلُ صاحبها الجنة، خاصة وأن منها مالا يكون مالا ولا ما يُقَوَّمَ بمال، كذكر الله تعالى، ومنها مالا يحتاج إلا إلى النية الخالصة كى تُسجّل لصاحبها عند الله تعالى،..

من أجل ذلك كان هذا العَمل المتواضع الذى يشتمل على الكثير من ألوان صدقة التطوع، التى قال عنها عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذُكِرَ لى أن الأعمال تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم»[1]، إضافة إلى الزكاة المفروضة التى هى أصل كل صدقة،..

ولما كان أثر الصدقات بنوعيهْا عند الله تعالى عظيما وعجيبا

(١) صحيح موقوف، رواه ابن خزيمة في صحيحه (٢٤٣٣) والحاكم (٤١٦/١) وصحححه على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي.

فىنفس الوقت، واستئناسا بقوله ﷺ: «..الصدقة شىء عجيب» فعن أبى ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يارسول الله ما تقول فى الصلاة؟ قال: تمام العمل، قلت: يارسول الله أسألك عن الصدقة، قال: «الصدقة شئ عجيب... الحديث[1] فقد أسميت هذا الكتاب: (موسوعة عجائب الصدقات) وجعلت مصدره القرآن الكريم، والسنة المطهرة الصحيحة، اتباعًا لقوله ﷺ: «تركتُ فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما أبًدا، كتاب الله وسنتي»[2].

هذا... وإني أسأل الله العلي الأعلى والوليَّ المولى، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا، أن يلهمني الهدى والسداد والتوفيق والرشاد، وأن يتقبل عملي هذا بقبول حسن، فلا أرجو عليه ثوابا من أحد سواه، كما أسأله جل شأنه أن ينفع من قرأه وعمل به، وأن يعظم أجره، وأن يجزل الثواب لمن تطوع بطبعه ونشره، «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» وصلى اللهم وبارك على سيدنا محمد، سيد الأنبياء والمرسلين، الذى علم العلماء، وفقه الفقهاء، وأدب الأدباء، وهدانا به ربنا إلى صراطه المستقيم، اللهم وصل وسلم على آله الأطهار وأصحابه الأخيار وأتباعه الأبرار إلى يوم لقائك يا عزيز يا غفار، وأنت راض عنا جميعا بفضلك ومنِّتك ورحمتك يا أرحم الراحمين. اللهم آمين.

---

(١) حسن، رواه البزار في كشف الأستار (٩٤١) ورواه ابن حبان (٨٦٣) موارد بنحوه، ورواه الحاكم (٦٣/١) وصححه.

(٢) رواه الحاكم في صحيحه عن أبي هريرة، وهو في الصحيحة (١٧٦١) وصحيح الجامع (٢٩٢٧).

ما تشتمل عليه الموسوعة المختصرة

مقدمة

الباب الأول: بشائر الصدقات

الباب الثاني: صدقات التطوع المالية

الباب الثالث: فضل الصدقة من لحظة الموت إلى دخول الجنة

الباب الرابع: من الصدقات غير المالية «صدقة الذكر»

الباب الأول

ويتضمن ما يلي

تمهيد عن (الصدقة وكمالها)

الفصل الأول: ترتيب الأولى بالصدقة

الفصل الثاني: الصدقة الجارية (الوقف)

الفصل الثالث: القرض الحسن

تمهيد

الصدقة وكمالها

إن المؤمن الفَطِن، صحيح الإيمان، إذا أراد أن يعمل عملا يحبه الله ورسوله، فإنه يحرص كل الحرص على أن يأتي به في صورته التامة، لينال ثوابه كاملاً غير منقوص، ومعلوم أن الصدقة من أكرم الأعمال التي يحبها الله تعالى ورسوله، ولذلك فإن المؤمن يتحرى في صدقته ما يلي:

(أولاً) الإخلاصُ بنيته الصالحة:

لأن العمل لا يقبل إلا إذا كان بنية صادقة خالصة لله تعالى وحده، وأن يكون على السنة التي جاءنا بها صلى الله عليه وسلم، فلا بُدَّ أن يكون (خالصا) لله تعالى «صَوَابًا» على الكيفية التي أمرنا بها صلى الله عليه وسلم، حتى إن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كان إذا أتاه أخوه يقول له: هيا نشهد جنازة فلان، فيجيبه، انتظر حتى أحقق نيتي وأخلصها لله، فكل عمل لغير الله فهو مَردُود على صاحبه، مذمُوم بسببه، وكل عمل ليس على شرع الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو مردود.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[١]، أي: مهما أمركم به

(١) سورة الحشر الآية: (٧)

فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهي عن شر[١].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»[٢] وفي الصحيحين أيضا عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَث في أَمرنا هذا ماَ ليْسَ منه، فهو رَدّ»[٣].

(الثاني) فهم معناها:

فالله تعالى قد شرع الصدقات، وجعل لها آثارًا طيبة عظيمة في الدنيا والآخرة، من ذلك أنه جعلها مطهرة للمتصدقين من داء البخل والشح، وانتزاع هذه الأدواء من النفس لا يكون إلا بتدريبها على العطاء، والتصديق القلبي بالخلف من الله تعالى في الدنيا والثواب في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾[٤]

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[٥]، وقال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا

(١) تفسير ابن كثير/الجزء الثامن – في التقسيم–ص٦٧

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري (٧٢٨٨) وصحيح مسلم (٢١٢٥)

(٣) متفق عليه، ورواه أبو داود في سننه، وابن ماجة، وهو في صحيح الجامع (٥٩٧٠)

(٤) سورة سبأ الآية: (٣٩)

(٥) سورة الحشر الآية: (٩)

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾[1].

قال ابن كثير: أمر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها، وهذا عام[2] وبهذا الفهم العميق لمعنى الصدقة، يجعل المتصدق يقبل عليها وهو فرح بتقديمها، مستبشر بثمرتها، آمل في قبولها من ربه تعالى.

(الثالث) أن تكون من كسب طيب:

فإن الله تعالى طَيِّب لا يقبل إلاَ طّيبا، كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب.. الحديث»[3] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾[4].

(الرابع) أن تكون مما يحبه المرء:

ففي ذلك الخير العظيم والثواب الأكمل، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾[5].

---

(١) سورة التوبة الآية: (١٠٣)

(٢) تفسير ابن كثير – الجزء الرابع- تقسيمًا- ص٢٠٧

(٣) رواه البخاري (٣/٢٢٠) ومسلم (١٠١٤) ورواه غيرهما

(٤) سورة البقرة الآية: (٢٦٧)

(٥) سورة آل عمران الآية: (٩٢)

وهذا كان منهج الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا إذا أحبوا شيئا أخرجوه لله تعالى، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بْيرَحاء، وكانت مستقبلة المسجد بالمدينة وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وإن أحب أموالي إَليَّ بْيرَحَاء، وإنها صدقة لله، أرجو بِرَّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى، فقال النبي ﷺ: «بخ ذاك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبوطلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبوطلحة في أقاربه وبني عمه، أخرجاه[(١)].

وفي الصحيحين أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله، لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: «حَبِّسِ الأصل، وسَبِّلِ الثمرة»[(٢)].

وعن حمزة بن عبدالله بن عمر، قال: قال عبدالله: حضرتني هذه الآية ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فذكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئا أحب، إلي من جارية رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله،

---

(١) متفق عليه، البخاري (١٤٦١) ومسلم (٩٩٨) ورواه غيرهما

(٢) متفق عليه، البخاري (٢٧٣٧) ومسلم (١٦٣٢) ورواه غيرهما

فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، يعني تزوجتها[1]. وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم، يتسابقون ويتنافسون في فعل ما يرضى ربهم ويزيدهم قربًا منه سبحانه.

(الخامس) أن يستصغر صدقته:

فإن استعظامه لها عُجْبٌ بها، والعجب محبط للأعمال ومبطل لها، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[2].

ويقال: إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله تعالى، والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله تعالى.

(السادس) أن يخرج صدقته سِرًّا:

لتكون بعيدة عن الرياء، ولا يظهرها إلا إذا اقتضى الحال ذلك، إما للاقتداء به كما في الزكاة المفروضة، أو الحث على إقامة مشروع عام لمصلحة الناس، أو لأن السائل سألة على ملأ من الناس، قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(١) رواه البزار في مسنده (٢٩١٤) وقال الهيثمي في المجمع (٣٢٦/٦) رواه البزّار وفيه من لم أعرفه

(٢) سورة التوبة الآية: (٢٥)

خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ [1]. وكما جاء في الصحيح في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

(السابع) أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة:

فيتخير لها أهل العلم وأهل التقوى وأهل الإيمان الصحيح، والأشد منهم حاجة إليها، من الذين يرون بنور الإيمان أن الإنعام كله من الله تعالى، ولا يلتفتون إلى الأسباب إلا بقدر شكرها الذي ندب إليه الشارع، كما قال ﷺ: «ما شكر الله تعالى من لم يشكر الناس»[2]، إنهم الأتقياء لله، المعرضون عن الدنيا، المتجردون لتجارة الآخرة.

قال رسول الله ﷺ: (لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي)[3]، وكان بعض العلماء يؤثر بصدقته فقراء الزهاد دون غيرهم، فقيل له: لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل، فقال: لا، هؤلاء قوم هممهم الله سبحانه، فإذا طَرقَتْهُمَا فاقة، تَشَتَّتَ هَمُّ أحدهم، فلأن أردهِمَّةَ واحد إلى الله عز وجل، أحب إليَّ من أن أُعْطِىَ ألفا ممن هِمَّتُهُ الدنيا، وقال ابن المبارك للفضيْل: لولاك وأصحابك ما اتجرت، وكان- رحمه الله- ينفق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم، ويعطيها لأهل العلم وطلبته خاصة، فإن ذلك إعانة لهم على العلم،

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢٧١)

(٢) حديث حسن، رواه أحمد بتمامه (٢٧١/٤) وابن أبي الدنيا (٦٤) والبيهقي «في الشُّعَب» ١٢٣/١/٢، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) حديث حسن، أخرجه أحمد وغيره وهو في المشكاة (٥٠١٨) وفي صحيح الجامع (٧٣٤١)

والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية،.. ويعطي الصدقة لمن كان مُستترًا مُخْفيًا حاجته، لا يكثر البثَّ والشكوى، أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته، وبقيت عادته، فهو يعيش في جلباب التجمل، قال الله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ﴾[١].

(الثامن) أن يبذل صدقته في الأقارب وذوي الأرحام:

فإن الصدقة عليهم مضاعفة إذ هي صدقة وصلة، وقد رأينا في البند الرابع، (أن يتصدق مما يحبه المرء) أن الرسول ﷺ قال لأبي طلحة: «اجعلها في الأقربين»، ففعل، وقد قدم القرآن العظيم الإنفاق على ذوي القربى بعد الوالدين في آيات كثيرة، منها قوله عز ذكره: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾[٢].

وعن سلمان بن عامر قال: قال صلى الله عليه وسلم: «الصدقة على المساكين صدقة، وهي على ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة»[٣]،

---

(١) سورة البقرة الآية: (٢٧٣)

(٢) سورة البقرة الآية: (٢١٥)

(٣) صحيح اخرجه الترمذي وحَسَّنه (٦٥٨) والنسائي (٢٥٨٢) وابن ماجة (١٨٤٤) والحاكم (٤٠٧/١) وقال: صحيح الإسناد.

ولا يجوز لمسلم أن يعطي الصدقة للأباعد، ويحرم منها الأقارب، وإلا كان آثما، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يا أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذي بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل، وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم»(١).

ومعلوم في الكتاب والسنة أن الإحسان إلى الأقارب. له فضل عظيم في الدنيا والآخرة، والصدقة إحسان إليهم وصلة لهم، وصلة أولي الأرحام ثمرتها يحبها كل مؤمن صادق، وهي كما جاءت في الحديث الصحيح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره - يؤخر له في أجله وعمره- فليصل رحمه»(٢).

فهنيئا للواصلين أرحامهم بأي طريقة أو لون من الإحسان.

(التاسع) ألا يبطل صدقته بالمن والأذى:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤ ﴾(٣).

(١) رواه الطبراني ورواته ثقات، وفيه عبدالله بن عامر الأسلمي، قال أبو حاتم: ليس بالمتروك، وقال الهيثمي: ضعيف، وبقية رجاله ثقات.

(٢) متفق عليه، البخاري (١٠/٣٤٨) ومسلم (٢٥٥٧) واخرجه أبو داود (١٦٩٣)

(٣) سورة البقرة الآية: (٢٦٤)

فعلى المؤمن المتصدق أن يحرص على ألا يبطل صدقته بالمن والأذى، ولقد كان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفه، وتكون يد الفقير هي العليا في النظر، أما في حكم الله وشرعه، فيد المعطي هي العليا، ويد الآخذ هي السفلى، ولكنه خلق الكرام، ورحم الله القائل:

تــــراه إذا مــــا جـئـتـه مـتـذلـلا

كـأنـك تـعطيـه الـذي أنــت سائله

قال الفضيل: من المعروف أن ترى المنة لأخيك عليك إذا أخذ منك شيئا، لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب، وأيضا، فإنه خصك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك.

وكان سفيان الثوري ينشرح إذا رأى سائلا على بابه ويقول: مرحبا بمن جاء يغسل ذنوبي.

وقال الشعبي: من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته، فقد أبطل صدقته، وضرب بها وجهه، وكان الفضيل يقول عن السائلين: «يحملون أَزْوَادَنا إلى الآخرة بغير أجرة، حتي يضعوها في الميزان بين يدي الله تعالى. وقال عبدالعزيز بن مروان: إذا أمكنني الرجلُ من نفسه حتى أضع معروفي عنده، فيدُه عندي أعظم من يدي عنده[1].

وهذه أمور أخرى تنفع في كمال الصدقة وتجعلها على الوجه الأكرم:

(١) انظر صحيح وصايا الرسول ﷺ (أبو عزيز) المجلد الأول ص٥١٥ والمجلد الثاني ص٥١٨

(أ) يُسنُّ التسمية عند إعطاء الصدقة لأنها عبادة، قال بذلك الإمام الرازي.

(ب) أَن يحاول المواظبة على الصدقة وإن قلت، فإن خير العمل أدومه.

(ج) يستحب الإكثار من الصدقة في رمضان، وذلك لمضاعفة الأجر وإعانة المحتاجين لإغنائهم عن السؤال والمذلة قبل حلول عيد الفطر.

(د) إذا لم يجد ما يعطيه للسائل ردَّه ردًّا جميلا داعيا له بالرزق، ولقد قال رب العزة لرسوله ﷺ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾[١] أي: وإذا سألك أقاربك ومن أَمَرْنَا بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة، ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: عِدْهُم وعدًا بسهولة ولين- قائلا-: إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله، قال بذلك مجاهد، وعكرمة، والحسن، وغيرهم[٢].

وقال جل ثناؤه لرسوله ﷺ: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾[٣].

أي: لا يصدر منك كلام للسائل، يقتضي رده عن مطلوبه، بَنهْرٍ، وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك، أو رده بمعروف وإحسان، قال

---

(١) سورة الإسراء الآية: (٢٨)

(٢) تفسير ابن كثير/ الجزء الخامس - في التقسيم-٦٩

(٣) سورة الضحي الآية: (١٠)

الشيخ العلامة عبدالرحمن السعدي: ويدخل في هذا، السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم، مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام، والتَّحَنُّن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراما لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد[1].

أمور تجب على المتَصَدَّقِ عليه (الآخذ):

(١) أن يعلم أن الله تعالى قد أوجب عليه العمل ليكْفِيَ نفسه ومن تلزمه نفقته فهذا هو الأصل، وألا يلجأ إلى السؤال إلا في حالة عجزه عن الكسب والعمل، وأن يطلب ما يكفيه حاجته الضرورية، فلا يجوز له أن يستكثر منها ويعيش عيشة المرفَّهين سِرًّا، أو يكنز عنده آلاف مؤلفة.

(٢) أن يداوم سؤال الله تعالي مخلصا ليوفقه للغناء عن الصدقة بأي سبب من الأسباب، وأن يجتهد في ذلك، حتى لا يحيا عالة على الناس وعلى أوساخهم.

(٣) أن يشكر من أعطاه ويدعو له ويثني عليه، حيث أن الله تعالى قد جعل المعطي سببا لإيصال النعمة إلى من أعطى، وكما هو معلوم بنص الحديث: «ما شكر الله من لم يشكر الناس».

(٤) أن يكون المتصدق عليه غير مستَقِلٍّ لما أخذ، ولاذامًّا له، ولا معيبًا من أعطاه، حتى لا يكون من الذين سخر الله منهم وأعد لهم العذاب الأليم، قال جل شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ

(١) تيسير الكريم الرحمن (السعدي) المجلد الخامس/٤١٤

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ
فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

(٥) إن يتحرى أن صدقته من مؤمن ليس في ماله شبهة، وذلك قدر استطاعته، فقد أمر كل مسلم أن يتقي الشبهات، وأن يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه.

---

(١) التوبة الآية: (٧٩)

الباب الأول
الفصل الأول
ترتيب الأولى بالصدقة
ويتضمن الآتي:

أولاً: نفس الإنسان.

ثانياً: أولوا الأرحام.

ثالثاَ: اليتامى

رابعاً: الفقراء والمساكين

خامساً: الجار.

سادساً: الصاحب بالجنب

سابعاً: ابن السبيل

ثامناً: وما ملكت أيمانكم

تاسعاً: السائلون

ترتيب الأولى من الناس بالصدقة والبر والإحسان:

أولا: «نفس الإنسان»

أُطْلقَت النفس في القرآن الكريم على شيء في داخل كيان الإنسان، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية، ومع الإطلاق القرآني لكلمة (النفس)[1]. فقد وردت عدة صفات وبيانات توضح جملة من خصائص النفس وصفاتها وآثارها في السلوك الإنساني، وهذه تكشف عن المراد من النفس في داخل كيان الإنسان،..

والنفس الإنسانية مكلفة ومسؤولة مسؤولية شخصية، ضمن حدود الاستطاعة، كما قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ ﴾[2].

وعليها مدار كل شيء يتعلق بالإنسان، وهي التي تتحمل نتيجة ما عملت من خير أو شر، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾[3] ومن صفات النفس الإنسانية: (الجودُ وضدُّه).

فقد أثبت القرآن الكريم أن الجود أو الشح وما بينهما من الصفات التي تتصف بها النفوس البشرية.

ففي اتصاف الأنفس بالشّح وأنه الغالب فيها يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ

(١) وردت كلمة (نفس) في صورها المتعددة (٢٩٥) مرة

(٢) سورة البقرة الآية/٢٨٦

(٣) سورة المدثر الآية/٣٨

ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾﴾[1].

وفي التوجيه للتخلص من شح النفوس يقول الله تعالى في سورة الحشر: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[2] [3].

وفي الحث على الإنفاق ابتغاء مرضات الله، وتثبيتا من الأنفس لصدق اليقين بالله والثقة به، والإخلاص له في العمل، وتثبيتا من الأنفس لخلق الجود الذي يرضى الله عنه بممارسة العطاء في كل مجال من مجالات الخير، التي يبتغى بها مرضاة الله تعالى، يقول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾[4] [5].

والإسلام العظيم علم الإنسان أن يبدأ بنفسه في كل خير يرجوه لها خاصة بالنسبة لمغفرة الله عز وجل، قال الله تعالى على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾[6]

---

(١) سورة النساء الآية: (١٢٨)

(٢) سورة الحشر الآية: (٩٥)

(٣) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها (حَبَنكة)١/٢٢٩-٢٣٠

(٤) سورة البقرة الآية: (٢٦٥)

(٥) الأخلاق الإسلامية وأسسها (حبنكة)/٢٣٨-٢٣٩

(٦) سورة إبراهيم الآية: (٤١)

ويقول جل شأنه على لسان نوح عليه السلام ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾[1]. فقدم النفس على الوالدين، وبالنسبة للجود والعطاء فقد ترك له الحرية ليبدأ بنفسه أو بمن يؤثره على نفسه ابتغاء مرضات الله تعالى، وأعظم ذلك أن يكون في إيثار والديه ومن يعول من زوجة وأولاد، وأصحاب الضرورات، ولقد وصف الله تعالى الأنصار - رضي الله عنهم- بقوله الكريم: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾[2].

وفي الدلالة على أن الإنسان يبدأ بنفسه في الصدقة والبر، يروي لنا ابن حبّان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه: «تصدقوا» فقال رجل: يا رسول الله عندي دينار، فقال: «تصدق به على نفسك» قال: إن عندي آخر، قال: «أنفقه على زوجتك» قال: إن عندي آخر، قال: «أنفقه على ولدك» قال: إن عندي آخر، قال: «أنفقه على خادمك» قال: إن عندي آخر، قال: «أنت أبصر به»[3] وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه مرفوعا: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك

(١) سورة نوح الآية: (٢٨)

(٢) سورة الحشر الآية: (٩)

(٣) حديث حسن، رواه ابن حبان في صحيحه (٣٣٢٦) والحاكم (٤١٥/١)

صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»[1].

وعن أبي أمامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق على نفسه نفقة يستعف بها فهي له صدقة، ومن أنفق على امرأته وولده وأهل بيته فهي له صدقة»[2].

فانظر أخا الإسلام إلى عظيم رحمة الله تعالى وكريم مِنَّتِه وتمام فضله على عبده المسلم، إذ جعل نفقته على نفسه في حدود ما أباح الله تعالى وأحل، صدقة خالصة لوجهه الكريم، له أجرها عند ربه، كأنما أعطاها للغير، بل وأكثر من ذلك فقد جعل الله تعالى سعيه وضربه في الأرض لإعفاف نفسه، كالجهاد في سبيل الله تعالى. علاوة على أن ذلك صدقة له، فعن كعب بن عُجْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مرّ على النبي ﷺ رجل، فرآى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَدِه ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبويْن شيخْين كبيريْن فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رِيَاءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان»[3].

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد بإسناد جيد (١٣١/٤) وراوته ثقات كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد /١١٩/٣) وهو في الصحيحة برقم (٤٥٢)

(٢) حديث حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط والكبير بإسنادين أحدهما حسن.

(٣) حديث حسن بشواهده، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٥/٤) رواه الطبراني في الثلاثة، ورجال

فصدقة الإنسان على نفسه تَمَتُّعًا بالطَّيبات من الرزق بلا إسراف أو تقتير، تعتبر من غرائب عجائب الصدقات، ألا فتبارك الله الحنان المنان الرحيم الرحمن، تبارك الله رب العالمين.

الكبير رجال الصحيح.

ثانيا: (أولوا الأرحام)

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥ ﴾[1]، وأولوا الأرحام تشمل جميع القرابات من العصبات وغيرها، فهذه الآية ناسخة للإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا[2]. عندما كان المجتمع الإسلامي لا يزال وليداً في المدينة المنورة بعد الهجرة إليها، فآخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكان هذا الإخاء صلة فريدة في تاريخ التكافل الاجتماعي بين أصحاب العقائد، وقام هذا الإخاء مقام أخوة الدم، فكان يشمل التوارث والالتزامات الأخرى الناشئة عن وشيجة النسب، كالديات وغيرها، ولما استقرت أحوال المسلمين بالمدينة، ووجدت أسباب معقولة للارتزاق، وخاصة بعدما غنمه المسلمون من أموال بني قينقاع بعد إجلائهم، عاد القرآن الكريم إلى إلغاء نظام المؤاخاة من ناحية الالتزامات الناشئة عن الدم والنسب، مستبقيا إياه من ناحية العواطف والمشاعر، وردَّ الإرث والتكافل في الديات إلى قرابة الدم والنّسَب كما هي أصلا في كتاب الله القديم المسطورة بقوله عزّ ذكره: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ

---

(١) سورة الأنفال الآية: (٧٥)

(٢) تيسير العلي القدير/٢/٣١١

إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ [١][٢].

إن من مبادئ الإسلام الاجتماعية الأولى، تشبيك جماعات المسلمين في وحدة جسدية جماعية عامة، وأولى الناس بذلك الأقربون رحمًا، فلهم حق أخوة الإسلام، ولهم حق قرابة الرحم[٣] وقد قدّم القرآن العظيم الأقربين على غيرهم في النفقة والبر والإحسان، قال تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ ﴾[٤]**وقال جل شأنه:** ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[٥]**وقال عز ذكره:** ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ

---

(١) سورة الأحزاب الآية: (٦)

(٢) تفسير الظلال /٥/٢٨٢٧-٢٨٢٨

(٣) الأخلاق الاسلامية وأسسها /٢/٣٦

(٤) سورة البقرة الآية: (٢١٥)

(٥) سورة البقرة الآية: (١٧٧)

ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

وكذلك فعلت السنة المطهرة في تقديم ذوي القربى في الصدقة على غيرهم.

من ذلك ما روى عن أم المؤمنين ميمونة - رضي الله عنها- أنها أَعْتَقَتْ وليدة، ولم تستأذن النبي ﷺ، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت: أشعرت يا رسول الله أني أعتقت وليدتي؟ قال: «أوفعلت»؟ قالت: نعم. قال: «أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك»[2] ويظهر أن أخوالها كانوا ذوي حاجة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه (بيرحاء) - اسم لحديقة من نخل- وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾[3] **قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول:** ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ **وإن أحب مالي إليّ (بيرحاء) وإنها صدقة لله تعالى، أرجو برّها ودخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ:**

(١) سورة النساء الآية: (٣٦)

(٢) رواه البخاري (١٦١/٥) ومسلم (٩٩٩)

(٣) سورة آل عمران الآية: (٩٢)

(بَخٍ)[1]! ذلك مال رابح، ذلك مال رابح! وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[2].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الله تعالى لا يقبل صدقة من رجل يصرفها إلى غير أهله المحتاجين، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن سول الله ﷺ قال: «يا أمة محمد، والذي بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل، وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم، والذي نفسي بيده، لا ينظر الله إليه يوم القيامة[3] وقد شدد الإسلام العقوبة على ذى الرحم الذي يبخل بفضل الله تعالى على ذى رحمه المحتاج، فعن عبدالله بن جرير البَجَلّي- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذي رحم يأتي ذا رَحِمَه فيسأله فضلا أعطاه الله إياه فيبخل عليه، إلا أخرج الله له من جهنم حية يقال لها شجاع تتَلَمَّظُ فيُطَوَّقُ به»[4].

(١) كلمة تقال لتفخيم الأمر والإعجاب به

(٢) البخاري (٣/٢٥٧) ومسلم (٩٩٨)

(٣) رواه الطبراني ورواته ثقات، وفيه عبد الله بن عامر الأسلامي قال أبو حاتم: ليس بالمتروك، وقال الهيثمي : ضعيف وبقية رجاله تقات

(٤) حديث حسن، قال الهيثمي في محمع الزوائد (١٥٤/٨) رواه الطبراني في الكبير والاوسط، وإسناده جيد

ترتيب أولي الأرحام

أ- الوالدان (الأم والأب):

إن الله تعالى قد جعل الآباء والأمهات سببا لحياة الأولاد من بنين وبنات، وقد فطر الله الوالدين على الحب العظيم لولدهما، والرحمة به والشفقة عليه، يسهران على راحته آناء الليل والنهار، ويدعوان الله له بالسلامة وطول العمر، ويتمنيان له كل خير، ويخافان عليه من كل سوء، ويقدمانه على نفسيهما في كل شيء.

من أجْلِ هذا فقد فرض الله تعالى على الأولاد البر بالوالدين والإحسان إليهما، ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

والإحسان إلى الوالدين، جاءت به كل الشرائع السابقة، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2].

وبمثل ذلك أمر الله المسلمين، فقال جل شأنه في سورة النساء: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ

---

(١) سورة الرحمن الآية: (٦٠)

(٢) سورة البقرة الآية: (٨٣)

وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

وقال جل ثناؤه في سورة الأنعام: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾[2].

وقال عز من قائل في سورة الإسراء: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾[3].

فقد قرن الله تعالى في الآيات السابقة البر بالوالدين بعبادته سبحانه كما قرن الله تعالى شكر الوالدين بشكره عز ذكره فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[4].

ومما جاء في السنة المباركة من الوصية بالوالدين وتقديمهما على غيرهما، قوله ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) سورة النساء الآية: (٣٦)

(٢) سورة الأنعام الآية: (١٥١)

(٣) سورة الإسراء الآية: (٢٣)

(٤) سورة لقمان الآية: (١٤)

رجل يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أُمُّك» قال الرجل: ثم من؟ قال: «أمك» قال الرجل: ثم من؟ قال: «أمّك» قال الرجل: ثم من؟ قال: أبوك»[1].

وقوله ﷺ فيما رواه البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «برّ الوالديْن» قلت: ثم أيّ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»[2].

وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما- قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايُعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى، فقال ﷺ: «فَهل لك من والدْيك أحدٌ حَيّ؟» قال: نعم بل كلاهما، قال ﷺ: «فتبتغي الأجر من الله تعالى؟» قال: نعم، قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»[3] فهذه الاحاديث المباركة تظهر فضل الوالدين على الأولاد، وتبين أن برهما والإحسان إليهما من أفضل وأحب الأعمال إلى الله تعالى، وأن تقديمهما على غيرهما هو الواجب المشروع.

ومن مقدمات البر بهما والأحسان إليهما، الإنفاق عليهما، إذا كانا معسرين، والأم أحق بحسن الصحبة من الأب وأولى منه بالبر حيث لا يتسع مال الإبن إلا لنفقة واحد منهما، وإليه ذهب الجمهور

(١) البخاري (١٠/٣٣٦) ومسلم (٢٥٤٨)

(٢) البخاري (١٠/٣٣٦) ومسلم (٨٥)

(٣) البخاري ٦/٩٧ ومسلم (١٠/٣٣٨) واخرجه أبو داود (٢٥٢٩) والنسائي ٦/١٠

كما حكاه القاضي عياض، وقد حكى الحارث المحاسبي الإجماع على تفضيل الأم على الأب وقيل إنهما سواء، وهو مروى عن مالك وبعض الشافعية[1] [2].

ب- الأولاد والزوجة والخادم

يجب على الرجل نفقة زوجته، وكسوتها بالمعروف، إذا سَلَّمَتْ نفسها إليه ومكّنته من الاستمتاع بها، وقد ثبت وجوب النفقة بالكتاب والسنة والإجماع والقياس، والمعقول.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾[3].

والمراد بهّن الزوجات من الأمهات، وقوله تعالى في حق المطلقات:

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾[4].

وقوله تعالى في حق المطلقات أيضا: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ ﴾[5].

---

(١) انظر: نيل الأوطار/٦/٣٢٧

(٢) انظر آثار البر بالوالدين بالتفصيل في نفس الموضوع في الموسوعة الأم.

(٣) سورة البقرة الآية: (٢٣٣)

(٤) سورة الطلاق الآية: (٧)

(٥) سورة الطلاق الآية: (٦)

وأما السنة، فقد روى جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الله في النساء، فإنهن عَوَانٌ عندكم، أَخذْتموهنّ بأمانة الله، واسْتَحْلَلْتم فُروجهنَّ بكلمة الله، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف»[1].

وعن معاوية القشيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يا رسول الله، ما حَقُّ زوجة أحدنا عليه؟.. قال: «أن تُطعِمَهَا إذا طَعِمْت، وتكسوها إذا اكْتَسَيْت، ولا تَضْرب الوجه، ولا تقبّح، ولا تهجُر إلا في البيت»[2].

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن هند بنت عتبة قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني وولدي إلا ما أخذت وهو لا يعلم، قال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[3].

وأما الإجماع:

فقد انعقد إجماع المسلمين على ذلك من عهد النبي ﷺ إلى الآن، لم يخالف في ذلك أحد.

وأما القياس:

فإنه من القواعد المقررة في الفقه، أن من حبس لحق غيره فنفقته واجبة عليه، ولقد حبست الزوجة نفسها للقيام على البيت ورعاية شؤونه، فحقّت لها النفقة جزاء الاحتباس.

---

(١) صحيح مسلم (٤/٣٩,٤١) الحج، باب حجة النبي ﷺ

(٢) حسن، أخرجه أبو داود (٢١٤٢) وابن ماجة (١٨٥٠) وأحمد (٤/٤٤٧) والنسائي في العشرة (٢٦٩)

(٣) متفق عليه، البخاري (٥٣٦٤) ومسلم (١٧١٤)

وأما المعقول:

فإن المرأة محبوسة على الزوج، يمنعها من التصرف والاكتساب لتفرّغها لحقّه، فكان عليه أن ينفق عليها[1].

والنفقة على الأولاد واجبة على الأب

اتفقت آراء الفقهاء على وجوب نفقة الأولاد على الأب، إذا لم يكن لهم ما ينفق عليهم منه، لا يشاركه في هذه النفقة أحد، واستدلوا على هذا بما يلي:

١- بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾[2] **والمولود له: هو الأب.**

٢- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾[3] **فقد أوجب الله تعالى أجر رضاع الولد على أبيه، وهذا يقتضي مؤونتهم المباشرة من باب أولى.**

٣- وقوله عز ذكره: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾[4]**فمنع الله قتل الأولاد**

---

(١) انظر: نيل الأوطار/٦/ ٣٢٠-٣٢١، والكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لابن قدامة المقدسي/٣/ ٢٤٤، وعقد الزواج وأثاره لمحمد أبو زهرة/٢٥٧-٢٥٨، وفقه السنة للسيد سابق /٢/ ١٥٤ وما بعدها، وصحيح فقه السنة لأبي مالك كمال بن السيد سالم/٣/١٩٨-١٩٩

(٢) سورة البقرة الآية: (٢٣٣)

(٣) سورة الطلاق الآية: (٦)

(٤) سورة الإسراء الآية: (٣١)

خشية الإملاق، وهو الفقر، فلولا أن نفقة الأولاد عليهم لما خافوا الفقر.

٤- وقال النبي ﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها لهند بنت عتبة لما جاءته تشتكي أبا سفيان من قلة نفقته: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[١].

٥- واستدلوا بما روى عن ثوبان أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل دينار ينفقة الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله» فالحديث يحث على النفقة على العيال، وفيه بيان عظم ذلك وفضله.

٦- وجاء في حديث آخر عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت»[٢] وفي رواية «من يعول» ورواه مسلم في صحيحه بمعناه قال: «كفى بالمرء إثما أن يحبس عمّن يملك قوته»[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيع؟» زاد في رواية «حتى يسأل الرجل عن أهل بيته» والأولاد من أهل بيته.

٧- ولأن الأولاد جزء من الأب، وإحياؤهم واجب كإحياء نفسه.

---

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه قريبا

(٢) رواه أبو داود (١٦٩٢) واخرجه أحمد (٢/١٦٠) وصححه الحاكم (١/٤١٥) ووافقه الذهبي، ورواه غيرهم.

(٣) مسلم (٩٩٦)

٨- ولأن نسبهم لا حقٌ له فيكون عليه حق النفقة.

٩- واستدلوا بالإجماع الذي حكاه ابن المنذر بقوله: وأجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم، على أن على المرء نفقة أولاده الأطفال الذين لا مال لهم[(١) ٢].

ولقد جعل رسول الله ﷺ السعي على الصغار كالجهاد في سبيل الله، فعن كعب بن عُجْرَة - رضي الله عنه - قال: مرّ على النبي ﷺ رجل، فرآى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَده ونشاطه فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على وَلَدٍ لَهُ صِغَار فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يُعفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على شيخيْن كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان».[٣]

والنفقة على الخادم واجبة على المخدوم

وتأتي مرتبته بعد الزوجة والأولاد، والمراد به من يعمل طوال نهاره في خدمة مخدومه بأجرة معلومة، وقد تكفل المخدوم بسكنه وإطعامه أيضا.

والنفقة عليه تعتبر صدقة من الصدقات،...

ففي الصحيح الذي رواه أحمد عن المقدام بن معديكرب، يقول ﷺ

---

(١) الإجماع/٩٨

(٢) حقوق الأدب في الإسلام لحميش عبد الحق- المكتبة التجارية- مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ-١٩٩٥م.

(٣) قال في المجمع (٣٢٥/٤): رواه الطبراني في الثلاثة، ورجال الكبير رجال الصحيح

«... وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»[1] وفي الصحيح الذي رواه ابن حبان عن أبي هريرة، يقول ﷺ: لمن قال: عندي دينار آخر، بعد أن تصدق على نفسه وزوجه وأولاده-: «تصدق به على خادمك»[2]

وإنما قدم الخادم على غيره من أولي القربى الباقين، لملازمته لمخدومه وقربه منه والقيام على شؤونه.

هذا وكل ما أنفقه المسلم على نفسه أو والديه أو زوجته أو أولاده أو خادمه فهو صدقة، بل هو خير الصدقات، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، ومنها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك»[3].

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لرجل: «إبدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا، وهكذا»[4] وقوله: «هكذا وهكذا، أي: يمينا وشمالا، كناية عن الصدقة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوما لأصحابه: «تصدّقوا» فقال رجل: يا رسول الله، عندي دينار، قال: «تصدّق به على نفسك» قال:

(١) رواه أحمد بإسناد جيد (١٣١/٤) قال الهيثمي في المجمع (١١٩/٣): رواه أحمد ورواته ثقات

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٣٣٢٦) ورواه غيره

(٣) صحيح رواه أحمد ومسلم (٩٩٥).

(٤) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي.

عندي دينار آخر، قال: «تصدّق به على زوجتك» قال: عندي دينار آخر، قال: «تصدق به على ولدك» قال: عندي دينار آخر، قال: «تصدّق به على خادمك» قال: عندي دينار آخر، قال: «أنت أبصر به»[١].

وفي رواية لابن حبان «أنفق» بدل «تصدق»

وعن المقدام بن معديكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»[٢].

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أنفق على نفسه نفقة يستَعِفُّ بها فهي صدقة، ومن أنفق على امرأته وولده وأهل بيته فهي صدقة»[٣].

وهذا الترتيب السابق في الإنفاق، والذي يبدأ بالوالدين الفقيرين، ثم الزوجة والأولاد، ثم الخادم، يندرج ويتفق مع قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما رواه الشيخان عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلي، وابدأ بمن تعول... الحديث»[٤] فهو العائل لكل من ذكر، وعليه أن يبدأ بهم على الترتيب السابق.

---

(١) حسن، رواه ابن حبان في صحيحه (٣٣٢٦) والحاكم (٤١٥/١) وقال الناجي في العجالة (ق ١٧٠): هذا عجيب، إذ الحديث عند أحمد (٢٥١/٢)، وأبي داود (١٦٩١) والنسائي (٦٢/٥)

(٢) حسن، رواه أحمد بإسناد جيد (١٣١/٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٩/٣): رواه أحمد ورواته ثقات.

(٣) حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٠/٣) رواه الطبراني في الأوسط والكبير بإسنادين أحدهما حسن.

(٤) متفق عليه، البخاري (٢٣٤/٣) ومسلم (١٠٣٤).

(جـ) بقية أولى الأرحام، الأقرب فالأقرب.

عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السُّفْلَى، وابدأ بمن تعول، أُمَّك وأباك، وأخْتَكَ وأخاك، وأدناك فأدناك»[1].

وعلى هذا يكون الترتيب العام في أولي الأرحام كما يلي:

(أ) - الوالدان.

(ب) - الأولاد والزوجة والخادم.

(جـ) - بقية أولي الأرحام، الأخت، والأخ، والعمة والعم، والخالة والخال، ثم الأقرب رحما فالأقرب.

قال العلماء: الأفضل أن يبدأ بذى الرَّحِم المُحَرَّم، كالإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، ويقدم الأقرب فالأقرب، ويلحق بهم الزوج لحديث زينب- رضي الله عنها - امرأة عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه- حيث قال لها رسول الله ﷺ: «زوجك وولدك أحق من تصدقت عليه»[2].

ثم المحرم بالمصاهرة[3].

(١) حديث حسن، قال الهيثميّ في مجمع الزوائد (١٢٠/٣) رواه الطبراني في الكبير، وإسناده حسن.

(٢) متفق عليه، البخاري (٢٥٩/٣) ومسلم (١٠٠٠)

(٣) الفتح الرباني (ترتيب مسند الإمام أحمد) لأحمد عبد الرحمن البنا ١٩٣/٩، وما بعدها

ثالثا: «اليتامى»:

واليتيم هو من فقد أباه وهو دون البلوغ، ويقال لمن فقد أمه: منقطع، كما يقال لمن فقد الأبوان: الَّلطِيم[1].

واليتامى صنف من الضعفاء بين الناس، والضعفاء أحوج الناس إلى الرحمة، وإلى مظاهرها وما تدفع إليه.

واليتامى ضعفاء، فقدوا ظهيرهم ونصيرهم من أعطف الناس وأحناهم عليهم، وفقدوا راعيهم المزوّد فِطريًا بالحنان والعطف عليهم، مع حُبّ غير مشوب غالبا بأخلاط الأنانية والمصلحة الخاصة، ومع رغبة بالتّضْحية والعطاء والفداء، ومع حرص شديد على إبلاغهم مبلغ الرشد والكمال، والنُّضْج والقوة، والدرجات العالية في كل أمر نافع، وفي كل عمل رافع، وفي كل ارتقاء مجيد،..

وإذ يفقد اليتامى راعيهم الحاني فطْرِيًّا عليهم يكونون عرضة للإهمال من جهة، ومطمعا للبغاة من جهة أخرى،...

وبين فكّي الإهمال والطمع يقع اليتامى فريسة ضعيفة تستدرُّ رحمة الرحماء، وتستجلب حنان ذوي الشفقة والرأفة، فهم في وضعهم الذي هم فيه بؤساء، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا،..

من أجل كل ذلك بادرهم الإسلام بالرعاية الجماعية من قبل المجتمع الإسلامي المحيط بهم، تعويضا لهم عما فقدوه، وأوصى

(١) اللسان/١٢/٦٤٥ (مادة: يتم)

برعايتهم والعطف عليهم، والمبالغة في إكرامهم وكفالتهم وحسن تربيتهم وتأديبهم، والمحافظة على أموالهم، وحذّر من استغلال موقف الضعف الذي هم فيه تحذيرا شديدًا[1].

والوصية بإكرام اليتيم وحسن رعايته جاءت بها كل الشرائع السابقة.

قال الله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾[2].

وحين نستعرض النصوص الإسلامية التي تعرضت لأحوال اليتامى، نلاحظ أنها قد اهتمت باليتيم اهتماماً بالغا في كل ما يتعلق به.

ولقد جعل القرآن الكريم الأيتام من أوْلى الناس بالنفقة والبر والإحسان بعد أُولي القربى، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾[3].

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها (حبنكة)/٢/٤٤-٤٥

(٢) سورة البقرة الآية: (٨٣)

(٣) سورة البقرة الآية: (٢١٥)

من ثمرات أكرام اليتيم
وكفالته ورحمته في السُّنَّة المطهرة

أ)- كافل اليتيم مع الرسول ﷺ في الجنة:

روى البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار بالسَّبَّابة والوسطى وَفَرَّجَ بينهما»(١).

ففي هذا الحديث الشريف بشرى عظيمة من الرسول ﷺ لكافل اليتيم أن يكون معه في الجنة، وفي إشارة الرسول ﷺ بأُصْبُعَيْه، إيماء إلى أن كافل اليتيم يكون مجاورًا له في الجنة، كمجاورة أصبع السّبّابة للأصْبع الوسطى، أما التفريج بينهما فقد يكون إيماءً إلى المجاورة بوجه عام، مع ملاحظة الفروق في المنزلة التي تدل عليها نصوص أخرى.

ولكفالة اليتيم هذا الثواب العظيم، سواء أكان اليتيم قريبا للكافل أو غير ذي قرابة له، ولكن هذا التكريم إنما يكون لمن استحق دخول الجنة بالإيمان أخذا بدلالة النصوص الأخرى، وكان لكفالة اليتيم هذه المنزلة في الإسلام، لأنها تُنْبِئُ عن مشاعر الرحمة في قلب من يكفله(٢).

إن كفالة اليتيم واجب اجتماعي تفرضه أحكام الشريعة، وَخُلُق

---

(١) صحيح، رواه البخاري (٦٠٠٥) وأبو داود (٥١٥٠) والترمذي (١٩١٨).

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها ٥٧/٢/

من أخلاق المجتمع المسلم، فاليتيم إذَاَ علم به مَنْ حَوْله دون أن يكفلوه أو يهتموا بشأنه، فكلهم آثمون.

ب- وجوب الجنة لمن ضم يتيما حتى يستغنى

عن زراة بن أبي أوفى، عن رجل من قومه يقال له: «مالك» أو «ابن مالك» أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من ضَمَّ يتيمًا بين مسلميْن، في طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه، وجبت له الجنة... الحديث[1].

ج- لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم:

عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «والذي بعثني بالحق، لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولان له في الكلام، ورحم يتمه وضعفه، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله»[2].

د- الشيطان لا يقرب قصعة يقعد عليها يتيم:

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «ما قعد يتيم مع قوم على قصعتهم فيقرب قصعتهم شيطان»[3].

هـ - لين القلب وإدراك الحاجة لمن رحم اليتيم:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قَسْوَةَ قلبه، فقال: «إمْسَحْ رأس اليتيم وأطعم المسكين»[4].

---

(١) صحيح لغيره، أخرجه أحمد (٣٤٤/٤) بإسناد حسن، وصححه شعيب الأرنؤوط

(٢) رواه الطبراني ورواته ثقات إلا عبدالله بن عامر، وقال أبو حاتم: ليس بالمتروك

(٣) رواه الطبراني وغيره، وقال المنذري: وكان شَيْخنا أبو الحسن يقول: هو حديث حسن

(٤) حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٠/٨) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح

و- خير بيت في المسلمين بيت يُحْسَنُ فيه إلى اليتيم:

خرج ابن ماجة بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحْسَنُ إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُسَاءُ إليه»(١).

ز- المرأة التي تقعد على أيتام لها من أوائل من يدخلون الجنة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أوَّل مَنْ يَفْتَحُ باب الجنة، إلاَّ أَنّي أرى امرأةً تبادرني فأقول لها: مالك ومن أنت؟ فتقول: أنا امرأةٌ قَعَدتُّ على أيتام لي»(٢).

من أحق بكفالة اليتيم؟

إن أولى الناس بكفالة اليتيم أقربهم إليه من جهة العصَبَة، فإن لم يوجد له قريب من عصبته، كفلَه أقرب الناس إليه من جهة رحمه، كجدّه من أمِّه، وخاله، فإن لم يوجد له قريب من جهة أمه، أوصى الحاكم به من يقوم بكفالته، أو ألحقه بدار من دور رعاية الأيتام(٣).

ومن الخير العظيم أن تقوم الدولة أو المؤسسات الإسلامية الخيرية، بإقامة مؤسسات عامة لكفالة الأيتام، مُزَوَّدة بأحدث وأفضل وسائل الحضانة والرعاية والكفالة الجماعية، يشرف عليها مُرَبُّون ومربّيات، يتمتعون بالمؤهلات التربوية العالية، النظريّة والعمليّة،

---

(١) ابن ماجة: كتاب الأدب، باب حق اليتيم (٣٦٧٩)

(٢) حديث حسن، رواه أبو يعلي، وقال المنذري: وإسناده حسن إن شاء الله

(٣) صحيح وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم ١٣٣/٢/

وبذلك يتهيأ للأيتام وسط اجتماعي كريم، بعيد نوعًا مًّا عن مشاعر الحرمان والتفاضل التي يشعر بها الأيتام داخل الأسرة التي تكفلهم.[1]

(١) انظر نفس الموضوع بالتفصيل التام في الموسوعة الأم.

رابعاً: «الفقراء والمساكين»

الفقراءُ والمساكينُ هم أهل الحاجة الذين لا يجدون ما يكفيهم، ويرى الجمهور أن الفقير والمسكين، مثل «الإسلام» و«الإيمان» من الألفاظ التي قال العلماء فيها: إذا اجتمعا افترقا، أي يكون لكل منهما معنى متميزًا عن الآخر، كما في آية مصارف الزكاة، وإذا افترقا اجتمعا، فإذا أُطْلقَ لفظ (الفقراء) دخل فيهم (المساكين) وإذا أطلق لفظ (المساكين) دخل فيهم (الفقراء)[1].

اختلاف الفقهاء في أيهما أشد حاجة من الآخر:

ذهب الشافعية والحنابلة، إلى أن الفقير أشد حاجة من المسكين، واحتجّوا بأن الله تعالى قدم ذكرهم في آية الصدقات، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾[2] وذلك يدل على أنهم أهَمّ، لأن الله بدأ بهم ولا يبدأ إلا بالأهَمّ فالأهمّ، وبقوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ ﴾[3] فأثبت لهم وصف المسْكنة مع كونهم يملكون سفينة ويحصّلون نَوْلاً.

---

(١) انظر: فقه الزكاة /٢/٥٤٤-٥٤٥، وصحيح فقه السنة (أبو مالك)/٢/٦٦

(٢) سورة التوبة الآية: (٦٠)

(٣) سورة الكهف الآية: (٧٩)

وذهب الحنفية والمالكية، إلى أن المسكين أشد حالا من الفقير، واحتجوا بأن الله تعالى قال: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾[1]. وهو المطروح على التراب لشدة جوعه، وبأن أئمّة اللغة قالوا ذلك، منهم الفراء، وثعلب، وابن قتيبة[2].

اختلاف الفقهاء في حدّ كل من الصّنفيْن:

قال الشافعية والحنابلة: الفقير: من لا مال له ولا كسب يقع موقعا من حاجته، كمن حاجته عشرة فلا يجد شيئا أصلا، أو يجد بعض كفايته دون نصفها، والمسكين: هو الذي يجد نصْف كفايته فأكثر، ولا يجد تمام كفايته، كمن يحتاج إلى عشرة فيجد خمسة أو أكثر إلى أقل من عشرة، لأنه لو وَجَدَهَا لكان غنيا.

وقال الحنفية والمالكية: المسكين: من لا يجد شيئا أصلا، فيحتاج للمسألة وتَحِلّ له، واختلفوا في الفقير، فقال الحنفية: الفقير: من له أدنى شيء، وهو مادون النّصاب، فإذا ملك نصابا من أي مال زكويّ فهو غني لا يستحق شيئا من الزكاة، وقال المالكية: الفقير: من يملك شيئا لا يكفيه لقوت عامه[3].

---

(١) سورة البلد الآية /١٦

(٢) انظر: تفسير القرطبي /١٦٨/٨-١٧٠، وتيسير الكريم الرحمن/٢٦٩/٢، والمغني (ابن قدامة) /٢/٦٩٠-٦٩١

(٣) انظر: صحيح فقه السنة (أبو مالك)/٦٦-٦٧، ومصارف الزكاة في الشريعة الإسلامية/٥٦

اهتمام الشرائع بالفقراء والمساكين

وقد اهتمت الشرائع السابقة بالفقراء والمساكين، وقد أخذ الله تعالى الميثاق على بني إسرائيل في ذلك، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

وكذلك فقد اهتم الإسلام بهذا الصنف من الضعفاء اهتماما بالغا، فقد جعلهم، أَوَّل الأصناف الثمانية المستحقون للزكاة المفروضة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾[2] والمسكين يطلق عليه (فقير) أيضا.

كما جعلهم أولى الناس بالنفقة والبر والإحسان بعد ذوي القربى واليتامى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾[3].

---

(١) سورة البقرة الآية: (٨٣)

(٢) سورة التوبة الآية: (٦٠)

(٣) سورة البقرة الآية: (٢١٥)

وفي قوله جل شأنه: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[1].

وقوله عز ذكره: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

وقوله جل ثناؤه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾[3].

وأخبر القرآن العظيم أن من صفات أهل البر والتقوى والإيمان الكامل إيتاء المال على حبه للمساكين، قال تعالى: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ

---

(١) سورة البقرة الآية: (١٧٧)

(٢) سورة النساء الآية: (٣٦)

(٣) سورة الإسراء الآية: (٢٦)

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾[1].

وَحَضَّ القرآن الكريم في ابتداء الإسلام على إعطاء المساكين إذا حضروا قسمة الميراث شيئا منْه يكون برًّا بهم وإحسانا إليهم وجبرًا لكسرهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٨﴾[2].

وكان ذلك واجبا في ابتداء الإسلام، وقيل يستحب، والجمهور على أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾[3] وعن مجاهد قال: هي واجبة على أهل الميراث ما طابت بها أنفسهم، وكذا روى عن ابن مسعود وأبي موسى وعبدالرحمن ابن أبي بكر وجماعة من التابعين[4].

وجعل القرآن الكريم إطعام المسكين فدية للصحيح المقيم إذا أفطر، على ما كان عليه أمر الصيام في ابتداء الإسلام، إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا، قال تعالى: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾[5].

---

(١) سورة البقرة الآية: (١٧٧)

(٢) سورة النساء الآية: (٨)

(٣) سورة النساء الآية: (١١)

(٤) انظر: تيسير العلي القدير/٣٥٥

(٥) سورة البقرة الآية: (١٨٤)

ثم نزل بعد ذلك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾[1] فأثبت الله صيام رمضان فرضا على الصحيح المقيم.

كما جعل القرآن الكريم كفارة اليمين المنْعقدة إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾[2].

وحكم القرآن الكريم على من قتل الصيد متعمدا في حال الإحرام إطعام مساكين كفارة له إن لم يجد مثل ما قتل من النعم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾[3]. فيطعم ستة مساكين، لكل مسكين مدَّين.

---

(١) سورة البقرة الآية: (١٨٥)

(٢) سورة المائدة الآية: (٨٩)

(٣) سورة المائدة الآية: (٩٥)

وقد أبان القرآن الكريم أن إطعام المسكين سبيل عظيم من سبل اقتحام العقبة، وهي الطريقة التي فيها النجاة والخير قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾[1].

وقدر لهم القرآن العظيم نصيبا من الغنيمة والفيء، أَمَّا في الغنيمة ففي قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾[2].

وَأَمَّا في الفيء ففي قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾[3].

وأمر الله تعالى أولي الفضل والسعة ألا يقطعوا النفقة عن المساكين حتى ولو أخطأوا، كما أمرهم بالعفو والصفح عنهم، قال

---

(١) سورة البلد الآية: (١١-١٨)

(٢) سورة الأنفال الآية: (٤١)

(٣) سورة الحشر الآية: (٧)

تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1] ونزلت هذه الآية الكريمة بعد حادثة (الإفك) على السيدة المطهرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها والمبرّأة من فوق سبع سماوات، فقد كان من جملة الخائضين في الإفك مِسْطَح بن أثاثة، وهو قريب لأبي بكر فأقسم أبو بكر أن لا ينفق عليه لقوله الذي قال، فنزلت هذه الآية الكريمة، ينهاه الله فيها عن الحلف المتضمن لقطع النفقة ويحثه على العفو والصفح ويعِدُهُ بمغفرة الله إنْ غفَر له، فقال أبو بكر لما سمع هذه الآية، بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، وأعاد النفقة إلى مسطح.

وإطعام المسكين والشفقة عليه صفة من صفات الأبرار:

أولئك الذين قال الله تعالى في شأنهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾[2].

وقد حفلت السنة المباركة، بأحاديث كثيرة تحض على إطعام الفقراء والمساكين، وتبين أثر ذلك في الدنيا والآخرة.

من ذلك قوله ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي

---

(١) سورة النور الآية: (٢٢)

(٢) سورة الإنسان الآية: (٨-١٢)

ﷺ أنه قال: «الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «وكالقائم الذي لا يفتَر، وكالصائم الذي لا يفطر»[(١)].

فانظر أيها المؤمن الكريم. كيف جعل رسول الله ﷺ ثواب الساعي على الأرملة والمسكين، كثواب المجاهد في سبيل الله، والمتهجد الذي لا يَفْتَر، والصائم الذي لا يُفْطِر، إنه كالملازم للعبادة ليلا ونهارًا.

ومن مكرمات إطعام المسكين ذهاب قسوة القلب:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: «إذا أردت أن يلين قلبك، فأطعم المسكين، وأمسح رأس اليتيم»[(٢)].

وقد بشَّر الرسول ﷺ المساكين بأنهم أكثر من يدخلون الجنة:

فعن أسامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قمتُ على باب الجنة، فإذا عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجَدِّ - الغنى- محبوسون...» الحديث[(٣)].

تشديد القرآن العظيم على من حرم المسكين حقه:

أ- جعل الله عقاب من حلف على حرمان المسكين من حقه في الزرع، هلاك المحصول كله، قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ

(١) متفق عليه، البخاري (١٠/٣٦٦) ومسلم (٢٩٨٢)

(٢) الصحيحه /٨٥٤

(٣) متفق عليه، البخاري (١١/٣٦١) ومسلم (٢٧٣٦)

﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾[1] فحرموا خَيْر جنتهم كلها عقابا لهم على قَسَمهم بحرمان المساكين من حقهم، حيث قالوا: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾[2].

ب- نَبَّهَ القرآن الكريم على أن عدم إطعام المسكين وعدم الحض على ذلك من صفات أصحاب الشمال الذين يؤتون كتابهم بشمالهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾[3].

ج- وأشار القرآن العظيم إلى أن عدم إطعام المسكين عمل من أعمال المجرمين أصحاب الجحيم، قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾[4].

---

(١) سورة القلم الآية: (١٧-٢٠)

(٢) سورة القلم الآية: (٢٤)

(٣) سورة الحاقة الآية: (٢٥-٣٧)

(٤) سورة المدثر الآية: (٣٨-٤٨)

د- وأرشدنا القرآن الكريم إلى أن عدم إطعام المسكين وعدم الحضّ على ذلك يكون سببا في اللوم والعذاب المهين قال تعالى:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ (١٦) كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ (٢٦)﴾[١].

هـ- وأشهدنا القرآن العظيم أن عدم إطعام المسكين وعدم الحض على ذلك صفة من صفات الكافرين المكذبين بيوم الدين، قال تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣)﴾[٢].

و- أخبرتنا السنة المباركة أن شر الولائم، هي تلك التي لا يدعى إليها الفقراء والمساكين، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «بئس الطعام، طعام الوليمة، يُدْعَى إليها الأغنياء ويترك الفقراء»[٣].

---

(١) سورة الفجر الآية: (١٥-٢٦)

(٢) سورة الماعون الآية: (١-٣)

(٣) متفق عليه، البخاري (٢١١/٩) ومسلم (١٤٣٢)

أرأيت أيها المؤمن إلى أي حد بلغ القرآن العظيم في الثناء على من يكرمون المسكين ويطعمونه، وإلى أي حد بلغ في السّخط على من لا يكرمون المسكين ويمنعونه حقه المعلوم..

إن في ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

خامساً: «الجار»

قال الله تعالى: ﴿والجار ذى القربى والجار الجنب... الآية﴾ بعد ذكر المساكين، إن الدين الإسلامي الحنيف، يَهْدِف في تعاليمه الدينية إلى تنمية الروابط الإجتماعية، ويحرصُ كل الحرص على تقوية الصلات الإنسانية، ليحفظ للأمة الإسلامية تماسكها ووحدتها، وذلك في إطار كريم من الأخوة الإيمانية، كما قال ربنا عز ذكره: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[1] وفي صورة الجسد الواحد، كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2] وعلى هيئة البناء الواحد، كما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[3] وفي ظل الرحمة التي تواصوا بها فيما بينهم، كما قال جل ثناؤه، في حقهم: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾[4].

ومع التعاون على البر والتقوى كما أمرهم ربهم عز وجل فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾[5]. تجمعهم الولاية الإيمانية التي أخبر

---

(١) سورة الحجرات الآية: (١٠)

(٢) متفق عليه، البخاري (١٠/٣٦٧) ومسلم (٢٥٨٦)

(٣) متفق عليه، البخاري (١٠/٣٧٦) ومسلم (٢٥٨٥)

(٤) سورة البلد الآية: (١٧-١٨)

(٥) سورة المائدة الآية: (٢)

عنها العزيز الرحيم فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[١].

ومن أهم الروابط التي تقوي الصلات بين المسلمين في نظر الإسلام رابطة الجوار، فبِهَا تنْعقد المودّات، وتتوثّق الروابط الاجتماعية بين المسلمين وتتأكد ظاهرة من ظواهر الجسدية الواحدة بين سائر المؤمنين، والجوار أمر لا يستغنى عنه الإنسان، وضرورة لازمة لابد منها، وظاهرة من ظواهر المجتمع، وطبيعة من طبائع البشر، فلا يستغني عنه أحد من الناس مهما كانت عظمته وغناه.

فالجار أول من يجيبك إذا ناديت، وأول من يلبيك إذا دعوت، وأول من يغيثك إذا استغثت، فلو دَاهَمتْك كارثة بالليل، أو رَوَّعتْك حادثة بالنهار، أوشَبَّ في بيتك نار لا قدّر الله، أو هجمت عليك اللصوص والأعداء، كان في أول المنقذين لك، وفي طليعة المغامرين من أجلك، جارك يستنفر الناس لنجاتك، ويصيح بهم أن ينقذوك، مضحّيا بنفسه وقوّته، ناسيا أهله وماله، وكل ذلك في سبيل إنقاذك من هذا الحادث الأليم، لهذا فقد أحاط الإسلام رابطة الجوار بما يحفظ بقاءها، ويصون حقوقها، ويرفع قدرها ومنزلتها، وجعلها في مرتبة سامية، تعلو فوق العواطف والاعتبارات، وحقًّا مَشَاعًا بين عامة الطبقات،

---

(١) سورة التوبة الآية: (٧١)

وواجبًا مقررًا لكل المواطنين، وشِرْعَةً مقدسة بين سائر المجاورين، بلا تفرقة في جنس أو دين، فالجار المسلم وغير المسلم، لكل منهما حق الجوار(١).

الوصية بالإحسان إلى الجار في كتاب الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾(٢).

ففي هذه الآية الكريمة يوصي الحق سبحانه وتعالى بالإحسان إلى الجار ذي القربى وإلى الجار الجنب، والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حُسْن العشرة، وكفّ الأذى، والمحامَاة دونه(٣).

المراد من الجار ذي القربى والجار الجنب:

الجار ذو القربى:

هو الجار الذي بينه وبين جاره قرابة رحم.

والجار الجنب:

هو الجار الذي ليس بينه وبين جاره قرابة رحم، وهذا ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما وجمهور العلماء، وهو كذلك في اللغة،

---

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها (حبنكة)/٢/٦٣، وديوان بغية الخطباء والواعظين/١/٥٠١-٥٠٢

(٢) سورة النساء الآية: (٣٦)

(٣) تفسير القرطبي/٥/١٨٤

ومنه فلان أجنبي، إذا لم تكن له قرابة، وقال نوف الشامي: الجار ذو القربى: المسلم، والجار الجنب: اليهودي والنصراني[1].

وهناك رأي آخر للعلماء يرى أن الجار ذا القربى: هو الجار القريب، أي الذي تكون داره قريبة من دار جاره، وعلى هذا التفسير، فالجار الجنب: هو الذي تكون داره مجانبة ليست بملاصقة، لكن عُرْف الناس يقضي بأنهما متجاوران، كالدور التي تكون في حارة واحدة، أو زقاق واحد، أو قرية صغيرة.

والأصح هو ما ذهب إليه ابن عباس، ولهذا فإنه يقدم الجار ذو الرحم في العطاء ولو كانت داره بعيدة، على الجار غير ذي الرحم.

وهذا ما تدل عليه نصوص الشريعة، كقوله ﷺ: «والذي بعثني بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته، ويصرفها إلى غيرهم، والذي نفسي بيده، لا ينظر الله إليه يوم القيامة»[2].

حَدُّ الجِيرَة: اختلف الناس في حَدّ الجيرة، فكان الأوزاعُي يقول: أربعون دارا من كل ناحية، وقالهُ ابن شهاب، وقاله الحسن البصري، وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من سمع النداء فهو جار، وقالت فرقة: من سمع إقامة الصلاة فهو جار ذلك المسجد، وقالت فرقة: من سَاكَنَ رجلا في مَحَلَّة أو مدينة فهو جار، قال الله تعالى: ﴿ لَّئِن

(١) انظر: تفسير ابن كثير / الجزء الثاني / ٢٩٨

(٢) رواه الطبراني ورواته ثقات، (انظر: الترغيب والترهيب/١/٦٨٣)

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾[١] فجعل الله تعالى اجتماعهم في المدينة جوارًا[٢].

حقوق الجوار:

قال ﷺ: «الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حَقَّان، وجار له ثلاثة حقوق، فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم، وأما الذي له حقان: فالجار المسلم، له حق الجوار، وحق الإسلام، وأما الذي له حق واحد: فالجار المشرك»[٣]

الوصية بالإحسان إلى الجار في سنة رسول الله ﷺ:

عن ابن عمر وعائشة - رضي الله عنهما- قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أن سيورثه»[٤] فهذا الحديث الشريف يشعر بقوة حق الجار على جاره، حتى قارب أن يكون بمنزلة الأقربين الذين فرض الله لهم حقوقا في الميراث.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إذا طبخت مرقة[٥] فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك»[٦] فحض رسول الله ﷺ على

---

(١) سورة الأحزاب الآية: (٦٠)

(٢) تفسير القرطبي/٥/١٨٤

(٣) رواه الطبراني بإسناد لا بأس به، (الترغيب ٣٧٧٩).

(٤) متفق عليه، البخاري (١٠/٣٦٩) ومسلم (٢٦٢٤)

(٥) أي ذا مرق من لحم ودجاج ونحوهما

(٦) رواه مسلم (٤/٢٠٢٥)

مكارم الأخلاق، لما يترتب عليها من المحبة، وحسن العشرة ودفع الحاجة والمفسدة، فإن الجار قد يتأذى بريح قِدْرِ جاره وما يُطْبَخُ أو يُشْوى فيه، وربما تكون له ذرية وهو فقير، فتُهَيَّجُ شهوتهم للطعام ويتألمون لعدم القدرة على طبخ مثله، وفي هذا عذاب لهم. ولذا فقد كانت السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - تهدي الى جيرانها، وتسأل الرسول ﷺ فيمن هو أحق بالإهداء، فعنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله إن ليَ جارَيْن فإلى أيهما أَهْدِي؟ قال: إلى أقربهما منك بابا»[1].

فالسيدة عائشة رضوان الله عليها- سألت النبي ﷺ عمن تبدأ به من جيرانها في الهدية، فأخبر أن من قرُب بابه فإنه أولى بها من غيره، وهذا إذا تساوى الجيران في الحقوق، وإلا فإنه يقدم المسلم ذي الرحم، على المسلم، والمسلم على غير المسلم، والله أعلم.

ومن المستحب في الهدية أن تكون لائقة بالمُهْدَى إليه على قدر المُهْدِي، فلا يُهْدَى النَّزر اليسير المحتقر، لقوله ﷺ: «ثم انظر أهل بيتٍ من جيرانك فَأَصِبْهَم منها بمعروف» أي: بشيء يهدي عرفا، فإن القليل وإن كان مما يهدي فقد لا يقع ذلك الموقع، فلو لم ييسر إلا القليل فليهده ولا يحتقره، وعلى المهدى إليه قبوله[2] لقوله ﷺ «يا نساء المسلمات لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة»[3] وفرسن شاة: ظلف شاة، وهو عظم قليل اللحم جدّا.

(١) البخاري (١٠/٣٧٤) وأخرجه أبو داود (٥١٥٥)

(٢) تفسير القرطبي/٥/١٨٦.

(٣) متفق عليه البخاري)١٠/٣٧٢) ومسلم (١٠٣٠).

ومن الوصية بالجار قوله ﷺ: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره» ثم يقول أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مالي أراكم عنها معرضين والله لأرْمِيَنّ بها بين أكْتَافكُم»[1] أي بينكم، والمقصود من الحديث الشريف: تيسير قضاء مصلحة الجار في كل الأحوال الممكنة بشرط ألا يترتب على ذلك ضرر، والأصح أن ذلك جاء على سبيل الندب إلى برّ الجار والإحسان إليه، وليس ذلك على الوجوب، بدليل قوله ﷺ: «لا يحل مال أمرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه»[2].

وللجار في الأخلاق الإسلامية حق «الشفعة» في العقار، حتى رآه بعض الفقهاء حقا لازما يحكم به قضاء، وحق الشفعة هو: حق الشريك في ملك عقار، إذا أراد الشريك أن يبيع حصته، فهو أحق بشرائها ممن عداه، بالقيمة التي يتم الاتفاق مع الغير على بيعها له، هذا ما يسمى بحق الشُّفعة، ويحكم به قضاء إذا تَمَّ البيع لشخص آخر غير الشريك في ملك العقار الواحد، وحق الشفعة هذا قد قرره بعض الفقهاء المجتهدين للجار الملاصق على جاره، وهذا يدخل في عموم الإحسان إلى الجار[3].

ومن الوصية بالجار قوله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعانا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم»[4].

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣٧٢/١٠) ومسلم (١٠٣٠).

(٢) أنظر تفصيل ذلك في تفسير القرطبي/١٨٦/٥-١٨٨.

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها (حبنكة)/٥٩/٢

(٤) حديث حسن، رواه الطبراني والبزار، الترغيب (٣٧٨)

مجمل سبل الإحسان إلى الجار:

حَقُّ الجار على جاره إذا سأله أن يعطيه، وإذا استعانه أن يعينه، وإذا استقرضه أن يقرضه، وإذا افتقر أن يوسع عليه، وإذا مرض أن يعوده، وإذا مات أن يتتبَّع جنازته، وألا يستطيل عليه بالبنيان فيحجب عنه الريح إلا بإذنه، وألا يؤذيه بريح قِدْرِه إلا أن يغرف له منها، ولا يَتَطلَّع على عوراته، ولا يتبع النظر فيما يحمله إلى داره، وأن يستر عيوبه ولا يذكرها لأحد، وألا يؤذيه بأي لون من ألوان الإيذاء.

من ثمرات الإحسان إلى الجار

أ - الإحسان إلى الجار دليل على الإيمان وعلامة عليه:

قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بِهِنَّ أو يُعَلِّم من يعمل بهنَّ»؟

قال أبو هريرة: قلت أنا رسول الله، فأخذ بيده فَعَدَّ خَمْسًا فقال: «إتّـق المحارم تكن أعْبَدَ الناس، وأرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»[1].

وعن أبي شُرَيْح الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت»[2]رواه مسلم بهذا اللفظ، وروى البخاري بعضه.

ب - الإحسان إلى الجار من موجبات رحمة الله تعالى ودخول الجنة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجل يا رسول الله: إن فلانةً يذكر من قِلَّة صيامها وصلاتها، وأنها تتصدق بالأَثْوَار من الأَقِط، ولا تؤذي جيرانها، قال: «هي في الجنة»[3].

---

(١) حديث حسن، صحيح الترمذي (١٨٧٦) وصحيح الجامع الصغير (١٠٠) والصحيحة (٩٣٠)

(٢) متفق عليه، البخاري (١٠/٣٧٣) ومسلم (٤٨)

(٣) رجاله ثقات، رواه أحمد وغيره، وانظر المجمع (٨/١٦٨، ١٦٩) والأثوار من الأَقِطّ: قطع الجبن

جـ - الإحسان إلى الجار والصبر على أذاه طريق إلى محبة الله تعالى:

عن مطرف بن عبدالله قال: بلغني عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث، فكنت أحب أن ألقاه فلقيتُه، فقلت له: يا أبا ذر: بلغني عنك حديث فكنت أحب أن ألقاك فأسألك عنه، فقال: قد لقيت فاسأل، قال: قلت: بلغني أنك تقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ثلاثة يحبهم الله عز وجل وثلاثة يبغضهم الله عز وجل» قال: نعم، فما أخالني أكذب على خليلي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثلاثا يقولها - قال: «رجل غزا في سبيل الله فلقيَ العَدُّو مُجَاهدًا محتسبا فقاتل حتى قتل، وأنتم تجدون في كتاب الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾[1]، ورجل له جار يؤذيه فيصبر على أذاه ويحتسبه، حتى يكفيه الله إياه بموت أو حياة، ورجل يكون مع قوم فيسيرون حتى يشق عليهم الكرى أو النعاس فينزلون في آخر الليل، فيقوم إلى وضوئه وصلاته» قال: قلت: من الثلاثة الذين يبغضهم الله؟ قال: الفخُور المختال، وأنتم تجدون في كتاب الله عز وجل: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾[2]، والبخيل المنَّان، والتَّاجر الحلاَّف»[3].

---

(١) سورة الصف الآية: (٤)

(٢) سورة لقمان الآية: (١٨)

(٣) حديث صحيح، أخرجه أحمد برقم (٢١٤٢٢)

د- المحسن إلى جاره هو خير الجيران عند الله تعالى:

عن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره»[١].

هـ- الجار الصالح من سعادة الدنيا والآخرة:

عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من السعادة، المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء.. الحديث»[٢].

عقوبة الإساءة إلى الجار:

أ- المسيء إلى الجار إيمانه ناقص:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: مَنْ يَا رسُول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائِقَه»[٣] أي: لا يأمن جاره شروره وغوائله.

ففي هذا الحديث الشريف بيان مشدّد يتضمّن التحذير البالغ من إيذاء الجار، حتى كاد يكون إيذاء الجار مُخْرجًا من الإيمان، أو علامة على فقد الإيمان، لأن من أوصاف المؤمن أن يكون مأمون الجانب،

(١) رواه الترمذي وحسّنه (١٩٤٥) وأخرجه أحمد (٢/١٦٨) وإسناده صحيح، وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، وهو في الترغيب برقم (٣٧٩٤)

(٣) متفق عليه، البخاري (١٠/٣٧٠) ومسلم (٤٦)

فكيف بالذي لا يأمن جاره شروره وآذاه[(١)].

ب- الإساءة إلى الجار تدخِلُ النار وتحرم من الجنة:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار»[(٢)].

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المؤمن من أمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر السوء، والذي نفسي بيده، لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه»[(٣)].

هـ - المسيء إلى جاره يعاقب عقوبة مضاعفة:

عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرام، حرمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، قال: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأن يزني الرجل بعشرة نسوة، أيسرُ عليه من أن يزني بحليلة جاره» قال: «فما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال: لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات، أيسرُ عليه من أن يسرقَ من جاره»[(٤)].

فالزنا بحليلة الجار من أعظم الذنوب، فعن عبدالله بن مسعود

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها /٢/٦٠-٦١

(٢) رجاله ثقات رواه أحمد وغيره، وهو جزء من حديث سبق في ثمرات الإحسان إلى الجار

(٣) إسناده جيد، رواه أحمد بإسناد جيد وأبو يعلي والبزار، الترغيب (٣٧٦٨)

(٤) رواه أحمد، ورواته ثقات، وهو في الترغيب برقم (٣٧٦١)

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألتُ، أو سُئلَ النبي ﷺ: أيُّ الذنب عند الله أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نِدًّا وهو خَلقَكَ» قلت: ثم أي؟ قال: «ثم أن تقتل ولدك خشية الإطعام منك» قلت: ثم أي، قال: «أن تزني بحليلة جارك»(١).

د - المسيء إلى جاره، أحد الفواقر الثلاثة:

عن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة من الفواقر: إمَام إن أحسنْتَ لم يشكر، وإن أسأت لم يغفر، وجار سوء، إن رآى خيرًا دفنه، وإن رآى شرًّا أذاعه، وامرأة إن حضرْت آذتْك، وإن غبت عنها خانتك»(٢)والفواقر: الدواهي، واحدتُها (فاقرة) كأنها تحطم فقار الظهر(٣).

هـ - المسيء إلى جاره مستحق للتشهير به أمام الناس:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال له: اذهب فاصبر، فأتاه مرّتين أو ثلاثا، فقال «اذهب فاطرح متاعك في الطريق» ففعل، فجعل الناس يمرون ويسألونه، فيخبرهم خبر جاره، فجعلوا يلعنونه، فعل الله به وفعل، وبعضهم يدعو عليه، فجاء إليه جاره فقال: إرجع فإنك لن ترى مني شيئا تكرهه(٤).

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب التفسير (٢٥) سورة الفرقان، برقم (١٩٦٢)

(٢) رواه الطبراني بإسناد لا بأس به، وهو في الترغيب برقم (٣٧٧٩)

(٣) اللسان /٥/ ٦٤

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه، وهو في الترغيب (٣٧٧٢)

بالجيران تغلو الديار وترخص:

كان العرب في الجاهلية والإسلام يحمون الذّمار، ويتفاخرون بحسن الجوار، وعنْدهم، على قدر حُسْن الجوار ثمن الدار، حتى قال قائلهم في أبيات الشعر:

يقولون لي بعت الديار رخيصة

ولم تك محتاجاً ولا أنت مفلسُ

فقلتُ لهم كفوا الملامة واقصدوا

بجيرانها تعلو الديار وترخصُ

وبلغ ابن المقَفّع أن جارًا له يبيع داره في دين ركبه، وكان يجلس في ظل دار جاره هذا، فقال: ما قمتُ إذًا بحرمة ظل داره إن باعها معدما، فدفع إليه ثمن الدار وقال لا تبعها، والقصص في مثل هذا كثير.

اللحوم التي نطعم منها غير المسلمين:

قال العلماء: الأحاديث في إطعام الجار جاءت مطلقة غير مقيدة، حتى الكافر، وفي الخبر، قالوا يا رسول الله ﷺ: أنطعمهم من لحم النُّسُك؟ قال: «لا تطعموا المشركين من نسك المسلمين» ونهيه ﷺ عن إطعام المشركين من نسك المسلمين، يحتمل النسك الواجب في الذمّة الذي لا يجوز للناسك أن يأكل منه ولا أن يطعمه الأغنياء، فأما غير الواجب الذي يجزيه إطعام الأغنياء فجائز أن يطعمه أهل الذمة، قال النبي ﷺ لعائشة- رضي الله عنها- عند تفريق لحم الأضحية:

«ابدئي بجارنا اليهودي» وروى أن شاة ذبحت في أهل عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما- فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ - ثلاث مرات- سمعت رسول الله ﷺ يقول مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1].

---

(١) تفسير القرطبي/٥/١٨٨

سادسا: الصاحب بالجنب

قال الله تعالى: ﴿والصاحب بالجنب... الآية﴾ بعد ذكر الجار، والصاحب بالجَنْب هو الرفيق في السفر، قال سعيد بن جبير: هو الرفيق الصالح، وقال زيد بن أسلم: هو جليسك في الحضر ورفيقك في السفر، أي: فإنه كالجار، وأوضحه الزمخشري بقوله: هو الذي صحبك بان حصل بجنبك، إما رفيقا في سفر، وإما جارًا ملاصقا، وإما شريكا في تعلّم علْمٍ أو حرْفَة، وإما قاعدًا إلى جنبك في مجلس أو مسجد أو غير ذلك، من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه، وقال علي وابن مسعود وابن أبي ليلي: «الصاحب بالجنب» الزوجة، أي: لأنها تكون معك وتضطجع إلى جنبك، والأول أصح، وهو قول ابن عباس وابن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك.

وقد تَتَنَاوَلُ الآية الجميع بالعموم، قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: ولعله الأوْلى.

فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له، والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنْشَطِ والمكْره، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحبة تأكد الحق وزاد..

وأسند الطبري أن رسول الله ﷺ كان معه رجل من أصحابه وهما على راحلتين، فدخل رسول الله ﷺ غَيْضَة[1] فقطع قَضِيبَيْن أحدهما

(١) الغَيْضَة: الأَجِمّة ومجتمع الشجر في مغيض ماء.

مُعْوَجّ، فخرج وأعطى لصاحبه القويم، فقال: كنت يا رسول الله أحق بهذا، فقال: «كلا يا فلان، إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسؤول عن صحابته ولو ساعة من نهار».

وقال ربيعة بن أبي عبدالرحمن: للسفر مُرُوءَة وللحضر مروءة، فأما المروءة في السفر، فَبْذل الزَّاد، وقِلَّة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساخط الله.

وأما المروءة في الحضر، فالإدمان إلى المساجد، وتلاوة القرآن، وكثرة الإخوان في الله عز وجل.

ولبعض بني أسد، وقيل إنها لحاتم الطائي:

إذا ما رفيقي لم يكن خلف ناقتي

له مركب فضلا فلا حملت رجلي

ولم يك من زادي له شطر مزودي

فلا كنت ذا زاد ولا كنت ذا فضل

شريكان فيما نحن فيه وقد أرى

عليّ له فضلا بما ناله من فضلي[1]

فانظر أخا الإسلام كيف جعل الإسلام لمجرد الصحبة بالجنب في حضر أو سفر أو تعلم علم أو حرفة أو الاشتراك في مَهَمَّة أو أي

---

(١) انظر في الموضوع: تفسير الطبرى/٤/الجزء٥/ ٨٠-٨٢ وتفسير القرطبي/٥/١٨٨-١٨٩، وتفسير القاسمى/٢/٢٩٣، وتيسير العلي القدير /١/٣٧٩

عمل من الأعمال، هذا الحق الكريم في الإحسان وحسن الصحبة، إنها رحمة الإسلام وعظمته وسموه، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

سابعاً: ابن السبيل

قال الله تعالى: ﴿وابن السبيل... الآية﴾ بعد ذكر الصاحب بالجنب، وقوله: ﴾ابن السبيل﴿ أي ابن الطريق، والسبيل: الطريق، وقيل للضارب فيه (ابن السبيل) للزُومِة إياه، كما قال الشاعر:

أنا ابن الحرب ربتني وليداً

إلى أن شئت واكتهلت لداتي

وكذلك تفعل العرب، وتسمى اللازم لشيء يعرف به (ابنه)[1] وقال بعضهم في ابن السبيل:

ومنسوب إلى ما لم يلده

كذاك الله نزّل في الكتاب

فنسب المسافر الغريب إلى الطريق لمروره عليه وملابسته له.

فابن السبيل: هو المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله، وهو يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلَّغُ به[2].

ويرى الشافعي أنه يدخل في (ابن السبيل) المنشِئُ للسفر من بلده، ولكن معنى ابن السبيل في الآية لا يحتمل هذه الوجهة[3] ولم يذكر السلف من المفسرين وأهل اللغة (السائل) في معنى (ابن السبيل)

---

(١) فقه الزكاة (القرضاوي)/٢/٢٧٠

(٢) انظر: تفسير القاسمي/٢/٢٩٣

(٣) مصارف الزكاة الشرعية/١١٨-١١٩

لأنه جاء تابعا لابن السبيل في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾[١].

فابن السبيل له حق على المسلمين، لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده، ولو كان غنيا في وطنه، وبإكرامه وتأنيسه، وقد جاء التنصيص على أحقيته في الزكاة المفروضة، آخر الأصناف الثمانية التي تصرف لها الزكاة بعد الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾[٢].

العناية بابن السبيل في القرآن الكريم:

وقد ذكر القرآن هذا اللفظ (ابن السبيل) في معرض العطف عليه والإحسان إليه ثمان مرات،..

(١) سورة البقرة الآية: (١٧٧)

(٢) سورة التوبة الآية: (٦٠)

والسر في عناية القرآن الكريم بهذا النوع، أن دين الإسلام قد دعا إلى السياحة ورغّبَ في السفر، والسير في الأرض لأسباب كثيرة:

١- فهناك سياحة دعا إليها الإسلام لابتغاء الرزق، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[1]. **وقال ﷺ: «سافروا تستغنوا»[2].**

٢- وهناك سياحة دعا إليها لطلب العلم، والنظر، والاعتبار بآيات الله في الكون، وسننه في الخلق عامة، وفي الاجتماع البشري خاصة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾[3] **والآيات في ذلك كثيرة.**

وقال الرسول ﷺ: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة،...»[4]وقال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[5].

٣- وهناك سفر دعا إليه الإسلام للجهاد في سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[6].

---

(١) سورة الملك الآية: (١٥)

(٢) الترغيب والترهيب /٢(كتاب الصوم) قال: رواه الطبراني في الأوسط ورواته ثقات.

(٣) سورة العنكبوت الآية: (٢٠)

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩)

(٥) رواه الترمذي (٢٦٨٧) وقال حديث حسن، وأخرجه إبن ماجة (٤١١٢) وسنده حسن

(٦) سورة التوبة الآية: (٤١)

٤- وهناك سفر دعا إليه الإسلام لأداء عبادته العالمية المتميّزة (الحج) إلى بيت الله الحرام، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾[1].

فهذه أنواع من السفر دعا إليها الإسلام، وهناك أنواع أخرى[2].

والعناية بابن السبيل هي:

لون من ألوان التكافل الاجتماعي ليس له نظير في الأمم والأنظمة:

إن عناية الإسلام بالمسافرين الغرباء والمنقطعين لهي عناية فذَّة، لم يعرف لها نظير في نظام من الأنظمة أو شريعة من الشرائع، وهي لون من ألوان التكافل الاجتماعي فريد في بابه.

وفي الواقع العملي نجد ابن سعد يروي لنا أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اتخذ في عهده دارا خاصة أطلق عليها «دارُ الدَّقيق» وذلك أنه جعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يُحْتَاجُ إليه، يُعينُ بِهِ المنْقَطع بهِ، والضيف ينزل (بعمر) ووضع عمر في طريق السبيل ما بين مكة والمدينة ما يُصلِح من يُنْقطَع به، ويحمل من ماء إلى ماء، وفي عهد عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدثنا أبو

(١) سورة آل عمران الآية: (٩٧)

(٢) انظر: فقه الزكاة (القرضاوي) ٢/ ٦٧٠-٦٧٤

عبيد أنه أمر الإمام ابن شهاب الزهري أن يكتب له السُّنَّة في مواضع الصدقة، أي: ما يحفظه من سنة الرسول ﷺ أو سنة الخلفاء الراشدين في المواضع التي تصرف فيها الصدقة، فكتب له كتابا مطولا، قسَّمَهَا فيه سَهْما سَهْما ومما جاء في الكتاب عن ابن السبيل قوله:

وسهم ابن السبيل يُقَسَّم لكل طريق على قدر من يسلكها ويمر بها من الناس، لكل رجل راحل من ابن السبيل، ليس له مأوى ولا أهل يأوى إليهم، فُيْطعَمُ حتى يجد منزلا أو يقضي حاجته، ويُجْعَلُ في منازل معلومة على أيدي أمناء، لا يمر بهم ابن السبيل له حاجة إلا آووه وأطعموه، وعَلَفُوا دابّته، حتى ينفد ما بأيديهم، إن شاء الله، فهل رأت البشرية رعاية لذوي الحاجات مثل هذه الرعاية في نظام غير نظام الإسلام، أو في أمة غير أمة الإسلام؟[1].

---

(1) انظر: المرجع السابق/٦٧٢-٦٧٥

ثامناً : «وما ملكت أيمانكم»

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[1].

وقال جل شأنه في سورة النساء: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2].

وقال عز ذكره في سورة التوبة: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾[3].

فهذه الآيات الكريمة توصي بالإحسان إلى الأرقاء من عبيد وإماء، لأن الرقيق ضعيف الحيلة، أسير في أيدي الناس، وقد ثبت قوله صلى

(١) سورة البقرة الآية: (١٧٧)

(٢) سورة النساء الآية: (٣٦)

(٣) سورة التوبة الآية: (٦٠)

الله عليه وسلم في حقهم في مرض الموت: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»[(١) ٢].

وفي سورة النور يقول الله عز ذكره في حق الأرقاء: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾[(٣)].

أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة وأن يشتري نفسه من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب وكاتبوه، إن علمتهم فيه قُدْرَةً على التكسب وصلاحا في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتْق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه، وربما جدّ واجتهد، وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل عليه في رقّه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد، فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب، كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر الله تعالى بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنه لا مال لهم، ويدخل في هذا الأمر ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ﴾ أمر سيده الذي

---

(١) تيسير العلي القدير ١/٣٨٧

(٢) رواه أحمد عن أم سلمة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٧٣)

(٣) سورة النور الآية: (٣٣)

كاتبه، أن يعطيه من كتابته، أو يسقط عنه منها، وهكذا رغب الله الناس في معاونة الأرقاء المكاتبين، وأمرهم بالإحسان إليهم كما أحسن الله إليهم ورزقهم المال مِنَّةً منْه وفضْلا[1].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن/٣/٣٧٠-٣٧١

تاسعا: «السائلون»

قال الله تعالى في سورة البقرة في آية البر: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ الآية﴾[1] فذكرهم بعد ابن السبيل، قال الإمام الطبري- رحمه الله-: وأما قوله: «والسائلين» فإنه يعني المستطعمين الطالبين، وعن عكرمة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في قوله: «والسائلين» قال: الذي يَسْألك[2]، فهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، فلهم حق فيها، قال تعالى في سورة (الذاريات): ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾[3] قال ابن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهما: السائل: الذي يسأل الناس لفاقته[4] وقد روى أحمد - رحمه الله- بسنده عن عبدالرحمن حسين بن علي قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»[5].

هذا، وليت الذي يسأل يكون من المحتاجين الذين جعل الله لهم حقا في الزكاة والصدقات، إذًا لهان الأمر، ولكن المصيبة الكبرى الآن أن معظم من يتعرضون للسؤال ويلحُّون في الطلب ويقدمون عجائب

---

(١) سورة البقرة الآية: (١٧٧)

(٢) تفسير الطبري/١/٩٧

(٣) سورة الذاريات الآية: (١٩)

(٤) تفسير القرطبي /١٧/٣٨

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب (الزكاة) باب حق السائل برقم (١٦٦٥)

الأعذار وغرائبها، ليسوا ممن يستحقون زكاة ولا صدقة، بل لو كانوا مسلمين حقا لدفعوا مما عندهم من المال الكثير زكاة أموالهم، وبصفتي إمام لمسجد في دولة الكويت، فقد رأيت وعلمت أشياء عجيبة عن حال أكثر من ٩٥٪ من السائلين الذين لا يستحقون إلا العقاب على مسألتهم وهم ليسوا أهلا لها، فعلى المسلم الحاذق أن يتحرى الأمر في ذلك.

(الباب الأول)

الفصل الثاني

الصدقة الجارية

(الوقف)

ويتضمن الفصل الثاني ما يأتي:

أولا: تمهيد

ثانيا: نبذة تاريخية عن الوقف في الإسلام

ثالثا: أول وقْف في الإسلام

رابعاً: تعريف الوقف لغة وشرْعًا

خامساً: دليل مشروعية الوقف

سادسا: حكم الوقف

سابعاً: حِكْمَة مشْرُوعية الوقف

أولاً: تمهيد

«الصدقة الجارية» (ألْوَقْف)

إن الله العلي القدير قد سخر الأنهار تجري بأمر ربها تحمل الماء الذي عليه مدار حياة الإنسان والحيوان والنبات، والذي يخرج الله به الزرع مختلفاً أكله والثمرات، وكذلك الصدقات الجارية، فقد جعلها الله تعالى بفضله ورحمته أنهاراً تسري بالخيرات والبركات والحسنات وتكفير السيئات ورفع الدرجات، ويديم الله بمنته وكرمه ثوابها بعد الممات، طالما بقيت تؤدي دورها على أرض الله تعالى، حتى تورث صاحبها روضات وجنات.

والصدقة الجارية محمولة عند العلماء على الوقف، فإن غيره – أي الوقف – من الصدقات ليست جارية، بل يملك المتصدق عليه أعيانها ومنافعها ناجزاً – أي في الحال، ولما كانت الصدقة الجارية هي الوقف كما فسر بذلك العلماء، كان لزاما علينا أن نتكلم عن الوقف في الإسلام بشيء من التفصيل.

ثانياً: نبذة تاريخية عن الوقف قبل الإسلام

إن معنى الوقف كان ثابتاً عند الأَقْدَمِينَ قَبْلَ الإسلام وإن لم يُسَمَّ بهذا الاسم، وذلك لأن المعابد كانت قائمة ثابتة، وما رُصِدَ عليها من عقار يُنْفَق من غلاته على القائمين على هذه المعابد كان قائما ثابتا، ولا يمكن تصور هذا إلا على أنه معنى الوقف، أو هو على التحقيق وقْف، ولما أنكر أبو حنيفة –رحمه الله– الحقيقة الشرعية للوقف، لم يستطع أن ينفي وقف المسجد ولزومه، لأن المساجد كانت قائمة قبل الإسلام، فالبيت الحرام والمسجد الأقصى كانا قائمَيْن، وكذلك المعابد من كنائس وبِيَع وأدْيِرَة كانت قائمة، ولا يُتَصَوَّر أن تكون مملوكةً لأحد من العِبَاد، ومنافعها لجميع الذين يتعبَّدُون فيها، ولذلك فلا مَنَاصَ من أن نقرر أن الوقف كان موجوداً بمعناه قبل الإسلام، كما أن البيع والإجارة والنكاح وغيرها من العقود كانت موجودة قبل الإسلام، وأقَرَّها الإسلام ووضع لها نُظُماً تمنع الغِشّ والغَبْن وتجعلها في دائرة الحق والعدل[1] وقد عرف العرب قبل الإسلام أوّل وقْف، وهو الكعبة المشرفة، حيث طلب إبراهيم عليه السلام من ربه عز وجل أن يجعلها مَثَابَةً للناس وأمْنًا، فأصبحت مكان العبادة لجميع القبائل التي كانت تعيش في الجزيرة العربية آنذاك، يحُجُّون إليها، ويطوفُون ويصلُّون، ثم جُعلَتْ مقرًّا للأصنام (آلهة قريش) وبقية القبائل، ثم بعد الإسلام جُعِلَت الكعبة المشرفة قِبْلَةً للمسلمين يُصَلون إليها[2].

(١) محاضرات في الوقف، (أبو زهرة) ط دار الفكر العربي–شارع جواد حسني –القاهرة .

(٢) الاتجاهات المعاصرة في تطوير الاستثمار الوقفي (د/أحمد محمد السعد، محمد علي العمري) ط الأمانة العامة للأوقاف– الكويت ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م

ثالثًا: أول وقف في الإسلام

وأول وقف في الإسلام هو مسجد (قُبَاء) الذي أسَّسه النبي ﷺ في المدينة، في بداية الهجرة، ثم المسجد النبوي في المدينة، بناه النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الأولى للهِجرَة عند مَبْرَك ناقته، لما قدم إليها مهاجرا من مكة، وهذا هو أول وقف (ديني) في الإسلام، أما أول وقف مَاليّ في الإسلام، فهو وقف النبي صلى الله عليه وسلم لسبعة حوائط – بساتين – في المدينة، كانت لرجل يهودي اسمه (مُخَيْرِيق)، وكان مُحِبًّا وَدُودًا للنبي ﷺ، وقاتل مع المسلمين في غزوة (أحد) وأوصى: إن قتلت فأموالي لمحمد يضعها حيث أراه الله تعالى، وقتل يومها وهو على يهوديته، فقال فيه النبي ﷺ: «مخيْريق خيرُ يهود» وقَبَضَ النبي صلى الله عليه وسلم تلك الحوائط وتَصدَّق بها، أي: (وَقَّفها).

ثم تلاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم تتابعت أوقاف الصحابة بعد وقف عمر، فوقف عثمان رضي الله عنه بنحو صدقة عمر، وكذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزبير بن العوَّام رضي الله عنه، وَقَفَ دُورَه على بنيه، لا تُباع ولا تُوهَبُ ولا تُورث، ومن الصحابة – رضوان الله عليهم – من وقفوا جزءًا من أموالهم صَدَقَةً ينتَفِع بها المسلمون[1].

(١) الاتجاهات المعاصرة في الاستثمار الوقفي (د/السعدي، والعمري)/٤

رابعاً: تعريف الوقف لغة وشرعاً

الوقف لغة: الحبس، قال في المجموع: الوقف: مصدر وقَفَ يَقِفُ، ووقَفْتُه أنا، يَتَعَدَّى ويَلْزَم، وَوَقَفْتُ الدّارَ: حبستها في سبيل الله، وشيء موقوف، ووقْفٌ بالمصدر، والجمع: أَوْقَاف، كَثَوْب وأثواب، ولا يقال: أَوْقَفْتُ إلا في الكلام فتقول: فأوقَفْتُ عن الكلام[1].

والوقف في الشريعة هو:

حبس الملك في سبيل الله تعالى للفقراء وأبناء السبيل، يُصرفُ عليهم منافعه ويبقى أصله على ملك الواقف، قاله الشوكاني[2]- رحمه الله- وقال العلامة البهوتي[3] الوقف: تَحْبِيسُ الأصل وتَسْبيلُ المنفعة على بِرٍّ أو قُرْبَة، وقال الشيخ محمد أبو زهرة- رحمه الله- أَجْمَعُ تعريف لمعاني الوقف عند الذين أجازوه، أنه حبس العين وتسبيل ثمرتها، أو حبس عين للتصدق وتسبيل منافعها، أو كما قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، أنه- أي الوقف- قطع التصرف في رقبة العين التي يدوم الانتفاع بها وصرف المنفعة، ثم قال الشيخ أبو زهرة: فقوام الوقف في هذه التعريفات المتقاربة، حبس العين فلا يتصرف فيها بالبيع والرهن والهبة، ولا تنتقل بالميراث، والمنفعة تُصْرَفُ لجهات الوقف على مقتضى شروط الواقفين[4].

---

(١) المجموع- شرح المهذب (للنووي) ط دار الفكر-الجزء الخامس عشر/٣٢٢

(٢) نيل الاوطار (الشوكاني) ط دار الكتب العلمية- بيروت/٦/٢٠

(٣) الروض المربع بشرح زاد المستنقع (البهوتي) ط دار الكتاب العربي- بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م/٣٥٢

(٤) محاضرات في الوقف/ أبو زهرة/٣٠٩

هذا، وَعَرَّفَ الأحناف (الوقف) بأنه: حبْس العيْن على مِلْك الواقف والتصدّق بالمنفعة.

وعرفه بعض فقهاء الشافعية بأنه: حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عَيْنه وصَرْفِ ريعه في مَصْرَفٍ مُبَاح.

وعرفه بعض فقهاء الحنابلة بأنه: تحْبِيسُ الأصل وتَسْبيلُ الثمرة، وهذا الاختلاف الظاهر في التعريفات يرجع إلى (حكم العيْن الموقوفة)، هل تنتقل إلى ملك الموقوف عليه؟ (الحنابلة) أم إلى ملك الله تعالى والتصدق بالمنفعة؟ (الشافعية والصاحبْين من الحنفية)، أم إلى ملك الواقف؟ (أبو حنيفة والمالكية)...

والمُتَمعِّنُ في هذه التعريفات حول الوقف، يجد أن معناها قريب من معناهااللغوي، الذي يفيد احتباس العين ومنع التصرف فيها من قبل المالك، (الواقف) ومن قبل الموقوف عليه بذاتها، وإنما له الحق في الاستفادة من منفعتها وثمرتها.. ومن ثم فإن الاختلافات التي نُلاحظها في تعريفات هؤلاء الفقهاء، فهي في بعض الفروع التي لا تؤثر في أصل المشروعية، وبالتالي فهي اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد،

وهذه التعريفات السابقة، معظمها مقتَبَس من حديث رسول الله ﷺ «عندما قال لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن شئت حَبَسْتَ أصْلَها وتصدَّقْتَ بها»[(١) (٢)].

---

(١) متفق عليه، البخاري في الشروط (١٨٥/٣) ومسلم في الوصية (٧٤/٥) باب الوقف

(٢) انظر: إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعية (د/فؤاد العمر) ط الأمانة العامة للأوقاف الكويتية ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م/٣٨-٣٩

خامسا: دليل مشروعية الوقف

اتفقت كلمة عامة أهل الفقه، من المذاهب الأربعة وغيرها، على أن الوقف جائز شرعا، ومشروعية أصل الوقف ثابتة بالقرآن والسنة والإجماع[1].

أما القرآن الكريم:

(أ) فقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ۝٩٢﴾[2].

عن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ جاء أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، يقول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وإن أحب أموالي إلَيَّ (بَيْرَحاء) قال: وكانت حديقة، كان رسول الله ﷺ يَسْتَظِلُّ فيها، ويشرب من مائها، فهي إلى الله عز وجل وإلى رسوله، أرجو بِرَّهُ وذُخْرَه، فَضَعْهَا يا رسول الله حيث أمرك الله، فقال رسول الله: «بَخٍ أبا طلحة» ذلك مال رابح، قبلناه منك ورددناه عليك، فاجعله في الأقربين»[3] فتصدق به أبو طلحة على ذي رحمه، وكان منهم أُبَيّ وحسَّان، أي: جعلها وقفا عليهم.

---

(١) انظر: الاتجاهات المعاصرة في تطوير الاستثمار الوقفي (د/السعد، والعمري)/٢٧

(٢) سورة آل عمران الآية: (٩٢)

(٣) متفق عليه، البخاري (٣/٢٥٧) ومسلم (٩٩٨)

(ب) وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾[1].

(جـ) وقوله سبحانه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾﴾[2] وغير ذلك من النصوص القرآنية الكثيرة، التي تحث على عمل الخير وتضاعف عليه الثواب.

فلفظ (من خير) في الآيتين، عام بشمل وجوه الخير كلها، ومنها (الوقف).

وأما السنة المطهرة:

(أ) فمنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[3].

والصدقة الجارية محمولة عند العلماء على (الوقف).

(ب) ومنها حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتي النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله، إني أَصَبْتُ أَرْضًا بخيبر، لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمرني فيها؟ قال: «إن شئت حَبَسْتَ

---

(١) سورة آل عمران الآية: (١١٥)

(٢) سورة المزمّل الآية: (٢٠)

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، ورواه مسلم في صحيحه (٧٣/٥) ورواه غيرهما، وهو في صحيح الجامع (٧٩٣)

أصلها وتصَدَّقت بها، غير أنه لا يباعُ أصلها، ولا يُبْتَاعُ، ولا يُوهَبُ، ولا يُورَثُ»[1] قال: فتصدق بها عمر في الفقراء، وذوي القربى والرقاب، وابن السبيل، والضَّيْف، لا جُنَاح على من وَلِيهَا أن يأكل منها، أو يُطْعِم صديقا بالمعروف، غير مُتأَثِّل منه - أي غير جامع للمال - أو غير متموّل فيه - أي غير مدَّخر للمال - وهذه الصدقة الجارية من عمر بن الخطاب من باب الإنفاق ممّا يُحِبُّ المرء، حيث قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لم أُصِبْ مالا قط عندي أنفس منه»، وهذا الحديث دليل واضح على مشروعية الوقف، بل هو أصل مشروعية الوقف، بدلالة قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: «إن شئت حَبسْتَ أصلها وتصدَّقْتَ بها» وهذا تعبير صادق عن حقيقة الوقف وما هيَّته.

(جـ) وقد ثبت في السنة العملية، أَنّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بنى مسجد (قباء) ثم المسجد النبوي، عند هجرته من مكة إلى المدينة، وهما أول وقف ديني في الإسلام.

كما وقف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحوائط السبع التي كانت لليهود (مُخَيْريق) على الأعمال الخيرية - كما سبق -

(د) عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم المدينة وليس بها ماء يُسْتَعْذَبُ غير بئر رَومة، فقال: «من يشتري بئر رومه، فيجعل فيها دلوه مع دلاء المسلمن بخير له منها في الجنة، فاشتريتها من صُلْبِ مالي»[2].

---

(١) أخرجه الشيخان، البخاري في الشروط (١٨٥/٣) ومسلم في الوصية (٧٤/٥)

(٢) انظر: الخلفاء الراشدون (عبد الوهاب النجار) ط دار القلم - بيروت الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ-١٩٩٣م/٢٦٩-٢٧٠

فهذا الحديث الشريف يدل على مشروعية أصل الوقف، لأنه لو لم يكن جائزًا، لما عَرَض الرسول ﷺ بئر رومه على أصحابه ليتبرعوا به للمسلمين، هذا فضلا عن وقفه ﷺ، فقد روى عنه أنه وقف أرضا وسلاحا، كما تشير إلى ذلك الروايات الصحيحة(١).

وأما الإجماع:

فقد اشتهر اتفاق الصحابة- رضي الله عنهم- على مشروعية الوقف قولا وفعلا، وقد أجمعت الأمة على مشروعية الوقف، وقُرِّرَ ذلك في المذاهب المعتمدة كلها(٢).

سادساً حكم الوقف:

ذهب جمهور العلماء إلى أن الوقف مستحب، ودليلهم ما ورد سابقا في دليل مشروعيته.

(١) انظر: الاتجاهات المعاصرة في نطوير الاستثمار الوقفي/٢٩

(٢) انظر: تيسير الوقوف (عبد الرؤوف بن تاج الدين) ط مكتبة نذار الباز مكة المكرمة – الرياض/٢٣-٢٤

سابعاً: حكمة مشروعية الوقف

أقتضت حكمة الله تعالى تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، فمنهم واسع الثراء فاحش الغنى، ومنهم فاقد قُوت يومه الضروري، وسبحان الله القائل: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١ ﴾[1].

ومن رحمة الله تعالى أن فرض على الأغنياء زكاة أموالهم، وجعلها حَقًّا للسائل والمحروم، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ ﴾[2] وبجانب الصدقات المفروضة شرع الله تعالى بلطفه ورحمته ومنته، صدقة التطوع، لتكون بجانب الصدقة المفروضة، بابا عظيما من أبواب رحمته تعالى بالفقراء والمساكين والمحرومين، والوقف باب رحيم من أبواب صدقة التطوع، وينفرد بأنه عطاء في سبيل الله تعالى، يجرى بالخيرات والرحمات على الواقف في حياته وبعد وفاته، فهو من الأعمال الصاحلة التي يحبها الله تعالى ويرضاها من عباده، وهو من القُربات المندوبة التي دعا إليها الإسلام ورغب فيها وأجْزَل الثواب عليها، ومن أجل هذا فقد اهتم المسلمون بصدقة الوقف اهتماما عظيما، وتسابقوا في وقف بعض ممتلكاتهم، ليُصْرَفَ من ريعهَا على المجالات الخيرية المتعددة، مثل إقامة المساجد، وإنشاء المدارس، وبناء المستشفيات، والإنفاق على الأيتام والأرامل والمعوقين،

---

(١) سورة الإسراء الآية: (٢١)

(٢) سورة المعارج الآية: (٢٤-٢٥)

والمحتاجين، ورعاية أبناء السبيل، والأسرى، والمساجين، وتقديم العون لطلبة العلم والمجاهدين، والإنفاق على المرافق المتنوعة التي يحتاج إليها المجتمع المسلم، فكان الوقف إتماما لكفاية حاجة المحتاجين، بجانب الزكاة المفروضة، وصدقة التطوع. وهو يتفق تماما ومقاصد الشريعة الإسلامية، لما فيه من المصلحة العامة لسائر المسلمين، وهو يتعانق مع الوظائف التي قررتها الشريعة الإسلامية للملكية.

فعلى المستوى الفردي:

فإن الوقف يحقق دوام الأجر والثواتب للواقف عند الله تعالى.

وعلى المستوى الأسَري أو العائلي:

فالوقف على الذرية أيضا يعمل على حماية أسرة الواقف وأقربائه، من الجوع والفقر في الحاضر والمستقبل.

وعلى المستوى الاجتماعي:

فيعتبر الإنفاق في سبيل الله، والذي يعد الوقف أهم صوره، من أهم مظاهر الوظيفة الاجتماعية للملكية في الشريعة الإسلامية، ويبدو ذلك جليا في سد حاجة الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات المختلفة، ولقد لعبت الأوقاف دورًا كبيرًا في بناء الحضارة الإسلامية على مر العصور الماضية، وما زالت بحمد الله تعالى تؤدى هذا الدور في كثير من البلاد الإسلامية حتى الآن(١).

---

(١) انظر: الاتجاهات المعاصرة في تطوير الاستثمار الوقفي (د/السعدي، والعمري) /٣٠-٣٢

وعلى ما تقدم فإن حكمة مشروعية الوقف تتمثل في الآتي:

١- فتح باب التقرب إلى الله تعالى في تسْبيل المال في سبيل الله تعالى وتحصيل المزيد من الأجر والثواب.

٢- تحقيق رغبة المؤمن وهو يُبَرْهِنَ على إظهار عبوديته لله تعالى، وحُبِّه له، فمحبة الله تعالى لا تَتَّضح وتتأكد إلا في مجال العمل والتطبيق، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾[1].

٣- تحقيق رغبة المؤمن أيضا في بقاء الخير جاريا بعد وفاته ووصول الثواب منهمرًا إليه وهو في قبره.

٤- تحقيق كثير من المصالح الإسلامية، كبناء المساجد والمدارس والمستشفيات والمرافق العامة، وإحياء العلم وإعداد الدعاة وتحفيظ كتاب الله وإقامة الشعائر الإسلامية الصحيحة.

٥- سد حاجة الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل وأبناء السبيل وذوي الحاجات الضرورية المختلفة.

---

(١) سورة آل عمران الآية: (٩٢)

(الباب الأول)

(الفصل الثالث)

القرض الحسن ومنزلته من الصدقة

(القرض الحسن من الإحسان)

القرض الحسن من الإحسان، وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ورغب فيه وأثنى على أهله ووعدهم بالمثوبة والأجر العظيم، من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾[1] قال الإمام القرطبي: واستدعاء القرض في هذه الآية، إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغني الحميد، ولكنه تعالى شبَّه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرْض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء، في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[2].

وقيل: المراد بالآية الحث على الصدقة وإنفاق المال على الفقراء والمحتاجين والتوسعة عليهم، وفي سبيل الله بنصرة الدين، وكَنَّى الله سبحانه عن الفقير بنفسه العليَّة المنزَّهة عن الحاجات ترغيبا في الصدقة، كما كنّى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة

---

(١) سورة البقرة : (٢٤٥)

(٢) سورة التوبة : (١١١)

عن النقائص والآلام، ففي صحيح الحديث إخبارًا عن الله تعالى: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يابن آدم، مرضتُ فلم تعُدْني! قال: يارب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تَعُدْه؟ أما علمت أنك لو عُدتَّه لوجدتني عنده؟ يابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يابن آدم، استسقيتك فلم تسقني، قال: يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تَسْقه، أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي»[١] [٢].

وقوله تعالى: «من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا»، قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوْصَاف الحُسْن، من النية الصالحة، وسماحة النفس بالنفقة، ووقوعها في محلها، وألا يُتْبِعُها المنفق مَنًّا ولا أذى، ولا مبطلا ومنقصا»[٣].

وقوله تعالى: «فيضاعفه له أضعافا كثيرة» كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾[٤].

---

(١) رواه مسلم (٤٣٣/٥)

(٢) تفسير القرطبي/٣/٢٤٠

(٣) تيسير الكريم الرحمن/١/٢٢١

(٤) سورة البقرة: (٢٦٢)

«ثواب القرض الحسن»

(أ) في القرآن الكريم:

جاء ذكر القرض الحسن في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾[1] **وقد سبق تفسير هذه الآية الكريمة في مقدمة موضوع القرض الحسن.**

وفي سورة المائدة يقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾[2].

وفي سورة الحديد جاء ذكر القرض الحسن مرتين، الأول في الآية رقم (١١) في قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[3] **والثانية في الآية رقم (١٨) في قوله تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: (٢٤٥)

(٢) سورة المائدة: (١٢)

(٣) سورة الحديد: (١١)

(٤) سورة الحديد: (١٨)

وفي سورة (التغابن) يقول الله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

وفي سورة (المزمل) يقول الله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

وحين ننظر ونتدبر في تلك الآيات الكريمة، نجد أن الله المنعم الكريم قد تجلى على أصحاب القرض الحسن، فمنحهم من فضله ومنته ثوابًا عظيما وأجرا كريما، على معاونتهم إخوانهم في حال العسر والشدة، وتفريج كروبهم وقضاء حوائجهم.

ففي آية (البقرة) نجد عطاء الله تعالى لصاحب القرض الحسن يتمثل في مضاعفة القرض الحسن أضعافا كثيرة لم تحدد، ولا يعلمها إلا الله تعالى.

وفي آية سورة (الحديد) نجد مع المضاعفة الأجر الكريم في الآيتين الكريمتين (١١-١٨).

وفي آية سورة (المائدة) نجد مِنَّةَ الله على أصحاب القرض الحسن بتكفير السيئات ودخول الجنات.

وفي آية سورة (التغابن) نجد مع المضاعفة، المغفرة وشكر هذا الصنيع من الله الشكور الحليم.

---

(١) سورة التغابن: (١٧)

(٢) سورة المزمل: (٢٠)

وفي آية سورة (المزمل) نجد أن القرض الحسن هو من خير ما يقدمه المسلم لنفسه عند ربه عز وجل، حيث يثيبه عليه خيرًا منه، ويعظم له أجره، ألا فسبحان الله الرحمن المنان، الرحيم الرحمن، يحب أهل الخير ويثيبهم على القليل منهم بالكثير منه سبحانه.

في السنة المطهرة:

وقد احْتَفت السنة المطهرة بالقرض الحسن أيما احتفاء، وبشرت أصحابه بالخير والثواب والأجر العظيم في جنات النعيم، ومن ذلك ما يأتي:

١- صاحب القرض الحسن له أجر من أعتق رقبة:

عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مَنَحَ مَنِيحَةَ لَبَنٍ، أو وَرِقٍ، أو هَدَى زُقَاقًا، كان له مثل عتق رقبة»[1].

فالحديث الشريف يبين لنا عطاء الله الكريم لمن قام بالأعمال الخيرية المذكورة فيه، كلها أو بعضها، فالعمل الخيري الأول هنا، هو أن يعطي المؤمن أخاه ناقَةً أو شاةً ينتفع بها وبلبنها، ثم يعيدها له، الثاني: مَنْ أَقرض أخاه الدرهم ليفك به كربته حتي يفرج الله عنه ويرده، الثالث: من أهدى أخاه هداية الطريق وأرشده السبيل، فعطاء الله الكريم لهؤلاء هو ثواب من أعتق رقبة في سبيل الله، فعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَعْتَقَ

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد، وابن حِبَّان، والتّرمذيّ وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٥٩٥) والمشكاة (١٩١٧)

رقبةً مسلمة أعتق الله له بكل عضو فيها عضوا منه من النار، حتى فَرْجَهُ بِفَرجِه»[1].

٢- صاحب القرض كالمتصدق الكريم:

وها هو ذا فضل الله تعالى يتتابع على المقرض قرضا حسنا، فينال من الله تعالى ثواب الصدقة المقبولة.

فعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يُقْرِضُ مسلمًا قرْضًا إلا كان كَصَدَقَتِهَا مرة»[2]. وعنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «كل قرض صدقة»[3]. وعنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «من أَقْرَضَ وَرِقًا - فضة- مرَّتين كان كعدل صدقة مرة»[4].

وعنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ السَّلَف يجري مجرى شَطْر الصدقة»[5] أي نصف الصدقة.

وقد روى عن عبدالله بن مسعود أنه قال: «لأن أقرض مرَّتيْن أحب إلي من أن أتصدّق مرَّة»، وكذا قال ابن عباس وأبو الدرداء رضي الله عنهم[6].

---

(١) حديث متفق عليه، رواه البخاري ومسلم والتّرْمذي عن أبي هريرة، وهو في صحيح الجامع (٦٠٥٠) ومختصر مسلم (٨٩١)

(٢) صححه الشيخ الألباني في (الإرواء) ١٣٨٩، ورواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه

(٣) حديث حسن، رواه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية وهو في صحيح الجامع برقم (٤٥٤٢) وفي صحيح الترغيب برقم (٨٩٠)

(٤) رواه البيهقي في سننه عن ابن مسعود، ورواه غيره، وهو في صحيح الجامع (٦٠٨١)

(٥) حديث صحيح، الصحيحة (١٥٥٣)

(٦)(الإناقة) فيما جاء في الصدقة والضيافة/١٢٩

فهذه الأحاديث الشريفة المباركة، بعضها ينبئنا بأن ثواب القرض الحسن كثواب الصدقة، مرَّةً بِمَرَّة، وبعضها الآخر يعلمنا أن القرض الحسن لمبلغ من المال، كألف مثلا مرَّتين يساوي صدقته مرَّة واحدة، ولعل السبب في تَغَيرُّ الثواب للقرض الحسن من المِثل بالمثل، إلى نصف المثل يرجع إلي حالة المقرض والمقترض، فقد يكون المقرض في حالة لا تسمح له بالإقراض إلا بإيثار لمقترض على نفسه، ويكون المقترض في حال العُسْرَة الشديدة، فيكون القرض هنا بمثل الصدقة وإلا كان بنصفها، والله أعلم.

وزيادة على ما تقدم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل للمقرض ثوابا عظيما وفضلا كبيرا، إذا يَسَّرَ على المقترض في السداد، أو أنظره، أو وضع عنه، ومن ذلك:

(أ) نجاته من كرب يوم القيامة:

عن أبي قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه طلب غريما له - أي مدينا له - فتوارى عنه، ثم وجده فقال:- المدين - إني معسر، قال:- قتادة - آلله، قال: آلله، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، فلينفّس عن معسر أو يضع عنه»[1].

وقال ﷺ: «من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة، وأن يظله تحت عرشه فلينظر معسرًا»[2].

(1) رواه مسلم في صحيحه في كتاب المساقاة (باب فضل إنظار المعسر) ح (١٥٦٣)

(2) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨٩)

فيا له من ثواب عظيم وفضل كريم، أنعم الله به المنعم جل شأنه على من نفس عن معسرا وأنظره إلى ميسرة، أو وضع عنه، إنه نجاة المقرض من كُرَب يوم القيامة، يوم الجمع الأكبر، ويا لها من كرب بالغة الشدة والعذاب.

(ب) استظلاله بظل العرش يوم القيامة:

عن أبي اليُسْر أن رسول الله ﷺ قال: «من أنظر معسرًا أو وضع له، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله»(١).

(ج) هو أول من يستظل بظل الله تعالى يوم القيامة:

وهذا حديث شريف يعلمنا بأن المقرض الذي أنظر معسرا أو تصدق عليه، يكون أول من يستظل في ظل الله يوم القيامة، فقد روى الطبراني في الكبير بإسناد حسن عن أبي اليسر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أشهد على رسول الله ﷺ لسمعته يقول: «إن أول من يستظل في ظل الله يوم القيامة لرجل أنظر معسراً حتي يجد شيئا، أو تصدق عليه يطلبه يقول: مالي عليك صدقة- ابتغاء وجه الله - ويحرق صحيفته - أي يقطع العهد الذي عليه بالدين»(٢)ورواه مسلم في صحيحه عن أبي اليسر بلفظ: «من أنظر معسرًا، أو وضع عنه، أظله الله في ظله»(٣).

---

(١) حديث صحيح: رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة، وهو في صحيح الترغيب (٩٠٠) وفي صحيح الجامع (٦١٠٧)

(٢) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٩٧)

(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الزهد والرقائق (باب حديث جابر الطويل، وقصة أبي اليسر) ح ٣٠٠٦

(د) وقايته من فيح جهنم:

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسجد وهو يقول: «أيكم يسُرُّه أن يَقيَهُ اللّهُ عز وجل من فَيْح جهنم؟ قلنا: يا رسول الله كلنا يسره، قال: من أنظر معسراً أو وضع له- أي أسقط عنه بعض الديْن- وقاه الله عز وجل من فيح جهنم»[1].

(هـ) يدخله الله الجنة مع قلة عمله الخير:

فقد روى البخاري ومسلم - رحمهما الله تعالى- عن أبي حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن رجلا ممن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه فقال: هل عملت من خير؟ قال: ما أعلم، قيل له: أنظر، قال: ما أعلم شيئا غير أني كنت أبايع الناس في الدنيا فأنظر الموسر- أي أيسر عليه في سداد الدين على تمهل، وأتجاوز عن المعسر- أي أرفع عنه الدين صدقة لله تعالى، فأدخله الله الجنة»[2] فقال أبو مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنا سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول ذلك.

(و) يتجاوز الله عنه ويغفر له :

وفي معنى الحديث الشريف السابق مع زيادة تكريم من الله تعالى، يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال - ولا يكتمون الله حديثاً- قال: يا رب أتيتني مالا فكنت أبايع الناس وكان من خلقي الجواز - أي التجاوز - فكنت أيسر عن

(١) رواه أحمد بإسناد جيد، ورواه ابن أبي الدنيا في اصطناع المعروف

(٢) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب البيوع (باب من أنظر معسرًا) ح (٢٠٧٧)

الموسر وأنظر المعسر - فقال الله تعالى: «أنا أحق بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي» فقال عقبة ابن عامر وأبو مسعود الأنصاري: هكذا سمعناه من رسول الله ﷺ»[1].

(ز) يتجاوز الله عنه ولو لم يعمل خيرا قط غير عمله بالتجاوز عن المعسر:

قال ﷺ: «حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر- أي لا يأخذوا منه شيئا لإعساره وعدم قدرته على السداد- قال الله تعالى: «نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه»[2].

(ح) تتابع ثواب الصدقات عليه بإنظاره المعسر:

فعن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنظر معسرا فله كل يوم مثله - أي مثل الدين - صدقة»، ثم سمعته يقول: «من أنظر معسرا فله كل يوم مثليه صدقة» فقلت يا رسول الله، سمعتك تقول: «من أنظر معسرا فله كل يوم مثله صدقة» ثم سمعتك تقول: «من أنظر معسراً فله كل يوم مثليه صدقة» قال له: «كل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل- أي جاء وقت سداد الدين - فَأَنْظَرهَ فله بكل يوم مثليه صدقة» رواه أحمد- ورواته محتج بهم في الصحيح، ورواه أحمد أيضا وابن ماجة والحاكم مختصراً «من

(١) رواه مسلم هكذا موقوفا علي حذيفة ومرفوعا عن عقبة وابن مسعود

(٢) رواه مسلم والترمذي

أنظر معسرا فله كل يوم صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره بعد ذلك فله كل يوم مثليه صدقة»- قال الحاكم صحيح على شرطهما- أي البخاري ومسلم[1].

(ط) تيسير الله عليه في الدنيا والآخرة: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسرا يسر الله عليه في الأولى والآخرة... الحديث[2].

يا سبحان الله، ولا حرج على واسع فضل الله وهو جل شأنه ذو الفضل العظيم، أمْن من الكربات يوم القيامة واستظلال أَوَّلِيٌّ بظل عرش الله يوم القيامة ومغفرة ورضوان وجنات، وتضاعف مثل ثواب الصدقات، كل هذا من أجل الإقراض، والتيسير في قضائه، أو وضع بعضه أو التجاوز عن المدين المعسر والتصدق عليه به، أيعلم ذلك مؤمن عاقل ولا يسارع ويبحث ويفتش عن مسلم محتاج، يعرض عليه قرضا حسنا، ويعامله بالحسنى لينال الفضل الأكبر والثواب الأعظم من مالك الملك والملكوت، الذي يعطي من أحبهم من عباده بغير حساب.

يا لها والله من فرصة طيبة لا تعوض، خاصة لمن أسرفوا على انفسهم وقل خيرهم وكثر شرهم، ليتهم يبادرون بالإقراض والوضع أو التجاوز، لعل الله يرحمهم ويتجاوز عنهم ويدخلهم جنته آمنين مستبشرين فرحين.

---

(١) وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٩٤) وهو في مسند أحمد ٥/٣٦٠ ح (٢٣٠٤٦)

(٢) الحديث رواه مسلم في الدعوات (باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٦٩٩)

إن القرض الحسن باب عظيم من أبواب رحمة الله تعالى يتسابق إليه الفُطَنَاءُ أولوا الألباب من أهل التقوى والمعروف، طلبا لما عند الله من خير عظيم باق لا ينفد أبداً، ونعيم عند رب غفور رحيم كريم.

إنظار المعسر.. هل هو واجب أم مستحب؟

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾[1]. والنَّظِرَة هنا أمر، لكن، هل هو أَمْرَ وجوب أم أَمْرُ نَدْب وإرشاد وترغيب؟

قال الفخر الرازي في قوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ﴾ حَذْفُ، والتقدير: فالحكم أو الأمر نظرة، قال القاضي: وإن كان من عليه المال مُعْسِرًا وجب إنظاره إلى وقت القدرة، لأن العاجز عن أداء المال لا يجوز تكليفه به، وهذا قول أكثر الفقهاء، كأبي حنيفة ومالك والشافعي.

وقال في السراج المنير[2] في قوله تعالى: «وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة» أي: وقت يُسْرِه.

وقال القرطبي: وإنظار المعسر تأخيره إلى أن يوسر.

وقال في المغني[3] من وجب عليه حَقٌّ فذكَرَ أنه مُعْسِرٌ به حُبِسَ إلى أن يأتي ببَيِّنَة تشهد بعُسْرَته، وجمْلَتهُ أن مَنْ وَجَبَ عليه ديْن، فطولب به ولم يؤدّه، نظر الحاكم: فإن كان في يده مال ظاهر أمره بالقضاء،

---

(١) سورة البقرة: (٢٨٠)

(٢) السراج المنير (الشربيني)/١/١٨٥

(٣) المغني (ابن قدامة) ٤/٥٠٢

وإن لم يجد له مالا ظاهرًا، فادَّعى الإعسارَ فصَدَّقَهُ غريمه، لَمْ يُحْبَس ووجب إنظاره، ولم تجُزْ ملازمته.

وفي أحكام القرآن للجصاص ما يفيد بأن الأمر قد يكون للاستحباب، قال: أو أن يكون المراد النّدْب والإرشاد إلى إنظاره، كما قال:[1] وذلك كله - أي إنظار المعسر والتيسير على الموسر - مندوب إليه غير واجب، ثم قال في نفس الصفحة: (ترغيب الطالب في إنظاره)... الخ، والمقصود بالطالب هنا طالب الدَّيْن.

وذكر ابن عاشور في تفسيره[2]. إنَّ النَّدْبَ هو قول مالك والجمهور.

وأيا ما كان الأمر، فإن المقرض إذا أعسر صاحبه (المقترض) لا يجوز له استرقاقه أو بيعه[3] بالدين، كما كان يُفْعَلُ في الجاهلية، بل إما أن يسامحه، ويتصدق عليه بالمستحق له عنده كله، وإما أن يأخذ ما تيسر له ويسامحه بالباقي، وإما أن ينتظر يساره، وبهذا فهو عموما مُخيَّر بين الإنظار والصدقة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾.

الحجر على المدين المفلس وبيع ماله في قضاء دينه:

الحجر لغة: مصدر حَجَر: أي: مَنَع وضَيَّق.

---

(١) المرجع السابق/١/٤٧٩

(٢) تفسير ابن عاشور /٣/٩٦

(٣) الإحكام (ابن حزم) ٥/١٦٩

وشرعا: قول الحاكم للمدين: حجرْتُ عليك التصرف في مالك.

ومعنى (أفلس): لم يَبْق له مال. كأنما لم يبْق له فلْس.

والمفلس في اصطلاح الفقهاء: من كان دينه أكثر من ماله.

عن كعب بن مالك رضي الله عنه ان النبي ﷺ حَجَرَ على معاذٍ ما له، وباعه في دين كان عليه[1].

فَلِلدَّائنين (الغرماء) رفع أمره إلى القاضي إذا لم يسدد ديونه، فإذا ثبت للقاضي زيادة دُيُونِه الحَالة على ماله، جاز له عند جمهور الفقهاء (المالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية وأبي يوسف ومحمد من الحنفية) الحجر عليه، حفاظا على أموال الدائنين من الضياع، وَمَنَع مِنَ الْحَجْرِ أبو حنيفة وزُفر.

ويجوز بيع مال المفلس جبرًا عنه عند الجمهور، لكن يجب أن يُتْرَكَ للمفلس ما يفي بحاجاته الأصلية، من مأكل وملبس ومسكن ودابة وأدوات صَنْعَةٍ وكتب علم[2].

الوضع من الدين:

ولقد دعا رسول الله ﷺ إلى التخفيف عن المدين الذي لا يقدر على سداد كل الدين، وسَمَّى ذلك خيرا يحبه الله ويثيب عليه، فعن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت

---

(١) رواه الدار قطني (نيل الأوطار/٥/٢٧٥)

(٢) انظر: الجامع في أصول الربا (د/رفيق المصري) ٢٨٨/٢٨٩

خُصُوم بالباب عالية أصواتهما، وإذا أحدهما يستوضع الآخر، يسأله أن يضع عنه بعض دينه - ويسترفقه - يسأله الرفق- وهو يقول: - أي الدائن- والله لا أفعل، فخرج عليه رسول الله ﷺ فقال: «أين المتَأَلِّي - الحالف - على الله ألا يفعل الخير؟» فقال: أنا يا رسول الله، فله أي ذلك أحب»[١] أي: من الوضع أو الرِّفْق.

وعن أبي سعيد الخدري قال: أصيب رجل على عهد رسول الله ﷺ في ثِمَارٍ ابْتَاعَهَا، فكثُر ديْنه، فقال رسول الله ﷺ: «تصَدَّقوا عليه»، فتصدق الناس عليه، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال رسول الله ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك»[٢].

واستدل بهذا الحديث على أن المفلس، إذا كان له من المال دون ما عليه من الدَّيْن، كان الواجب عليه لغرمائه تسليم المال الذي له، ولا يجب عليه لهم شيء غير ذلك، وظاهره أن الزيادة ساقطة عنه، ولو أيْسَرَ بعد ذلك لم يُطَالَب بها[٣].

وعند عبدالله بن كعب بن مالك، أن كعب بن مالك أخبره أنه تقاضى ابْنَ أَبِي حَدْ رَد ديْنًا كان له عليه، في عهد رسول الله ﷺ في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعهما رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما رسول الله ﷺ حتى كشف سِجْفَ حجرته[٤]، ونادى كعب بن مالك، فقال: «يا كعب» فقال: لبَّيْكَ يا رسول الله «فأشار إليه بيده

(١) متفق عليه، البخاري (٥/٢٢٥) ومسلم (١٥٥٧)
(٢) رواه الجماعة إلا البخاري (نيل الأوطار)/٥/٢٧٢
(٣) الجامع في أصول الربا (د/رفيق المصري)/٢٨٧
(٤) سجف حجرته: سِتْرُها

أن ضع الشَّطْر من دَيْنك» قال كعب: قد فعلت يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «قُمْ فاقضه»[1].

هل يمنح القرض الحسن من الزكاة؟

لم أجد من الفقهاء من بحث هذه المسألة قديما، وهي من المسائل المعاصرة، فهل يجوز إعطاء القروض الحسنة من الزكاة؟ قياسا على الغارمين الذين استدانوا فعلا:

ذهب إلى جواز ذلك بعض الفقهاء المعاصرين كالشيخ العلامة محمد أبو زهرة وحسنين مخلوف، وحسن عبدالرحمن، وتبعهم القرضاوي في ذلك، والباحث العلامة محمد حميد الله الحيدر أبادي، الأستاذ بجامعة استانبول وباريس وغيرها، قال في بحث له بعنوان (بنوك القرض بدون ربا): وعلَّلوا جواز ذلك بان الديون العائدة تؤدي عن مال الزكاة، فأولى أن تعطي منه القروض الحسنة الخالية من الربا، لتُردّ إلى بيت المال، حتى يحول دون وقوع المسلمين في حبائل الربا، والفوائد الفاحشة للمرابين. وأرى أنه لا مانع من دخول القرض الحسن في صنف الغارمين قياسا بالأولى، وقد عمل به (بيت الزكاة) في الكويت[2].

---

(١) رواه مسلم (٤/٦٥-٦٦)

(٢) القائل هو الدكتور خالد عبد الرزاق العاني/ مصارف الزكاة وتمليكها/٣٣١

شروط الحصول على قرض حسن من (بيت الزكاة الكويتي):

١- أن يكون القرض لحاجة مؤقتة.

٢- أن يكون لدى المستقرض القدرة على السداد في فترة زمنيّة محدَّدة.

٣- أن يقدم المستقرض كفيلا بالمبلغ لحين السَّدَاد[١].

---

(١) انظر: المرجع السابق/ ٣٣٢

«خاتمة لطيفة لموضوع القرض الحسن»

وها هي ذي خاتمة لطيفة مثيرة ومشوقة لحادثة قرض حسن جرت بين مقرض وُمقْتَرِض من بني إسرائيل وكلاهما موحدين صحيحي الإيمان، خبر هذه الحادثة العجيبة أو القصة الحقيقية الطريفة، خبر صادق جاءنا به الصادق المصدوق محمد ﷺ، ليقصها علينا لتكون لنا فيها العبرة والعظة والتأسي الحميد، وذلك فيما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورواه الإمام البخاري، ورواه غيره كالنسائي مسندا عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: إئتني بشهداء أشهدهم، قال: كفى بالله شهيدا، قال: إئتني بكفيل، قال: كفى بالله كفيلا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبا يقدم عليه للأجل الذي أجله - أي حين حَلَّ أَجَلُ الدين الذي عليه - فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج موضعها - أي أدخلها برفق وسوى موضعها وأغلقه بإحكام - ثم أتى البحر فقال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلانا ألف دينار فسألني كفيلا، فقلت: كفي بالله كفيلا، فرضى بذلك، وسألني شهيدا، فقلت كفى بالله شهيدا، فرضى بذلك، وإني قد جهدت أن أجد مركبا أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركبا، وإني استودعتكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يطلب مركبا إلى

بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبا يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تَسَلَّفَ منه فأتاه بألف دينار أخرى وقال: والله مازلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا غير الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إَليَّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركبا قبل هذا الذي جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدَّى عنك الدين الذين بعثت به في الخشبة، فانصَرِفْ بأَلْفِك راشدًا.

وهكذا يكون أهل القرض الحسن وأهل الوفاء والإخلاص، والله برحمته ولطفه يكرم الصِّنْفَيْنِ المحسنيْن ويجعلهما تحت كنفه وعنايته، ألا فطوبى للمقرضين المحسنين، وهنيئا لهم بواسع فضل الله تعالى عليهم، والله لا يضيع أجر المحسنين.

(الباب الثاني)
(صدقات التطوع المالية)

(الفصل الأول)

ويشتمل على ما يأتي:

أولاً: الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة والمثل الأعلى في الصدقات والإحسان والإنفاق في سبيل اللّه تعالى.

ثانياً: أمهات المؤمنين ـ رضوان اللّه عليهن أجمعين ـ كن جميعاً مثالاً طيباً كريماً في البذل والإنفاق في سبيل اللّه تعالى، ونذكر منهن:

١ ـ خديجة ـ رضي اللّه عنها.

٢ ـ عائشة ـ رضي اللّه عنها.

٣ ـ زينب بنت خزيمة ـ رضي اللّه عنها.

٤ ـ زينب بنت جحش ـ رضي اللّه عنها.

ثالثاً: الخلفاء الأربعة الراشدون، وتصدقهم وإنفاقهم في سبيل الله تعالى

(الخليفة الأول): أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه.

(الخليفة الثاني): عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه.

(الخليفة الثالث): عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه.

(الخليفة الرابع): علي ـ رضي الله عنه.

أولاً: الرسول ﷺ هو القدوة الحسنة والمثل الأعلى في الصدقة والجود وحب العطاء في سبيل اللّٰه تعالى.

إن رسول اللّٰه ﷺ هو القدوة الحسنة والمثل الأعلى لكل مسلم ومسلمة في الصدقة والجود وحب العطاء في سبيل اللّٰه تعالى، فهو ﷺ أجود الناس على الإطلاق، وأكرمهم بلا منازع، وأسرعهم في العطاء والإحسان بلا شبيه أو نظير، وهيهات هيهات أن يدنو من عرش جوده وكرمه وإحسانه بشر.

فما أعظم جودك، وما أسخى نفسك، وما أكرمك، يا سيدي ويا سيد الخلق يا رسول اللّٰه، وما جودك وكرمك وإحسانك إلا خصلة من خصال خُلُقكَ العظيم، الذي وصفك به ربك فقال عز ذكره وجل ثناؤه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[(١)].

ولقد كان رسول اللّٰه ﷺ منذ نشأته، إلى بعثته، إلى أن لقي اللّٰه تعالى، بحْراً طيباً مباركاً، فيَّاضاً بالخير والإحسان، متدفقاً بالجود والكرم والإنعام، في كل وقت وحين.

وحين نزل الوحي على رسول اللّٰه ﷺ أول ما نزل، ورجع رسول اللّٰه إلى خديجة أم المؤمنين ـ رضي اللّٰه عنها ـ يرجُفُ فؤاده ويقول: (لقد خشيت على نفسي) فطمأنته السيدة الفاضلة العاقلة الحصيفة

---

(١) القلم / ٤.

وبشّرته قائلة: والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحملُ الكَلَّ، وتُكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[1].

ويعلق الإمام ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ على كلماتها الطيبة التي تتفجر منها الحكمة فيقول: استدلت ـ رضي الله عنها ـ على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبداً، بأمر استقرائي، فلقد وصفته ﷺ بأصول مكارم الأخلاق، لأن الإحسان إما إلى الأقارب، وإما إلى الأجانب، وإما باليد، أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره، أو لا يستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفت به الرسول ﷺ[2].

ويقول الأستاذ سعيد حوّى:

إن كَرَم رسول الله ﷺ لا يُجارَى ولا يُبارَى.

إن الله تعالى قد جعل خمس الغنائم إليه، وكانت حصته من هذا الخمس، ولقد غنم المسلمون غنائم كثيرة، ولو أراد رسول الله ﷺ أن يجمع مالاً، لكان أكثر الخلق مالاً، ثم يقول: لقد علمنا بعد ذلك أن رسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي، وأنه أمر أن يُوَزَّع ميراثه ـ إن كان ـ على المسلمين، وأنه ليس لأقاربه من ميراثه شيء، وأنه كان يخشى إذا بقى في بيته مال لَمْ يوزعه على الناس، ثم يقول: إذا عرفت هذا، أدركت أي كرم كان عنده ﷺ، وأي نفس طاهرة هذه النفس، وأدركت أنها النبوّة، وأن غير النبوة لا تجود بهذا الجود،

---

(١) فتح الباري ٣٠/١/ (كتاب بدء الوحي)

(٢) فتح الباري ٣٣/١/.

وترضى مع القدرة بهذه الحياة، إنها أخلاق النبوة العربية الهاشمية المصطفاة، سلسلة إبراهيم ـ عليه السلام[(١)].

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل عليه السلام وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجودُ بالخير من الريح المرسلة[(٢)].

عن جابر رضي الله عنه قال: (ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ فقال لا)[(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل، فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليُسلِمُ ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها[(٤)].

وعن أبي سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا

---

(١) انظر كتاب: الرسول ـ ﷺ (سعيد حوّى) الجزء الأول ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ـ الطبعة الرابعة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م مطبعة دار السلام ـ القاهرة شارع الأزهر.

(٢) متفق عليه، البخاري (٤/٩٩) ومسلم (٢٣٠٧).

(٣) متفق عليه، البخاري (١٠/٣٨١) ومسلم (٢٣١١).

(٤) رواه مسلم (٢٣١٢).

نفد ما عنده قال: (ما يكون عندي من خير فلن أدّخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبّره الله، وما أعطى الله أحداً عطاءً هو خير وأوسع من الصبر)(١).

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَسَّمَ رسول الله ﷺ قسماً، فقلت: يا رسول الله، لَغَيرُ هؤلاء كانوا أحقَّ به منهم؟ قال: (إنهم خيَّروني أن يسألوني بالفُحش، أو يُبَخّلوني، ولست بباخل)(٢).

وعن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: بينما هو يسير مع النبي ﷺ مَقْفَلَهُ ـ حال رجوعه ـ من حُنين، فَعَلِقَهُ الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى سَمُرَة ـ شجرة ـ فخطِفَتْ رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: (أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العِضاه ـ شجر له شوك ـ نعَماً، لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذّاباً ولا جباناً)(٣).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ : ما بقي منها؟ قالت: ما بقى منها إلا كتفها، قال: (بقي كُلُّها غير كتفها)(٤).

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببُرْدَة منسوجة، فقالت: نسجتها بِيَدَيَّ لأكْسُوَكَهَا، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣) ورواه مالك في الموطأ (٩٩٧٢) وأبوداود (١٦٤٤) والترمذي (٢٠٢٤) والنسائي (٥/٩٥ـ٩٦).

(٢) رواه مسلم (١٠٥٦).

(٣) رواه البخاري (٦/٢٦).

(٤) رواه الترمذي (٢٤٧٢) وقال: حديث صحيح، [وسنده صحيح].

إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره، فقال فلان: أُكْسِينهَا ما أحسنها؟ فقال: (نعم) فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت! لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها، ثم سألته، وعلمت أنه لا يرد سائلاً، فقال: والله إني ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه)[1].

وما كان أسعد رسول الله ﷺ حين كان يبذل ما عنده من مال في سبيل الله تعالى، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرَّة المدينة[2] عشاء اسَتَقْبَلَنَا أُحد، فقال: (يا أبا ذر، ما أحب أن أُحُداً لِيَ ذهباً، يأتي على ليلة أو ثلاث عندي منه دينار إلا ديناراً أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا، وهكذا، وهكذا) وأرانا بيده[3].

ولطالما كان يفزع رسول الله ﷺ ويسرع حتى يخشى الناس من سرعته، وهو يتخطى رقاب الناس إلى بعض حُجرِ نسائه، حين يتذكر أنه نَسي شيئاً من المال في بيته لم يقسّمه.

فعن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: صليت وراء النبي ﷺ العصر بالمدينة، فسلّم ثم قام مسرعاً، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته فخرج إليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته، فقال: (ذكرت شيئاً من تِبْر عندنا فكرهتُ أن يحبسني)[4].

(١) رواه البخاري (١١٣/٣).

(٢) أرض ذات حجارة سود.

(٣) رواه البخاري (٢٧٩/٢) وأخرجه أحمد (٣٠٨/٣).

(٤) رواه البخاري (٢٧٩/٢) وأخرجه أحمد (٣٠٨/٣).

وروى الإمام أحمد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كان لرسول الله ﷺ عندي في مرضه ستة دنانير أو سبعة، فأمرني رسول الله ﷺ أن أُفرّقها، فشغلني وَجَعُ نبي الله ﷺ ثم سألني عنها، (ما فعلت الستة أو السبعة؟) قلت: لا والله، لقد شغلني وجعك، فدعا بها ثم وضعها في كفه، فقال: (ما ظن نبي الله لو لقي الله عز وجل وهذه عندي)[1].

فهو صلوات الله وسلامه عليه، لم يسمح لنفسه بأن يبقى لديه سبعة دنانير، ويلقى الله تعالى قبل أن ينفقها في سبيل الله.

ولقد وصل الأمر في العطاء عند رسول الله ﷺ إلى درجة أن يطلب من السائل الذي سأله العطاء حين لا يكون عنده ما يعطيه إياه، أن يبتاع عليه ما يريد ـ أي يشتري السائل ما يريد، ويكون ثمن الشراء دينا على النبي ﷺ يقوم بتسديده.

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه، فقال: (ما عندي ما أعطيك، ولكن ابتع عليَّ شيئاً، فإذا جاءني شيء قضيته، فقال عمر: يا رسول الله! قد أعطيته فما كلفك الله مالا تقدر عليه، فكَرِهَ النبي ﷺ قول عمر، فقال رجل يا رسول الله! أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا، فتبسَّم رسول الله ﷺ

(١) رواه أحمد بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح، وأخرجه البيهقي (ج ٦ ص ٣٥٦) من حديث عائشة بنحوه، قاله الهيثمي (ج١٠ ص ٢٤٠).

وعُرِف التبَسُّم في وجهه لقول الأنصاري وقال: (بهذا أُمِرت)[1] وفي هذا إشارة إلى ما رواه مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله قال لي: أَنفِق أُنفِق عليك).

وأخرج ابن جرير عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فسأله فأعطاه، ثم أتاه آخر فسأله فوعده، فقام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله! سُئِلتَ فأعطيت، ثم سئلت فوعدت، ثم سئلت فوعدت، فكأن رسول الله ﷺ كرهها، فقام عبدالله بن حذافة السّهميّ، فقال: أنفق يا رسول الله ولا تخش من ذي العرش إقلالا، فقال ﷺ: (بذلك أمرت)[2].

وكيف لا ينفق رسول الله ﷺ ولا يخش من ذي العرش إقلالا، وهو الذي قال لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا)[3].

لقد بلغ رسول الله ﷺ مرتبة الكمال الإنساني في حبه للعطاء، إذ كان يعطى عطاء من لا يَخْشَ من ذي العرش إقلالاً، ويجود جود من لا يحسب للفقر حساباً، ثقة بفضل الله العظيم، وإيماناً بأنه وحده هو الرزاق ذو القوة المتين وأنه جل شأنه صاحب الفضل العظيم.

---

(١) أخرجه الترمذي عن عمر بن الخطاب، وأخرجه أيضاً البزّار، وابن جرير، والخرائطي في مكارم الأخلاق، وسعيد بن منصور كما في الكنز (ح ٤ ص ٤٢).

(٢) كذا في الكنز (ح ٣ ص ٣١١) [عن حياة الصحابة /٢/١٦٨].

(٣) رواه البزّار بإسناد حسن (٣٦٥٣)، ورواه الطبراني في الكبير، وهو في صحيح الجامع برقم (١٥١٢).

ولقد ضرب رسول الله ﷺ بفعله القدوة العليا في الصدقة والعطاء والإنفاق في سبيل الله تعالى، فكانت تطبيقاته الفعلية في ذلك نوراً يهتدي به الصحابة المكرمون ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

كما كانت أقواله الشريفة ﷺ في الحث على الصدقة والترغيب فيها، قوة خلاَّقة تدفع النفوس المؤمنة دفعاً حثيثاً إلى الجود والعطاء بما تملك، ابتغاء مرضاة الله تعالى، وطمعا فيما أعده الله تعالى للمنفقين في سبيله من ثواب عظيم، وخوفا مما أعدَّ للبخلاء المُمسكين من عذاب أليم.

وقد وردت عشرات الأحاديث الشريفة في ذلك، والتي ترفع المتصدقين المنفقين في سبيل الله رب العالمين إلى أعلى عليين، كما تهبط بأهل البخل والشح إلى أسفل سافلين، ونذكر منها ما يلي[1]:

روى البخاري ومسلم ـ رحمهما الله ـ عن أبي ذر رضي الله عنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: (هم الأخسرون ورب الكعبة) فقلت: فداك أبي وأمي، من هم؟ قال: (هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا، وهكذا، وهكذا، من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، وقليل ما هم)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما نقصت صدقة

---

(١) وسيأتي الكثير منها بمشيئة الله تعالى من خلال الحديث على أنواع صدقة التطوع.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد، والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو في صحيح الجامع (٧٠٤٦).

من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل)[1].

وعن أبي أمامة صَديٍّ بن عجلان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (يا ابن آدم، إنك إن تبذل الفضل[2] خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تُلام على كفاف - ما تكُفّ به الحاجة - وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى)[3].

وعن أبي برزة الأسلمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله عز وجل حتى تكون مثل أُحد)[4].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (يقول العبد مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث، ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأبقى، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)[5].

وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: (أيكم مال وارثه أحبُّ إليه من ماله؟) قالوا: يا رسول الله! ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: (فإن ماله ما قدَّم ومال وارثه ما أخَّر)[6] وعن أم نُجيْد - رضي الله عنها - أنها قالت: يا رسول الله! إن المسكين ليقوم على بابي

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) الفضل: ما زاد على ما تدعو إليه حاجة الإنسان لنفسه ولمن يموّنه.

(٣) مسلم (١٠٣٦).

(٤) حسن بشواهده، قال الهيثمي: في مجمع الزوائد (٣/١١٠ - ١١١) رواه الطبراني في الكبير وفيه سوار بن مصعب، وهو ضعيف، ولكنه يتقوى بالشواهد الصحيحة.

(٥) رواه مسلم (٢٩٥٩).

(٦) رواه البخاري (٦٤٤٢) والنسائي (٦/٢٣٧).

فما أجد له شيئاً أعطيه إياه، فقال لها رسول الله ﷺ: (إن لم تجدي إلا ظِلْفاً مُحْرَقاً فادفعيه إليه في يده)[1].

(١) صحيح، رواه الترمذي (٦٦٥) وابن خزيمة (٢٤٧٣) وابن حِبّان (٣٣٦٣).

جماع هديه ﷺ وحكمته في صدقة التطوع

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله: كان رسول الله ﷺ أعظم الناس صدقة بما ملكت يده، وكان لا يستكثر شيئاً أعطاه لله تعالى، ولا يستقلُّه، وكان لا يسأله أحد شيئاً عنده إلا أعطاه، قليلاً كان أو كثيراً، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر، وكان العطاء والصدقة أحبَّ شيء إليه، وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير، يمينه كالريح المرسلة.

وكان إذا عَرَضَ له محتاج، آثره على نفسه، تارة بطعامه، وتارة بلباسه، وكان يُنَوِّع في أصناف عطائه وصدقته، فتارة بالهبة، وتارة بالصدقة وتارة بالهدية، وتارة بشراء الشيء ثم يعطى البائع الثمن والسلعة جميعاً، كما فعل ببعير جابر[1] وتارة كان يقترض الشيء، فيرد أكثر منه، ويقبل الهدية ويكافئ عليها بأكثر منها أو بأضعافها، تلطُّفاً وتنوُّعاً في ضروب الصدقة والإحسان بكل ممكن، وكانت صدقته وإحسانه بما يملكه، وبحاله، وبقوله، فيخرج ما عنده، ويأمر بالصدقة، ويحض عليها، ويدعو إليها بحاله وقوله، فإذا رآه البخيل الشحيح، دعاه حاله إلى البذل والعطاء، وكان من خالطه وصحبه، ورأى هديه لا يملك نفسه من السماحة والندى، وكان هديه ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥/٤) ومسلم (١٢٢/٣)، وفيه: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، غدَوت إليه بالبعير، فأعطاني ثمنه ورده علي.

يدعو إلى الإحسان والصدقة والمعروف ولذلك كان ﷺ أشرح الخلق صدراً، وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً، فإن للصدقة وفعل المعروفة تأثيراً عجيباً في شرح الصدر، وانضاف ذلك إلى ما خصه الله به من شرح صدره بالنبوة والرسالة، وخصائصها وتوابعها، وشرح صدره حساً وإخراج حظ الشيطان منه(١).

وقال الإمام أحمد بن محمد القسطلاني ـ رحمه الله ـ في كتابه النفيس (المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية):

وقد كان جوده ﷺ كله لله، وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطى عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا توقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع(٢).

نعم يا أبا القاسم، ومن يعطى عطاءك، إنك تعطى ذوي الحاجة المعدومين ما لا يمكن أن يمنحه غيرك، ولا تسمح به نفس غير العلِيَة، فأنت أكرم العالمين، وأسخى الأكرمين، وأجود الأنام(٣).

---

(١) زاد المعاد /٢/٢٢ـ٢٣ (ابن قيم الجوزية) ط مؤسسة الرسالة (بيروت ـ الطبعة السابعة والعشرون ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) انظر: المواهب اللدنية (٢/٣٧٢).

(٣) ولله در أحمد شوقي إذ أصاب كبد المعنى فقال: فإذا سخوت بلغت من جود المدى: وفعلت ما لا تفعل الأنواء ـ الأمطار ـ

فهو ﷺ بلا ريب أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريق، ومن إطعام جائعهم، ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتَحَمُّلِ أثقالهم، ولقد أحسن ابن جابر حيث قال:

يُروَى حديثُ النَّدى والبشرُ عن يده

ووجه بين مُنْهَلٍّ ومنسجمِ

من وجه أحمد لي بَدْرٌ وَمَنْ يَدُهُ

بحر ومن فمه دُرٌّ لمنتظمِ

يمم نبيا تبارى الريح أنمله

والمزن من كل هامٍ الودْقِ مرتكمِ

لو عامت الفلك فيما فاض من يده

لم تلق أعظم بحر منه إن تَعِمِ

تحيط كفَّاه بالبحر المحيط فَلُذْ

به ودع كل طامي الموج ملتطمِ

لو لم تحط كفه بالبحر ما شملت

كل الأنام وروت قلب كل ظمي

فسبحان من أطلع أنوار الجمال من أفق جبينه، وأنشأ أمطار السحاب من غائم يمينه[1].

(١)نساء أهل البيت (أحمد خليل جمعة) ط اليمامة- دمشق - الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ ص٤٥-٤٦.

ثانياً: أمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن ـ والتصدق في سبيل الله تعالى:

إن أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ هنَّ المثل الأعلى لكل منفقة ومحسنة ومتصدقة في سبيل الله تعالى، فهنّ خير نساء الأمة، وهن أمهات المؤمنين والمؤمنات جميعاً، وقد رفع الله مكانتهن فوق النساء، حيث قال جل شأنه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾[1].

وما ذلك إلا لالْتِصَاقِهِنّ أكثر من غيرهن بمشكاة النبوة المحمدية، فكنّ أكثر الناس تقوى وأغزرهم فضلاً، وأعمقهم إيماناً، وأعلاهم يداً في التصدق والإنفاق في سبيل الله تعالى، وإن لنا في سيرهنّ ومناقبهنّ لخير قدوة وأكرم أسوة، وها نحن أولاء نذكر بعضا من سيرهنّ في التصدق والإحسان في سبيل الله تعالى:

١ـ فخديجة بنت خويلد ـ أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ

كانت من أثرياء مكة، ولها تجارة رابحة تُدرُّ عليها المال الكثير، ولما تزوَّجت النبي ﷺ، قدمت نفسها وما لها في سبيل الله تعالى ومؤازرة رسول الله ﷺ بكل ما تستطيع، وكانت مؤمنة إيمانا عميقاً بالمبادئ الأخلاقية الكريمة التي تدعو إلى العطف والشفقة والرحمة بالمساكين، يدلنا على ذلك دلالة أكيدة، أن الرسول ﷺ لما نزل عليه

---

(١) الأحزاب /٣٢.

جبريل ـ عليه السلام ـ أول مرة في غار حراء بقول الله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (٣) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾[1] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقال: (زملوني، زملوني)، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: (لقد خشيت على نفسي)، فقالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب العدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

كانت ـ رضي الله عنها ـ تعلم أن الله تعالى يحب هذه الخصال الكريمة، وأن من يعمل بها تقربا إلى الله تعالى فلن يخزيه الله أبداً، ولقد قال عنها رسول الله ﷺ ردّاً على أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين قالت له لما رأت منه كثرة ذكره لخديجة وحسن ثنائه عليها: هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب رسول الله ﷺ حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال: (لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولادي إذ حرمني النساء) قالت عائشة ـ رضي الله عنها: (فقلت في نفسي: لا أذكرها بسيّئة أبداً)[2].

---

(١) العلق / ١ ـ ٥.

(٢) أخرجه المحب الطبري في (السمط الثَّمين) ١٥.

ولقد ظهر من برها وكرمها ما رفعها إلى مكانة عالية أثيرة، فقد أصابت الناس سنة جدب بعد زواجها من رسول الله ﷺ، وفي هذه السنة جاءت حليمة السعدية ـ مرضعة النبي ﷺ زائرة، فعادت ـ رضي الله عنها ـ من عنده ومعها من مال الطاهرة خديجة ـ رضي الله عنها ـ بعيراً يحمل الماء، وأربعين رأساً من الغنم،

ووصل برُّ الطاهرة خديجة وكرمها إلى أبعد من ذلك، حيث كانت (ثوبة) أول مرضعة للنبي ﷺ وسلم تدخل على النبي الكريم بعد أن تزوج الطاهرة خديجة، فكانت تكرمها وتصلها وفاء وكرما لزوجها سيدنا رسول الله ﷺ، ولذلك كان النبي ﷺ يجلُّها ويقدرها ـ رضي الله عنها وأرضاها[1].

٢ ـ ولقد كانت عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ مثالاً خلاقاً في الجود والتصدق في سبيل الله تعالى، ولها في السّخاء أخبار وأخبار، من ذلك ما رواه الإمام مالك في موطئه، أنه بلغه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن مسكينا سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيفاً ـ واحداً ـ فأمرت جارية لها أن تعطيه الرغيف، فقالت الجارية: ليس لك ما تفطرين عليه، فقالت: أعطه إياه، ففعلت، ويروي المؤرخون والمحدثون أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بعث إلى عائشة ـ رضي الله عنها بثمانين ألف درهم، وكانت صائمة وعليها ثوب خَلِق، فوزّعت هذا

(١) نساء مبشرات بالجنة (محمد خليل جمعة) دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م ـ الجزء الأول / ٣٢ ـ ٣٣.

المال من ساعتها على الفقراء والمساكين ولم تُبْقِ منه شيئاً، فقالت لها خادمتها: يا أم المؤمنين: ما استطعتِ أن تشتري لنا لحما بدرهمين تفطرين عليه؟ فقالت: يا بنية، لو ذكرتني لفعلت[1].

إن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قد آثرت المسكين بالرغيف وليس لها ما تفطر عليه، وآثرت الفقراء والمساكين بمئات الألوف من الدراهم، دون أن يقف في سبيلها جوع بطنها ولا ثوبها الخَلِق.

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن بن عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما رأيت أجود من عائشة وأسماء ـ رضي الله عنهما ـ وجودهما مختلف، أما عائشة فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، ثم تقسّمه.

وأما أسماء فكانت لا تمسك شيئاً لغد.

لقد كانت ـ رضي الله عنها ـ كثيرة الصدقات والمبرّات، حتى قال عبدالله بن الزبير في عطاء أعطته عائشة ـ رضي الله عنها ـ والله لتنتَهِيَنَّ عائشة أو لأحجرنَّ عليها، فقالت عائشة: هو قال هذا؟ قالوا: نعم، قالت: فلله عليَّ نذرٌ ألا أكلم ابن الزبير أبداً، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة، فقالت: والله لا أُشَفَّعُ فيه أبداً، فلما طال ذلك على ابن الزبير كلم المسور بن مخرمة، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وهما من بني زُهرة، فقال: أنشدكما بالله

(١) رواه الحاكم في المستدرك.

أن تدخلاني على عائشة، فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتي، فأقبل المسور، وعبدالرحمن، مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ قالت عائشة: ادخلوا، قالوا: أكُلُّنا؟ قالت: نعم، ادخلوا كلكم ـ ولا تعلم أن معهما ابن الزبير فلما دخلوا، دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة ـ هي خالته أخت أمه أسماء ـ وطفق يناشدها ويبكي، وطفق المسوّر وعبدالرحمن يناشدانها إلا ما كلمته وقبلت منه ويقولان: إن النبي ﷺ نهى عما عملتِ من الهَجر، وإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فلما أكثروا على عائشة ـ رضي الله عنها ـ من التذكّر والتحريج، طفقت تذكّرهما وتقول: إني نذرت والنذر شديد، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك وتبكي حتى تبل دموعها خمارها.

وبعث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ بطبق من ذهب فيه جوهر قُوِّمَ بمائة ألف، فقسّمته بين أزواج النبي ﷺ.

وقال عروة: كنت رأيت عائشة تَصَّدَّقُ بسبعين ألفا وأنها لترقِّع جانب درعها، فقيل لها في ذلك، فقالت: لا جديد لمن لا خَلِقَ له.

وقال أيضا: كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لا تمسك شيئاً مما جاءها من رزق الله تعالى إلا تصدقت به.

وقال سعيد بن عبدالعزيز الدمشقي: قضى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن

عائشة ـ رضي الله عنها ـ ثمانية عشر ألف دينار، وكانت عند عائشة طبق فيها عنب، فجاءها سائل فدفعت إليه حبة واحدة ـ لعلها الباقية في الطبق ـ فضحكت نساء كُنَّ عندها، فقالت: إن فيما ترين مثاقيل ذرّ كثيرة، أرادت قول الله عزَّ ذكره: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾[1] [2].

روى البخاري عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها أرادت أن تشتري بريرة للعتق، وأراد مواليها أن يشترطوا ولاءها، فذكرت عائشة ذلك للنبي ﷺ، فقال لها: (اشتريها، فإنما الولاء لمن أعتق...)[3].

٣ ـ وكانت زينب بنت خزيمة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ مثالا كريماً للبذل والتصدق في سبيل الله تعالى، قال الحافظ ابن حجر بعد أن أورد نسبها: وكان يقال لها أم المساكين، لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم وتحيطهم برقّتها وحنانها وبرها، واتفق المؤرخون في لقبها (أم المساكين) الذي يبدو أنه كان قديماً من أيام الجاهلية، لاشتهارها برحمة المساكين والعطف عليهم، فهي من أرق وأرحم النساء للفقراء والمساكين في الجاهلية والإسلام[4].

---

(١) الزلزلة / ٧.

(٢) أعلام النساء / عمر رضا كحالة، ط مؤسسة الرسالة (بيروت) الجزء الثالث ـ ص ١٢٥ ـ ١٢٧، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٣).

(٤) انظر: أمهات المؤمنين / ٤١، وأعلام النساء / ٢ / ٦٥ وانظر: مائة أوائل من النساء (سليمان سليم البواب) ط دار الحكمة ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م.

٤ ـ وكانت زينب بنت جحش أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ من أكرم أهل البر والإحسان والتصدق في سبيل الله تعالى.

فقد كانت امرأة صناع اليدين، فكانت تدبغ وتخرز، وتبيع ما تصنعه وتتصدق على المساكين، وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (قال رسول الله ﷺ: أسرعكنّ لحاقاً بي أطولكن يداً، قالت: فكن يتطاولن أيّتُهُنَّ أطول يداً، قالت: فكانت أطول يدا زينب، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق[١] وأكبر دليل على بذلها الأموال وزهدها في الدنيا ما حدّثت به برزة بنت رافع قالت: لما خرج العطاء أرسل عمر رضي الله عنه إلى زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ بالذي لها، فلما أُدخل إليها قالت: غفر الله لعمر بن الخطاب، غيري من أخواتي كانت أقوى على قَسمِ هذا مني، قالوا: هذا كله لك، قالت: سبحان الله، واستترت منه بثوب ثم قالت: صُبُّوه واطرحوا عليه ثوبا، ثم قالت لي: أدخلي يديك واقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان من ذوي رحمها وأيتام لها، فقسَّمَته حتى بقيت منه بقيّة تحت الثوب فقالت برزة لها: غفر الله لك يا أم المؤمنين، لقد كان لنا في هذا المال حق، قالت زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها: فلكم ما تحت الثوب، فوجدنا تحته خمسمائة وثمانين درهما، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا[٢]. قال: فماتت.

(١) رواه مسلم والنسائي عن عائشة ـ رضي الله عنها وهو في مختصر مسلم (١٦٧٥) وفي صحيح الجامع (٩٦٣).

(٢) أعلام النساء / ٢/٦١ ـ ٦٢.

وروى ابن سعد انه لما حُمِل إلى زينب المال جعلت تقول: اللهم لا يدركني قابل هذا المال فإنه فتنة، ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة حتى أتت عليه، فبلغ ذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: هذه امرأة يراد بها خير، فوقف على بابها وأرسل بالسلام وقال: قد بلغني ما فرَّقت، فأرسل إليها بألف درهم تستبقيها، فسلكت بها طريق ذلك المال[1].

وقد أثنى العظماء والعلماء والمؤرخون العدول على أم المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها.

قال الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ عنها: كانت دَيِّنة كثيرة البر والصدقة، وفي مكان آخر يثني عليها الذهبي أيضاً بقوله: كانت من سادة النساء دينا وورعاً وجوداً ومعروفاً ـ رضي الله عنها.

وفي تاريخه ذكرها ابن كثير ـ رحمه الله ـ وأثنى عليها ثناء عطراً فقال: كانت زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ من المهاجرات الأول، وكانت كثيرة الخير والصدقة.

ونقل الذهبي عن الواقدي هذا الثناء الذي يشهد بفضل أم المؤمنين زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ فيقول: وكانت امرأة صالحة صوامة قوامة صناعاً تتصدق بذلك كله على المساكين[2] لقد كانت ـ رضي الله عنها ـ زاهدة في الدنيا، ما تركت درهماً ولا ديناراً، كانت تتصدق بكل ما قدرت عليه، وكانت مأوى المساكين.

---

(١) نساء مبشرات بالجنة / أحمد خليل جمعة / دار ابن كثير ـ دمشق. الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١ / ١ / ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) نساء مبشرات بالجنة / ١ / ٢٦٩.

وتوفيت ـ رضي الله عنها ـ في خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم تترك بعد وفاتها ديناراً ولا درهماً، وتركت منزلها فباعوه من الوليد بن عبدالملك حين هدم المسجد، بخمسين ألف درهم، وجعلت عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ بعد وفاة زينب بنت جحش أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ تبكي وتترحّم عليها وتقول: كانت زينب تُساميني من بين أزواج النبي ﷺ في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين وأنقى وأتقى لله عز وجل وأصدق حديثاً وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي يُصَدَّقُ به ويتقرب به إليه عز وجل ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفتنة[1].

وقالت عنها أيضا لما توفيت: ذهبت حميدة فقيدة مفزع اليتامى والأرامل[2].

(١) أعلام النساء / ٢ / ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) طبقات ابن سعيد ٨/١١٠، وانظر (الإصابة) والسمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، عن [أمهات المؤمنين لأحمد شرف الدين / ٥٦□ الطبقة الثانية ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٨م.

ثالثاً: الخلفاء الأربعة الراشدون والتصدق والإنفاق في سبيل الله تعالى:

الخليفة الأول (أبوبكر الصديق) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وجوده وكرمه وإحسانه:

كان أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثالاً كريماً للبذل والجود والتصدق في سبيل الله تعالى، وضرب في ذلك أروع الأمثال وأصدق الفِعَال، فقد أنفق المال الكثير لتحرير الأرقاء المعذبين في الله تعالى ومنهم بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مؤذن الرسول ﷺ فقد تعرض لعذاب عظيم، ولم يكن له ظهر يسنده، ولا عشيرة تحميه، ولا سيوف تذود عنه، وعندما علم سيده أمية بن خلف بإسلامه، حَنَقَ عليه وقرر أن يعذبه عذاباً شديداً فأخرجه إلى شمس الظهيرة في الصحراء بعد أن منع عنه الطعام والشراب يوماً وليلة، ثم ألقاه على ظهره فوق الرمال المحرقة الملتهبة، ثم أمر غلمانه فوضعوا صخرة عظيمة فوق صدره، وهو مقيّد اليدين، ثم قال له: لاتزال هكذا حتى تموت أو تكْفُرَ بمحمد وتعبد اللات والعزى، وأجاب بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ثبات: أَحدٌ.. أَحدٌ، وبقي أمية بن خلف مدة وهو يعذب بلالاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتلك الطريقة البشعة، فقصد أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقع التعذيب بعد أن علم به، وفاوض أمية بن خلف على بلال وأعطاه عبداً غيره، وفي رواية أنه اشتراه بسبع أواق أو أربعين أوقية ذهبا، ثم أعتقه في سبيل الله تعالى.

واستمر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سياسة فك رقاب المسلمين المعذبين في الله، فراح يشتري العبيد والإماء المملوكين من المؤمنين والمؤمنات، منهم عامر بن فهيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهد بدراً وأُحداً وقتل يوم بئر معونة شهيداً، ومنهم أم عبيس، وزنّيرة، وأعتق النهديّة وابنتها، وغيرهم.

لقد كان قلبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسيل رقة ورحمة على الضعفاء والأرقاء، وأنفق جزءاً كبيرا من ماله في شراء العبيد وعتقهم لله تعالى، قبل أن تنزل التشريعات الإسلامية المحبِّبةُ في العتق، والواعدة عليه أجزل الثواب، ولقد كان المجتمع المكي يتندّر بأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي يبذل هذا المال كله لهؤلاء المستضعفين[١].

ولقد تحدث الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ عن سبق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في التصدق بما له وإنفاقه في سبيل الله تعالى، ومنهم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال: أمرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، قلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما أبقيت لأهلك؟) قلت: مثله، وأتى أبوبكر بكل ما عنده، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما أبقيت لأهلك؟) قال أبوبكر: أبقيت لهم الله ورسوله، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا أسابقك إلى شيء أبداً[٢].

---

(١) الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق (د/علي محمد محمد الصّلابي) ط مكتبة الصحابة ـ الإمارات ـ الشارقة ـ الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م ص٤٢ ـ ٤٤.

(٢) رواه أبوداود، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، وحسّنه الألباني في المشكاة برقم

ولقد قال رسول الله ﷺ في حق أبي بكر رضي الله عنه: (إن من أَمَنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبوبكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام)[1].

وقال ﷺ فيما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة: (ما لإحد عندنا يد إلا وقد كافأناه، إلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعني مال أحد قطّ ما نفعني مال أبوبكر)[2].

وفي قوله عز وجل في سورة (الليل): ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

ذهب جمع غفير من المفسرين، إلى أن هذه الآيات الكريمة نزلت في حق أبي بكر الصديق رضي الله عنه بل إن منهم من حكى بالإجماع في ذلك، كالإمام الفخر الرازي في تفسيره[3].

ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فهو مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صدّيقاً تقيّاً كريما جواداً بذّالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسوله محمد ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم

(٦٠٢١).

(١) متفق عليه، البخاري (٢٦٥٤) ومسلم (١٠٨/٧) ورواه الترمذي (٣٩٢٠).

(٢) رواه الترمذي وحسَّنه (٣٩٢٣) وابن ماجه (٩٤) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٨٩٤).

(٣) تفسير الرازي / ٣ / ٢٠٥.

يكن لأحد من الناس عنده منّة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود، وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يَدٌ لك عندي لم أجزِكَ بها، لأجبتُك، وكان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم.

روى الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريّان، فقال أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بأبي أنت وأمي ما على ما دُعي من هذه الأبواب ضرورة، فهل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم)[1].

وهكذا شهد القرآن العظيم، ورسول الله الكريم، والمسلمون جميعاً، أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد قدّم نفسه وماله وكل ما يملك في سبيل نصرة الإسلام ومؤازرة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى.

---

(١)() رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح، باب (٦٠) تحفة الأحوذي / ١٠ / ١٥٩ ـ ١٦٠، وقد أخرجه البخاري مختصرا في ٣٠ كتاب الصوم ـ باب الريان للصائمين، حديث رقم (٩٦٣) عن أبي هريرة.

الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وجوده وإحسانه وبذله الأموال في سبيل الله تعالى:

كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جواداً كريماً متصدقاً ومنفقاً في سبيل الله تعالى، ولقد رأيناه قريباً وهو يتنافس في الخير والعطاء في سبيل الله تعالى مع أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد أتى بنصف ماله، وهذا شيء لا يقدر عليه إلا أصحاب النفوس العالية الكريمة، وأصحاب القلوب المؤمنة الصادقة، والمصدّقة بأن ما عند الله تعالى هو خير وأبقى.

ولقد أخرج الأئمة الستة عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أصاب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بخيبر أرضاً فأتى النبي ﷺ فقال: أصبت أرضاً لم أصب مالا قط أنفس منه، فكيف تأمرني به؟ قال: (إن شئت حبست أصلها وتصدّقت بها) فتصدق بها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها لا يباع أصلها ولا توهب ولا تورث، في الفقراء والقربى والرقاب وفي سبيل الله والضيف، ولا جناح على من وَلِيَها أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقاً غير متمول منه[1].

فهذا الموقف العمريّ فيه فضيلة ظاهرة للفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورغبته في المسارعة في الخيرات، وإيثاره للحياة الآخرة على الحياة الدنيا[2] ويدلنا على ذلك ما رواه مسلم عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنما ـ قال:

(١) متفق عليه، وهو في البخاري ـ كتاب الوصايا برقم ٢٧٧٣.

(٢) فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب أمير المؤمنين (د/ علي محمد محمد الصّلابي) ط مكتبة التابعين ـ القاهرة ـ عين شمس الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢م ص ٦٧.

سمعت عمر بن الخطاب يقول: قد كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه من هو أفقر مني، حتى أعطاني مرّة مالا، فقلت: أعطه من هو أفقر مني، فقال رسول الله ﷺ: خذه، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك)[1].

وكان يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن صار أميراً للمؤمنين، وانشغل بمصالح الأمة عن مصالح نفسه: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة قيّم اليتيم، إن استغنيت عنه تركت، وإن افتقرت إليه أكلت بالمعروف[2] وقد أخذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه وأهله بحال من التقشف وخشونة العيش حتى ساوى البائس الفقير، الذي إنما يعيش بما يتبلَّغُ به مما يمسك الرمق ويدفع الجوع، ومع ذلك فكان كلما جاءه مال تصدق به وأعان به المحتاج من المسلمين، روى الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدّرّة، فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي، فقال: أَمِط الطريق، فلما كان في العام المقبل لقيني، فقال: يا سلمة تريد الحج؟ فقلت: نعم، فأخذ بيدي فانطلق إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال: استعن بها على حجك، واعلم انها بالخفقة التي خفقتك، قلت: يا أمير المؤمنين ما ذكرتها، قال: وأنا ما نسيتها[3].

إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعطى أبا إياس هذا المال

---

(١) رواه مسلم (كتاب الزكاة) برقم ١٠٤٥.

(٢) سنده صحيح، الخلافة الراشدة (يحيى اليحيى) ص ٢٧٠ [عن كتاب فصل الخطاب].

(٣) الخلفاء الراشدون (عبدالوهاب النجار) ط دار القلم ـ بيروت. الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٢م / ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

الكثير ليعينه على حجه، ويتلطف معه ويترقق ويتودد ويقول له: إن هذا المال في مقابل تلك الخفقة ـ على طرف الثوب ـ في الوقت الذي يمنع فيه أهله عن التوسع في مطايب العيش ويلزم نفسه ويلزمهم بعيشة الكفاف، ويُقتّر عليهم تقتيراً، ولا يسمح لأحد من أهل بيته أن ينتفع بشيء ليس له فيه حق، ومع كل هذا فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خير المتصدقين، ومن أكرم المنفقين أموالهم ابتغاء وجه ربهم الكريم.

الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وكرمه وجوده وصدقته وبذله الأموال في سبيل الله تعالى:

إن الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مثالاً رائعاً للمنفقين والمتصدقين والباذلين أموالهم ابتغاء مرضاة الله تعالى، كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أكرم الأمة وأسخاها، وقد أضاءت مآثره في ذلك طريق الإحسان عبر الزمان، وكشفت أفعاله الخيرية عن قلب مؤمن كريم نقيّ تقيّ، يتدفق بالعطاء والإنفاق في سبيل نصرة الإسلام ومؤازرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وها هي بعض مآثره العظيمة:

فحين هاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه - رضي الله عنهم - إلى المدينة واستقروا فيها، وفاجأتهم مشكلة الماء، وكان فيها عين تفيض بماء عذب طيب المذاق تدعى (بئر رومة) ويملكها رجل يهودي يبيع ملء القربة بمُدّ، وتمنى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو يجد من أصحابه - رضوان الله عليهم - من يشتريها، حتى يفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمن، وسارع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى تحقيق رغبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعرض على اليهودي صاحب البئر أن يبيعها له فأبى، فساومه على نصفها واشتراه باثني عشر ألف درهم، على أن تكون لعثمان يوماً ولليهودي يوماً، فكان المسلمون يستسقون في يوم عثمان ما يكفيهم يومين، ووجد اليهودي نفسه وقد خسر سوقه التي كانت رائجة، فعاد يعرض على عثمان أن

يشتري منه النصف الثاني، فاشتراه عثمان، وفاضت البئر بمائها تروي أهل المدينة بغير ثمن وبغير حساب[(١)].

وهناك رواية أخرى عن بئر رومة هذا، وهي: أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد أن الماء العذب قليل، وليس بالمدينة ما يستعذب غير (بئر رومة) فقال رسول الله ﷺ: (من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له في الجنة)[(٢)] وقال ﷺ: (من حفر بئر رومة فله الجنة)[(٣)] وقد كانت بئر رومة لا يشرب منها أحد إلا بثمن، فلما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء، وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها (رومة) وكان يبيع منها القربة بِمُدّ، فقال النبي ﷺ: (تبيعها بعين في الجنة؟) فقال: يا رسول الله ليس لي ولا لعيالي غيرها، فبلغ ذلك عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فاشتراها بخمس وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أتجعل لي فيها ما جعلت له؟ قال: (نعم) قال: قد جعلتها للمسلمين[(٤)].

وبعد أن بنى رسول الله ﷺ مسجده في المدينة صار المسلمون يجتمعون فيه ليصلوا الصلوات الخمس، ويحضروا خطب النبي ﷺ التي يصدر إليهم فيها أوامره ونواهيه، ويتعلمون في المسجد أمور دينهم، وينطلقون منه إلى الغزوات ثم يعودون بعدها، ولذلك ضاق

(١) انظر: فتح الباري (٥/٤٠٨)، والحكمة في الدعوة إلى الله ص ٢٣١.

(٢) صحيح النسائي للألباني (٢/٧٦٦).

(٣) أخرجه البخاري برقم ٢٧٧٨ معلقاً وهو صحيح لشواهده.

(٤) تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي (١٠/١٩٦)

المسجد بالناس، فَرَغِبَ النبي من بعض أصحابه أن يشتري بقعة بجانب المسجد، لكي تزاد في المسجد حتى يتسع لأهله، فقال ﷺ: (من يشتري بقعة آل فلان فيزيد في المسجد بخير له منها في الجنة؟) فاشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه من صُلب ماله[1] بخمسة وعشرين ألف درهم، أو بعشرين ألفاً، ثم أُضِيفت للمسجد[2] ووسّع على المسلمين رضي الله عنه وأرضاه[3].

وفي العام التاسع للهجرة عندما أراد الرسول ﷺ القيام بغزوة (تبوك)، حث الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على البذل لتجهيز جيش العسرة الذي أعده رسول الله ﷺ، لغزو الروم، فأعطى كلٌ قدر وسعه، وسارعت النساء بالحلي يُقَدِّمنه إلى رسول الله ﷺ ليستعين به في إعداد الجيش، بيد أن التبرعات جميعها لم تكن لتغني كثيراً أمام المتطلبات للجيش الكبير، ونظر الرسول ﷺ إلى الصفوف الطويلة العريضة من الذين تهيأوا للقتال وقال: من يجهز هؤلاء ويغفر الله له؟

وما كاد عثمان رضي الله عنه يسمع نداء الرسول ﷺ هذا، حتى سارع إلى مغفرة من الله ورضوان، وهكذا وجدت العسرة الضاغطة عثمانها

---

(١) صحيح سنن الترمذي للألباني (٣/٢٠٩) رقم ٢٩٢١.

(٢) صحيح سنن النسائي (٢/٧٦٦).

(٣) الحكمة في الدعوة إلى الله / ٢٣١ [عن كتاب تيسير الكريم المنّان في سيرة عثمان بن عفان] (د/على محمد محمد الصلابي) مكتبة التابعين ـ القاهرة ـ عين شمس، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م. ص ٤٥ ـ ٤٦.

المعطاء[1] وقام ﷺ بتجهيز الجيش، يقول ابن شهاب الزهري: قَدَّم عثمان لجيش العسرة في غزوة تبوك تسعمائة وأربعين بعيراً، وستين فرساً أتم بها الألف، وجاء عثمان إلى رسول الله ﷺ في جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبَّها بين يديه، فجعل الرسول يقلبها بيده ويقول: ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم، مرَّتين.

لقد كان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب القدح المعلى في الإنفاق في هذه الغزوة[2] وكأنه الممول الأكبر للأمة الجديدة المؤمنة.

وهذا عبدالرحمن بن حباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدثنا عن نفقة عثمان في غزوة العسرة هذه فيقول: شهدت النبي ﷺ وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله! عليّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله على ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه[3] وعن عبدالرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فجعل النبي ﷺ يُقلِّبها

---

(١) فتح الباري (٦٧/٧) وخلفاء الرسول / ٢٥٠، والعشرة المبشرون بالجنة، محمد صالح عوض / ٥٣ [عن كتاب: تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان] ص ٤١.

(٢) سنن الترمذي (٣٧٨٥) وصحيح التوثيق / ٢٦.

(٣) سنن الترمذي رقم ٣٧٠٠.

بيده ويقول: ما ضرّ بن عفان ما عمل بعد اليوم، يرددها مراراً[1].

لقد ظل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دوماً سريع التلبية لكل إيماءة من النبي ﷺ تعني جديداً من البذل، ومزيداً من العطاء[2].

وفي الأزمة الاقتصادية التي حدثت في عهد الصديق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث اجتمع الناس إليه فقالوا: السماء لم تمطر، والأرض لم تنبت، والناس في شدة شديدة، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انصرفوا واصبروا، فإنكم لا تُمسون حتى يفرج الله الكريم عنكم، قال: فما لبثنا أن جاء أُجراء عثمان من الشام، فجاءته مائة راحلة بُرّاً - أو قال طعاماً - فاجتمع الناس إلى باب عثمان، فقرعوا عليه الباب، فخرج عليهم عثمان في ملأ من الناس فقال: ما تشاءون؟ قالوا: الزمان قد قحط: السماء لا تمطر، والأرض لا تنبت، والناس في شدة شديدة، وقد بلغنا أن عندك طعاماً، فبعنا حتى نوسع على فقراء المسلمين، فقال عثمان: حُبّاً وكرامة، ادخلوا فاشتروا، فدخل التجار، فإذا الطعام موضوع في دار عثمان فقال: يا معشر التجار! كم تُربِحُونني على شرائي من الشام؟ قالوا: للعشرة اثنا عشر، قال عثمان: قد زادوني، قالوا: للعشرة خمسة عشر، قال عثمان: قد زادوني، قال التجار: يا أبا عمرو! ما بقى بالمدينة غيرنا فمن زادك؟ قال: زادني الله - تبارك وتعالى - بكل درهم عشرة، أعندكم زيادة؟ قالوا: اللهم لا، قال: فإني أشهد الله أني قد جعلت هذا

(١) سنن الترمذي رقم ٣٧٠٢.

(٢) خلفاء الرسول / ١٣٨، والعشرة المبشرون بالجنة، عن كتاب (تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان) / ٤١ ـ ٤٢.

الطعام صدقة على فقراء المسلمين[1].

قال ابن عباس: فرأيت من ليلتي رسول الله ﷺ في المنام وهو على برذونٍ أبلق[2] عليه حُلّة من نور، وفي رجليه نعلان من نور، وبيده قصبة من نور، وهو مستعجل، فقلت: يا رسول الله قد اشتد شوقي إليك وإلى كلامك فأين تبادر؟ قال: يا ابن عباس: إن عثمان قد تصدق بصدقة، وإن الله قد قبلها منه وزوجه عروساً في الجنة، وقد دُعينا إلى عرسه[3] فما أحوج المسلمين في هذه المرحلة من حياتهم إلى نفحة عثمانية في إنفاق الأموال على الفقراء والمساكين والمحتاجين تسري بينهم تعاطفاً ومواساة وبراً وإحسانا[4] وكان رضي الله عنه يعتق كل جمعة رقبة في سبيل الله تعالى منذ أسلم، فجميع ما أعتقه ألفان وأربعمائة رقبة تقريباً[5].

وقد روي أنه كان له على طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه وكان طلحة من أجود الناس ـ خمسون ألفاً، فقال له طلحة يوماً: قد تهيَّأ مَالَكَ فاقبضه، فقال له عثمان: هو لك معونة على مروءتك[6].

لقد كان سخاء عثمان رضي الله عنه وجوده، صفة أصيلة في شخصيته الفذة، فقد وظف أمواله في خدمة دين الله تعالى فلم يبخل في تأسيس الدولة الإسلامية، والجهاد في سبيل الله تعالى، وخدمة المجتمع ابتغاء

(١) الخلفاء الراشدون (حسن أيوب) ١٩١، والرقة والبكاء (لابن قدامه) ١٩.
(٢) فرس فيه سواد وبياض.
(٣) الرقة والبكاء / ١٩٠.
(٤) تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان / ٥٤ ـ ٥٥.
(٥) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي (٣٢٧/١).
(٦) البداية والنهاية (٢٢٧/٧).

مرضاة الله تعالى.

هذا، ولما فتح الله تعالى مكة لرسوله محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين، رأى أن يوسع المسجد الحرام، فعرض على أصحاب بيت ملاصق للمسجد أن يتبرعوا به لغرض توسعة المسجد، فاعتذروا لأنهم لا يملكون غيره، وليس لهم مال يشترون به سواه، وعلم عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالأمر، فسارع إلى صاحب الدار واشتراها منه بعشرة آلاف درهم.

وهكذا كان عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نهراً جارياً بالخير والعطاء والنفقة في سبيل الله تعالى. هذا ومع ثرائه هذا، إلا أنه كان من الزاهدين في الدنيا راغباً فيما عند الله تعالى.

أخرج الإمام أحمد من حديث ميمون بن مهران قال: أخبرني الهمداني أنه رأى عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على بغلة وخلفه غُلامه نائل، وهو خليفة[1] وكذلك ما أخرجه من حديث الهمداني قال: رأيت عثمان نائماً في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين.

كما أخرج من حديث شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل إلى بيته فيأكل الزيت والخل[2].

---

(١) الزهد للإمام أحمد / ١٢٧.

(٢) الزهد للإمام أحمد / ١٢٩.

الخليفة الرابع (علي بن أبي طالب) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وجوده وكرمه وإحسانه:

إن أمير المؤمنين عليّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد تربى في بيت النبوة الكريم، وتأثر بالتربية القرآنية والنبوة، وترك لنا آثاراً بارزة دالة على تأصل خلق الجود والكرم في شخصيته العظيمة، فقد ذكر الحافظ بن كثير من خبر الأصبغ بن نباته: أن رجلاً جاء علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي إليك حاجة، فَرفَعتُها إلى الله تعالى قبل أن أرفعها إليك، فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذلّ السؤال في وجهك، فكتب: إني محتاج، فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: علي بِحُلَّة، فأُتي بها، فأخذها الرجل فلبسها ثم أنشأ يقول:

كسوتني حلةً تُبلى محاسنها

فسوف أكسوك من حسن الثناء حُللاً

إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة

ولستُ أبغي بما قلتُه بدلاً

إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه

كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا

لا تزهد الدهر في خير تواقعه

فكل عبد سيجري بالذي عملا

فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عليَّ بالدنانير، فأُتي بمائة دينار فدفعها إليه، فقال الأصبغ: يا أمير المؤمنين، حُلة ومائة دينار، قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أنزلوا الناس منازلهم) وهذه منزلة الرجل عندي فهذا موقف جليل لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الوقوف عند حاجات المحتاجين، والاهتمام بأمورهم، ورعاية مشاعرهم، وقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يفرح بقدوم الضيف، ويكرم إخوانه في الله ويتفقدهم، فعن أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني، وقال: لعشرون درهما أعطيها أخي في الله، أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين، وعندما سئل عن السخاء قال: ما كان منه ابتداءً، وأما ما كان من مسألة فحياء وتكرُّم، وقد جعل في حياته أوقافا لله تعالى، حيث جعل أرضه بينبع وقفاً، وكتب فيها كتاباً: هذا ما أمر به علي بن أبي طالب، وقضى في ماله: إني تصدَّقت بينبع ووادي قرى الأذينة وراعة في سبيل الله وذي الرحم القريب والبعيد، ولا يوهب ولا يورث، حَيًّا أنا أو ميِّتاً، وقد قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن صدقته: لقد رأيتني وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار، ولم يرد بقوله: أربعة آلاف دينار زكاة ماله، وإنما أراد الوقوف التي جعلها صدقة، كان الحاصل من دخلها صدقة هذا العدد[1] أخرج العسكري عن عبيد الله بن محمد بن عائشة قال: وقف سائل على أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال للحسن

---

(١) أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ (د/ علي محمد محمد الصّلابي) ط دار الإيمان ـ الأسكندرية / ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

وللحسين ـ رضي الله عنهما ـ اذهب إلى أمك فقل لها: تركت عندك ستة دراهم فهات درهما، فذهب ثم رجع فقال: قالت: إنما تركت ستة دراهم للدقيق، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه مما في يده، قل لها: ابعثي بالستة دراهم، فبعثت بها إليه فدفعها إلى السائل، ثم جاء صاحب بعير يعرضه على عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليشتريه، فاشتراه منه بمائة وأربعين درهماً، على أن يؤخره بثمنه شيئاً من الوقت، ثم أقبل رجل فاشترى البعير بمائتين، فأعطى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب البعير مائة وأربعين درهماً، وجاء بستين درهماً إلى فاطمة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: ما هذه؟ قال: هذا ما وعدنا الله على لسان نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾[1] [2].

إن أمير المؤمنين عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يدخر مالاً ولم يبق ميراثاً، ودليل ذلك ما قاله ابنه الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد مقتله: لقد فارقكم رجل ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادماً، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحث الناس على إكرام العشيرة فيقول: أكرم عشيرتك فإنهم جناحُك الذي به تطير، فإنك بهم تصول وبهم تطول، وهم العدّة عند الشدة، أكرم كريمهم، وعُد سقيمهم، وأشركهم في أمورك، ويسّر عن مُعسرهم[3].

(١) سورة الأنعام / ١٦٠.

(٢) كذا في الكنز / ح ٣ ص ٣١١.

(٣) أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب / ٢٥٥.

الباب الثاني)

(الفصل الثاني)

(صدقات الأسرة)

أولاً: صدقة الزوج على نفسه وزوجه وولده ومن تلزمه نفقته.

ثانياً: صدقة الزوجة على نفسها وزوجها وولدها.

ثالثاً: ثواب المرأة تتصدَّق من بيت زوجها.

رابعاً: أَجرُ المتصدق للخازن الأمين.

خامساً: أجر الصدقة للعبد الذي يتصدَّق من مال سيده.

أولاً: صدقة الزوج على نفسه وزوجه وولده ومن تلزمه نفقته:

هذه الصدقة نوع من أنواع الصدقات التي لا تكلف المسلم شيئاً ما، اللهم إلا بالنية الصالحة، والغريب فيها والمبهر حقاً أنها طعام المؤمن وشرابه وكسوته وسائر متطلبات أمور حياته المعيشية له ولزوجه وأولاده ومن تلزمه نفقتهم، فهل يصَدِّق أحد أن ما سبق من إنفاق يمكن أن يكتب للمسلم صدقات طيبات مقبولات عند الله تعالى؟

نعم، المؤمن يُصدِّقُ ذلك ويعلمه، فالله الرحمن الرحيم قد فتح للمسلم أبواباً للخير لا تعد ولا تُحصى، من ذلك أن جعل الله إنفاق الزوج على زوجته وعياله ومن تلزمه نفقتهم صدقة عظيمة ومقبولة، ولنستمع في ذلك إلى قول المصطفى ﷺ: (دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك)[1].

وروى مسلم أيضاً عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله)[2]، قال أبوقلابة، وبدأ بالعيال ثم قال: وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار يعفهم أو ينفعهم الله به).

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة (٩٩٥) وأحمد في المسند (٢/٤٧٦) وهو في صحيح الجامع (٣٣٩٨).

(٢) رواه مسلم عن ثوبان (٩٩٤) وأحمد في المسند (٥/٢٧٧).

وقال الإمام النووي هنا: مقصود الباب الحث على النفقة على العيال وبيان عظم الثواب فيه لأن منهم من تجبُ نفقته بالقرابة، ومنهم من تكون مندوبة، وتكون صدقة وَصِلَة، ومنهم من تكون واجبة بملك النكاح أو ملك اليمين، وهذا كله فاضل محثوث عليه، وهو أفضل من صدقة التطوع، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك) مع أنه ذكر قبله، النفقة في سبيل الله وفي العتق والصدقة، ورجح النفقة على العيال على هذا كله لما ذكرناه، وزاده تأكيداً بقوله ﷺ في الحديث الآخر: (كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته) وفي رواية أبي داوود (كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت)[1].

وعن المقدام بن سعد يكرب (الكندي أبي كريمة) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت وَلدَك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة)[2]، وهذا يعني بكل وضوح أن الله تعالى يثيب المؤمن على النفقة الواجبة عليه لنفسه وزوجه وأولاده وخادمه كثواب الصدقة بل وأعظم كما ثبت في الأحاديث السابقة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (تصدقوا، قال رجل عندي دينار، قال: تصدق به على نفسك، قال عندي دينار آخر،

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو داود (١٦٩٢) وأخرجه أحمد (٢/١٦٠) وصححه الحاكم (١/٤١٥) ووافقه الذهبي، وهو في صحيح الجامع (٤٤٧٩) وقال الألباني: (صحيح).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ورواه الطبراني في المعجم الكبير وسنده جيد. [وانظر الفتح الرباني م٩ ص ١٩٠ برقم ٢٢٨].

قال: تصدق به على زوجتك، قال عندي دينار آخر، قال تصدق به على ولدك، قال عندي دينار آخر، قال: تصدق به على خادمك، قال: عندي دينار آخر، قال: أنت أبصر به)[1]، يعني أنت أدرى بذوي قرباك فقدِّم.

والسؤال الهام الذي يجب طرحه هنا هو: هل كل مسلم ينفق على نفسه وأولاده وزوجه وخادمه يكون له في نفقته تلك، ثواب الصدقة؟ أم أن لذلك شروطاً؟.

والإجابة هي: ليس لكل مسلم ذلك، بل يشترط في نفقته لتكون صدقة مقبولة، أن ينوي بها التقرب إلى الله تعالى وامتثال أوامره كما قال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾[2].

وهذا القيد جاء تصريحاً، فعن أبي مسعود البدري عن النبي ﷺ قال: (إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة)[3]، ففي هذا الحديث الشريف بيان واضح على أن المراد بالنفقة التي تكون صدقة للمسلم، هي التي ينفقها على أهله وهو يحتسبها، أي يريد بها وجه الله تعالى ومرضاته، وطريقته في الاحتساب أن يتذكر أنه يجب عليه الإنفاق على زوجه وأطفال أولاده، أي الذين لم يبلغوا، والمملوك وغيرهم ممن يجب نفقته على حسب أحوالهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد، وأبو داود والنسائي، والحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي. [الفتح الرباني م ٩ ص ١٩١ برقم ٢٤٠].

(٢) سورة الطلاق / ٧.

(٣) متفق عليه، البخاري (٩/٤٣٧) ومسلم (١٠٠٢).

وعلى ما تقدم فلا يدخل في الصدقة ما أنفقه المسلم على نفسه أو عياله وهو ذاهل أو غائب عن معنى احتسابها والتقرب بها إلى الله تعالى طاعة وامتثالاً لأمره، ومما يوضح ذلك ويؤكده ما جاء في الحديث عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في حديثه الطويل في باب النفقة أن رسول الله ﷺ قال له: (وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرتَ بها حتى ما تجعل في فِيّ امرأتك)[1]، فقوله ﷺ: (تبتغي بها وجه الله) يبين القصد والاحتساب في النفقة المقبولة صدقة، أما من ينفق كعادة كل الناس دون أن يقصد وجه الله تعالى وطاعته فليس له في نفقته شيء لقوله ﷺ: (إنَّمَا الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى)[2].

وعلى هذا فالفرق عظيم بين من ينفق على أهله وفي يقينه الله الغنيُّ الحميد، وبين من ينفق على أهله وهو غافل عن ربه بعيد عن تصحيح النية ذاهل عن الحكم والحكمة، إنه والله لخاسر خسارة فادحة، وهنا يظهر الفرق بين المسلم العالم بدينه الذي يحظى بنيل الفضل والأجر الكبير، وبين المسلم الجاهل بدينه الذي يضيع على نفسه الكثير والكثير، فالمطلوب منا أن نصحح النية ونحتسب نفقتنا على أنفسنا وأزواجنا وأولادنا ومن تلزمنا نفقتهم نحتسبُها لله تعالى طائعين راجين ثواب الله تعالى ومرضاته حتى ننال من الله المنعم الكريم ثواب ما أنفقنا طاعة له جل شأنه.

(١) متفق عليه، البخاري (١٣٢/٣) ومسلم (١٦٢٨)، وقوله: في فيّ امرأتك: أي: في فمها.

(٢) متفق عليه، البخاري (٧/١) ومسلم (١٩٠٧) عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ورواه غيرهما.

ثانياً: (صدقة الزوجة على نفسها وزوجها وولدها)

ما أسعد المرأة المسلمة برضوان ربها حين تفتح بنور قلبها المؤمن ورحمة فؤادها المشفق وود روحها الحاني باباً طيباً، فتنفق من مالها الخاص على نفسها وزوجها وأولادها، إنها حينئذ ستكون في روضات من رحمة الله تعالى، وفي فيوضات من نعمة المنان جل وعلا، وكيف لا؟ وقد تطوعت مختارة بمالها لتسيير حياة بيتها، كسوة وطعاماً وشراباً ومصالح أخرى متشعبة، في الوقت الذي ليس عليها من هذه النفقة شيء أصلاً، بل من حقها الثابت شرعاً وهي زوجة في عصمة زوجها أن ينفق الزوج عليها وأن يقوم بكل ما تتطلبه الحياة الزوجية من نفقات مختلفة، ولكنَّها أبَتْ إلا أن تكون منفقة سخية، وإلا أن تكون محسنة تقية، فكيف يكون لها مال ولا تقدمه طائعة مختارة لأهل بيتها؟ محتسبةً إياه لوجه الله تعالى، حين يصاب زوجها بداء من أدواء الزمان المختلفة فيفتقر ويصبح بلا مال، أو يمرض فلا يقدر على العمل، لقد علمت الزوجة الفاضلة صاحبة المال أن الله تبارك وتعالى يمنحها على نفقتها على نفسها وزوجها وأولادها ثواب صدقة مضاعفة، فإذا واتتها هذه الفرصة الطيبة، وإذا أقدرها الله من فضله على هذا العمل الذي يحبه الله ورسوله، فلم لا تسارع إليه فتبذل النعمة وتمسح الدمعة وتنشر الفرحة بمالها على نفسها وأهل بيتها، إنها تعلم يقيناً أنها إذا أنفقت نفس المال على الغرباء، فليس لها إلا ثواب صدقة ذلك المال،

لكنها حين تنفق المال على زوجها وولدها فثوابها مضاعف.

وفي السنة الصحيحة قصة مشهورة لزينب امرأة عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: (تصدقن يا معشر النساء ولو مِن حليِّكُنّ، قالت، فرجعت إلى عبدالله فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأْتِه فاسألهُ، فإن كان ذلك يجزئ عني وإلا صرفته إلى غيركم، قالت: فقال لي عبدالله بل ائتيه أنت، قالت: فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله حاجتي حاجتها ـ أي أنها جاءت هي الأُخرى لتسأل الرسول عن الموضوع ذاته ـ قالت: وكان رسول الله ﷺ قد أُلقِيَتْ عليه المهابة، قالت: فخرج علينا بلال فقلنا له: ائت رسول الله فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في جحورهما)، ولا تخبره من نحن؟ قالت: فدخل بلال على رسول الله فسأله فقال: من هما؟ فقال: امرأة من الأنصار وزينب، فقال: أي الزيانب؟ قال امرأة عبدالله، فقال رسول الله: لهما أجران أجر القرابة وأجر الصدقة)[1].

كما جاء في مسند أحمد عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة عن رائطة امرأة عبدالله بن مسعود وأم ولده ـ ورائطة لعله اسم آخر لزينب هذه ـ قالت: وكانت امرأة صناع اليد ـ أي تصنع بيدها بعض الأشياء الخفيفة ـ قال: فكانت تنفق عليه وعلى ولده من صنعتها، قالت:

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (١٤٦٦) برقم (٤٥، ١٠٠٠) وابن ماجة برقم (٢٥٨٣).

فقلت لعبدالله بن مسعود: لقد شغلتني أنت وولدك عن الصدقة، فما أستطيع أن أتصدق معكم بشيء، فقال لها عبدالله: والله ما أحب إن لم يكن في ذلك أجر أن تفعلي، فأتت رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله إني امرأة ذات صنعة أبيع منها، وليس لي ولا لولدي ولا لزوجي نفقة غيرها، وقد شغلوني عن الصدقة فما أستطيع أن أتصدق بشيء، فهل لي من أجر فيما أنفقت؟ قال: فقال لها رسول الله ﷺ: (أنفقي عليهم فإن لك أجر ما أنفقت عليهم)(1).

وعن أم المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت يا رسول الله هل لي أجر في بني أبي سلمة؟ أنفق عليهم ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بني، فقال: (نعم لك فيهم أجر ما أنفقت عليهم)(2)، ومعنى قولها ولست بتاركتهم هكذا وهكذا؟ أي لن أتركهم وهم بُنيٍّ من بني سلمة يتفرقون في طلب القوت من هنا وهناك يميناً وشمالاً.

إنها ولا شك نعمة من الله تعالى ينعم بها على الزوجة التي تنفق على أهل بيتها عند الضرورة ويثيبها على ذلك الأجر المضاعف الكريم، وخاصة نفقة المرأة على أولادها إذا ترملت وأوقفت نفسها على أولادها، فإن الدرجات العلا تنتظرها عند ربها لتعلو بها في الفردوس الأعلى وفي مقام كريم، عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة، وأومأ ـ أي أشار

---

(1) رواه أحمد في مسنده، ورواه البخاري ومسلم، والنسائي، والترمذي، وابن ماجة [انظر: الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد م/9 ص 190].

(2) متفق عليه، البخاري (3/261) ومسلم (10001).

ـ بيديه يزيد بن زريع الوُسطى والسَّبَّابة، امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على أيتامها حتى بانوا أو ماتوا)[1]، أي حتى شبوا واستقلوا بأنفسهم أو توفاهم الله تعالى، والسَّعْفَاء هي التي تغير لونها من طُول الأيمة، يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها ولم تتزوج فابتعدت عن الزينة والتصنع، ومعنى آمت، أي: مات زوجها فتركها أيما).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رسول الله ﷺ: (أنا أول من يفتح باب الجنة إلا أني أرى امرأة تبادرني فأقول لها مالك، ومن أنت؟ فتقول أنا امرأة قعدت على أيتام لي)[2].

فهنيئاً لامرأة مؤمنة أنفقت من مالها على أهل بيتها أو ساعدت زوجها في النفقات الضرورية أو الحاجية وليست الترفيهية، وهنيئاً هنيئاً هنيئاً لامرأة مات زوجها فعكفت على أولادها لتربيتهم وتنشئتهم النشأة الإسلامية الصالحة، وهنيئاً لكل مسلم ومسلمة بدين الله الحبيب.

---

(١) أخرجه أبو داود بإسناده عن عوف بن مالك الأشجعي في الأدب برقم (٥١٤٩).

(٢) رواه أبو يعلى بإسناد لا بأس به.

ثالثاً: (ثواب المرأة التي تتصدق من بيت زوجها)

هذه الصدقة تتعلق بالمرأة التي تتصدق من بيت زوجها ومن ماله الخاص، ويكون لها أجر مع زوجها فيما تصدقت به، وهذه والله منة من منن الرحمن للمرأة في دين الإسلام، المرأة التي ما كانت قبل الإسلام إلا شيئاً مُحقَّراً منبوذاً، ففي الهند كانت تحرق بعد وفاة زوجها، وفي اليونان يرون أنها رجس من عمل الشيطان، ويقرر مؤتمر في فرنسا عام ٥٨٦م أن المرأة خلقت لخدمة الرجل فحسب، وفي عام ١٨٠٥م كان القانون الإنجليزي يبيح للرجل أن يبيع زوجته بعدة بنسات، ويرى اليهود أن المرأة ما هي إلا خادمة وليس لها حقوق أهلية، والمسيحيون يقولون بأنها خلو من الروح الناجية من عذاب جهنم، ما عدا أم المسيح، وجاء الإسلام العظيم دين الله الخاتم فأعلن كرامة المرأة وأحاطها بسياج من التكريم والتشريف، فالناس في دين الله الإسلام مردهم إلى أب واحد وأم واحدة، هما آدم وحواء عليهما السلام، والمرأة هي التي حملت كل البشر في بطنها ما عدا آدم عليه السلام، والمرأة هي أم الأنبياء والمرسلين ووالدة الحكماء والمصلحين.

هذه المرأة التي قال عنها القرآن الكريم ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾[1]، قد حباها الإسلام بالكثير من المكرمات، من ذلك ما نحن بصدده الآن، وهو أن المرأة

(١)() سورة البقرة / ٢٢٨.

المسلمة إذا أنفقت من بيت زوجها على زوجها ونفسها وأولاده ومصالحه المختلفة وعلى قاصديه من ضيف وابن سبيل ونحو ذلك بلا إسراف أو تقتير كان لها مع زوجها أجر فيما أنفقت من ماله، فإذا أذن لها الزوج في التصدق من ماله فتصدقت كان لها مثل أجره.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت ـ قال رسول الله ﷺ: (إذا تصدقت المرأة من طعام زوجها غير مفسدة كان لها أجر ما أنفقت ولزوجها أجر ما أكتسب ولخازنه مثل ذلك لا ينقص بعضهم أجر بعض)[1].

ولقد وردت عدة أحاديث صحيحة تتعلق بإنفاق المرأة من كسب زوجها وتصدقها من بيته.

فمنها ما يدل على منع المرأة أن تنفق من بيت زوجها إلا بإذنه، ففي الحديث الذي أخرجه الترمذي وحسنه عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ في خطبته عام حجة الوداع (لا تنفق امرأة شيئاً من بيت زوجها إلا بإذن زوجها، قيل: يا رسول الله ولا الطعام؟، قال: ذلك أفضل أموالنا)[2].

ومنها ما يدل على الإباحة بحصول الأجر لها فيما أنفقت، وهو حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ السَّابق، قالت: قال رسول الله ﷺ: (إذا أنفقت المرأة من بيت زوجها غير مفسدة كان لها أجر ما أنفقت...

---

(١) متفق عليه، البخاري برقم (١٤٣٧) ومسلم (٧٩ ـ ١٠٢٣) وأحمد في المسند ٦/٤٤ وأخرجه البغوي في كتاب الزكاة (١٦٨٦ ـ ١٦٨٧) انظر: شرح السنة للبغوي / ٣ / ٤٣٨ ـ ٤٣٩.

(٢) أخرجه أبو داود (٣/٢٩٦) والترمذي (٣/٥٨٠٥٧) وقال: هذا حديث حسن، والبيهقي (٤/١٩٣) والبغوي (١٦٩٠).

إلى آخر الحديث)، وقد سبق من قريب، ونلاحظ أن في الحديث قيداً على المرأة في إنفاقها من مال زوجها، وهو أن تكون غير مفسدة، يعني بالإسراف أو صرف المال في غير وجهه المحمود.

ومن الأحاديث من يُجوِّزُ لها الإنفاق من بيت زوجها بحصول القيد السابق (غير مفسدة) حتى وإن كان إنفاقها من غير أمره:

وهو حديث أبوهريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إذا أنفقت المرأة من كسب زوجها من غير أمره فلها نصف أجره)[1].

ومنها ما قيد الحكم فيه، وهو حديث سعد بن أبي وقاص الذي يقول فيه: لما بايع رسول الله ﷺ النساء، قامت امرأة جليلة ـ أي عظيمة القدر أو طويلة القامة كأنها من نساء مضر فقالت: يا نبيّ الله يا رسول الله إنا كَلٌّ على آبائنا وأبنائنا ـ قال أبو داوود وأرى فيه، وأزواجنا ـ (فما يحل لنا من أموالهم؟ قال: الرطب تأكلنه وتهدينه)[2]، قال أبو داوود: الرطب: الخبز ونحوه والبقل، والرطب: اللين ضد اليابس).

إن ظاهر الأحاديث الشريفة السابقة يدل على الاختلاف بينها في الحكم المتعلق بنفقة الزوجة وصدقتها من مال زوجها، وأكرم الله علماءنا، حيث قالوا ما خلاصته: إن الجمع بين هذه الأحاديث هو أن نقول: إن ذلك يختلف باختلاف عادات البلاد وباختلاف حال الزوج من مسامحته ورضاه بذلك أو كراهته له، وباختلاف الحال في الشيء

(١) صحيح، صحيح الجامع (٤٠٣) رواه البخاري ومسلم وأبوداود عن أبي هريرة [الصحيحة (٧٣٠)].

(٢) أخرجه أبو داود (١٣١/٢) والبغوي (٤٤٣/٣).

المنفق بين أن يكون شيئاً يسيراً يتسامح به، وبين أن يكون شيئاً له خطره في نفس الزوج يبخل بمثله، وبين أن يكون ذلك رطباً يُخْشَى فساده إن ترك، وبين أن يكون يدخر ولا يخشى عليه الفساد.

يقول الإمام النووي فيما يتعلق بإذن المالك: والإذن ضربان: أحدهما الإذن الصريح في النفقة والصدقات، والثاني: المفهوم من اطّراد العرف كإعطاء السائل كسرة ونحوها فيما جرت العادة واطراد العرف فيه، وعلم بالعرف رضا الزوج والمالك به، فإذنه في ذلك حاصل وإن لم يتكلم، وهذا إذا علم رضاه لاطراد العرف وَعُلِمَ أن نفسه كنفوس غالب الناس في السماحة بذلك والرضا به.

فإن اضطرب العرف وشك في رضاه، أو كان شحيحاً يشح بذلك ويعلم من حاله ذلك أوشك فيه، لم يجز للمرأة وغيرها التصدق في ماله إلا بصريح أذنه، أقول: وما الذي يحول بين المرأة المؤمنة الصالحة وبين زوجها في أن تسترضيه وتتلطف معه بطيب كلامها وصدق مودتها، ليأذن لها في التصدق بالقدر الذي يسمح به موقفه المالي، وبذلك تكون في حالة موثوق منها، فيكون للزوج أجر صدقته ولها مثل أجره، والشارع الحكيم قد منح الزوجة الأجر في النفقة والتصدق، لأنه باستقامتها في تسيير شئون بيتها تستقيم الأسرة كلها وتنال السعادة والرضا ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة الفرقان / ٧٤.

رابعاً: (أجر المتصدق للخازن الأمين)

هذه صدقة من الصدقات أمرها عجيب وسرها غريب ولونها فريد، إنها تُكتبُ وتُسَجَّلُ لمن لم يتصدق في الواقع بشيء ولم يخرج من جيبه فلسا ولا ديناراً، ولا من بيته خبزاً ولا ملحاً ولا تمراً، فما هي حكاية هذه الصدقة، وما هو النبع الذي تفيض منه؟ ومن هو العبد المرزوق بها؟

إن الإجابة على هذه الاستفهامات نجدها بحول الله تعالى وتوفيقه وهدايته في الحديث الذي رواه البخاري ـ رحمه الله ـ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه والذي يقول فيه رسولنا محمد ﷺ: (الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ـ وربما قال يعطي ـ ما أمر به كاملاً موفراً طيبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر به أحد المتصدّقين)[1].

والحديث الشريف يبرز لنا لونا بديعاً وعجيباً من الصدقات تكتب لمسلم لم يقدم شيئاً من مال، ولكنه قدم شيئاً آخر غير المال له وزنه وثِقله عند الله تعالى، وهذا المسلم المحفوف برحمة الله تعالى هو الخازن، والخازن هو الذي يقوم على أمر المال بإيداعه في المكان المناسب له ليصونه ويحفظه عن التلف أو الضياع أو التعدي عليه بأي شكل من أشكال التعدي، فيكون المال حينئذ قد جعل من خزائنه، والمسئول عن المال وتصريفه في أبوابه المختلفة هو الخازن.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود [انظر عون المعبود تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان م٥، ص ١٠٠ حديث رقم (١٦٨٨) وهو في صحيح الجامع (٣٣٣٦).

ولكن ليس كل خازن للمال المتصدق منه ينال المنحة من الله تعالى، ويفوز بأجر الصدقة ويحظى بهذا التكريم، بل يشترط فيه شروطاً ليحصل على ما تقدم:

أولها : الإسلام، فالإسلام هو باب الرحمات والفيوضات والبركات، فالحمد لله تعالى على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، فالمسلم مرتبط بحبل الله المتين وموصول بنوره الكريم، أما الكافر فلا يقبل منه عمل لأن نيته في التقرب مفقودة، ووجهته لغير الله فهي مردودة، فالإسلام قيد أوّلي لابد منه للخازن، وهو أن يكون مسلما، **وثاني الشروط** أن يكون الخازن أميناً والأمانة ضد الخيانة وتَدُل على الثقة ومعناها الأخلاقي: شعور بالتَّبَعة واحتكام إلى الضمير اليقظ، إذا فلابد أن يكون الخازن المسلم أميناً، فإن خان في القليل أو الكثير فقد حرم من الأجر وباء بالخيبة والحسرة، وصار مأزوراً لا مأجوراً، فعلى الخازن أن يعطي ما أمر به من قبل صاحب المال بلا زيادة أو نقصان، وعليه أن يلتزم بتنفيذ الأوامر والتوجيهات الخاصة بعمله في المال، وأن يعطيه إلى الشخص الذي أمر له أن يعطيه وهذا هو **الشرط الثالث**، ويبقى **الشرط الأخير** وهو ما جاء في الحديث في قوله: (موفِراً طيباً به نفسه) وقوله طيباً به نفسه أو طيبة به نفسه كما جاء في مسند الإمام أحمد - رحمه الله - يعني أن خازن المال يعطي المال لما أمر له به، ونفسه طيبة راضية فإن أعطى المال لمستحقه وهو كاره فإنه لا يؤجر.

فإن تمت الشروط السابقة في الخازن المسلم الأمين طيب النفس

مؤدياً الأمانة كان أحد المتصدقين، قال الإمام القرطبي: لم نروه إلا بالتثنية ـ أي المَتَصَدِّقَينِ ـ ومعناه أن الخازن بما فعل متصدق وصاحب المال متصدق آخر، فهما متصدقان، قال: ويصحُّ أن يقال على الجمع فنكسر القاف (المتصدقِين) ويكون معناه أن الخازن من جملة المتصدقين.

والحديث كما ذكر علماؤنا الكرام يدل على أن المشاركة في الطاعة توجب المشاركة في الأجر، ومعنى المشاركة أن له أجراً كما أن لصاحبه أجراً وليس معناه أنه يزاحمه في أجره، بل المراد المشاركة في الطاعة في أصل الثواب فيكون لهذا ثواب ولهذا ثواب، وإن كان أحدهما أكثر من صاحبه على حسب الأحوال.

قال ابن سلامة كما جاء في عون المعبود[1]، ويدخل في الخازن من يتخذه الرجل على عياله من وكيل وعبد وامرأة وغلام، ومن يقوم على طعام الضيفان.

وهكذا رأينا فضل الله ورحمته على الخازن المسلم المكتمل الشروط، حيث منحه الله تعالى أجر الصدقة على إنفاق المال الذي في عهدته كما أمر به، ولعل الحكمة أيها الأحباب في ذلك هي أن الخازن يبذل جهداً نفسياً ويقاوم نزعات نفسه وهو يصارع المال وحبه، والمال بين يديه فلا يسرق ولا يخون ولا يتلف، بل يعطي كل ذي حق حقه، هذا في الوقت الذي نرى فيه البعض ممن يقومون بالإشراف على المخازن العامة

(١) (عون المعبود / ج٥ ص ١٠١).

للدولة أو للمؤسسات الكبرى يخونون الأمانة ويسرقون ويخربون ويفسدون، حتى يصل بهم الأمر إلى إحراق المخزن كله كي تضيع معالم السرقة والخيانة، فرحمة الله وعطاؤه للأمناء المخلصين، وغضبه ونقمته على الخائنين المخربين.

خامساً: (أجر الصَّدقة للعبد الذي يتصدَّق من مال سيده)

قال الإمام مسلم ـ رحمه الله: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وابن نمير وزهير بن حرب جميعاً عن حفص بن غياث قال ابن نمير: حدثنا حفص عن محمد بن زيد عن عمير مولى آبي اللحم قال: كنت مملوكاً فسألت رسول الله ﷺ: أأتصدَّق من مال مواليَّ بشيء؟ قال: (نعم، والأَجر بينكما نصفان) وحدَّثنا قتيبة بن سعيد، حدَّثنا حاتم، يعني ابن إسماعيل عن يزيد، يعني ابن أبي عبيد قال: سمعت عميراً مولى آبي اللَّحم قال: أمرني مولاي أن أُقدِّدَ لحماً، فجاءني مسكين فأطعمته منه، فعلم بذلك مولاي فضربني، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فدعاه فقال: (لمَ ضربتَهُ؟)، فقال: يعطى طعامي بغير أن آمره، فقال: (الأجر بينكما)[1].

وقبل الشروع في الحديث عن صدقة العبد من مال سيده، يجدر بنا أن نسجل هنا أن الإسلام هو أول نظام في الدنيا عمل بكل الوسائل على تصفية الرقّ والقضاء عليه تدريجياً، وقد أوضح الإسلام رغبته الشديدة في فَكِّ الرقاب، فسدَّ الأبواب الكثيرة الواسعة التي كانت مدخلاً للرّق في العالم، كالاستعباد عن طريق اختطاف الأحرار، أو بيع الإنسان نفسه أو ولده أو زوجته، أو أخذ المدين رقيقاً في دينه، أو استرقاق المجرم بجريمته، كما عُرِفَ ذلك في شرائع سابقة، فقد اعتبر

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي م ٧، ص ١١٤.

الإسلام أن الإنسان خلق ليكون حُرّاً، ولم يستثن من ذلك إلا استرقاق الأسير في حرب إسلامية شرعية لم يبدأ المسلم فيها بعدوان، وذلك إذا رأى إمام المسلمين وأهل شُوراه في ذلك مصلحة، كما إذا كان العدوّ يسترِقُّ أسرى المسلمين، فإن المعاملة بالمثل تقتضيها المصلحة، وللإمام العادل أن يطلق سراح الأسرى بغير مقابل، أو بمقابل ماديّ أو معنوي، أو إطلاق أسرى من المسلمين مقابل أسرى المشركين، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم صراحه في أسرى المحاربين من أهل الكفر، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾[1].

ومع ما تقدم فإن الإسلام الكريم رَغَّب في العتق وجعله من أحب القربات إلى الله تعالى، وزاد على ذلك فجعله كفارة لكثير من الأخطاء التي يتورَّط فيها المسلم بحكم بشريَّته، كالحنث في اليمين، ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[2].

والقتل الخطأ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن

(١) سورة محمد / ٤.

(٢) سورة المائدة / ٨٩.

يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾﴾[1]، ومظاهرة الزَّوج لزوجته،﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾﴾[2]، وجماع الصائم في نهار رمضان، فقد قال ﷺ لمن وقع على امرأته في رمضان: (هل تَجِدُ ما تعتقُ رقبة)[3]. كما جعل الإسلام كفَّارة السَّيِّد إذا ضرب عبده بغير حقٍّ أن يعتقه فقد ضرب سيِّدٌ عبده بغير حقٍّ وسأل رسول الله ﷺ عن كفارة ضربه له بغير ذنب فقال: (كفَّارَتُهُ عِتْقُه).

كما أمر الإسلام السادة بمكاتبة العبيد، إذا علموا فيهم خيراً، وذلك يكون بتمكينهم من الكسب الحرّ، ومعونة المجتمع الإسلامي لهم ﴿ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾﴾[4].

(١) سورة النساء / ٩٢.

(٢) سورة المجادلة / ٣.

(٣) رواه الجماعة.

(٤) سورة النور / ٣٣.

ثم زاد الإسلام على ما تقدم، فجعل للعتق وتحرير الرقاب سهماً عظيماً من سهام الزكاة الثمانية، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾[1]، وهذا كله غير ما صنعه الإسلام من رفع المستوى الأدبي والإنساني، بل ومستوى الثواب في الآخرة عند الله تعالى، للملوك الذي يؤدي حق الله تعالى وحق سيده المالك له، وقد ورد في كل هذا أحاديث صحيحة شريفة:

فهاهو الإسلام الكريم يرفع قدر الرقيق، ويجعله إنساناً محترماً، بل وأخاً لمن جعله الله تعالى تحت يده، يأكل مما يأكل ويلبس مما يلبس، ولا يُكلَّفُ من العمل فوق ما يطيق وإلا وجبت إعانته، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إخوانكم خولُكُم - أي خدمُكم - جعلهم الله قنيَةً - أي ملكاً - تحت أيديكم - قدرتكم - فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه من طعامه، وليلبِسهُ من لباسه، ولا يكلّفُه ما يغلِبُه، فإن كَلَّفَهُ ما يغلبه فليُعِنه)[2].

وعن المعرور بن سُوَيد قال: رأيت أبا ذر رضي الله عنه وعليه حُلَّةٌ - ثوبٌ مركَّب من ظهارة وبطانة - وعلى غلامه مثلُها، فسألتهُ عن ذلك، فذكر أنه سابَّ رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَعَيَّرَهُ بأمِّه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة التوبة / ٦٠.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري ومسلم، وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي ذر، وهو في صحيح الجامع (٢٣٨).

: (إنك امرُؤ فيك جاهلية): هم إخوانكُم، وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخُوهُ تحت يده، فليُطعمه مما يأكل، وليُلبِسهُ مما يلبَس، ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتُموهُم فأعينوهم)[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (إذا أتى أحدكُم خادمُه بطعامه، فإن لم يُجلِسهُ معه، فليُنَاوِلهُ لُقمةً أو لُقمتين، أو أكلةً أو أكلتين، فإنه ولي علاجه)[2].

وقال ﷺ: (لا يقل أحدُكم عبدِي وأَمَتِي، وليقل فتاي وفتاتي)[3].

فضل عتق الرقبة:

قال تعالى: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾[4]. فقوله: ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ ﴾ أي: أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير، و(العقبة) قَحْمَةٌ شديدة فاقتحموها بطاعة الله تعالى، ثم قال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ ﴾ هذا تفخيم لشأنها وتعظيم له، وقوله: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾[5] بهذه الأمور الأربعة، تُقتحَمُ العقبة وتُجتازُ فينجو صاحبها من النار، وأول هذه الأمور الأربعة ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ وهو عتقها، عن أبي

---

(١) متفق عليه، البخاري (١/٨٠، ٨١) ومسلم (١٦٦١) وأبو داود (٥١٥٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٩/٥٠٢، ٥٠٣) ومسلم (١٦٦٣) والترمذي (١٨٥٤) وأبو داود (٣٨٤٦).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٤) سورة البلد / ١١ ـ ١٣.

(٥) متفق عليه، البخاري (١١/٥١٩) ومسلم (١٥٠٩).

هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ (من أعتَقَ رقبةً مُسلمةً، أعتق الله بكل عُضوٍ منه عُضواً من النار حتَّى فَرْجَهُ بفَرْجه)(١)، وعن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلت يا رسول الله، أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: (الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله) قال: قلتُ: أيُّ الرِّقَاب أفضل؟ قال: (أنفَسُها عند أهلها، وأكثرُها ثمناً)(٢) وعن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملا يُدخلني الجنة، قال: إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضتَّ المسألة، أعتِق النّسمة وفُكَّ الرقبة.. الحديث(٣).

فضل المملوك الذي يؤدي حق اللّٰه تعالى وحق سيده:

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: (إن العبدَ إذا نصح لِسَيِّدِه، وأحسن عبادة الله فله أجرُهُ مرَّتين)(٤).

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (للمملوكِ الذي يحسنُ عبادة ربه، ويُؤَدِّي إلى سيده الذي عليه من الحق، والنصيحة والطاعة، أجران)(٥).

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لهم أجران: رجُلٌ من

(١) متفق عليه، البخاري (١٠٥/٥) ومسلم (٨٤).
(٢) صحيح، رواه أحمد (٢٩٩/٤) وابن حبان (٣٧٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧٣/١٠).
(٣) صحيح، رواه أحمد (٢٩٩/٤) وابن حبان (٣٧٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٧٣/١٠).
(٤) متفق عليه، البخاري (١٢٦/٥) ومسلم (١٦٦٤).
(٥) متفق عليه، رواه البخاري (١٢٨/٥).

أهل الكتاب آمن بنبيّه، وآمن بمحمد ﷺ والعبد المملوك إذا أدَّى حقَّ الله وحق مواليه، ورجل كانت له أمةٌ فأدَّبها فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران)[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (للعبدِ المملوك المصلِحِ أجران) والذي نفس أبي هريرة بيده، لولا الجهاد في سبيل الله، والحج، وبِرُّ أُمِّي، لأحببتُ أن أموت وأنا مملوك[2].

فانظر أيها المسلم الكريم، وأيتها المسلمة الكريمة، إلى أيِّ حدّ كرَّم الإسلام العبد المملوك، وحفظ له حقوقه، وجعل عتقه في سبيل الله تعالى من أحب الأعمال إلى مالك الملك سبحانه، بل إن الله تعالى أمر بالإحسان إلى العبد المملوك فقال: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[3].

مِنْحَةٌ ربانية للعبد المملوك زيادة على ما سبق:

وتلك المنحة الإلهية للعبد المملوك، هي اعتبار تصدقه من مال سيده، صدقةً له ولسيِّدِه، وهذه من أعجب الصدقات وأغربها، إذ أن العبد كما هو معلوم، لا يملك شيئاً ولا حتى نفسه، فهو وما ملك ملكٌ

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١/١٧٠) ومسلم (١٥٤).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٥/١٢٧) ومسلم (١٦٦٥).
(٣) سورة النساء / ٣٦.

لسيده، ولكنها رحمة الله ومنته تعالى على العبد المسلم الذي ابتلاه الله تعالى بالرق فصَبَر، وقام بحق الله تعالى وحق سيده عليه.

هذا، ويجب أن نسجل هنا وبكل تأكيد، أن الإسلام هو الدين الوحيد، الذي فتح الأبواب الكثيرة لتحرير العبيد، وسدّ أبواب العبوديّة، ولقد كان للفكر الإسلامي الأثر الكبير في سن مشروع إلغاء الرقيق العالمي، ورحم الله عمر بن الخطاب القائل: (كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

(الباب الثاني)

(الفصل الثالث)

(بعضِ أوصَافِ المتصدقين)

أولاً : متصدق يُحبُّه اللّه تعالى .

ثانياً : متصدق قريب من اللّه تعالى .

ثالثاً : متصدق تعرفه الملائكة .

رابعاً : متصدق في أعلى المنازل بالجنة .

خامساً : متصدق يغبطه الناس .

أولاً: (متصدق يحبه اللّه تعالى):

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة يحبهم اللّه، وثلاثة يبغضهم اللّه، فأما الذين يحبهم اللّه: فرجلٌ أتى قوماً فسألهم اللّه، ولم يسألهم لقرابة بينه وبينهم، فمنعوه، فتخلف رجل بأعيانهم، فأعطاه سرّاً، لا يعلم بعطيَّته إلا اللّه والذي أعطاه، وقوم ساروا ليلتهم، حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدلُ به، فوضعوا رؤوسهم، فقام يتملّقني ويتلو آياتي، ورجل كان في سريّة، فلقي العدو فهزموا، فأقبل بصدره حتى يُقتل أو يُفتح له، والثلاثة الذين يبغضهم اللّه: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغنيُّ المظلوم)[1].

ومحل الشاهد معنا في الحديث الشريف هو الرجل الأول من الثلاثة الذين يحبهم اللّه تعالى، وهو المتصدق سِرّاً، والذي نال حُب اللّه تعالى بسبب صدقته هذه، وهذا عطاء عالٍ كريم من اللّه ذي العرش الكريم.

فقوله: (فأما الثلاثة الذين يحبهم اللّه فرجُلٌ) أي: مُعطى رجل، فهو صاحب عطاء الصدقة، وقوله: (أتى قوماً) أتاهم لعُسره وشدَّة حاجته وضيق حاله، (فسألهم اللّه) أي: مستعطفاً باللّه، قائلاً: أنشدكم باللّه أعطوني، (ولم يسألهم لقرابة بينه وبينهم) أي: ولم يقل: أعطوني بحق قرابة، (فمنعوه) أي: تملكهم الشّحّ والبخل، فأعرضوا

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٤/٦٠١) حديث رقم ٢٥٦٨، والنسائي (٥/٨٤) حديث رقم (٢٥٧٠) وأحمد في المسند (٥/١٥٣) وانظر: مرقاة المفاتيح / ٤ / ٣٦١.

عنه ومنعوه حق اللّه الذي أوجبه عليهم، وردّوه ردّاً قبيحاً، وهنا يبرز موقف كريم لمؤمن صادق، تأثر بحال هذا السائل المحتاج، فأراد أن يتصدق عليه، في صورة من أعلى الصدقات وأحبها إلى الله تعالى، ألا وهي صدقة السر، التي تطفئ غضب الرب، وتمنح صاحبها حب اللّه تعالى، فماذا يفعل لينال مراده هذا؟ (فتخلف رجل بأعيانهم) قال الطيبي: أي ترك القوم المسئول عنهم خلفه، وتقدَّم فأعطى السائل سراً، قال: والمراد من الأعيان: الأشخاص، أي: سبقهم بهذا الخير فجعلهم خلفه، والمعنى: أنه تخلَّف عن أصحابه حتى خلا بالسائل فأعطاه سراً، (لا يعلم بعطيته إلا اللّه والذي أعطاه)[1].

فماذا كان جزاؤه من ربه الكريم؟ جزاؤه حب الله تعالى له، ومنزلة محبة اللّه للعبد منزلة غاية في القرب والتكريم ـ إنها كما يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله: المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمِهَا شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحبُّون، وبروح نسيمها تروَّح العابدون، فهي قوتُ القلوب، وغذاء الأرواح، وقرّة العيون، وهي الحياة التي مَن حُرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاءُ الذي مَن عَدِمَهُ حَلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذةُ التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام.

وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال، التي متى خلت

---

(١) انظر: مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح / ٤ / ٣٦١ – ٣٦٢.

منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشقّ الأنفس بالغيها، وتوصّلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها، وتُبوِّؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب.

وطريقهم الأقوم الذي يبلّغُهم إلى منازلهم الأُولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معيّة محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله ـ يوم قدّر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة ـ لأن المرءَ مع من أحبّ، فيا لها من نعمة على المحبين سابقة[1].

إن محبة الله تعالى، هي أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها ولأنها محبّة من جُبِلَت القلوب على محبته، وفُطِرَت الخليقةُ على تأليهه، فإن الإله هو الذي تألَهُهُ القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم، والذلّ له والخضوع والتعبد، والعبادة لا تصلح إلاّ لهُ وحده، والعبادة هي: كمال الحبِّ مع كمال الخُضوع والذُلِّ، والله تعالى يُحَبُّ لذاته من جميع الوجوه، وما سواه فإنما يُحبُّ تبعا لمحبَّته، وقد دلّ على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة، ودعوة جميع رسله، وفطرته التي فطر عباده عليها، وما ركَّبَ فيهم من العقول، وما أسبغ عليهم من النعم، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها،

(١) مدارج السالكين للإمام ابن القيم ط دار العجيل ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م المجلد/ ٣ ص ٩.

وأحسن إليها، فكيف بمن كُلُّ الإحسان منه، وما بخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[1]

(١) سورة النحل / ٥٣.

ثانياً: (متصدق قريب من الله تعالى):

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (السَّخيُّ قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار، ولَجاهِلٌ سخيٌّ أحب إلى الله من عابدٍ بخيل)[1].

فقوله: (السَّخِيُّ) وهو الذي اختار رضا المولى في بذله على الغِنَى، (قريب من الله) أي: رحمته (قريب من الجنة) بصرف المال فيما يَجِبُ عليه في الحال، ويوجب له حُسْنَ المآل (قريب من الناس) بالإحسان إلى الفقراء، أو بالسخاوة إلى الخاص والعام، أو لأن السَّخِيَّ يُحبُّه جميع الناس، ولو لم يحصُل لبعضهم نفعٌ من سخاوته، كمحبة العادل، (بعيد من النار) لأن السَّخِيَّ لم يرتض بأخذ مال الحرام وصرفه في غير المقاصد العظام، وإلا فيكون مُسرِفاً، ولذا قيل: لا خير في سرفٍ، ولا سرف في خير. (والبخيل) وهو الذي لا يؤدي الواجِبَ عليه (بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار) وتبيّن الأشياء بأضدادها (وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ) أَراد به ضدّ العابد، وهو - الجاهل - من يؤدِّي الفرائض دون النوافل، لأنَّ ترك الدنيا أساس كل عبادة، وإنما عَبَّرَ عنه بالجاهل، لأنه أراد به مع كونه جاهلا غير عالم بما يجب عليه وجوب عَيْن (أحبّ إلى الله من عابد) أي كثير النوافل، سواء كان عَالِماً أم لا (بخيل) لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة.[2]

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٢٠٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٢٠٤).

والكرم والجود والسخاء: هو بذلُ ما يُقتَني بغير عوض، وضدّه البخل، الذي هو منع ما يطلب مِمَّا يُقتنى.

والسخاء من أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة، وقد كان رسول الله ﷺ أكرم الناس وأجود الناس وأسخى الناس، وكذلك آل البيت الأطهار، والصحابة الأخيار.

وأعلى درجات السخاء، الإيثار، فالسخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاجُ إليه لمحتاج أو لغير محتاج، أما الإيثار فهو أن يجود بما عنده من مال ونحوه مع الحاجة إليه، كما قال تعالى عن الأنصار في المدينة المنورة: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾[1].

فليس بعد الإيثار درجة في السَّخاء.

---

(١) سورة الحشر / ٩.

ثالثاً: (متصدق تعرفه الملائكة وتسوق إليه السحاب):

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (بينما رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة يقول: اسق حديقة فلان، فَتَنَحَّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرّة، فإذا شرجة من تلك الشّراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبدالله: ما اسمُك؟ قال: فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبدالله لم تسألني عن اسمي؟ قال: لأني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثا، وأردّ فيها ثلثا)(١).

إن الحديث المشرق بين أيدينا، يفتح بصائرنا على عالم الله الواسع، من أعلى عليين ومن فوق العرش العظيم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾(٢)، إلى أرضنا هذه وحتى حديقة المتصدق الكريم، إنه أمر من الله ذي الجلال والإكرام، إلى ميكائيل عليه السلام، الموكل بالمطر، ثم إلى من تحته من ملائكة الله الكرام، إلى الملك الموكل بسوق تلك السحابة الخاصة، المكتوبة باسم عبد من عباد الله المتصدقين، ياللعجب، لقد

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٤) وأخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٩٦) وابن حبان في صحيحه (٥/١٤٧ برقم ٣٣٤٤).

(٢) سورة طه / ٥ ـ ٦.

أصبح اسمه معلوماً في السماوات، تردده الملائكة ويذكرونه بالذكر الطيب الجميل، إنه فلان ابن فلان، الذي ارتفع بِصَدَقَته إلى العلا، ونال درجة القرب والحب من الرحمن الرحيم، هذه حديقته التي جعل منها بابا واسعاً، للعطف والرحمة على البائسين، أرضها تشقّق من العطش، وأشجارها كسيفة حزينة، وزروعها مائلة تتلوى من الجفاف، وإن لم تنقذ في أقرب وقت، ماتت الحديقة وحرم من خيرها الكثيرون، فمن ينقذها من الهلاك؟ ومن يحول بينها وبين نهايتها المحتومة؟ ومن يعيد لها خضرتها وزهرتها حتى تخرج ثمراتها بإذن ربها؟ لتصبح يانعة طيبة للآكلين؟ إن أنوار الحديث الشريف التي تغمرنا الآن تعلن على الملأ وبكل وضوح وبيان، أن المخرَج وأن الدواء وأن الشفاء لتلك الحديقة، هو الصدقة، يا سبحان الله، ما أعجب أمر الصدقة هذه، وما أعلى درجاتها في السماء، وما أكرمها شأنا عند الله الكريم، الذي يتقبل القليل من عباده ويثيبهم عليه بالجزيل في الأولى قبل الآخرة، إن الله الرزاق الكريم يتجلى برحمته ولطفه على عباده المحسنين المتصدقين فيجيب دعاءهم ويكشف الضر عنهم، ويغيثهم بغيث من عنده، ويمن عليهم بما يسعدهم ويفرحهم، كما أسعدوا الفقراء بعطائهم، وجففوا دموع المحرومين بصدقاتهم، وسبحان الله القائل: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1].

(١) ( ) سورة الأعراف / ٥٧.

ولكم كانت دهشة وتعجب ذلك الرجل الذي كان يسير وحده (بفلاة) أي أرض واسعة لا نبات فيها ولا ماء، حينما استولى على كيانه صوت علوي آتٍ من السماء يقول: اسق حديقة فلان، واتجه الرجل بنظره إلى مصدر الصوت إلى أعلى فرأى سحابة مغيثة قد تجمعت في السماء فجأة من حيث لا يعلم إلا الله ولأن في قلبه نور الإيمان، وفي صدره بصيرة المؤمن، فقد أكرمه الله تعالى وأسمعه صوت الملك الكريم، وهو ينفذ أمر الله تعالى ويقول لتلك السحابة آمراً: اسق حديقة فلان، وبحاسة الرجل الإيمانية، وبصلته العلوية لنور الله رب العالمين، أيقن أن هذا الأمر ولا شك وراءه عمل كريم لمن يساق إليه هذا السحاب، في تلك الأرض المقفرة، ولقد جَدَّ في السير وهو يتابع تلك السحابة حتى رآها تُفْرِغ ماءها في حرّة وهي الأرض الملبسة حجارة سوداء، ثم سال الماء من الحرة في شراج أي مسايل متعددة، ثم انحصر الماء في شرجة، أي مسيل واحد وجرى في الوادي والرجل يتتبعه حتى وصل إلى الحديقة، وهناك أبصر فيها رجلاً بادي الصلاح، مشرق الوجه مطمئن القلب، عليه أَمارات الرضا، ولسانه يلهج بالحمد والشكر لله رب العالمين، على ما أفاض عليه من ماء يحيي به موات أرضه، ووجده يحول الماء بمسحاته، وهي المجرفة من الحديد، ليرتب سقي الأشجار والزروع، وكان الهم الأول والسؤال الملح من الرجل لصاحب الحديقة، هو أن يسأله عن اسمه، الاسم الذي سمع في السحابة، فبادره قائلاً: بعد تحية الإيمان، يا عبدالله: ما اسمُك؟ فأجابه فلان، للاسم الذي سمع في السحابة، هنالك أيقن الرجل أن لصاحب الحديقة شأناً خاصاً،

وصلة قوية بالله رب العالمين، وما لبث أن قال صاحب الحديقة للرجل: لمَ تسألني عن اسمي؟ فقال له: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، ولما كان الأمر متعلقاً بالحديقة وسوق الماء إليها، فقد كان السؤال الموجه لصاحب الحديقة هو: فما تصنع فيها؟ إنه يريد أن يتعرف على السر الذي من أجله سيق السحاب وجرى الماء وارتوت الزروع والأشجار، فأجابه صاحب الحديقة، أما إذ قلت هذا يعني الصوت الذي سمعه في السحاب، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثا، وأرد فيها ثلثا.

إذا هذا هو السر العظيم لتلك الحماية الربانية للحديقة وصاحبها ومن يعولهم وينفق عليهم، إنه لم يقتصر على المفروض عليه من زكاة، بل زاد وأعطى واتَّقَى لوجه الله الكريم، فيالقُرْب وكرامة المحسنين المتصدقين من الرب العظيم، ويا لَبُعْدِ وهوان وحسرة المانعين حق السائل المحروم، إن الذين يحافظون على إخراج زكاة أموالهم قليلون، والذين يزيدون على الزكاة المفروضة فيتطوعون أقل منهم، والذين لا يخرجونها أصلاً أكثر من النوعين السابقين، أما الذين يخرجون ثلث أموالهم ابتغاء مرضاة الله تعالى فأقل القليل هم، وكما قال ربنا العظيم (وقليل من عبادي الشكور) والباب مفتوح إلى السماوات العلا، أمام هؤلاء المتصدقين الشاكرين لنيل الحماية الإلهية، والمنح الربانية والفيوضات السماوية ﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

(١) سورة المطففين / ٢٦.

رابعاً: (متصدق في أعلى المنازل بالجنة):

إن منازل الجنة ودرجاتها شيء عظيم، شيء فوق مقاييس البشر وأبعد من كل تصوراتهم، وأكبر من كل ما يظنون أو يتوهمون.

لقد أعلمنا قرآن ربنا العظيم، أن الجنة عرضها كعرض السماء والأرض، قال تعالى في سورة (آل عمران): ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[1]. وقال تعالى في سورة (الحديد): ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

إن العِلم في هذا العصر الحديث (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م) قد مكّن الإنسان بفضل الله الذي علم الإنسان ما لم يعلم، أن يصل بالمراصد الكونية الجبارة إلى مسافة سبعة عشر مليار سنة ضوئية من الأرض التي نعيش عليها، وهذه المسافة التي تشتمل على الشموس والنجوم والمجرات الهائلة، التي تعتبر الأرض بالنسبة لها مجرّد ذرَّة تائهة في الفضاء، لا تُعَدّ شيئاً مذكوراً بالنسبة لبلوغ السماء الأولى فقط، فما بالنا بالمسافة بين الأرض وبين السماء السابعة، والسماوات دائماً في اتساع لا يعلمه إلا الله القائل: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[3].

(١) سورة آل عمران / ١٣٣.

(٢) سورة الحديد / ٢١.

(٣) سورة الذاريات / ٤٧.

إن الحق جل في علاه قد أخبرنا بعرض الجنة، وأن عرضها السماوات والأرض، أما طولها فلا يعلمه إلا الله، وأعلى الجنة (الفردوس الأعلى) الذي أعده الله تعالى لعباده المؤمنين.

وهذا الفردوس الأعلى قد علّمنا رسولنا محمد ﷺ أن نسأله من الله العلي الأعلى والوليّ المولى، فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن)[1].

وروى الطبراني في الكبير عن العرباض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه سِرُّ الجنة)[2].

والآن إلى هذا الحديث الشريف:

عن أبي كبشة عُمَرُ بنِ سعد الأنماريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ثلاثة أقسم عليهنّ وأحدّثكم حديثا فاحفظوه، ما نَقَص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة صَبَر عليها إلا زاده الله عزّاً، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، أو كلمة نحوها، وأحدثكم حديثا فاحفظوه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر:

عبْد رزقه الله مالا وعلما، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقّاً، فهذا بأفضل المنازل.

---

(١) متفق عليه وهو في صحيح البخاري برقم (٢٧٩٠)، (٧٤٢٣) عن أبي هريرة.

(٢) صحيح، صحيح الجامع (٥٩٢) وقال الألباني: (صحيح).

وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالا لَعَمِلْتُ بعمل فلان، فهو بنيّته فأجرهما سواء.

وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يَخْبِطُ في ماله بغير علم، لا يتّقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقّاً، فهذا بأخبث المنازل وعبدٍ لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيته، فوزرُهما سواء)[1].

إن العبد المؤمن الصادق الذي جمع الله له بين نعْمَتَي المال والعلم، كان من الشاكرين لنعمة الله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾[2].

ولهذا فقد وجّه النعمة إلى حيث يحب الله ويرضى، مراقبا له تعالى في كل حال، خاصة في ماله، فهو لا يصرفه في معصية، ولا يسرف في الإنفاق منه، ولا يطغى به على أحد من الناس، إنه يصل فيه رحمه، والرحم مقدم على سائر الناس، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾[3]، وأولو الأرحام تشمل جميع القرابات من العصبات وغيرها وفضل صلة الرحم عظيم

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٦) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد (٤/٢٣٠) وهو صحيح.

(٢) سورة سبأ / ١٣.

(٣) سورة الأنفال / ٧٥.

عند الله تعالى، وله أثره الطيب في الأولى والآخرة[1]، وهذا العبد يعلم من العلم الذي علمه الله إياه، أن هذا المال مصدره الله لا غيره، ولله فيه حقّاً واجب الأداء، سواء كان ذلك واجبا عينيّاً، من زكاة أو كفارة لمقتضاها، أو نذر، أو واجبا كفائيّاً، ككفاية مضطّر من جائع بسدّ جَوْعَته، وعارٍ بكسوته، أو كان مندوباً، كالتقرب إلى الله تعالى بأنواع الطاعات المالية، في كل ما يحبه الله ورسوله ﷺ، فهذا العبد الثَّرِيُّ العالم، الموصوف بما سبق، درجته ومنزلته في الجنة بأعلى المنازل ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾[2]، ذلك لأنه علم وعمل بعلمه، فهو من العلماء العاملين، الذين رفع الله قدرهم ومنزلتهم إلى أعلى عليّين، في الفردوس الأعلى تحت عرش الرحمن العظيم، إنه لم يقتصر على أداء الواجب في ماله، بل تطوّع مُنْفِقاً في كل سبل الخير والإحسان، ابتغاء وجه ربه الكريم، فهنيئاً له ولأمثاله بما أنعم الله عليهم من الرفعة والتكريم.

والعبد الثاني، عبد رزقه الله علما، وما أكرمه من رزق كريم من رب عليم، ولم يرزقه مالا، فهو راض صابر قانع بفضل الله عليه الذي علمه العلم الذي يصله بخالقه، ويفرّق به بين الحق والباطل، ويهدي به الناس إلى دين الله، ويحكم بينهم بما أنزل الله، لكنه كان ينظر إلى صاحبه الذي آتاه الله المال والعِلْم نظرة غِبْطَة لا حسد، ويتمنى له دوام النعمة، ويود لو أنه أوتى مثله، مالا وعلما، إذاً لعمل في المال يمثل

---

(١) سبق الكلام على صلة الرحم في ترتيب الأولى بالصدقة، في الفصل الثاني من الباب الأول.

(٢) سورة الرحمن / ٦٠.

عمل صاحبه فيه، من شكر النعمة وتوجيهها إلى أمور البر والخير والإحسان وصلة الأرحام، ابتغاء مرضاة الله تعالى وطلبا لثوابه، لقد كان صادق النية فيما قال، والنية في الإسلام باب قبول الأعمال الصالحة، وبدونها لا يقبل عمل، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1]، وعن أنس رضي الله عنه قال: رجعنا من غزوة (تبوك) مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إنّ أقواماً خَلْفَنَا بالمدينة، ما سلكنا شِعْباً ولا وادياً[2] إلا وهم معنا، حَبَسَهُم العذر)[3]، ومعنى وهم معنا: أي شاركوكُمْ في أجر الجهاد، كما جاء في رواية مسلم عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنه: (إلا شَرَكُوكُم في الأجر).

فالنية الصادقة في قلب المؤمن الصادق، تفعل الأعاجيب الكبار، فتمنح المؤمن الصادق بنيته ثواب ما لا يعلمه إلا الله من الإنفاق في سبيل الله في كل ميادينه وأبوابه وطرقه التي شرعها الله سبحانه وتعالى، والنية الصادقة في قلب المؤمن الصادق، تعطيه أجر المجاهدين في سبيل الله تعالى، لأنه لم يمنعه عن الجهاد إلا العذر الذي حبسه في مكانه، ولولا العذر لكان من أوائل المجاهدين، ولهذا فقد جاء في

(١) متفق عليه، البخاري (١/٧١) ومسلم (١٩٠٧) وأخرجه غيرهما.
(٢) الشّعب: الطريق في الجبل، والوادي: الموضع الذي يسيل فيه الماء.
(٣) متفق عليه، البخاري (٨/٩٦) ومسلم (١٩١١).

الحديث الشريف (فأجرهما سواء) الأول بعلمه وعمله، والثاني بعلمه ونيته الصادقة.

أما العبد الثالث، فقد رزقه الله تعالى مالا ولم يرزقه علما، يعرف به وجوه التصرف المأذون فيها شرعا، والممنوع منها كذلك، لقد قصَّر في طلب العلم النافع له، وظن أنه بماله وحده ينال حظه ومناه، وهكذا صار يخبط في ماله بغير علم ولا هدى، ويتلفه فيما حرمه الله، وينفقه في المآثم، ولا يصل فيه رحمه، ولا يسأل عن حاجة فقير أو مسكين أو محتاج، فمنَع حَقَّ الله في ماله، وحرص على إتلافه في شهوات نفسه، فكان من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾[1]، فصار بعمله هذا أخبث الناس فهو بأبخس المنازل، بسبب الذنوب التي ارتكبها في ماله وعصيانه أمر ربه تعالى، والعبد الرابع، لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو محروم منهما معاً، إنه فقير جاهل، وليته صبر على ما هو فيه ورضى، وسأل الرزق الحلال من ربه، إذا لهان الأمر عليه وَخَفّ، ولكنه لشدة جهله وحُمْقه يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، أي يصرفه في المحرمات والشهوات والملذات، لا يعطى منه فلْساً لسائل ولا لمحروم ولا لعريان، فهو بما وطَّن نفسه وَصَدَّقَته نيَّتُه على الخروج عن طاعة الرحمن إذا أنعم عليه مولاه، مستحق لنفس المنزلة السَّافلة الخبيثة التي استحقها صاحب المال والثراء الذي أنفقه في سبيل النفس والهوى والشيطان،

(١) سورة محمد / ١٢.

جزاءً وِفَاقاً على نيته الخبيثة.

إنه لمن العجب العجاب أن ناسا في يوم البعث، يحاسبون على أصناف وألوان كثيرة من نعم الدنيا، مع أنهم لم يلمسوها يوماً ولم تكن لهم لحظة واحدة، ولكنها كانت ملء قلوبهم وأفئدتهم وصدورهم، ولو كانت لهم لفعلوا فيها مثل ما فعل المجرمون بنعمة الله تعالى، ألا فليتدبّر أُولُو الألباب، وليَتَفَقَّهُ أولو العقول، فما أسعد المؤمن التقى المحسن الكريم بنعمة الله تعالى في دنياه، وما أهنأه وأفرحه بها في أخراه عندما ينال عليها أجر الله ورضاه، وما أتْعَسَ وأشْقَى الجاهل بالنعمة في دنْياه اللاهية الفانية، وما أشد فقره وعوزه وخسرانه، يوم يلقى عليها عذاب الله.

خامساً: (متصدق يغبطه الناس)

عن عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)(1).

إن نعم الله تعالى على عباده كثيرة.. كثيرة.. كثيرة، لا تعد ولا تحصى، وصدق الله القائل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾(2)،

وقال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾(3)، **وقال سبحانه:** ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾(4)، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾(5).

وأعظم نعمة من الله المنعم جل وعلا على الإنسان، هي نعمة الإسلام، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة، والذي جاءنا بالإسلام هو رسول الله محمد ﷺ أكرم مِنَّةُ من الله على عباده

---

(1) متفق عليه، البخاري (٩/٦٥) ومسلم (٨١٥).
(2) سورة لقمان / ٢٠.
(3) سورة إبراهيم / ٣٤.
(4) سورة النحل / ١٨.
(5) سورة النحل / ٥٣.

المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[1].

فهو ﷺ، الرحمة المهداة والنعمة المزداة والسراج المنير، وقمة العطاء من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، هو عطاء النبوة والرسالة، وقوام رسالته القرآن العظيم والسنة المطهرة، ولقد منّ الله عليه بذلك إذ قال عز ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾[2]، والحكمة هي السنة، والحديث الشريف الذي يظللنا بأنواره المحمدية، يشتمل على ثلاثة أمور، الأول: الحسد، الثاني: القرآن الكريم وتلاوته والعمل به ليلا ونهاراً، الثالث: المال الطيب الحلال وإنفاقه صباحاً ومساءً في سبيل الله.

أما الأمر الأول، وهو الحسد

(لا حسد إلا في اثنتين) فنقول: إن الحسد آفة شريرة من آفات النفوس المريضة، آفة حيَّرَت جهابذة العلماء، وأتعبت أكابر علماء النفس، وسبحان من خلق النفس وسوَّاها ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران / ١٦٤.

(٢) سورة النساء / ١١٣.

(٣) سورة الشمس / ٨.

وهو من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، فهو فرع من فروعه، والغضب أصل أصله، والحسد دليل، على ضعف النفس البشريّة وعلّة عللها، وضياع بهائها، فلو عقل الإنسان أمر الدنيا وما عليها، ولو وَصَل إلى درجة من العلم يدرك عندها بعض الحقائق لهذه الحياة، لا انتفى الحسد منه، وكان أبعد شيء إليه.

الحسد أشر الأخلاق الذميمة

إن الحسد هو نهاية الأخلاق الذميمة، كما أن الشيطان هو النهاية في الأشخاص المذمومة.

ما هو الحسد؟

أما في اللغة فيقال: حسده حسداً: تمنى أن تتحول إليه نعمتُه أو أن يُسْلبها، وقال حسدهُ النِّعمة وحسده عليها.

وأما الحسد في الشرع فهو أيضا تمني الشخص زوال النعمة عن غيره، وهذا التمني قلبي، فإن سعى في ذلك كان باغياً، وإن لم يسع في ذلك ولا أظهره، ولا تسبب في تأكيد أسباب الكراهة التي نهى المسلم عنها في حق المسلم فهنا ينظر إلى المانع، فإن كان المانع له من ذلك العجز، بحيث لو تمكن لفعل فهذا مأزور، وإن كان المانع له من ذلك التقوى، فقد يُعْذر لأنه لا يستطيع دفع الخواطر النفسية في مُجَاهَدَتِها ألا يعمل بها[1].

---

(١) الحاسد والحاسدون (مجدي فتحي) / ٨.

ثبوت الحسد بالكتاب والسنة والإجماع

الحسد ثابت في القرآن الكريم وقد أشار الله تعالى إليه في مواضع عدة، فذكره بالكناية في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾[1]، قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: رضي الله عنهم ـ ﴿ لَيُزْلِقُونَكَ ﴾ لينفذونك ﴿ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ أي يعينوك بأبصارهم بمعنى يحسدونك لبُغضهم إياك.

وذكر الله الحسد باللفظ الصريح في خمسة مواضع من القرآن الكريم وهي:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[2].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾[3].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة القلم / ٥١.

(٢) سورة البقرة / ١٠٩.

(٣) سورة النساء / ٥٤.

(٤) سورة الفتح / ١٥.

وقال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾[1].

والحسد ثابت في السنة الصحيحة المطهرة:

ولقد ثبت في السنة ما يؤكد وجود الحسد وتأثير العين، من ذلك قوله ﷺ: (العين تُدخل الرجل القبر وتُدخل الجمل القدر)[2].

وقوله ﷺ: (أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالعين)[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يأمر أن أسترقي من العين)[4]، هذا وقد أجمعت الأمة على أن الحسد حق ثابت بالكتاب والسنة.

حكم الحسد القبيح: مُحرّم شرعاً لأن الحاسد عدو لنعمة الله تعالى، مُتسخّطٌ لقضائه جل شأنه، غير راض بما قسم الله تعالى مالك الملك وخالق الخلق ومقدر الرزق.

قال الشاعر:

ألا قُـل لمـن كـان حاسـدا
أتـدري علـى مـن أسـأت الأدب

---

(١) سورة الفلق / ٥.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة / ١٢٤٩.

(٣) رواه البخاري، وهو في صحيح الجامع الصغير / ١٢١٧.

(٤) صحيح مسلم وهو في صحيح الجامع (٨٨٤).

أســـأت عـلـى الله فـــي فعله
لأنـــك لـــم تـــرض لـــي مـــا وهـب
فــجـــازاك عـنــه بـــأن زادنـــــي
وســد عليـك وجـــوه الطلـب[1]

والحسد مرض خبيث من أمراض القلوب

ولقد ذم الله تعالى الحسد وأمرنا بالاستعاذة منه فقال جل شأنه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾[2].

ولطالما حذر الرسول ﷺ أُمته من الحسد، فقد ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخوانا.. الحديث[3]. وكذلك فإن أهل العلم والحكمة كثيراً ما أظهروا للناس حقيقة الحسد ونفّروهم منه ومن شرره المستطير، ومما قاله أهل الحكمة في ذلك: إن الحسد داء مُنْصف، يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود، حتى إنه قد يقْضي على صاحبه الذي ابتُلي به قبل أن يقضي على المحسود.

وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود.

---

(١) اللطائف من علوم المعارف (لأبي موسى المديني) / ٧٦ (ب) مخطوط.

(٢) سورة الفلق.

(٣) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان / ٣ / ١٨٩

الأولى: غمٌّ دائم لا ينقطع، والثانية معصية يعاقب عليها ولا يؤجر والثالثة مذمَّةٌ لا يُحْمَدُ عليها والرابعة سَخطُ الرّب عليه والخامسة يُغْلَقُ عنه باب التوفيق.

قيل للحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيحسد المؤمن؟ فقال: ما أنساك بني يعقوب.

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك، وقال: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد، وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له.

الحسد هو المعصية الأولى التي ارتكبت في السماء

علمنا عن طريق كتاب الله المبين أن الحسد هو المعصية الأولى التي ارتكبت في السماء حين حسد إبليس اللعين آدم – عليه السلام – على تكريم الله تعالى له، حتى عَلَّمَهُ الأسماء كلَّها وأمر ملائكته الكرام بالسجود له، فأبى إبليس أن يسجد لآدم حسداً واستكبارا: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾(١)، وهكذا كان الحسد من إبليس اللعين لآدم – عليه السلام – سببا في اللعن والطرد والوعيد بالعذاب المهين، ولقد فعل الحسد الكريه فعلته بين قابيل وهابيل، حين تَقَبَّل الله تعالى قُرْبان هابيل لإخلاصه وتقواه، ولم يتقبل قُربان قابيل لخبث نفسه وفجوره، ودخل الشيطان إلى قلبه من مدخل الحسد، فأثار حقده وغضبه على أخيه حتى سوّلت له نفسه بقتل

---

(١) سورة ص/ ٧٦.

أخيه هابيل فخسر القاتل نفسه في الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

ولقد حسد كفار مكة رسول الله ﷺ أن أنزل عليه الوحي من دونهم، بل واستعظموا أن ينزل القرآن الكريم على محمد ﷺ وهو في زعمهم دون عظائمهم جاهاً ومالاً فقالوا بلسان القرآن الكريم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[2] يريدون الوليد بن المغيرة المخزومي من مكة أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من الطائف، فجهلهم الله تعالى بقوله ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[3]. وذكر ابن اسحاق قال: أتى الأخنس بن شريق أبا جهل فدخل عليه بيته قال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف

---

(١) () سورة المائدة / ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) () سورة الزخرف / ٣١.

(٣) سورة الزخرف / ٣٢.

الشَّرَف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملْنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسيْ رهان قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نسمع له أبدا ولا نصدق[1]، فقام عنه الأخنس بن شريق، إذا فالأمر أمر حسد وخوف شديد أن يتفوق عبد مناف في الشّرف عليهم.

كل ذي نعمة محسود:

يقول الأستاذ عبدالرحمن حبنكه:

وما من ذي نعمة إلا كان له حاسدون، وكان له من حاسديه ظالمون آثمون، دبروا له المكائد وافتروا عليه الفرى، ومكروا به أيما مكر، فذو نعمة في عقله وعلمه، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين ذي سلطان بالكذب والبهتان فناله من حسدهم بلاء وهم حُزْن وغمّ، وذو نعمة في سلطانه ومجده كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين أقرانه، أو بينه وبين رعيته بالكذب والبُهتان والظلم والعدوان، فناله من حسدهم همٌّ وغم وحزن وبلاء، وذو نعمة في ماله وتجارته، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين زبائنه وشركائه، أو بينه وبين ذي سلطانه بالكذب والبهتان والظلم والعدوان فناله من حسدهم بلاء وهم، وحزن وغم، وذو نعمة في دعوته إلى الله تعالى وجهاد في سبيل الله وإخلاص في نصحه وصدقه في عمله، كان له حاسدون واشون، أفسدوا ما بينه وبين إخوانه وأحبابه وتلامذته وأصحابه بالكذب والبهتان

---

(١) انظر: الرحيق المختوم ١٤١.

والظلم والعدوان، فناله من حسدهم بلاء وهم وحزن وغم، وكم من زوجين حبيبين يُظلِّلْهُما سرادق السعادة والهناء، ويُمتِّعهما نعيم المودة والصفاء، ويمدهما العطاء الكريم بالصحة والرخاء، وكان لهما حاسدون واشون، أفسدوا ما بينهما بالكذب والبهتان والظلم والعدوان، فنالهما من حسدهم بلاء وهم، وحزن وغم، وربما مُنيا بمُرِّ الفراق وشر الطلاق، وكم من أصحاب متآخين في الله، متصافين متحابين، يجتمعون على الله ويفترقون عليه، قد ائتلفوا بينهم ائتلاف حبات عقد اللؤلؤ النظيم، لا يمر النِّسيم بينهم إلا بعطر، ولا تطلع الشمس عليهم إلا بزهو، ولا يُسْبلُ الليل عليهم ستره إلا بصفاء، ولا يمر الزمان على أحد إلا بوفاء، قد دخل بينهم حاسدون واشون، أفسدوا ما بينهم بالغيبة والنميمة كذبا وبهتاناً وظلما وعدوانا فنالهم من حسد حاسديهم هم وبلاء وعداوة وبغضاء ثم تفرقوا تفرق الأعداء، وكم من والد أفسده مكر الحاسدين على ولده فبات غاضبا عليه بعد أن كان راضيا عنه، وكم من ولد أفسده الحاسدون على أبيه فبات عاقّا بعد أن كان باراً به، وكم من مُحصنة عفيفة شريفة، زنَّاها الحاسدون والحاسدات، وأشاعوا عنها الفواحش ما لم تفعل، فأساءوا إلى سمعتها ودنَّسوا شرفها كذبا وبهتانا، وهي مما افتروا أطهر من ماء السماء، أو هي في طهارتها كطهر الحور العين، اللاتي لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، وكم من محصن عفيف شريف، فعل به الحاسدون مثل ذلك، وكم من أمين خوّنه الحاسدون والحاسدات، فأرْدُوه بالخيانة، وكم من صادق رماه الحاسدون بالكذب، وكم من عالم طعنه الحاسدون

بالطيش، وكم من عادل شيع عنه الحاسدون أنه جائر ضال، وكم من صاحب خلق كريم وصفه الحاسدون بالنفاق، وكم من داع إلى الحق صادق مخلص وصفه الحاسدون بالرياء، أو بأنه تاجر طالب جاه أو مال، وكم من صاحب خلق كريم وصفه الحاسدون بالنفاق، وكم من داع إلى الحق صادق مخلص وصفه الحاسدون بالرياء، أو بأنه تاجر طالب جاه أو مال، وكم من جميل قبّحه الحاسدون وشوّهوه، وكم من قوي أضعفه الحاسدون وأوهنوه، وكم من ثري كاده الحاسدون ومكروا به حتى نزل به الفقر، وكم من ذي جاه وسلطان ما زال به الحاسدون حتى أذلوه، وكم من ذي شجاعة وبأس وبطولة، مكر به الحاسدون حتى قتلوه، وكم من نبي أوقع به حاسدوه حتى قتلوه أو أخرجوه من بلاده، كل هذا له شواهد وأمثلة كثيرة في أحداث التاريخ، وما يزال التاريخ يسجل منها أحداثا وأمثلة كثيرة، في كل حقبة من الزمن وفي كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية[1].

وأما الأمر الثاني: القرآن الكريم

(رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار) فإن القرآن الكريم هو كلام الله العلي العظيم، وهو دستور الأمة، فيه الهدى كله، وفيه النور كله، وفيه الخير كله، وفيه البركة كلها، وهذه بعض آيات من القرآن الكريم تتحدث عن القرآن العظيم.

---

(١) الأخلاق الإسلامية / ١ / ٨٠٢ وما بعدها.

قال الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ ﴾[2]

وقال عز ذكره: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨ ﴾[3]

وقال جل ثناؤه: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨ ﴾[4]

وقال الرحمن الرحيم: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢ ﴾[5]

---

(١) سورة البقرة / ١ ـ ٢.

(٢) سورة البقرة / ١٨٥.

(٣) سورة المائدة / ٤٨.

(٤) سورة الأنعام / ٣٨.

(٥) سورة الأنعام / ٩٢.

وقال العلي الأعلى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾[1]

وقال الوليّ المولى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥٢﴾[2]

وقال السميع العليم: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾[3]

وقال الله تعالى: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾[4].

وقال المنعم الكريم: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾[5].

وقال الحنّان المنان: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾[6].

وقال علام الغيوب: ﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣﴾[7].

وقال الخالق سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧﴾[8].

---

(١) سورة الأنعام / ١٥٥.

(٢) سورة الأعراف / ٥٢.

(٣) سورة يونس / ١.

(٤) سورة هود / ١.

(٥) سورة يوسف / ١.

(٦) سورة الإسراء / ٩.

(٧) سورة لقمان / ١ ـ ٣.

(٨) سورة الزمر / ٢٧.

وقال الله المصوّر: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]

وقال الله المتكبر: ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾[2].

وقال الله القهار: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾[3]

وقال الله المتجلّي: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[4].

وقال القهار: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[5].

وقال الحفيظ العليم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[6]

وحديث القرآن الكريم عن القرآن باسم القرآن، والكتاب، والذِكر، والفرقان، وهي أشهر أسمائه، كثيرة في كتاب ربنا العظيم[7].

وهذه بعض الأحاديث الشريفة التي تتحدث عن القرآن الكريم وفضله:

---

(١) سورة القمر / ١٧.

(٢) سورة الرحمن / ١ ـ ٢.

(٣) سورة الواقعة / ٧٧ ـ ٨٠.

(٤) سورة الحشر / ٢١.

(٥) سورة البروج / ٢١ ـ ٢٢.

(٦) سورة الحجر / ٩.

(٧) انظر في ذلك كتاب (حديث القرآن عن القرآن) محمد الراوي ط دار ابن كثير دمشق ـ بيروت.

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرأوا القرآن فإنه فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه)[1]، وعن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران، تُحَاجَّان عن صاحبهما)[2] [3].

وعن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه)[4].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: (الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البَرَرة، والذي يقرأ القرآن ويَتَتَعْتَعُ فيه وهو عليه شاق له أجران)[5]، وعن أبي موسى الأشعريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّة، ريحها طيب وطعمها طيّب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حُلْوٌ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن، كمثل الرَّيْحَانة، ريحها طيب وطعمها مُرّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنْظَلَةِ، ليس لها ريح وطعمها مُرّ)[6].

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (إن الله يرفع

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) تقدمه: تتقدّمه، وتحاجَّان: أي تجادلان عن صاحبهما وهو التَّالي لهما العامل بهما.

(٣) رواه مسلم (٨٠٥).

(٤) رواه البخاري (٩/٦٦).

(٥) متفق عليه، البخاري (٨/٥٣٢) ومسلم (٧٩٨).

(٦) متفق عليه البخاري (٩/٥٨) ومسلم (٧٩٧).

بهذا الكتاب أقواما ويخفض به آخرين)[1].

وعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الم﴾ حرف، ولكن: ألفٌ حرف، ولام حرف، وميم حرف)[2].

وعن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب)[3].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: (يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق[4] وَرَتِّل كما كنت تُرَتِّل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها)[5] والأحاديث عن القرآن الكريم وكرامته كثيرة[6].

إن هذا المؤمن التقيّ القرآني، الذي آتاه الله القرآن، ونعم ما آتاه، ونعم ما أنعم به عليه، أنعم عليه بالقرآن الكريم، الذي به صار محمد ﷺ نبيا ورسولاً، وبه أصبحت أمة الإسلام العظيمة، وبه كانت خير الأمم.

إن المؤمن الموصوف بهذا الوصف المهيب، قد جعل الله القرآن

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٩١٢) وقال حديث حسن صحيح، وهو صحيح.

(٣) رواه الترمذي (٢٩١٤) وقال حديث حسن صحيح.

(٤) أي في درج الجنة.

(٥) رواه أبوداود (١٦٦٤) والترمذي (٢٩١٥) وقال: حسن صحيح.

(٦) اقرأ في ذلك كتاب (فضائل القرآن) للشيخ أبي عبيد القاسم الهروي، ط دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت.

الكريم ربيع قلبه، ونوُرَ صدرْه، وذهاب همه وحزنه، وألزمه حفظ كتابه كما علمه، ونوَّر به بصَرَه، وشرح به صدره، وجعله إماماً له في كل حركاته وسكناته، في كل زمان ومكان.

إنه يمشي بين الناس كالنجم الهادي، والنور الساري، والسراج المنير، نيته طاهرة، وأقواله كريمة، وأعماله صالحة، وسلوكه فاضل، وخلقه طيب.

إن كل الصفات الحسنى، والعطاءات الكبرى، والدرجات العُلا، التي منّ الله بها في كتابه وسنة رسوله على أهل القرآن العاملين به، هو من أهلها وحقيق بها، فهنيئاً له الفردوس الأعلى ورؤية وجه الله العظيم، إنه يتلو كتاب الله تعالى آناء الليل وآناء النهار، فمن يقدر على تعداد حسناته، إنه لا يبخل به على أحد، فيسمعه للغير، ويعلِّمه للناس، فهو بذلك من خير المؤمنين، إنه يحفظه ويتلوه ويتدبره ويَفْقَهُهُ ويعمل به، فهو يرجو تجارة مع الله تعالى لن تبور.

إنه من أصحاب الدرجات العلا، بعدد آي القرآن العظيم، ألفان ومائتا آية وثلاثون وست آيات [في قول الكوفيين](١) ما بين كل درجة ودرجة ما لا يعلمه إلا الله.

إنه من أصحاب الغرف العالية التي يراها أصحاب الجنة من فوقهم كما يرون الكوكب الدّرّي.

إنه من حملة سرّ الله المكنون، وحفظة علمه المخزون، ومن أهل

---

(١) انظر: تفسير القرطبي / ١ / ٩٥.

القرآن وخاصته، قال رسول الله ﷺ: (إن لله أهلين منّا) وفي سنن ابن ماجة (من الناس) قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: (هم أهل القرآن أهل الله وخاصته)[1].

إنه بتلاوته لكتاب ربه والعمل بما جاء فيه، أصبح من المطيعين لله والرسول، فهو مع الذين أنعم الله عليهم بالنعم الخاصة العالية، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[2] فهنيئاً له ولكل من عمل بمثل عمله.

وأما الأمر الثالث: وهو المال

(ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)

إن التعبير المحمدي الشريف، يوحي بأن هذا المؤمن الكريم، وكأنه لا عمل له ليلا أو نهاراً إلا الإنفاق في سبيل الله تعالى، وهذا عمل بالغ العظمة في الإحسان، ودليل على شكر الرحمن، على ما أنعم الله ووهب وأعطى، وبرهان صدق على قوة الإيمان، ووفاء رائع لحق المال، ويا له من وفاء.. نِعْم الوفاء.. إنه عمل لا يصدر إلا عن مؤمن مَلأَ الإيمان قلبه بنور اليقين، فرأى الحق حقا والباطل باطلاً، ورأى أن كل ما في الدنيا زائل، ولا يبقى إلا ما هو عند الله الكريم، فأطلق العَنَان للبرّ

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، وأبوبكر البزّاز في مسنده.

(٢) سورة النساء / ٦٩ ـ ٧٠.

والخير والإحسان، وفتح بابه للسائل والمحروم، وللفقير والمسكين، وللقريب وللبعيد.

إنه يذكرنا بالسلف الصالح من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان، إنه ممن أعطاه الله خيراً فنفخ فيه بيمينه وشماله، وبين يديه ووراءه، إنه ممن ينفق ابتغاء وجه ربه الأعلى، ينفق ليلا ونهاراً، سراً وعلانية، مُبْدِياً للصدقة تارة، ومخفيا لها أخرى، إنه ينفق من مال الله الذي آتاه، ينفق من ماله الطيب، فيتقبله الله منه ويأخذه بيمينه المباركة فينمّيه له، حتى يكون يوم القيامة جبالاً عظيمة من حسنات وبركات عليه من مولاه العظيم، إنه دائماً في حاجة المحتاجين، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، إنه يفرج كرب المكروبين، وسيفرّج الله عنه كرب القيامة، فلا حزن ولا هم ولا غَمّ ولا فزع، بل أمن وأمان وتكريم وظل ظليل وسلام، إنه يُيَسِّر على المعسرين، والله يُيَسِّر عليه في الدنيا والآخرة كل أمر عسير، إنه يستر أبدان المسلمين ويواري عوراتهم، وربه يستره في الدنيا والآخرة، إنه يستر أبدان المسلمين ويواري عوراتهم، وربه يستره في الدنيا والآخرة، إنه يرحم الضعفاء من خلق الله المحرومين، والله يرحمه برحمته التي اختص بها عباده المتقين.

إنه جندي باسل من جنود الإسلام، انتصر على نفسه وهواه، وانتصر على الدنيا وزخارفها وبهجتها الزائفة، وانتصر على الشيطان الذي يقف له بالمرصاد ليصده عن النفقة في سبيل الله ويخوفه من

الفقر، وقد وعده الله بالمغفرة والأجر العظيم.

إنه ينفق ماله في سبيل الجهاد في سبيل الله، فهو من المجاهدين المكرمين، إنه مؤمن أحبّ نفسه حبا لله وللرسول، فارتفع بها من أرض الدنيا الرخيصة إلى أرض الجنان الغالية العالية، إنه أحب الخلق حباً لله، أحب رَحِمَه فوصلها بالعطاء والرحمة والخيرات، فوصله الله به.

الباب الثاني
الفصل الرابع
بَعْضُ أوصاف الصدقات

أولاً: صدقةَ تلألأ منها وجه النبي ﷺ نوراً وجمالاً .

ثانياً: صدقة مضاعفة .

ثالثاً: صدقات أجرها عظيم .

رابعاً: صدقات عن ظهر غنى، وأعلاها الإيثار.

خامساً: صدقة أبقت مَالاً وأوْرَثَتْ رِضْوَانا .

أولاً: صدقة تهلَّل منها وجه النبي ﷺ نوراً وجمالاً

من عجائب الصدقات حادثة صدقة تهلل منها وجه النبي ﷺ نوراً وصفاءً وإشراقاً وجمالاً، وسمَّاها سنة حسنة في الإسلام، عن أبي عمرو جرير بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كنا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ فجاءه قوم عراة مجتابي النمار، أو العباء، متقلدي السيوف، عامتُهم من مُضَر بل كلهم من مضر، فَتَمعَّرَ وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾(١).

والآية الأخرى التي في آخر الحشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾(٢)، تَصدَّق رَجُلٌ مِنْ ديناره مِنْ دِرْهَمه مِنْ ثَوْبه مِنْ صاع بُرِّه مِنْ صَاع تَمْره، حَتَّى قال: وَلَوْ بشقِّ تمرة، فجاء رجُل من الأنصار بصُرة كادت كَفُّهُ تَعجزُ عَنْهَا، بَلْ قد عَجزَتْ، ثُم تَتَابع الناس حتى رأيتُ كومَيْن من طعام وثياب، حتى رَأيتُ وَجه رسول الله ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّه مُذْهَبة، فقال رسول الله ﷺ: (من سنَّ في الإسلام سُنَّة حَسَنة فَلَهُ أجرُها، وأجْرُ مَنْ عَمِلَ بها مِنْ بعدِه من غير أن ينقُصَ من أُجورهم شيء، ومَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّة سيِّئة كان عليه وزرُها ووزرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِه من

(١) سورة النساء / ١.

(٢) سورة الحشر / ١٨.

غيرِ أن ينقُصَ مِنْ أَوزارِهم شيء)[1].

إن جرير ابن عبدالله الصحابي الجليل ينقل إلينا ويشهدنا قصَّة حادثة لصدقة من الصدقات العجيبة، حدثت بين يدي الرسول ﷺ وبمشهد من الصحابة المكرمين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وقد تعددت مشاهد هذه الحادثة واحدا بعد الآخر.

فالمشهد الأول منها يطلعنا على صورة مشرقة وضيئة لجمع من الصحابة الأخيار، وهم جلوس بين يدي المصطفى ﷺ يستمعون إليه ويلتمسون النور والهداية والرحمة من حديثه الحق الطيب الجميل، وكان ذلك بالقرب من حجرات أمهات المؤمنين ـ رضوان الله عليهن أجمعين، وفي أول النهار، قال جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار) والصدر كما جاء في القاموس مقدم كل شيء، يقال: صدر الكتاب، وصدر النهار، وصدر الأمر، أي أول كل منهم، وبينما هم على هذه الحال النورانية السماوية البهية يتعلمون أمور دينهم من صاحب الكلم الطيب ورسولهم محمد ﷺ إذ بمشهد يطرأ عليهم، علاماته الفقر والبؤس والضعف وشدة العوز، لقد قدم على المجلس الكريم، قوم من قبيلة مضر، جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعرضون عليه حالهم ويبثون إليه شكواهم، جاءوا يلتمسون الخير والرحمة ممن أرسله الله رحمة للعالمين، جاءوا إلى من وصفه الله عز وجل بأنه أولى

(١) رواه مسلم في الصحيح في باب الزكاة (٧٠٦/١ رقم ٧٠) وأخرجه الطبراني في الكبير (٣١٠/٢ رقم ٢٣٧٥) ورواه ابن ماجة في المقدمة (٧٤/١ رقم ٣٠٢) ورواه غيرهم، انظر [الجامع لشعب الإيمان جـ ٦ ص ٤٩٦، ٤٩٧].

بالمؤمنين من أنفسهم، كما قال عز وجل:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴾[1]، وإلى من وصفه ربه فقال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2]، لقد فوجئ بهم ﷺ في صورة حزينة تزلزل قلوب الرحماء وتهز أفئدة الحلماء، فرقّ لحالهم رقة شديدة، وأشفق عليهم شفقة رحيمة، لقد جاءوا إليه ﷺ حفاة الأقدام عراة الأجسام إلا من ثياب أو عباءات من صوف ممزقة بالية مختلطة الألوان، وقد خرقوها وقوّروا وسطها، ثم إنهم كانوا متقلدين لسيوفهم، قال جرير رضي الله عنه (فجاء قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامَّتهم من مُضَر، بل كلهم من مضر) والنِّمار بكسر النون جمع نمرة وهي ثياب صوف فيها تنمير، أي لون أبيض ولون أسود، جاء في القاموس: المنمر: ما فيه نقط سود وأخرى بيض، ومعنى (مُجتابي النِّمَّار) أي لابسيها، خرقوها وقوّروا وسطها، والعباء جمع عباءة وعباية، لغتان، وهاهو الرسول ﷺ وقد بلغ به التأثر مبلغه، حيث وجدهم في شدة الفقر وقد حرموا مواساة الأغنياء لهم، مع شدة احتياجهم وعوزهم، إن الرسول ﷺ قد تغير وجهه بسبب ما رأى، فدخل بيته ليبحث عن شيء يسد به حاجة أولئك البائسين المحرومين، لكنه ﷺ وهو سيد المؤثرين غيرهم على أنفُسهم لم يجد شيئاً في بيته يعطيه لهم، ولا

(١) سورة الأحزاب / ٦.

(٢) سورة التوبة / ١٢٨.

عجب في ذلك فقد قالت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - (ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قُبِضَ)[١]، ويخرج ﷺ من بيته وقد رأى ليذهب ما بهؤلاء القوم من البؤس والحاجة، أن يأمر بلالاً رضي الله عنه ليؤذن في الناس، ثم يدعوهم للوقوف بجانب إخوانهم الفقراء ويسدوا حاجتهم، ونادى بلال في الناس وصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الظهر، وصعد منبراً صغيراً، كما جاء في الحديث من طرق أخرى - فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد، فإنَّ الله أنزل في كتابه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾[٢]، قال العلماء: وسبب قراءته ﷺ هذه الآية أنها أبلغ في الحث على الصدقة عليهم، ولما فيها من تأكد الحق لأنهم إخوة ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[٣]، وهذه الآية الكريمة كما قال ابن عطية الأندلسي في تفسيره: آية وعظ وتذكير وتقريب للآخرة، وتحذير ممن لا تخفى عليه خافية[٤]، قال ﷺ: (تصدَّق رَجُل مِن ديناره من درهمه، مِن ثوبه، من صاع بُرِّه من صاع تمره) حتى قال: (ولو بشق تمرة)، لقد أثار مشهد الرسول ﷺ وأمارات الحزن

---

(١) متفق عليه، البخاري (٩/٤٧٨)، ومسلم (٢٩٧٠).

(٢) سورة النساء / ١.

(٣) سورة الحشر / ١٨.

(٤) تفسير ابن عطية م ١٥، ص ٤٧٧.

والشفقة على وجهه الشريف، وكذا كلماته النورانية السارية من فمه الطيب العذب، شعور صحابته الكرام، فما أن فرغوا من صلاتهم حتى راحوا يتسابقون في الخيرات ويتنافسون في الصدقات، ويأتون بها فيضعونها بين يدي رسول الرحمة محمد ﷺ ، وها نحن أولاء نتابع فنشهد صحابيا كريما من الأنصار وقد أتى رسول الله ﷺ بصُرّة كبيرة ممتلئة بالطعام، وقد عجزت كفه الكريمة عن حملها، وتتابع الصحابة رضوان الله عليهم يقدمون ما استطاعوا من طعام وثياب حتى صار أمام الرسول ﷺ كومين عظيمين من طعام وثياب، لقد كان مشهداً رائعاً حقاً، مشهد أخوة ورحمة ومودة بين المسلمين، كما جاء في الحديث، عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ (مثلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم مثلُ الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهَرِ والحمَّى)[1]، وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : (إنّ الأشعريين إذا أرمَلُوا في الغزو أو قلَّ طعامُ عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسَّويَّة، فهُم منِّي وأنا منهم)[2]، ونأتي إلى المشهد الأخير لتلك الحادثة الواعظة، فنبصر وجه المصطفى ﷺ ، وقد ذهب عنه التغير الذي علاه حين رأى القوم البؤساء أول الأمر، وعاد وجه الحبيب المحبوب، وجه أكرم نبي وأقرب

---

(١) رواه البخاري (١٠/٧٦٢) ومسلم (٢٥٨٦)، وأخرجه أحمد (٤/٢٧٠) وفي الحديث تعظيم حقوق المسلمين، والحضّ على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضا، انظر رياض الصالحين تحقيق شعيب الأرنؤوط ص ١٤٣.

(٢) البخاري (٥/٩٣)، ومسلم (٢٥٠٠).

صفي وأحب خليل للرحمن جل وعلا، عاد كما هو دائماً، يتهلل ويشرق ويتلألأ نوراً وسروراً وصفاء، كأنه مُذهبة، ولا عجب فقد كان وجه المختار ﷺ يتلألأ دائماً تلألؤ القمر ليلة البدر، ولقد وصفه الصحابة الأبرار بقولهم كأن الشمس تجري في جبينه الكريم العالي، وينظر الرسول ﷺ إلى صحابته الأخيار، وقد سر سروراً عظيماً بمبادرتهم إلى الامتثال لما أمرهم به ودعاهم إليه، وهنا يقول صاحب اللسان الذي لا ينطق عن الهوى (من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها، وأجرُ من عمِلَ بها من بعدِه من غير أن ينقُصَ من أُجُورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنِّة سيِّئة كان عليه وزرُها ووزرُ من عمل بها من بعده من غير أن ينقُصَ من أوزارهم شيء).

أما السنة الحسنة فهي كل عمل صالح فعله المسلم واقتدى به غيره ففعل مثل فعله، فيكون للفاعل الأول مثل أجور من اقتدوا به في هذا العمل الصالح مهما كثر عددهم مادام العمل مستمرا، من غير أن ينقص من أجور أحدهم شيء.

وأما السنة السيئة فهي كل عمل قبيح لا يُرْضِي الله تعالى، ويخالف أمر الشرع، فإن على الفاعل الأول الذي أحدث المحدثات الباطلة والبدع المذمومة، مثل أوزار من قلده في هذا العمل وعمل به مادام العمل مستمرا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[1]، هذا ، والواضح من

---

(١) سورة العنكبوت / ١٣.

ثانيا أنوار الحديث الشريف الذي نحن بصدد الكلام عليه، أن صاحب السنة الحسنة والعمل المشكور والفاتح لهذا الإحسان والتصدق، هو الصحابي الأنصاري الذي أتى بالصرة، وهو أول المتصدقين، فهنيئاً لكل من أحسن وتصدق لوجه الله الكريم، وطوبى لكل من سن سنة حسنة في الإسلام، يكون فيها الخير والإصلاح والعون للإسلام والمسلمين، لقد كانت حادثة الصدقة هذه حادثة لها دلالاتها الكريمة والحبيبة، حادثة سجلت بكلمات النور لتظل مثالاً خلاَّقاً لروح الجماعة المسلمة التي أراد الله أن تكون دائماً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

كما قال ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضا) وشبَّك بين أصابعه)[1]، قال القرطبي: هذا تمثيل يفيد الحض على معونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأن ذلك أمر متأكد لابد منه، فإن البناء لا يتم أمره ولا تحصل فائدته إلا بأن يكون بعضه يمسك بعضاً ويقويه، وإن لم يكن ذلك انحلّت أجزاؤه وخرب بناؤه، وكذلك المؤمن لا يستقل بأمور دنياه ودينه إلا بمعونة أخيه ومعاضدته ومناصرته، فإن لم يكن ذلك عجز عن القيام بكل مصالحه، وعن مقاومة مضاره، فحينئذ لا يتم له نظام دنياه ولا دينه، ويلحق بالهالكين [(المفهم) ٤/ ورقة ١/٨٣][2].

ألا فليتخذ القادة وعظماء الناس هذا الإنسان الكامل، صاحب الخلق العظيم ﷺ أسوة حسنة، به يقتدون، وبهديه يسترشدون،

---

(١) البخاري (٥/٧٢، ١٠/٣٧٦، ومسلم (٢٥٨٥)).

(٢) عن رياض الصالحين ت الأرنؤوطي ص ١٤٢.

فمن قصة هذا الحديث يتبين لنا ما كان يتحلى به الرسول ﷺ من خلق الرحمة والمشاركة الوجدانية، وما كان يتحلى به من جود نفسي عظيم، لقد علّم الرسول ﷺ الصحابة الكرام، كيف تكون العاطفة الأخوية، والرحمة الإنسانية، والمشاركة الوجدانية، وكيف ينبغي أن تكون أخلاق المسلمين، تجاه إخوانهم المسلمين[1].

(١) الأخلاق الإسلامية (حبنكة) / ٢ / ٦٤٤ ـ ٦٤٥.

ثانياً: (صدقات مضاعفة)

من عجائب الصدقات أن الله تعالى بفضله العظيم وكرمه العميم، يُصَيِّرُ الصدقة القليلة المتمثلة في تَمْرَةٍ أو لُقْمة أو كِسْرَةٍ إلى جبل عظيم مثل جبل أحد وأعظم منه، وتلك عجيبة من عجائب الصدقات، ومِنَّةٌ كبرى من رب الأرض والسماوات، والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ناطقة بذلك الخير العظيم، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[1]، **وقوله تعالى:** ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾[2]، **وقوله تعالى:** ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾﴾[3]، **وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٞ كَرِيمٞ ﴿١٨﴾﴾[4]، **وقوله تعالى:** ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾[5]، **وقوله تعالى:** ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾[6].

---

(١) سورة البقرة / ٢٦١.
(٢) سورة البقرة / ٢٤٥.
(٣) سورة الحديد / ١١.
(٤) سورة الحديد / ١٨.
(٥) سورة البقرة / ٢٧٦.
(٦) سورة الروم / ٣٩.

ومما جاء في السنة المطهرة عن مضاعفة الصدقة وتنميتها، قوله ﷺ : (مَنْ تصدَّقَ بعدل تمرةٍ مِنْ كسبٍ طيِّب، ولا يقبلُ الله إلا الطَّيِّب، فإنَّ الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل)[1]، وفي رواية لابن خزيمة: (إن العبد إذا تصدَّق من طيب تقبلها الله منه وأخذها بيمينه فربَّاها كما يُربِّي أحدُكم مُهره أو فصيله، وإنّ الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله، أو قال: كفِّ الله، حتى تكون مثل الجبل، فتصدَّقُوا)، وفي رواية للترمذي يقول ﷺ : (إن الله تعالى يقبَلُ الصّدقة ويأخُذُهَا بيمينيه فيُربِّيها لأحدكُم كما يُربِّي أحدُكم مُهره، حتى إن اللُقمة لتصير مثل أُحد)، وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: (يمحق الله الربا ويربي الصدقات)، وعن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله ليُربِّي لأحدكم التمرة أو اللُقمة كما يربّي أحدكم فلُوَّه أو فصيلة حتى تكون مثل أُحد)[2]، وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (إن العبد ليتصدَّقُ بالكسرة تربو عند الله عزّ وجلّ حتى تكون مثل أُحد)[3].

قال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة.

---

(١) رواه البخاري (٣/٢٢٠) ومسلم (١٠١٤) كما رواه النسائي والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه، عن أبي هريرة وهو في صحيح الجامع (٦١٥٢).

(٢) رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له، وصححه الألباني في صحيح الترغيب برقم (٤٧).

(٣) رواه الطبراني، وهو حديث حسن بالشواهد المتقدمة.

وهكذا رأينا بنور القرآن العظيم والسنة المطهرة أن أمر مضاعفة الصدقة وتنميتها إلى أن تصير أعظم من الجبل أمرُ حقٍّ وصِدْقٍ، ولا حرج على فضل الله، وهو جل شأنه ذو الفضل العظيم، وهاهم أولاء علماؤنا المكرمون يشرحون لنا بكلماتهم الطيبة الهادية أحاديث المصطفى ﷺ السابقة فيقولون: قوله: (من تصدَّق) أي أعطى على وجه القربى لله تعالى من يستحق الصدقة، وقوله: (بعدلِ تمرة) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: أي بقيمتها، لأنه بالفتح - أي عَدْل - المثل، وبالكسر - أي عِدْل - الحِمْل، وقال صاحب الكشاف الإمام الزمخشري: هما - أي عَدْل، وعِدْل، بفتح العين وكسرها بمعنى، أي واحد، كما أن لفظ المثل لا يختلف، هذا ونلحظ أن الأحاديث الشريفة السابقة تارة تذكر التمرة وتارة تذكر اللقمة، وتارة تذكر الكسرة، والذي يبدو واضحا أن التمرة تعتبر الأساس، وأن ما سواها مما يماثلها في القيمة من لقمة أو كسرة أو مما يقتات به من أنواع الحبوب أو الثمار أو الشيء القليل من اللحم، يأخذ نفس الحكم، وهذا هو قول الجمهور، وقوله (مِنْ كسْبٍ طيِّب) أي حلال خال من الغش والخديعة، وقوله (ولا يقبل الله إلا الطيب) جملة معترضة بين الشرط والجزاء لتقرير ما قبله، وفي رواية سليمان بن بلال التي أشار إليها البخاري (ولا يصعد إلى الله إلا الطيب) قال القرطبي - رحمه الله - وإنما لا تقبل الصدقة بالحرام لأنه غير مملوك للمتصدق، وهو ممنوع من التصرف فيه، والتصدق به تصرف فيه، فلو قُبل لَزِمَ أن يكون الشيء مأمورا ومنهيا من وجه واحد وهو محال، قوله: (فإن

الله يتقبلها بيمينه) وفي رواية لمسلم (إلا أخذها الله بيمينه) وعند مسلم أيضا (إلا أخذها الرحمن) قال الحافظ في الفتح: وفي رواية لمسلم ـ أيضا ـ فيقبضها، وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ عند البزار (فيتلقاها الرحمن بيده) وكلها متقاربة أو متساوية في المعنى، هذا وبمناسبة نسبة (اليمين) أو (اليد) إلى الله تعالى، كما وردت في الأحاديث السابقة، فإن عقيدتنا عقيدة أهل السنة والجماعة، الإيمان بما جاء في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة من أسماء الله تعالى وصفاته، وإثبات ذلك على وجه الكمال مع تنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقات، كما نؤمن بذات الله عز وجل من غير تشبيه ولا تمثيل (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وهذا هو الحق الذي لا يجوز العدول عنه، قال الإمام الترمذي في جامعه: قال أهل العلم من أهل السنة والجماعة، نؤمن بهذه الأحاديث ولا نتوهم فيها تشبيها ولا نقول: كيف، هكذا روى عن مالك وابن عيينة وابن المبارك وغيرهم وقوله: (فيربيها كما يربي أحدكم فلوه) وفي رواية ابن خزيمة (كما يربي أحدكم مهرة أو فصيله) والفَلُوّ: المهر ولد الفرس، لأنه يفْلى، أي يفطم، وقيل: هو كل فطيم من ذات حافر، والحكمة في ضرب المثل بـ (الفلو) أو (الفصيل) وهو ولد الناقة: إذا فُصل عن أمه، أن كلا منهما يزيد زيادة بينة، ولأن الصدقة نتاج العمل، وأحوج ما يكون النتاج إلى التربية إذا كان فطيما، فإذا أحسن العناية به انتهى إلى حد الكمال، وكذا عمل ابن آدم، لاسيما الصدقة، فإن العبد إذا تصدّق من كسب طيب، لا يزال نظر الله تعالى يكسبها الكمال حتى تنتهي بالتضعيف

إلى نِصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم، نسبة ما بين التمرة إلى الجبل، قوله (حتى تكون مثل الجبل) ولمسلم من طريق سعد بن يسار عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (حتى تكون أعظم من الجبل) ولابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ من وجه آخر عن القاسم (حتى يُوَافَى بها يوم القيامة وهي أعظم من أُحد) فهذه الروايات الصحيحة تثبت أن التمرة تصير بفضل الله تعالى أعظم من جبل أُحد، يوافى بها صاحبها يوم القيامة، والظاهر كما قال العلماء، أن عين الصدقة القليلة هذه تعظم عند الله تعالى لتثقل في الميزان يوم القيامة، والله أعلم.

إن الصدقة مهما قلت حين يصاحبها حسن التوجه بها إلى الله تعالى، فإن الله تعالى يضاعفها أضعافاً كثيرة إلى ما شاء الله تعالى بفضله ورحمته حتى تصير أعظم من الجبل، وحين نتصور التمرة الصغيرة في مواجهة جبل عظيم نرى أن التمرة تعتبر كأنها لا شيء، وحين نؤمن ونصدق بما وعد الله عباده المتصدقين في كتابه الكريم، وسنة نبيه العظيم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَصْيير هذه التمرة التي لا تكاد تُرى إذا نظر الإنسان إليها وهي على الأرض، إلى هذا الشيء العظيم، نستشعر واسع رحمة الله تعالى وفضله العظيم على عباده المسلمين، إن هذا واللّه ليدفع المؤمن العاقل دفعا ويحثه حثاً ليسارع بالصدقة الخالصة في سبيل الله تعالى، حسب قدرته وطاقته، فإن الله العليم الحكيم لا يكلف نفسا إلا ما آتاها، إن المسلم حين يفعل ذلك إنما يضع له رصيداً في بنك لا ينفد ما فيه، بل يبقى ويزيد، ذلك لأنه عند الله

تعالى التي لا تضيع عنده الودائع، والذي يقبل من عباده القليل ويثيبهم عليه بالكثير والكثير، وعلى المؤمن ألا يستقل صدقته مهما صغرت، ففي الحديث قوله ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ يا عائشة: (استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان)[1]، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنها ـ أنه قال: (يا رسول الله: أيُّ الصَّدَقَة أَفْضَل؟ قال: (جُهْدُ المقلّ وابدأْ بِمَنْ تَعُول)[2]. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (سَبَقَ درهم مائة ألف درهم، فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: رجل له مال كثير أخذ من عرضه ـ أي جانبه ـ مائة ألف درهم فتصدق بها، ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق بـه)[3]. فالبشرى خير البشرى للمحسنين المتصدقين، والويل شر الويل للجاحدين الباخلين: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[4]، والحسرة كل الحسرة لأولئك الذين جمعوا أموالهم من حرام وأكلوا أموال الناس بالباطل، ثم لما أيقنوا نهايتهم ودنُوَّ أجلهم قاموا يبنون بها المساجد والمستشفيات،

---

(١) رواه الإمام أحمد عن عائشة، وحسّن المنذري إسناد الإمام أحمد، انظر الفتح الرباني م٩ ص ١٥٩.

(٢) رواه أبوداود وابن خزيمة والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الترغيب برقم (٨٧٠).

(٣) رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في صحيح الترغيب برقم (٨٧١).

(٤) سورة محمد / ٣٨.

فهيهات أن يتقبل منهم، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، فإن هم أرادوا التوبة حقا والرجوع إلى الله صدقا، فليردوها إلى أصحابها إن وجدوا، وإلا ففي سبيل الله تعالى على ذمة أصحابها، ثم ليتخلَّصُوا من المال الحرام كله، فإن بقى لهم مال حلال فليتصدقوا به مهما قل، وليتوبوا إلى الله تعالى، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، إن المؤمن كسبه طيب، وصدقته طيبة، وهي مقبولة عند الله تعالى لأنها ممن خشي الله واتقاه ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾(١).

هذا ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن صدقة شق التمرة أو اللقمة أو الكسرة أو القليل من الطعام، إنما يكون ذلك ممن لا يجد، أي للمُقِلّ المعدم المحب لبذل الخير، أما أهل الثراء، فلينفق وليتصدق كل ذو سَعة من سَعَته، أما إذا أخرج صاحب الألوف المؤلفة قرشاً أو قرشين أو فلساً أو فلسين مثلاً، فهذا ليس تصدق إنما هو بالنسبة له سخرية واستهزاء وضلالاً، وكذا إذا أخرج صاحب العشرات من أشجار النخيل المثمر، تمرة أو تمرتين أو حتى القليل منه ككيلو أو كيلوين فهذا لا يليق ولا يقبل بمفرده، لأنه دليل شح وبخل عظيم، وعلامة ضعف إيمان وخوار يقين وقلة حياء، وأقول: إن العقلاء والفطناء هم الذين يستقبلون نور الله في كتابه وسنة نبيه محمد ﷺ استقبال المحب للحبيب الأعلى الذي هو فوق كل حبيب، وبهذا النور ينطلقون

---

(١) المائدة / ٢٧.

انطلاقة الريح المرسلة بالخير فيسارعون ويتنافسون في بذل الخيرات والصدقات في سبيل الله المنعم الكريم، إنهم أصحاب السعادة والجنة - والرضا والرضوان والنعيم المقيم.

أما الأغبياء البلهاء العاجزون عن فك أغلال الشح والبخل التي تحيط بهم لضعف إيمانهم، وانشغالهم بما عندهم مِمَّا يَفْنَى، عما هو عند الله تعالى مما يَبْقَى، فبئس اليوم الذي يموتون فيه، وبئس اليوم الذي يقفون فيه بين يدي الغني الجبار.

ثالثاً: صدقات أجرها عظيم

إن الصدقة قربة إلى الله تعالى، وهي رحمة وبر وعطاء وسماحة وتعاون وتكافل بين المسلمين، كما أنها دليل على صدق المؤمن وصحة إسلامه، ثم إنها قارب عظيم من قوارب النجاة والمغفرة والتكريم يوم الدين، يوم لا ينفع نفساً إلا ما قدمت من خير وما عملت من صلاح، والصدقة تتأثر زيادة ونقصاً، وصعوداً وهبوطاً، وقبولاً وَرَدَّاً، على حسب عمر المتصدق وحالته، شاباً قوياً أو شيخاً هرماً، صحيحاً أم سقيماً، لم تأته أَمارات الموت بعد، أو دنت منه لحظات الاحتضَار، فمن الناس من يقضي عمرهُ مُلْتَفًّا بزينة الحياة الدنيا من مال وولد وجاه وغير ذلك، لا يفكر إلا في متعته الوقتية الرخيصة، واهماً أن الدنيا التي بين يديه لن تبيد ولن تنتهي، كما قال صاحب الجنة في سورة الكهف ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾[1]، مُعْرِضاً عن إيتاء حق الله تعالى فيما رزقه من نعم كثيرة، عاملاً طوال أيام حياته على جمع المال واكتنازه والاستئثار به من دون خلق الله الفقراء والمحتاجين، لا يؤدي زكاة ماله المفروضة، ولا يساعد في خير ولا يلتفت بالرحمة والشفقة لجائع أو عريان أو مسكين.

وهناك صنف آخر من الناس فوق النوع السابق، إنه يخرج زكاة ماله المفروضة ولا يزيد عليها مثقال ذرة ولو كانت لديه الألوف المؤلفة وَمَنْ حوله من فقراء المسلمين يتضورون جوعاً وألماً، إنه كما

---

(١) الكهف / ٣٥.

قال الرسول ﷺ في الحديث (لو أنَّ لابنِ آدم وادياً من ذهب أَحَبَّ أن يكون له واديان، ولا يملأُ عين ابنِ آدم إلا التُّراب، ويتوبُ الله على من تاب)[1].

ويشرح الشيخ محمد عبدالباقي - رحمه الله - قول الرسول ﷺ : (لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان) فيقول: معناه أن بني آدم مجبولون على حب المال والسعي في طلبه، ولا يشبع منه إلا من عصمه الله ووفقه لإزالة هذه الجبلة عن نفسه، وقليل ما هم، أي أن ابن آدم لا يزال حريصاً على الدنيا حتى يموت ويمتلئ جوفه من تراب قبره، وقوله ﷺ (ويتوب الله على من تاب)، هذا الكلام وُضِعَ مَوْضِعَهُ إشعاراً بأن هذه الجِبِلَّة المذكورة فيه مذمومة جارية مجرى الذنب وأن إزالتها ممكنة، وذلك بتوفيق الله تعالى وتسديده[2]، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يكْبُرُ ابنُ آدَمَ وَيكْبُرُ معه اثنان، حبُّ المالِ وَطُولُ العمر)[3]، هذا وكل من النوعين السابقين من خلق الله تعالى ممن ينتسبون إلى الإسلام، قد يؤدون أركان الإسلام الأخرى، أما بالنسبة لموقفهم من المال والزكاة والصدقة، فهم على ما وُصِفوا، وتمضي بهم الأيام والشهور والسنون ويقترب العمر مِنْ نهايته وتدنو لحظات رهيبة لم يُعْمَل لها من قبل حساب، ويشعر الواحد منهم، سواء

(١) متفق عليه، وهو في اللؤلؤ والمرجان برقم ٦٢٣، وأخرجه البخاري في باب الرقاق ١٠ – باب ما يُتَّقى من فتنة المال.

(٢) اللؤلؤ والمرجان م١ ، ص ٢٤٧.

(٣) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان م١ ص ٢٤٧، وأخرجه البخاري في ٨١ كتاب الرقاق ٥ باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر.

من لم يقدم شيئاً أو من لم يقدم إلا القليل، أنه مقصر في حق ربه المنعم، كل التقصير، فماذا يفعل الآن وهو يرى نفسه مقدم على الحياة الآخرة ولقاء الله تعالى، وقد فرط فيما مضى، وأمسك وشح بالمال، إنه يريد أن يعوض ما فاته من شكر النعمة لمن أنعم بها عليه، فقد صحا من غفلته وتلاشت عوائق البخل من أمام عينيه، وذلك باليقين الذي أحس به في كيانه والذي جاء ليسلبه كل شيء، ولينقله إلى عالم آخر ليس له فيه إلا ما قدم من خير أو عمل كريم، هنالك ينادي على أهله من حوله، استمعوا إليَّ الآن وانصتوا جيداً، أعطوا فلانا كذا من المال، وفلانا كذا، وقد كان لفلان عندي كذا، إنه بكلامه هذا يريد أن يصلح ما قصر فيه من خير كثير طوال عمره الطويل، ولكن هيهات أن يكون له ذلك، وخاصة وقد ظهرت أمارات الارتحال وترك المال والأهل والولد، واليأس من التمتع بالمال كما كان يفعل من قبل، أيظن أنه يستطيع الآن أن يُدْخِلَ نفسه في زمرة المحسنين المتصدقين، إنه مهما قدم الآن من زكاة مفروضة أو صدقة تطوع، فلا يمكن بحال أن يتساوى مع من قدم الخير والإحسان من قبل، في أيام الحياة والصحة والشباب، فالقبول الآن لما يقدم من هذه الأوقات العصيبة نسبته ضعيفة إن قُبِل، كنِسْبَة واحد إلى مائة، لو كان أخرجه قبل، يقول المصطفى ﷺ (لأَنْ يتصدَّقَ المرءُ في حياته بدِرْهم خَيْر لهُ مِنْ أنْ يتصدَّقَ بمائةٍ عِند موتِه)[1] وذلك لأن اقتراب نهاية الأجل وحضور

(١) أخرجه الترمذي بإسناد حسن وصححه ابن حبان، عن أبي سعيد الخدري، وأقرَّه ابن حجر، ورواه أبوداود انظر: فيض القدير م٥ ص ٢٥٧.

علامات النهاية المحتومة للحياة يقطع الأمل كلية في الانتفاع بالمال فيكون تقديمه حينئذ للصدقة، مشوب بحالة الإنسان التي صار إليها، ولولا ذلك لظل قابضاً على المال بِكُلِّيَّتِه، ومن الواضح أن ضعف القبول للصدقة عند اقتراب الموت، إنما يكون بالنسبة للبخيل الشحيح بنوعيه السابقين، أما من كان طوال عمره من عباد الله الصالحين المتصدقين الكرماء، فإن وصيتهم عند مماتهم في القربات إلى الله تعالى مقبولة بقبول حسن، لأن تصدقه الآن ما هو إلا امتداد لما كان يفعله طوال حياته، وليس حالة طارئة أنشأها دنوا الأجل وحضور الموت، ولقد قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: (ما حقُ امرئٍ مُسلم له شيء يُوصي فيه، يبيتُ ليلتين ـ للتّقريب لا للتّحديد ـ إلا ووصيّتُهُ مكتوبة عنده)، وفي رواية: (إلا ووصيته عنده مكتوبة)[2]، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وهم قِمَمُ في الخير ونجوم في القربات وقدوة في الصالحات، يُوصُون ببعض أموالهم عند مَمَاتِهم تقربا إلى الله تعالى، بل وكانت لهم وصية مكتوبة لمن بعدهم من الوَرَثَة، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كانوا، أي الصحابة يكتبون في صدور وصاياهم: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصي به فلان ابن فلان، أنّه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ويشهد أن محمداً

(١) سورة النساء / ١١.

(٢) متفق عليه، البخاري (٥/٢٦٤) ومسلم (١٦٢٧) عن ابن عمر، وهو في صحيح الجامع (٥٦١٥) ورواه أبوداود والترمذي.

عبده ورسوله، وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها... الحديث)[١]، هذا وقد أذن النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يتصدق بثلث ماله عند وفاته، فعن أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص قال: جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي فقلت يا رسول الله: (إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى، وَأَنَا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: (لا) قلت: فالشطر - أي النصف - يا رسول الله؟ قال: (لا) قلت: فالثلث يا رسول الله؟ قال: (الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفَّفُون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرْتَ بها، حتى ما تجعل في فيّ - فم - امرأتك) فقلت: يا رسول الله، أُخَلَّفُ بعد أصحابي؟ - أي: أَأُخَلَّفُ في مكة بعد أصحابي وانصرافهم معك؟ - قال: (إنك لن تُخَلَّفَ فتعمل عملاً صالحاً إلا زدت به درجةً وَرِفْعَةً، ثم لعلَّك أن تُخَلَّفَ فينتفع بك أقوام، ويُضَرَّ بك آخرون، اللهم امض لأصحابي هجرتهم، ولا ترُدَّهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خَوْلة، يرْثى له رسول الله ﷺ أن مات بمكة)[٢].

وفي رواية: (فينتفع بك أناس ويضربك آخرون) - ولم يكن له يومئذ إلا ابنة[٣].

---

(١) أخرجه عبدالرزاق بسند صحيح.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن سعد بن أبي وقّاص، وهو في المتفق عليه في اللؤلؤ والمرجان برقم (١٠٥٣) باب الوصية بالثلث.

(٣) قال صاحب فقه السنة (الشيخ سيد سابق): كان هذا قبل أن يولد له الذكور، وقد وُلِدَ له بعد ذلك أربعة بنين - ذكره الواقدي - وقيل: أكثر من عشرة، ومن البنات ثنتا عشرة بنتا. [عن فقه

إذا فالخير لهذا الصحابي الجليل موصول بوصيته هذه، وإن ظنَّ أن الوجَع الذي أصابه قد يودي به إلى الموت، لأنه كان دائماً وطوال حياته من عباد الله المحسنين المتصدقين، وقد عاش بعد ذلك سنين طويلة حتى كثر لديه أولاده من البنين والبنات.

أما أهل الشُّحّ والإمساك طول العمر، حتى إذا دنا الأجل وحان الرحيل إلى العالم الآخر، قالوا: لفلان كذا، ولفلان كذا، فهم الذين حقَّ عليهم القولُ في حديث سعيد الخُـدْريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السابق ـ والتي تتهاوى نسبة قبول الصدقة فيه لمثل هؤلاء ـ إن قُبلَت ـ من مائة إلى واحد فقط، والإنذار الشديد لهم، نجده في حديث بشر بن جحاش القرشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ (بَصَقَ يوماً في كَفِّه فَوَضَعَ عَلَيْهَا أصبعه ثُمَ قال: قال الله تعالى: يابنَ آدَمَ، أَنَّى تعجزُني وَقدْ خَلَقْتُكَ منْ مثْل هذه، حتى إذا سوَّيْتُكَ وَعدلتُك مشيت بين بُردين وللأرض منكَ وئيد ـ صوت شدة الوطء على الأرض ـ فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي ـ أي بلغت الروح العظام التي بين ثغرة النَّحرِ والعاتق ـ قلت: أتصدَّق، وأنَّى أوَانُ الصَّدَقة)[1].

وهذا الحديث الشريف يتحدث عن حالة الغَرْغَرَة، والتي لا يقبل عندها لا زكاة ولا صدقة ولا قُرْبة كما جزم بذلك علماؤنا الكرام،

السنة ـ المجلد الثالث ص ٤٢٥ ط دار الكتاب العربي ـ بيروت الطبعة الشرعية الثامنة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م].

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/٢١٠) ورواه ابن ماجة (٢٧٠٧) والحاكم (٢/٥٠٢) وهو حديث حسن كما قال الشيخ مصطفى العدوي في الأحاديث القدسية رقم (١٢٤) وكذلك حسنه الدكتور عبدالعلي عبدالحميد في الجامع لشعب الإيمان م٧ ص ٨٥.

ولهذا فإن من أعظم الصدقة أجراً تلك التي يخرجها المسلم أو المسلمة، بنفس طيبة راضية ومن مال طيب حلال، وفي حال الصحة والحياة الممتدة، مع الحرص على المال خوفاً من الفقر والعوز والحاجة، فتقديم الصدقة حينئذ لله تعالى، يدل دلالة صادقة على أن هذا المتصدق وإن كان يحب المال ويحرص عليه، إلا أن حُب الله تعالى وحُبَّ رسوله، وطاعة الله تعالى وطاعة رسوله أحب إليه من نفسه وأهله وماله ومن كل شيء، إنه قدم صدقته تلك إرضاء لله تعالى وطلبا للثواب منه، وها هوذا أحد الصحابة الكرام يأتي إلى الرسول ﷺ ويسأل عن الصدقة قائلاً: يا رسول الله: أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: (أن تصَّدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ تخشى الفقْرَ وتأْمُلُ الغِنَى، ولا تُمْهِلْ حتى إذا بلغتِ الحُلقُوم قُلْتَ: لفُلان كذا، ولفُلان كذا، وقد كان لفلان كذا)[1]، ومن أنوار هذا الحديث الشريف نرى كيف كان الصحابة رضوان الله عليهم يتنافسون دائماً في الخيرات ويتسابقون في القربات إلى الله تعالى، وكثيراً ما كانوا يسألون الرسول ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله تعالى وأعظم القربات عنده جل شأنه، ليفعلوها قربة إلى الله عز وجل، والسائل للرسول ﷺ في هذا الحديث لعله أبوذر رضي الله عنه كما ذكر ذلك بعض علمائنا المكرمين، إنه يسأل عن أعظم الصدقة وأكثرها أجراً وأكرمها قبولاً عند الله تعالى.

وهذا واضح من سؤاله: (أي الصدقة أعظم أجرا)، ويجيبه المعلم الأول للبشرية محمد ﷺ الذي علمه ربه (أن تصدق)، وأصله

(١) البخاري (٣/٢٢٦) ومسلم (١٠٣٢) وأخرجه أحمد (٢/٢٣١، ٢٥٠) وأخرجه غيرهم.

(تتصدق) بتاءين فأدغمت إحداهما في الصاد، ويجوز تخفيف الصاد على حذف إحدى التَّاءين فتقول: (أن تصدق) وهي في موضع رفع خبر المبتدأ المحذوف تقديره: أفضل الصدقة أن تصدق، أي بأن تتصدق، وقوله ﷺ (وأنت صحيح شحيح) جاء في الفتح الرباني أن الصحيح هو الذي لم يعتره مرض مخوف ينقطع عنده أمله في الحياة، والشحيح: صفة مشبهة من الشح، وهو بخل مع حرص[1]، وقال الخطابي كما جاء في دليل الفالحين: الشح أعم من البخل، وكأن الشح جنس والبخل نوع، وأكثر ما يقال البخل في أفراد الأمور، والشح عام، وقيل: هو الذي كالوصف اللازم ومن قِبَل الطَّبْع، قال: فمعنى الحديث: أن الشح غالب في حال الصحة، فإذا سمح فيها وتصدق، كان ـ أي التَّصَدُّقُ ـ أصدق في نيته وأعظم لأجره، بخلاف من أيس من الصحة ورأى مصير المال لغيره، فإن صدقته حينئذ ناقصة بالنسبة إلى حال الصحة والشح ورجاء البقاء وخوف الفقر[2].

وقوله ﷺ: (تخشى الفقر) أي إن انفقت لوسوسة الشيطان بذلك، قال تعالى: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ ﴾[3].

وقوله ﷺ (وتأمل الغنى) أي تطمع به وترجوه، لنفسك وأهلك، قال في الفتح الرباني وإنما كانت صدقة الصحيح الشحيح أفضل من

---

(١) ( ) الفتح الرباني / ٩ / ١٦٣.

(٢) دليل الفالحين / ١ / ٢٩٥.

(٣) سورة البقرة / ٢٦٨.

غيرها لأن في ذلك مجاهدة النفس على إخراج المال الذي هو شقيق الروح خوفاً من هجوم الأجل ـ أي مَجِيئَهُ بغْتَة ـ مع قيام المانع للتصدق وهو الشح، ثم قال وليس هذا إلا من قوة الرغبة في القربة وصحة العقيدة، ثم قال: وقوله ﷺ: (تأمل العيش) ـ أي على الرواية الأخرى ـ تفسير لقوله (وأنت صحيح) وقوله (تخشى الفقر) تفسير لقوله: (شحيح)[1]، ثم قال رسول الله ﷺ (ولا تمهل ـ بالإسكان ـ على أنه نهي وبالرفع على أنه (نفيٌ) ويجوز النصبُ، قاله في فتح الباري، والمعنى: لا تؤخر الصدقة ولا تمهلها وتُسوِّف في إعطائها لمستحقيها، وقوله: (حتى إذا بلغت الحلقوم) أي حتى إذا بلغت الروح الحلقوم، والمعنى قاربت بلوغه، ويؤكد صاحب دليل الفالحين هذا المعنى فيقول: إذ لو بلغته ـ أي بلغت الروح الحلقوم ـ لم تصح وصيته ولا صدقته ولا شيء من تصرفاته بالاتفاق[2]، لأن حالته حينئذ أشبه بقيام قيامته، وهنالك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، هذا والحلقوم مجرى النفس عند الغرغرة وخروج الروح، أما المريء فهو مجرى الطعام في الحياة.

ثم يقول رسول الله ﷺ: (حتى إذا بلغت الحلقوم) قلت: أي ليأسك من الحياة أوصيت لفلان بما هو كذا، وأوصيت لفلان بما هو كذا، وقد كان لفلان كذا).

قوله (قلت لفلان كذا ولفلان كذا) حكاية عن الموصى له والمُوصى

---

(١) الفتح الرباني / ٩ / ١٦٣.

(٢) دليل الفالحين م١ / ٢٩٥.

به فيهما، (وقد كان) أي لفلان وفي لفظ آخر للإمام أحمد ـ رحمه الله: (ألا وقد كان لفلان)، أي وقد صار ما أَوْصَى به للوارث فيبطله إن زاد على الثلث، أو أوصى به لوارث آخر، والمعنى أن أفضل الصدقة أن تتصدق في حال حياتك وصحتك مع احتياجك واختصاصك به لا في حالِ سَقَمك ـ أي مرضك وضعفك ـ لأن المال حينئذ خرج عنك وتعلق بغيرك).

وقال الخطابي: فيه دليل على أن المرض يقصر يد المالك على بعض ملكه، وأن سخاوته بالمال في مرضه ـ أي المخوف والمنذر بالموت ـ لا تمحو عنه سمة البخل، لذلك شرط أن يكون صحيح البدن شحيحاً بالمال يجِدُ لَهُ وقْعاً في قلبه، لما يأمله من طول العمر ويخاف من حدوث الفقر، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَثَلُ الذي يتَصَدَّقُ أو يعتِقُ عندَ الموتِ مثل الذي يهدى بعدما شبع)[1].

وقولهُ: (وقد كان لفلان كذا) الظاهر أن هذا من باب الإقرار ـ أي بما عليه من حق لفلان لا من باب الوصية ـ أقول: إن حبه الأحمق للمال دفعه إلى أن يبخل بحق الفقراء والمساكين ثم طغى به ليظلم الناس ويمنع عنهم حقوقهم المالية الخاصة تجاهه.

هذا ومن المسلمين ذوي الإيمان الضعيف، من يدفعهم حبهم الأعمى لأولادهم إلى الإمساك عن البذل والإنفاق في سبيل الله تعالى، ومنهم من يصل به الأمر إلى عدم الوفاء بحق الزكاة المفروضة في

---

(١) أخرجه أبوداود (٣٩٦٨) والترمذي (٢١٢٣) والنسائي (٣٦١٤) وغيرهم.

ماله، وهو يقصد بذلك تبعا لظنه الكاذب ووهمه الغافل، أن يتركهم في سعة وثراء حماية لهم من تقلب الأيام وتغير الأحوال، وخوفا عليهم من بؤس الفقر والعوز والحاجة، وهذا القصد حسن في ذاته، فالمسلم مكلف أن يصون أهله وولده عن الفقر والعيلة، وأن يجاهد ما استطاع ليؤمن لهم حياتهم المعيشية حسب طاقته، فقد جاء في الحديث: (كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يعول) وفي رواية (من يقوت)[1].

وهو حينما يفعل ذلك بنية صحيحة، امتثالاً لأمر الله وطاعة رسول الله ﷺ ، فإن النفقة الواجبة عليه لأهله وولده حتى لنفسه تصير صدقة له عند الله تعالى عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة وما أطعمتَ ولدك فهو لدك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة)[2].

ولقد حمى الإسلام الذرية وعمل على ترك ما يغنيها ويكفيها حتى أنه منع المسلم عند الموت من التصدق بأكثر من الثلث، وقد سبق حديث سعد بن أبي وقاص في ذلك، وفي آخر الحديث يقول له: (إنك إن تذر ورثتك أغنياء خيراً من أن تذرهم عالة يتكففون الناس) أي يبسطون للسؤال أكفهم، إذا فلا غبار أبدا ولا حرج على من يعمل

---

(١) رواه أحمد في مسنده وأبوداود في سننه، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في سننه عن ابن عمر، وفي الإرواء (٨٩٤) والترغيب (٣/٨٢) وصحيح الجامع (٤٤٨١) وقال الألباني: (حسن).

(٢) رواه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير بإسناد جيد عن المقداد بن معد يكرب، وهو حديث صحيح قال الهيثمي رجاله ثقات، انظر فيض القدير / ٥ / ٤٢٣.

ويبذل جهده، ليترُكَ ورثته أغنياء عن السؤال وعن الحاجة إلى الناس، لكن حينما يكون ذلك على حساب منع حق الفقراء والمساكين، والكفران بنعمة الوهاب الكريم جل وعلا، فذلك ظلم كبير جرَّه الإنسان على نفسه، وهنا يقول الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ في كتابه (خلق المسلم)[1] لكن كفالة المرء لأولاده وضمانه لمستقبلهم، لا يصحُّ أن يتم على حساب دينه وخلقه، وإنها لحماقة أن يضحي الإنسان بنفسه وبمروءته وبرضوان الله عليه، ليقتِّر من كسبه ما يبقيه لعقبه، وقد كشف الإسلام عن أن أولاد المسلم وأمواله كسائر النعم التي تساق إليه ليمتحن فيها، فإن وقف عندها وذهل عن الواجبات المكتوبة والتضحيات المطلوبة، فإن هذه النعم تكون مصدر بلائه، بل تكون أنكى أعدائه، وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ ﴾[2]**، ثم يقول الشيخ: فمن استفاد من لده أن يكون بخيلاً جباناً جهولاً فقد خسره، ومن عرف حقوق الله وعباده قبل كل شيء فقد أفلح، ويقول الشيخ محمد متولي الشعراي ـ رحمه الله: وحيث إن الرزق من عند الله وهذا هو كلام الله، فلا عذر لأحد أن يرتكب معصية ـ أي فلا يزكي ولا يتصدق ـ بحجة أنه يحافظ على رزقه أو أنَّهُ يدفعُ الفقر عن نفسه وبيته وأولاده[3].**

---

(١) خلق المسلم / ١٣٢، ١٣٣.

(٢) سورة التغابن الآيتان / ١٤ ـ ١٥.

(٣) تلك هي الأرزاق / للشيخ الشعراوي، ص ٥٧.

ورسولنا العظيم محمد ﷺ يبين لنا حقيقة هذا الأمر فيقول، وفي صورة سؤال مثير للصحابة الكرام: (أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله)، وبطبيعة الحال فكل واحد يحب ماله هو عن أي مخلوق آخر ولو كان ولده، ولهذا قالوا: (ما منا أحد إلا ماله أحب إليه)، قال: (فإن ماله ما قدم[1] ومال وارثه ما أخّر)[2] فالحديث الشريف يوقظ النفوس النائمة ويُنَبِّهُ القلوب الغافلة، ويُسْمِعُ اللاهين بحظّ أولادهم عن حظّهم عند ربهم، أن ليس لكم عند الله إلا ما قدمتموه من مال طيب، ابتغاء وجه الله العلي الأعلى، سواء في صورة زكاة مفروضة أو صدقة تطوع أو معروف أو إحسان ونحوه، وهاهو الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ يروي عن عبدالله بن الشخير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: (ألهاكم التكاثر)، قال (يقولُ ابن آدم، مالي، مالي، وهل لكَ يا بن آدم مِنْ مَالِك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ أو لبستَ فأبليتَ أو تصدَّقْتَ فأمضَيْت)[3].

ألا فليعلم أولئك الذين يمسكون عن التصدق ويبخلون بحق الفقير والمحروم، خوفا على أولادهم الفقر والحاجة، أن عملهم هذا سيؤدي إلى افتقار أولادهم من بعدهم، لأنهم ورثوهم مالاً لا بركة فيه ولا خير، مالا لم يطهَّرْ بالزكاة ولم يُصَفَّ من القذارة التي هي حق الناس فيه، عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أي: بأن تصدَّق أو أكل أو لبس.

(٢) البخاري (٢٢١/١١) وأخرجه النسائي (٢٣٧/٦، ٢٣٨) عن ابن مسعود.

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٨).

(نَشَرَ الله عبدَيْنِ ممن أكثر لهما المال والولد) أي بعثهما بعد موتهما قبل يوم القيامة بدليل ما بعده ـ فقال لأحدهما: (أي فلان ابن فلان، قال: (لبيك رب وسعديك) وقال: (ألم أكثر لك من المال والولد)؟ قال: بلى، ـ أي رب ـ أي نعم رب، قال: (وكيف صنعت فيما آتيتك؟، قال: تركتُهُ لولدي مخافة العيْلة، قال: (أما إنك لو تعلمُ العلم لضحكتَ قليلاً وبكيتَ كثيراً، أما إنَّ الذي تخوَّفْتَ عليهم قد أنزلتُ بهم)، ويقول للآخر: (أي فلان ابن فلان، فيقول: لبيك رب وسعديك، قال: ألم أكثر لك من المال والولد؟ فيقول: بلى إي رب، قال: فكيف صنعت فيما آتيتك؟ قال: أنفقتُ في طاعتك، ووثقتُ لولدي من بعدي بحسن طولك ـ أي بحسن عطائك وفضلك ونعمك ـ قال: (أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيراً ولبكيتَ قليلاً أما إنَّ الذي وثِقْتَ به قد أنزلتُ بهم)[1].

وجاء في كتاب (مع الله)[2]، تحت عنوان (هكذا ترك الخليفة أولاده) قال: دخل مسلمة بن عبدالملك على عمر بن عبدالعزيز في المرْضَة التي مات فيها فقال له: يا أمير المؤمنين: إنك فَطَمْتَ ولدَك عن هذا المال وتركتهم عالة، ولابد لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ، أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء الله) فقال عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أجلسوني، فأجلسوه فقال: الحمد لله، أبالله تُخَوّفُني

(١) رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن ابن مسعود ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال الهيشمي في مجمع الزوائد (١٢٢/٣) وفيه بن العز وهو ضعيف...، وبقية رجاله ثقات.

(٢) مع الله في الدعوة والدعاة / للشيخ محمد الغزالي / ٤٦٨.

يا مسلمة؟ أما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال، وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقا هو لهم، ولم أعطهم حقا هو لغيرهم، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، وإنما بنو عمر أحد رجلين، رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسراً، ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غيَّرَ وفَجَر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكاب الآثام، ادعو إليَّ بنِيَّ، فدعوهم وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً - فجعل يُصعِّدُ بصره فيهم ويصوّبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع، ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم!! يا بنيّ إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرُّون على مسلم ولا مُعَاهَد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله، يا بني: لقد أدرت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا، وبين ان يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخولكم وأبيكم يوماً واحداً في النار، قوموا يا بنيَّ عصمكم الله ورزقكم، قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر(١).

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله - وبلغني أن المنصور قال لعبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: عظني، قال: بما رأيتُ أو بما سمعتُ؟ قال: بما رأيت، قال: مات عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه وخلف أحد عشر ابنا، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً، كُفِّن منها بخمسة دنانير، واشترى له موضع قبره بدينارين، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً، ومات هشام بن عبدالملك

(١) مع الله في الدعوة والدعاة / ٤٦٨، وانظر [عمر بن عبدالعزيز الخليفة الزاهد ذ ٣١٩، ٣٢٠].

وخلف أحد عشر ابنا، وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف، ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبدالعزيز قد حمل في يوم واحد على مائة فرس في سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلاً من ولد هشام يتَصَدَّقُ عليه[1].

وهكذا رأينا أن صلاح الآباء هو السبب في سعادة الأولاد وحفظهم والتوسعة عليهم من الرزق من عند الله تعالى، وهو السبيل لاستمرار الأولاد على طريق الله تعالى وطاعته، قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾[2]، وفي سورة الكهف نرى حفظ الله تعالى للكنز الخاص بالغلامين اليتيمين، في تلك القرية البخلاء أهلها وكان ذلك بسبب صلاح الأب، وتم ذلك الحفظ بأمر الله تعالى على يد الخضر عليه السلام، وبصحبة موسى ـ عليه السلام، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[3]، ومعنى الآية الكريمة كما جاء في مختصر تفسير ابن كثير[4]، أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما، أي تحته مال مدفون لهما، وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير ـ رحمه الله ـ وقوله: (وكان أبوهما صالحا) فيه

---

(١) ( ) عمر بن عبدالعزيز للإمام ابن الجوزي / ٣٣٨.

(٢) ( ) سورة النساء / ٩.

(٣) سورة الكهف / ٨٢.

(٤) (لمحمد نسيب الرفاعي / ٣ / ص ٨٨ و٨٩).

دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذُريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن والسنة، قال تعالى في سورة الطور: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١ ﴾[1]**، أي ألحقنا بهم ذريتهم في الدرجة، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل.**

وفي السنة قول الرسول ﷺ: (إن الله تعالى يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه، لتقر عينه) ثم تلا الآية السابقة[2] وجاء في كتاب (أدب الدنيا والدين)[3] عن أسباب طلب الزيادة والكثرة من المال، قال: والسبب الثالث (أي لطلب الزيادة من المال) أن يطلب الزيادة ويقتني الأموال ليدخرها لولده ويخلفها على ورثته، مع شدة ضعفه على نفسه وكفه عن صرف ذلك في حقه ـ أي لا يخرج من الأموال التي جمعها حق السائل والمحروم ولا يتطوع بشيء في سبيل الله تعالى إشفاقا عليهم ـ أي ولده ـ من كدح الطلب وسوء المنقلب ـ أي انقلاب الدهر وإدباره بعد إقباله ـ وهذا شقي يجمعها مأخوذ بوزرها، وقد استحق اللوم واستوجب الذم من وجوه لا تخفى على ذي لُبّ:

---

(١) سورة الطور / ٢١.

(٢) رُوي من طرق عدة، فأخرجه الطبري ٢٧/٢٤، ٢٥، والحاكم: ٢/٤٦٨، والبزّار ٣/٧٠ (كشف الأستار، والطحاوي في مشكل الآثار، وغيرهم قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/١١٤/ ورواه البزار وفيه قيس ابن الربيع، وثَّقَهُ شعبة والثوري، وفيه ضعف، [عن تفسير البغوي / ٧ / ٣٨٩].

(٣) لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري / ٣٥٢.

منها: سوء ظنه بخالقه في أنه لا يرزقهم -أي أولاده- إلا من جهته، وقد قيل: قَتَل القنوطُ -اليأس- صاحبَه، ثم قال: وفي حسن الظن بالله تعالى راحة القلوب، وقال عبدالحميد: كيف تبقى على حالتك والدهر في إحالتك - أي في إفنائك - يقال: أحالت الدار، إذا أتى عليها أحوال - أي سنين.

ومنها: الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه، وقد قيل: الزمان حسود لا يأتي على شيء إلا غيره، وقد قيل في منثور الحكم: الدنيا إن بَقِيَتْ لَكَ لم تَبْقَ لها - أي لأنك ستفارقها وما فيها بموتك.

ومنها: ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله، وقد قيل: إنما مالُكَ لك، أو للوارث أو للجائحة - وهي المصائب المهلكة للمال - فلا تكن أشقى الثلاثة، وقال عبدالحميد: اطرح كواذب آمالك، وكن وارثاً لمالك - أي بإنفاقه في سبيل الله تعالى مع إبقاء جزء منه للورثة يغنيهم ويسد حاجتهم، كما صح عن رسول الله ﷺ في حديث سعد بن أبي وقاص السابق.

ومنها: ما لحقه من شقاء جمعه وناله من عناء كده، حتى صار ساعياً محروماً، وجاهداً مذموماً.

ومنها: ما يؤاخذ به من وزره وآثامه، ويحاسب عليه من تبعاته وإجرامه، وقد حكى أن هشام ابن عبدالملك لما ثقل بكى عليه ولده، فقا لهم: جَادَ لكُم هشام بالدنيا وَجُدتُّم عليه بالبكاء، وترك لكم ما كسب،

وتركتم عليه ما اكتسب، ما أسوأ حال هشام إن لم يغفر الله له.

وقال رجل للحسن البصري: إني أخاف الموت وأكرهه، فقال له: خلفت مالك - أي تركته للورثة ولم تؤد حق الله تعالى فيه ولم تبذله بسخاء لوجه الله تعالى - ولو قدمته لسرك اللحاق به، وقيل في منثور الحكم: كثرة مال الميت تعزي ورثته عنه، فأخذ هذا المعنى ابن الرومي فقال وزاد:

أبقيت مالك ميراثاً يوارثه
فليت شعري ما أبقى لك المال؟
القوم بعدك في حال تَسُرُّهُم
فكيف بعدهم حالت بك الحال
مَلّوا البكاء فما يبْكيكَ من أحد
واستحكم العول في الميراث والقال
أَلْهَتْهُم عنك دنيا أقبَلَتْ لهم
وَأَدْبَرَتْ عنك والأيام أحوال[1]

هذا ونحب أن ننبه في ختام هذا الموضوع الهام، أن الإسلام وهو دين الله العظيم، دين جميل يحب التَّجَمُّل في الأمور كلها، عدل يحب التوسط والاعتدال ويكره المغالاة أو التقصير، ولهذا فإنه يحرص

(١) قال محقق كتاب (أدب الدنيا والدين) حسين نصار: أن الأبيات المذكورة لم ترد في ديوان ابن الرومي.

على أن يكرم المسلم نفسه، ولا يقصر في مطالبها المشروعة، فعليه أن يشبع حاجتها من الحلال الطيب، وأن يصونها عما يقلل من كرامتها أو يؤثر في مكانتها بين الناس، فالمسلم عزيز كريم، وعلى رب البيت أن يقوم بمتطلبات أهله وولده وخدمه وأن ينفق عليهم عن سعة إذا استطاع مع التخلق بأخلاق عباد الرحمن الذين يقول القرآن العظيم فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾[١].

وكذا للمسلم أيضا أن يدخر من المال ما يمكنه من تحقيق أهدافه المشروعة التي تعود بالخير عليه وعلى أهله ووطنه، كما أنه له أيضا أن يدخر ما شاء من مال لمواجهة ما يطرأ أو ما يجد من أمور الحياة، ثم له أن يدخر لأولاده من بعده ما يكفيهم ويحول بينهم وبين العيلة والفاقة، ولكن مع كل ذلك ليس له أبدا أن ينسى حق الله تعالى في المال الذي استخلفه فيه، فيخرج أولا الصدقة المفروضة، ويقدم لنفسه عند الله ما استطاع من صدقة متطوع بها خاصة في أيام صحته وحرصه ورغبته في الحياة، فإن خير الصدقة ومن أعظمها أجرا، أن يتصدق المسلم أو المسلمة، وكل منهما صحيح حريص يخشى الفقر ويأمل الغنى، وحذار حذار من التأخير والتسويف إلى دنو الأجل، فتلك صدقة ضعيفة ـ كما سبق ـ وقد لا تقبل، لأنه مال مزهود فيه متروك رغم الأنف ومن يدري فقد يؤخذ الإنسان بغتة، ويموت موت الفجاءة، فلا يستطيع كلاما ولا نطقاً ولا توصية، وقد قال الله تعالى في سورة

---

(١) سورة الفرقان / ٦٧.

يس: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾[1]، فقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي لا يستطيع بعضهم أن يوصي إلى بعض بماله وماله عليه، أو لا يستطيع أن يوصيه بالتوبة أو الإقلاع عن المعاصي، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾، أي إلى منازلهم التي ماتوا خارجين عنها، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لتَقُومَنَّ الساعةُ وقد نشر الرجُلانِ ثوبَهُمَا فلا يَتَبَايَعانه ولا يطويانه، ولتقُومَنَّ الساعةُ وهو يليطُ حوضَه فَلاَ يَسْقِي فيه، وَلَتَقُومَنَّ الساعةُ وقد انصرف الرجُل بِلَبَنِ لَقَحَته فَلاَ يطعمه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)[2].

إن المؤمن ليستمع إلى ما سبق من آيات بينات في كتاب الله الكريم، ومن كلمات جامِعَةٍ من سنة النبي العظيم، فيشعر باهتزاز كيانه كله، واضطراب صدره وتسارع دقات قلبه خوفاً وهلعاً ورعباً من تلك المشاهد المزلزلة، ألا وإن أُولي الألباب المحسنين من المؤمنين ليزدادون تواصلا في الخيرات وتَسابقاً في الصدقات، وتنافساً في الطاعات والقربات إلى الله تعالى، خاصة في أيام حياتهم الصِّحية والممتلئة بالآمال العريضة مع حرص النفس على المال، فقد علمهم إسلامهم العظيم أن حبهم الأعظم والأكرم هو حب الله ورسوله ﷺ وطاعتهما في كل ما أمر به الله.

---

(١) سورة يس / ٥٠.

(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، ورواه غيرهما.

أما أصحاب القلوب الموصدة أبوابها، والمغلقة بالرَّان والمقْفلة بالطَّمْس والعياذ بالله تعالى، فلا حياة لمن تنادي، وكما قال ربنا العظيم في سورة الروم مخاطباً رسوله محمد ﷺ: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾(١). وسوف يأتي حتماً على هؤلاء التعساء الأشحاء البخلاء، يوم رهيب، يوم يموتون ويودون الرجعة إلى الدنيا والتأخير ليتصدقوا وينفقوا في سبيل الله تعالى لما يرون من غضب الله تعالى وشدته عليهم عند الموت بسبب منعهم حق الله في أموالهم، ولكن هيهات أن يرجعوا أو يؤخروا، وهاهو ذا القرآن الكريم يرينا ندمهم الشديد وحالهم البائس النكد، فيقول في سورة المنافقون: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾(٢).

---

(١) الروم الآيتان / ٥٢، ٥٣.

(٢) المنافقون آية / ١٠، ١١.

رابعاً: صدقات عن ظهر غنى وأعلاها الإيثار

إن مما يثير في النفس العجب والاستغراب حقاً، ما نراه من أولئك الأغنياء الموسرين الذين بسط الله لهم في الرزق وأغدق عليهم من نعمه الكثيرة، ومع ذلك فهم لا يَلْتَفِتُون بعين الرحمة والشفقة أبدا إلى أهل الحاجة والفقر والمسكنة، ولا يمدون أيديهم بشيء إلى البؤساء والمحرومين، وإذا ما دعوا إلى البذل والإنفاق من رزق الله تعالى، أعرضوا وقالوا كما قال كبراؤهم من قبل على لسان القرآن الكريم في سورة يس: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُۥ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾[1]، إنهم حقا الجاحدون بنعمة الله تعالى وإنهم الكافرون الذين أعد الله لهم عذاباً شديداً، جزاء بما فعلوا وأجرموا، ولن ينفعهم إيمانهم الظاهري بالله ورسوله، كما لم ينفع إبليس الملعون إيمانه بالله تعالى لما عصى واستكبر وأبى عن تنفيذ أمر الله تعالى حين أُمر بالسجود لآدم عليه السلام.

وعلى العكس من ذلك فهناك صنف كريم من عباد الله المسلمين أولئك الذين طهر الله قلوبهم من الشح والبخل، فسارعوا إلى إنفاق كل الخير الذي بين أيديهم من رزق الله تعالى، حتى ولو كانوا في حاجة إليه لضروراتهم المعيشية، وهم المؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

---

(١) سورة يس / ٤٧.

وصِنْف من المسلمين وسط بين هؤلاء وأولئك، إنهم يؤدون الزكاة المفروضة ويتنافسون في بذل صدقة التطوع، لكنهم مع كل هذا لا ينسون أنفسهم وأولادهم ومن هم في رقبتهم، فيبقون لديهم ما يكفيهم حاجاتهم ويغنيهم عن الفقر والمسألة.

إنهم الذين يدخلون تحت قول الرسول الله ﷺ : (خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنَى وابدأ بمن تعول)[١].

وقوله ﷺ : (خير الصدقة ما أبقت غِنى، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول)[٢].

ومعنى قوله (خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنَى).

أي أفضل الصدقة ما وقع بعد القيام بحقوق النفس والعيال بحيث لا يصير المتصدق بعد صدقته محتاجاً إلى أحد، وهذا معنى قوله: (وابدأ بمن تعول) يعني بمن تلزمك نفقته شرعاً[٣].

هذا، وتنكير (غِنى) في قوله (عن ظهر غِنى) ليفيد أنه لابد للمتصدق من غِنى ما، إما غنى النفس، وهو الاستغناء عما بذل بسخاء نفس، كما كان للصديق رضي الله عنه وإما غنى حاصل في يده، والآن فلنتابع هذا الموضوع بالتفصيل مع الإمام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري

---

(١) رواه البخاري وأبوداود والنسائي عن أبي هريرة، الإرواء (٨٣٤) صحيح الجامع (٣٢٨١) وقال: صحيح.

(٢) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس، الإرواء (٨٣٤) الجامع (٣٢٨٠) وقال صحيح.

(٣) الفتح الرباني / م٩ / ص ١٦٤.

في كتاب الزكاة [١٨] تحت عنوان: (لا صدقة إلى عن ظهر غنى)[(١)]

قال الإمام البخاري: ومن تصدق وهو محتاج، أو أهله محتاجون، أو عليه دين، فالدين أحق أن يقضى من الصدقة والعتق والهبة، وهو رد عليه ليس له أن يتلف أموال الناس، ثم استدل على ما ذهب إليه بقول الرسول ﷺ : (من أَخَذَ أمْوَالَ الناس يُريد إتلافها أتلفهُ الله)(٢). ثم استثنى فقال: إلا أن يكون معروفاً بالصبر فيؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة، ثم مثل لذلك بقوله: كفعل أبي بكر رضي الله عنه حين تصدّقَ بماله كُلِّه ـ يقصد ما فعله أبو بكر الصديق في غزوة (تبوك) والتي تسمى بغزوة العسرة، حيث جاد رضي الله عنه بكل ماله نفقة في سبيل الله تعالى لتجهيز جيش العسرة، وكان أربعة آلاف درهم، فقال له ﷺ (هل أبْقَيْتَ لأهلكَ شيئاً؟ فقال: أبْقَيْتُ لَهُمُ الله ورَسُوله ـ ثم قال: وكذلك آثر الأنصارُ المهاجرين، ثم تابع يُدلِّلُ على ما ذهب إليه من أنه لا صدقة إلا عن ظهر غنى، فقال: ونهى النبي ﷺ عن إضاعة المال، فليس له ـ أي المتصدق بكل ماله وعليه دين ـ أن يُضيِّعَ أموال الناس بعِلةِ الصَّدَقَة، ثم ذكر قول كعب رضي الله عنه ـ وهو كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة (تبوك) ونزل في شأنهم القرآن الكريم في سورة التوبة: قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ

---

(١) فتح الباري / م ٣ / ص ٣٤٥.

(٢) جزء من حديث هو: (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله) رواه أحمد والبخاري وابن ماجة عن أبي هريرة، وهو في الصحيحة برقم ١٠٢٩، وصحيح الجامع (٥٩٨٠).

﴿أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[١].

(قلت ـ أي كعب ـ يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ فقال: (أمسك عليك بعض مالِك فهو خيرٌ لك، فقلت: إنّي أُمسكُ سهمي الذي بخيبر)[٢].

ثم أخذ الإمام بن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ يشرح كلام الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ في الفتح فقال: إن معنى قوله: (لا صدقة إلا عن ظهر غنى) أي لا صدقة كاملة إلا عن ظهر غنى، فالنَّفْيُ في قوله (لا صدقة) للكمال لا للحقيقة، ثم دلل على ذلك بحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والذي ورد بلفظ (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) ثم قال: وقوله (ومن تصدق وهو محتاج إلى آخر الترجمة)، كأنه ـ أي البخاري ـ أراد تفسير الحديث المذكور بأن شرط المتصدق ألا يكون محتاجا لنفسه أو لمن تلزمه نفقته، ويلحق بالتصدق سائر التبرعات، ثم قال، وأما قوله: (فهو رد عليه) فمقتضاه أن ذا الدين المستغرق لا يصح منه التبرع ـ وهو ما كان عليه دين يساوي كل ما عنده من مال أو يزيد عنه ـ لا يصح تبرعه ولا تصدقه، ثم قال: لكن محل هذا عند الفقهاء إذا حجر عليه الحاكم بالثلثين، وقد نقل صاحب المغنى ـ ابن قدامة ـ وغيره الإجماع، فيحمل إطلاق المصنف عليه.

---

(١) () سورة التوبة / ١١٨.

(٢) () فتح الباري / م ٣ / ص ٣٤٥.

ثم ذكر صاحب فتح الباري الإمام ابن حجر العسقلاني أقوال العلماء فيمن تصدق بماله كله خلاصتها ما يلي:

١ ـ الرأي الأول: قال الطبري وغيره: قال الجمهور من تصدق بماله كله في صحة بدنه وكان صبوراً على الإضاقة ـ وهي المترتبة على إخراج كل ماله صدقة ـ ولا عيال له، أو عيال يصبرون أيضا فهو جائز، فإن فقد شيء من هذه الشروط كُره.

٢ ـ الرأي الثاني: قال بعضهم: إن هذا القول ـ أي الرأي الأول ـ مردود، وذكروا ما روي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث رد على غيلان الثقفي قسمة ماله، وهنا قال صاحب الفتح: ويمكن أن يحتج له ـ أي للرأي الثاني ـ بقصة (المدبَّر) ـ وهو العبد الذي قال له سيده ـ أنت حر بعد موتي ـ فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باعه ـ أي العبد المُدبَّرُ وأرسل ثمنه إلى الذي دبره لكونه كان محتاجاً.

٣ ـ الرأي الثالث: وقال آخرون: يجوز من الثلث ويرد عليه الثلثان ـ أي أن الذي يتصدق بكل ماله يقبل منه الثلث ويرد عليه الباقي وهو الثلثان ـ وهو قول الأوزاعي ومكحول، وعن مكحول أيضا يردّ ما زاد على النصف[١].

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ والصواب عندنا الأول ـ ويعني به الرأي القائل بجواز التصدق بكل المال لمن استجمع الشروط السابقة، وهو رأي الجمهور، ثم قال الطبري: والمختار من حيث الاستحباب أن

---

(١) فتح الباري م٣ ص ٣٤٧.

يجعل ذلك، أي التصدُّق - من الثلث جمعا بين قصة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أي حين تبرع بماله كله - وحديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أي حين أراد أن ينخلع من كل ماله صدقة لله تعالى، فأمره الرسول ﷺ بإمساك بعض ماله فأمسك سهمه الذي بخيبر - ثم قال صاحب الفتح: والمختار - أي عنده هو - أنَّ معنى الحديث: أفضل الصدقة ما وقع بعد القيام بحقوق النفس والعيال، بحيث لا يصير المتصدق محتاجاً بعد صدقته إلى أحد، فمعنى (الغنى) في هذا الحديث: حصول ما تدفع به الحاجة الضرورية، كالأكل عند الجوع المشوش الذي لا صبر عليه، وستر العورة، والحاجة إلى ما يدفع عن نفسه الأذى، ثم قال: وما هذا سبيله فلا يجوز الإيثار به بل يحرم، ثم علل التحريم بقوله وذلك لأنه إذا آثر غيره به أدى - أي ذلك الإيثار - إلى إهلاك نفسه أو الإضرار بها، أو كشف عورته، فمراعاة حقه أولى على كل حال، فإذا سقطت هذه الواجبات - أي بإبقاء ما يكفيها بعد التصدق - صح الإيثار وكانت صدقته هي الأفضل، لأجل ما يَتَحمَّلُ مِن مضض الفقر وشدة مشقّته، ثم قال صاحب الفتح: فبهذا يندفع التعارض بين الأدلة إن شاء الله[1].

هذا، ومما سبق من كلام علمائنا الأجلاء، تبيّن لنا أن أفضل الصدقة هي ما كانت زائدة عن الحاجات الضرورية للمتصدق ومن تلزمه نفقتهم، وهذا بالنسبة لعامة المتصدقين، أما خاصتهم، وهم الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فسنلتقي بهم بحول الله تعالى ومشيئته في العطاء التالي: [الإيثار].

---

(١) فتح الباري م٣ ص ٣٤٧.

الإيثار هو النموذج الأسمى للعطاء والتصدق في سبيل الله تعالى

إن الإيثار لا يقدر عليه إلا أهل الصبر وأهل التوكل وأهل الثقة بالله تعالى، وها نحن أولاء نأتي إلى الكلام عنه خاصة فنقول:

إن كلمة (الإيثار) مأخوذة من مادة (الأثر) وفيها معنى تقديم الشيء تقول: آثر فلان فلاناً، أي اختاره وفضله، وتقول: آثرت أن أقول الحق، أي فضلت أن أقوله وقدمته على غيره، والشخص الأثير لديك هو الذي تؤثره بفضلك وتخصه بصلتك، وقد تستعار كلمة (الأثر) للفضل، كما تستعار كلمة (الإيثار) للتفضل والتفضيل، ومن ذلك قوله تعالى عن يوسف ـ عليه السلام ـ على لسان إخوته: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾[1] أي يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والملك والنبوة أيضاً، و(المأثر) ما يروي من مكارم الإنسان، وجاء في مدارج السالكين لابن القيم ـ رحمه الله ـ أن مراتب البذل ثلاثة:

١ ـ **إحداهما:** ألا ينقصه البذل ولا يصعب عليه، فهو منزلة السخاء.

٢ ـ **الثانية:** أن يعطي الأكثر ويبقي شيئاً له، أو يبقي مثل ما أعطى، فهو الجود.

٣ ـ **الثالثة:** أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة

(١) سورة يوسف / ٩١.

الإيثار وعكسها ـ أي عكس الإيثار ـ (الأثرة) وهي استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه، وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار ـ رضي الله عنهم (إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)[1].

إن الإيثار حالة فريدة عالية في العطاء، وهو ـ كما سبق ـ أعلى مراتب البذل والإنفاق في سبيل الله تعالى، حيث يؤثر المسلم غيره على نفسه مع شدة حاجته إلى ما أعطى، وأصحابه هم الخاصة من أهل الإيمان والتقوى، الذين تجردوا عن هوى النفس وشحها، وقدموا كل ما لديهم لوجه الله تعالى ثقة به وتوكلاً عليه.

وهذا الإيثار لا يدخل تحت إيثار الأمهات والآباء أولادهن على أنفسهن، ولا إيثار المحبين والعشاق بعضهم على بعض، فتلك صور للإيثار دوائرها ضيقة ومواقعها محدودة، وهدفها مختلف، كما لا يدخل تحته الإيثار المحرم والمذموم وهو أن يقدم مسؤول شخصا ليتولى أمرا من أمور الدولة ويؤثره بذلك على من هو أصلح منه، ولقد روى عن يزيد بن أبي سفيان قال: قال أبوبكر رضي الله عنه حين بعثني إلى الشام: (يا يزيد، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكبر ما أخاف عليك، فإن رسول الله ﷺ قال: من ولى من أمور المسلمين شيئاً فأمَّرَ عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله، ولا يقبل الله منه صرفاً ـ أي توبة ـ ولا عدلاً ـ أي فدية، حتى يدخل جهنم).

(١) تهذيب مدارج السالكين م٢ ص ٦٤١، ٦٤٢.

هذا، ومما يؤسف له أشد الأسف أن هذا اللون المذموم والمحرم من الإيثار هو الذي يسري بين الناس مسرى الشرر المشتعل والمتساقط بالألم والفجيعة والنكبة على رؤوس الناس، وهو الذي حول حياتهم إلى حياة الضعفاء الأذلاء المتخلفين، وذلك لما يترتب على وضع الرجل في المكان الذي لا يصلح فيه، من مساوئ ومفاسد تنتشر لتغطي مساحة عريضة وطويلة من جماهير الناس، والأمة التي لا تقدم الأصلح من أبنائها ليتولى الأمر الخبير به والقادر عليه والبصير بكل ما يحيط به، هي أمة فاقدة للوعي أو كادت، وهي أمة ضلت السبيل القويم وَعَمَتْ عن منهج التقدم والرقي.

الإيثار الذي نقصده

إنه الإيثارالكريم الذي يعتمد على عاطفة إيمانية عاقلة، والذي نبع من قلوب مؤمنة صادقة تعلم علم اليقين، أن الله تعالى سيثيبهم على إيثارهم هذا بالعطاء الأوْفى والأجر الأبقى والثواب الأعظم، لقاء ما بذلوه عن طواعية وحب ورضا في سبيل الله تعالى، إن أهل هذا الإيثار هم أهل لأربح تجارة وأكرم مثوبة وأحسن تكريم، وكيف لا وهم يؤثرون غيرهم على أنفسهم ويقدمون للمحتاجين كل ما لديهم، وينفقون في سبيل الله ولا يبخلون، وهم حينما يفعلون ذلك العمل المشكور، إنما يريدون به وجه الله الغني الحميد، ولا يريدون من الناس جزاءً ولا شكوراً.

العلماء وموقفهم من الإيثار

إن العلماء أكرمهم الله تعالى لا يجيزون الإيثار الكامل، وهو التصدق أو إنفاق كل ما لدى المسلم من مال في مرضاة الله تعالى، إلا لنوع خاص من المسلمين، وهم أصحاب الصبر الجميل وأهل التوكل والثقة بالله تعالى، شريطة ألا يكون عليهم دين لأحد ـ كما سبق ـ فالدين أولى بالقضاء، وأما من يخشى عليه عدم الصبر فإن إيثاره يكون مكروها بالنسبة له، فقد يعرض نفسه لمذلة المسألة إذا بذل كل ما عنده ولم يبق لديه شيء، ومن العلماء من يرى حرمة التصدق بما يحتاجه الإنسان لنفسه إذا لم يصبر على الإضاقة، كما ذهب إلى ذلك

ابن حجر الهيثمي في كتابه (الإنافة فيما جاء في الصدقة والضيافة)[1]، وقال: وهو المعتمد، ثم قال: وأما ما في الروضة من عدم التحريم فمحمول على من صبر على الإضاقة، هذا ويستدل أصحاب هذا الرأي بالخبر الذي رواه الإمام البيهقي وغيره عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل بمثل البيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي أو قال (المعادن) فجاء بها رسول الله ﷺ عن ركنه الأيمن، فقال يا رسول الله خذها منِّي صدقة، والله مالي مال غيرها، فأعرض عنه، ثم جاء بها عن ركنه الأيسر فقال مثل ذلك، ثم جاء بها من بين يديه، فقال مثل ذلك: فقال: (هاتها) فحذفه حذفة لو أصابته لأوجعته أو عقرته، ثم قال: (يعمد أحدُكم فيأتي بماله فيتصدق به ثم يقعد بعد ذلك يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى، خذ الذي لك لا حاجة لنا به، فأخذ الرجل ماله فذهب)[2].

والظاهر من نص الحديث الشريف أن الرسول ﷺ علم أن هذا الرجل لا يصبر على الإضاقة وشدة العسر وسيعرض نفسه إن قبلت صدقته تلك لذل المسألة، بدلالة أنه ﷺ قبل من أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ماله كله في غزوة تبوك، ولم يرده.. والله أعلم.

محمد ﷺ هو القدوة العليا والمثل الأكرم في الإيثار

من المعلوم الثابت الحق أن رسول الله ﷺ هو النموذج الأكمل

(١) (ص ١٥٢).

(٢) السنن الكبرى / م ٤ ص ٣٠٤.

والمثال الأعلى والأسوة الحسنة في كل ما هو جليل وكريم، كما قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1]، ومن ذلك، الإيثار في أعلى درجاته وأسمى صفاته وأتمّ أحواله، ولقد روى الإمام الغزالي - رحمه الله - أن سهل ابن عبدالله التستري قال: قال موسى عليه السلام لربه: يارب أرني بعض درجات محمد ﷺ ، فقال يا موسى: (إنك لن تطيق ذلك، ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة، فضلته عليك وعلى جميع خلقي) فكشف له من ملكوت السماوات، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى، فقال يا رب، بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة؟ قال: بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار، يا موسى، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره إلا استحييت من محاسبته، وبوأته من جنتي حيث يشاء).

إن الإيثار بعض من خلق المصطفى ﷺ الذي اختصه الحكيم تعالى به ووصفه بقوله الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[2].

تقول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - (ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية، ولو شئنا لشبعنا ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا) وعنها - رضي الله عنها - قالت: (ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض)[3].

---

(١) سورة الأحزاب / ٢١.

(٢) سورة القلم / ٤.

(٣) البخاري (٤٧٨/٩، ومسلم (٢٩٧٠)، (٢٠)، (٢٢).

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ ببردة منسوجة، فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره[1] فقال فلان: أكسنيها ما أحسنها! فقال: (نعم) فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجا إليها، ثم سألته، وعلمت أنه لا يرد سائلاً، فقال: إني والله ما سألتُه لألبسها، إنما سألتُه لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه[2].

لقد كان رسول الله ﷺ في أشد الحاجة إلى تلك البردة، ولكنه الإيثار المحمدي العالي الذي ليس له حدود، وفي ذلك يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: (لا)[3].

هذا ولقد كان آل البيت الأطهار والصحابة الأخيار وهم صفوة المتأسين بخير المصطفين الأخيار محمد ﷺ مثالاً راقياً للإيثار العالي، وقد سبقت أخبارهم في الحديث عن تنافسهم في الخيرات وتسابقهم في الصدقات طلباً لرضوان الله تعالى وإيثارهم غيرهم على أنفسهم.

---

(١) الإزار: ما يلبس في أسفل البدن لستر العورة.

(٢) رواه البخاري ١١٣/٣، ١١٤، ٢٨٦/٤، ٢٣٤/١٠.

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٨١/١٠)، ومسلم (٢٣١١).

الأنصار يؤثرون المهاجرين على أنفسهم

إن إيثار الأنصار للمهاجرين على أنفسهم بعد الهجرة الكبرى من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، سوف يظل صفحة بهية مشرقة على مر الزمان، ولقد سجلها القرآن العظيم نوراً على نور، حيث قال الحق جل شأنه في سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[1].

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ وهم الأنصار، استوطنوا المدينة قبل المهاجرين واستقروا فيها وتمكنوا منها وأخلصوا الإيمان لله تعالى ولزموه فلم يفارقوه، وهم يحبون إخوانهم المهاجرين إليهم ولا يحسون في صدورهم أيّ غضاضة أو ألم مما هيأه الله تعالى للمهاجرين مِنْ فَيْءٍ أو خير، بل إن الأنصار يفضلون المهاجرين على أنفسهم في الاستمتاع بالخير، حتى كان الأنصاري يقول لأخيه المهاجر، انظر إلى أعجب نسائي إليك فأطلقها، فإذا انتهت عدتها تزوجْتَها.

وكانوا يؤثرون المهاجرين حتى فيما كانوا هم في أشد الحاجة إليه: كما قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ﴾، وكل من حفظه الله من البخل والشح فقد فاز.

لقد تمت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بهذه الكلمة الطيبة

---

(١) سورة الحشر / ٩.

التي قالها الحبيب ﷺ ، قال: (مخاطباً الأنصار - إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم) وما إن قالها حتى قال الأنصار: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ : (أو غير ذلك؟) فقالوا وما ذاك يا رسول الله؟ قال: (هم قوم لا يعرفون العمل، فتكفونهم العمل وتقاسمونهم الثمر) قالوا: نعم، وبعدها قال المهاجرون يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قَدِمْنَا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال الحبيب ﷺ: (لا، ما أثنيتُم عليهم ودعوتم لهم)[1] هذا ولما غنم رسول الله ﷺ أموال بني النضير، دعا الأنصار وشكرهم على ما صنعوا مع إخوانهم المهاجرين من إنزالهم إياهم في منازلهم وإشراكهم في أموالهم، ثم قال لهم: (إن شئت قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم من الغنيمة شيئاً) فقال الأنصار: بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة، فنزلت الآية، وفي رواية أخرى، أنهم قالوا: رضينا وسلم نا يا رسول الله، فقال ﷺ : (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار) وأعطى المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً إلا اثنين أو ثلاثة كان بهم فقر وحاجة[2].

---

(١) هذا الحبيب محمد ﷺ لى الله عليه وسلم يا محب، ص ١٧٩، ١٨٠ للشيخ أبوبكر الجزائري.

(٢) موسوعة أخلاق القرآن – المجلد الأول – الجزء الأول ص ٥٢، ٥٣.

خامساً: (صدقة أبقت مالاً وأورثت رضا ورضواناً)

إن الصدقة التي نتحدث عنها الآن، هي صدقة عجيبة لم تُقبَض ولم يأخذها طالبها، وإنما ظلت في يد صاحبها المتصدق بها، مع قبولها عند الله تعالى بقبول حسن، قبول هو الجنة والرضا والرضوان، وقد وردت في حديث شريف. يتحدث عن قصة عجيبة حدثت فعلاً لثلاثة من بني إسرائيل، ولقد أعلم الله تعالى بها رسوله ﷺ، ليقصها على أمته المرحومة المختارة ليكون لهم منها العظة والعبرة، وليتعلموا منها درساً إلهياً عن حكمة الله تعالى وسنته في خلقه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: (إن ثلاثة من بني إسرائيل، أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم، فبعث الله ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قَذَرَني الناس، فمسحُه فذهب عنه قذره، وأُعْطِى لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال الإبل، أو قال: البقر - شَكَّ الراوي - فَأُعْطِيَ ناقة عشراء فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأقرع فقال أي شيء أحب إليك؟ قال شعر حسن، ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس، فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً، قال فأي المال أحب إليك؟ قال البقر، فأعطي بقرة حاملاً وقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطى شاة والداً، فأنتج هذا وولد هذا، فكان

لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبَال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيراً فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله تعالى إلى ما كنت، وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك[1]، إن هذه القصة الواعظة الهادية، والتي وردت في الحديث الشريف، تمثل موقف الخَلْق من نعمة الخالق جل وعلا، فمن الناس مَنْ يجأرون إلى الله تعالى ويتضرعون إليه في كل وقت وحينٍ ليرفع عنهم البلاء ويكشف عنهم الضراء ويُوسِّعَ عليهم من فضله ونعمته، وهم مع دعائهم وتوسلهم هذا يعاهدون الله الكريم إن أجاب دعاءهم وكشف كربهم وبسط لهم من رزقه، ليكوننَّ من الشاكرين المحسنين،

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦/٣٦٤) ومسلم (٢٩٦٤).

ثم إذا أجاب الحق دعاءهم وكشف غمهم وبدّلهم من ضعف إلى قوة ومِنْ مرَض إلى صحة، ومن قبح إلى حسن، ومن ضيق وفقر إلى سعة وغنى، إذا هم يجحدون النعمة، وينشغلون بها عن المنعم سبحانه، ويتخذونها وسيلة لارتكاب ما حرم الله، ويعيثُون في الأرض فساداً وضلالاً، ليس لهم هدف إلا أن يغرقوا أنفسهم في بحار الشهوات المحرمة غير عابئين بأحوال المحرومين من خلق الله وما هم فيه من بؤس وفقر وعوز، وكانوا هم أنفسهم فيه من قبل، وإذا ما حاول أحد أن يذكرهم واعظاً وناصحاً، أجابوا بكل غطرسة وكبرياء، فتارة يقولون: ورثنا مالنا كابراً عن كابر، وتارة يقولون: أوتيناه على علم عندنا، إلى غير تلك الأقوال الجاحدة الكافرة التي وردت على لسانهم في القرآن العظيم والسنة المطهرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[3]،

(١) سورة يونس / ١٢.

(٢) سورة الزمر / ٨.

(٣) سورة الزمر / ٤٩، ٥٠.

ولقد قال قارون لقومه الواعظين له ليُحْسنَ إلى خلق الله المحرومين كما أحسن الله إليه ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾(1).

ولقد قال صاحب الجنتين في سورة الكهف: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾(2)، لقد دخل هذا الضال المغرور جنته وهو ظالم لنفسه بكفره وتمرده وتكبره، وتجبره وإنكاره المعاد، وقال وهو ينظر إلى جنته تلك: مَا أظُنُّ أنّ تَبِيدَ هَذه أبداً، أي أنّ جنته هذه لا تَفْنَى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لضَعْف يقينه بالله تعالى، وإخلاده إلى الأرض وقصر نظره على ما فيها، وإعجابه بحياته الدينا، ونسيانه اليوم المحتوم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ذلك هو حال أكثر الناس بكل أسف، إنه النوع الغالب على سكان الأرض، أما الشاكرون الحامدون لربهم المطيعون لله والرسول، والمنفقون أموالهم في سبيل الله تعالى بالليل والنهار سراً وعلانية، ليمسحوا دموع البائسين وليخففوا آلام المحرومين، وليسدوا حاجة المعوزين، فهم قليل، وهذا القليل هو خير الناس وأكرم الناس وأقرب الناس لله رب العالمين، وسُبْحَان الله القائل: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن

(1) سورة القصص / ٧٨.

(2) سورة الكهف / ٣٥، ٣٦.

مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[1]، بل إن الحديث الشريف الذي نحيا بين أنواره المحمدية يرينا نسْبة الجحود والكفر، إلى الشكر والحمد، إثنان إلى واحد، الثلثان جاحدون، والثلث شاكرون، والواقع يدل على أن الكثرة الكاثرة من الخلق قد تَلَهَّوْا بالنعمة عن المنْعم الذي استخلفهم فيها، وأنعم عليهم بها، القليل جِدًّا هم المهتدون الشاكرون، والحديث الشريف يطلعنا على قصة ليست من نسج الخيال ولا من تأليف أهل الضلال، ولكنها قصة حقيقية وقعت في قوم بني إسرائيل الذين ينتسبون إلى يعقوب عليه السلام بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام ولكل واحد من الثلاثة حالته الخاصة به، أما الأول، فقد أُصيبَ بمرض البرص، وهو بياض يقع في الجلد لعلة في الجسد، وأما الثاني، فهو أقرع، أي ذهب شعر رأسه بسبب آفة في جسمه، وأما الثالث، فهو أعمى لا يرى، وكان ثلاثتهم يشتركون جميعاً في شدة الفقر والمسكنة والحاجة، وشاءت حكمة الله العليم الحكيم أن يبتليهم - أي يعاملهم معاملة المختبر - وإلا فعِلمه تعالى أزليٌّ شامل للموجود والمعدوم قبل وجوده[2]، فأرسل الله تعالى إليهم ملكاً في صورة إنسان، فجاء الملك إلى الأبرص وقال له: أي شيء أحب إليك؟ أي ما هو أحب الأشياء إلى نفسك تتمنى أن يكون، وبالطبع كانت إجابة الأبرص للمَلَك أن أحب الأشياء إليه أن يتخلص مما فيه من مرض البرص وما يترتب عليه

---

(١) سورة سبأ / ١٣.

(٢) دليل الفالحين / م١ ص ٢٣٦.

من القذارة التي تبعد عنه الناس لقبحه وسوء منظره، ولذلك كانت إجابته للملك، لون حسن وجلد حسن، قال العلماء: وإنما سأله الجلد الحسن إضافة إلى اللون الحسن، لأنّ جلد الأبرص يحصل له من التقلص والتشنج والخشونة ما يزيد به قبح صاحبه، فلم يكتف بطلب حُسْن اللون عن طلب حُسْن الجلد، ثم تابع الأبرص يقول للملك، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، أي ويذهب عني الداء الذي بسببه تباعد عني الناس وكرهوني، قال ﷺ : فمسحه فذهب عنه قذرهُ، أي أَمَرَّ المَلَكُ يده على جسد الأبرص فذهب عنه داء البرص، ثم قال ﷺ : وأُعْطِيَ لَوْناً حسناً وجلداً حسناً، وبعد صلاح الجسد وصحته وعودة الحسن والجمال إليه، أخذ الملك يسأل الأبرص، عن أي نوع من الأموال يحب، ليكون له منه ما أراد، ذلك لأن صحة الجسد وحدها لا تكفي، فإذا انضم إليها المال والثراء فقد اكتمل الجانب المادي في الإنسان في ذاته وفي ملكه، قال: فأيّ المال أحب إليك؟ أي من جميع الأموال، قال: الإبل، أي الجمال، أو قال: البقر، شَكَّ الراوي، واسمه اسحق بن عبدالله، والمرجّح (الإبل) لكونه اقتصر عليها في قوله: (فأعطى ناقة عشراء، ويؤيده الاقتصار في الأقرع على (البقر) لا غير، فَتَعيَّنَ (الإبل) للأبرص، لكن في رواية البخاري في أبواب بني إسرائيل، هو شك في ذلك، أن الأبرص والأقرع قال أحدهما: (الإبل) وقال الآخر: (البقر) وبها يُعلم أن الاقتصار في الأقرع على الراوي، وإلا فالشك فيه كما في قبله، ويؤيد أنها (الإبل) أيضاً، سؤال الملك له بعيراً، وهذا كله بعد الشك، قال رسول الله ﷺ : (فأعطى ناقة

عشراء، جاء في القاموس، (العشراء) من النوق ونحوها ما مضى على حملها عشرة أشهر (ج) عشار، وفي التنزيل العزيز (وإذا العشار عطلت)، ومعنى ذلك أن الناقة لم يبق لها إلا زمن يسير وتضع وليدها، وهو قرابة شهر، ثم قال الملك للأبرص بعد أن أعطاه الناقة العشراء: بارك الله لك فيها، قال العلماء: وقول الملك هذا، يحتمل أن يكون دعاء منه له بعد ذلك، أو أن يكون إخباراً به في هذه الناقة، ويترك الملك الأبرص بعد أن منحه الله وأعطاه على يدي الملك ما تمنى من صحة وجمال ومال، ويتجه إلى الأقرع ويقول له مثل ما قال للأبرص من قبل: أي شيء أحب إليك؟

ويجيبه الأقرع بأن أحب الأشياء إليه أن يذهب عنه مرض القَرَع الذي يسقط شعر رأسه ويصيبها بالقذارة وسوء المنظر، قال شعر حسن، ويذهب عني هذا، أي داء القرع، (الذي قذرني الناس) أي بسببه، قال ﷺ: فمسحه فذهب عنه وأعطى شعراً حسناً، والمسح من الملك للأقرع، إما أن يكون مسح مكان الداء وهو الأقرب، أي مسح رأسه فقط، وإما أن يكون مسح جميع بدنه ليعمه بركته، وما أن مسحه الملك حتى ذهب عنه المرض بإذن الله تعالى، وأعطي شعراً حسناً، ثم جاء دور السؤال عن أحب الأموال إليه، كما فعل مع الأبرص من قبل فقال الملك له: (فأي الأموال أحب إليك، أي أيها تحب أن يكون لك منها، فاختار البقر، قال: (البقر) فأعطى بقرة حاملاً، وقال بارك الله لك فيها، أي في هذه البقرة، ويبقى من الثلاثة أصحاب هذه القصة

(الأعمى) فيتجه إليه الملك ويسأله قائلاً: أي شيء أحب إليك، قال: أنْ يردَّ الله إلي بصري، أي القوة المودعة في العينين التي بها تدرك المبصرات (فأُبْصِرُ الناس) أي أراهم ببصري بعيني رأسي ونلحظُ هنا، أن الأعمى قد وُفّق في طلب أمنيته في رد بصره إليه حيث رد ذلك إلى الله تعالى القادر على كل شيء، فكان أن قال (أن يرد الله إلي بصري) على عكس الأبرص والأقرع، حيث طلب كل منهما مطلبه في الصحة والجمال دون رد ذلك إلى الخلاق القادر جل وعلا، قال رسول الله ﷺ: (فمسحه فرد الله إليه بصره) وهذا يذكرنا بإحدى معجزات رسولنا ﷺ، فقد أصيبت يوم أحد عين قتادة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى وقعت على وجنته[1]، فردها عليه السلام فكانت بأمر الله تعالى وإذْنه أحسن عينيه وأحدَّهما[2] ويسأل الملَك الأعمى عن أحبَّ المال إليه فيقول: (الغنم) وفي اختياره للغنم من دون الأنعام توفيق أيضاً، فهي مباركة، فلم يبعث رسول إلا وقد رعى الغنم، فهي اختيار الأنبياء وقد دعا لها ﷺ بالبركة، ويجوز الصلاة في مرابضها دون غيرها من الأنعام، قال ﷺ: (فأعطى شاة والدا) وهنا نلحظ أيضاً أن في مال الأعمى زيادة خير عن الآخرَيْن، الأبرص والأقرع، إذ كل منهما أعطي من المال ما لم يلد بعد، فالأول ناقة عشراء، والثاني بقرة حاملاً، ولكن الأعمى أوتي شاة والدا، ويعني ذلك أن استثمارها وتنميتها سيكون أسرع من استثمار وتنمية مال الآخرين، فالشاة الوالد، أي: ذات الولد، وفي جامع

(١) الوجنة: ما ارتفع من الخدين: هكذا في القاموس.

(٢) انظر: الشفا للقاضي عياض م١، ص ٣٢١، ٣٢٢.

الأصول، هي التي قد عرف فيها كثرة الولد والنتاج،... تمر الأيام والشهور والسنون، ويتغير حال الثلاثة (الأبرص، والأقرع، والأعمى) حتى صار للأبرص وادياً من الإبل، وللأقرع وادياً من البقر، وللأعمى وادياً من الغنم، قال: (فأنْتَجَ هذان) والمراد بهما صاحب الإبل وصاحب البقر، (وولد هذا) أي صاحب الغنم (فكان لهذا) أي الأبرص، (واد من الإبل) أي ملؤه، (ولهذا) أي الأقرع (واد من البقر) ولهذا (أي الأعمى) واد من الغنم ومما لا شك فيه أن هذه الأموال، الإبل والبقر والغنم، ينتج عنها نعم أخرى كالبيوت والزوجات والأولاد والخدم، والرجال الذين يقومون برعي هذه الأنعام، وما يتبع ذلك من أمور أخرى على حسب مستوى المعيشة التي يحياها الناس في زمانهم، وعلى قدر متطلبات الحياة لديهم، إنهم الآن يَتَقَلبون في نعم الله تعالى التي أَغدقَهَا عليهم ومنحها لهم، ترى ماذا سيكون مصيرهم بعد، وهل تدوم عليهم النعمة أم ترفع، ومن منهم سينجح في الاختبار بالابتلاء بتلك النعمة، ومن منهم سَيْسقُط سَقْطَة أبَديّة لا رَجْعة منها أبداً، لنقترب منهم الآن أكثر فأكثر، واحداً بعد الآخر، نقترب من الإسرائيلي الأول، إنه الأبرص ذو المرض البغيض الذي يشوّه الجلد ويقبح الشكل وينفر الناس من صاحبه، إنه مرض جلدي يستعصى غالباً على الاستشفاء، والإنسان الذي يصيبه مرض جلدي مثل هذا أو قريباً منه، فإنه يفزع ويحزن ويتألم، ويحلم ويتمنى في كل لحظة أنْ يَذْهب عنه هذا المرض، وإذا كان ذو مال، طاف بأطباء أهل الأرض بحثاً عن الاستشفاء منه، فإذا قدر الله له الشفاء كان كَمَنْ لمس بيده السماء،

فرحاً وسروراً ابتهاجاً بنعمة الصحة وزوال كابوس المرض القْبيح فماذا لو شفاه الله تعالى برحمته وَمِنَّته دون أن يقدم مالاً أو يبحث عن طبيب أو يتناول دواء، وفي مسحة من الملك في لحظة، يصير مُبَرَّءاً من المرض مُعَافىً من كل عيب في جسده ألا يستحق ذلك الشكر لله تعالى والثناء عليه بكل المحامد، والإنفاق في سبيله شكرا وعرفاناً، ثم ماذا يحدث إذا ما قيل لإنسان فقير ذليل حقير لا يجد حتى قوت يومه، إن ملكا من ملوك الأرض في البلاد الفلانية، لو ذهبت إليه طائعاً متذللاً معاهداً إيّاه على الولاء له طوال عمرك، فسيعطيك من المال الكثير ما يكفيك وأهلك طوال حياتك، فلا شك أن هذا الفقير سيقطع الأرض قطعاً ويبذل غاية الجهد ويَجِدُّ في المسير ويسعى حتى يصل إلى بلد ذلك الملِك، ليعلن له طاعته وولاءه مدى الحياة، في مقابل حصوله على المال منه،... واتَّجه الملَك إلى الأبْرص وقد تشبَّه بصورته كما كان في الماضي قبل الشفاء وقبل الثراء وقال له: (إنّي رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري)، أي انقطعت عني أسباب الرزق - (فلا بلاغ ليَ اليوم، أي لا وصول لما أريد اليوم - (إلا بالله) - أي بإيجاده وتيْسيره (ثُمَّ بك)، أي لكونك مظهراً للخير يجرى على يديك - قال العلماء وهذا القول السابق من الملك - أي قوله رجل مسكين... إلخ، من المعاريض التي يقصد بها التوصل إلى إفهام المقصود من غير أن يراد حقيقتها، وقد قال الملك (ثم بك) ولم يقل (بك) أي دون تقديم (ثم) عليها، دفْعاً لإيهام التشريك، فالإتيان بثم، هو الأدب المتأكد، ثم تابع الملك يقول للأبرص (أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد

الحسن والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري) أي أقْسِمُ عليك مستعطفاً إياك بالله تعالى الذي أعطاك الصحة والمال بعد الابتلاء، بعيراً أكتفي به في سفري، والبعير اسم يقع على الذكر والأنثى، وإنما يقال له (بعير) إذا أجذع، وهو من الإبل، ما استكمل أربعة أعوام ودخل في الخامسة، والآن، وقد سأل الملك الأبرص حاجته وأبلغه ما يريد منه، وهو على صورة الأبرص السابقة ترى، هل يتذكر الأبرص نفسه وحاله في الماضي، وهل يعود إليه رشده فيتذكَّر نعمة الله تعالى عليه ويعطي السائل ما سأل، أم سيكون من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، لقد كان من الصنف اللعين الخسيس الجاحد حقاً، فلم تتأثر مشاعره، ولم يتحرك قلبه حين شهد نفسه الماضية عياناً بياناً صورها له الملك كأنه هو، لقد نسي ماضيه المريض، ولم يعد يرى إلا ما أصبح فيه اليوم من عز وجاه وصحة ومال، وران على قلبه الصَّدأ وطغت عليه الظلمات، طغياناً عظيماً، فلم يكترث بهذا السائل، ولم يفكر في إعطائه شيئاً من مال الله الذي آتاه بلا تعب أو مشقة، ولم يقدم له حتى ولو رغيف خبز أو شربة ماء، لقد صار قلبه حجراً صلداً لا يشفق ولا يرحم، بل أصبح قلبه أشد وأغلظ، كما قال الله في كتابه الكريم: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[1]، وجاء رد الأبرص على الملك رداً قبيحاً يُنْبِئُ عن نفس مجرمة وقلب عليه قفل من حديد، إنه

(١) سورة البقرة / ٧٤.

رد الجاهلين المحرومين، رد أهل الشح والبخل في كل زمان، لقد قال للملك بكل تكبر وأنفة وعدم مبالاة: الحقوق كثيرة، أي لن أعطيك شيئاً لا ناقة ولا أقل منها، فليس عندي ما يفضل عن حاجتي حتى أعطيك إياه، لقد قال الأبرص هذه الكلمات وأجاب المَلكَ بتلك الإجابة وهو لا يدري أن الأمر عظيم والخطب شديد، والواقعة الساقطة عليه من السماء ليس لوقْعتها كاذبة، وها هو ذا الملك يواجهه بحقيقة أمره وما كان عليه في الماضي، قال له: (كأني أعرفك) ثم تابع يقول له على سبيل الاستفهام التقريري: ألم تكن أبرص يقذرك الناس أي فعافاك الله (فقيراً) أي محتاجاً لا مال لك، فأعطاك الله، ولقد كان المنتظر من الأبرص في هذه الحالة وبعد أن ذكّره الملك بنعمة الله عليه، أن يثوب إلى رشده وأن يتبين موقفه، ويسارع بالعدول عن بخله وشحه ويتوب إلى الله تعالى من فعله، ولكنه كان كما قال الله تعالى في أمثاله ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾[1]، أنهم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، لقد كان رد الأبرص بعد ذلك كله أشد قبحاً وضلالاً وأعظم استكباراً قال للملك وقد انتفش وانتفخ وتعالى وتكبر: (إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر)، أي ورثته كابراً عن كبير في العز والشرف، عن أبي وجدي، وهكذا أنكر الضال الآثم نعمة الله تعالى وفضله العظيم عليه، وادعى انه ولد وفي فمه ملعقة من فضة، أو من ذهب كما يقولون، وأن ما يقال له الآن على لسان الملك ليس إلا كذباً وافتراءً وتعدياً على أصله العالي

(١) سورة الفرقان / ٤٤.

وحسبه ونسبه الغالي، وبينما كان اللئيم الجاحد في تعاليه السافل وزهوه الفارغ وغروره الكاذب، إذ بالملك يواجهه بكلمة الحق: (إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت) أي يَـرُدُّكَ الله بسبب كذبك وكفرك وجحودك إلى حالتك التي كنت عليها من قبل، فتصبح مريضاً عليلاً ذليلاً فقيراً مبغضاً من خلق الله تعالى، ويذهب عنك حتى أهلك وولدك وخدمك وكل ما تحت يديك.

ولما كان الأبرص كاذباً وفاجراً وجاحداً وكافراً، فقد حقت عليه كلمة العذاب، ورفعت عنه النعمة التي لم يشكرها ولم يتصدق منها، وحلت عليه النقمة، وَنَـزَلَ عليه غضب الله الجبار، وياليت الأمر كان مقصوراً على عمر الدنيا القصير ومتاعها الحقير، وأملها المقطوع، لكن الأمر أشد وأفدح، وأدهى وأمرّ، إنه أمر الخسران في الآخرة بعد الأولى، والعذاب بالنار مع الفجار، وسبحان الملك الحق القائل: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ ﴾[1]، فيا للحسرة التي ليس بعدها حسرة، ويا للخسران الذي ليس فوقه خسران، ويا للنكبة التي لا نكبة أشد منها، لقد كان يكفي الأبرص هذا أن يمد السائل بشيء قليل جداً من المال الذي آتاه الله إياه، لتدوم عليه النعمة، دوام الأولى والآخرة، كما كان يمكنه أن يقدم بعيراً للسائل ابن السبيل، ليبقى له ماله، وليجد ثمرته وثوابه عند الله تعالى، يوم لا ينفع مال ولا بنون، لكن النفوس الخبيثة والقلوب

(١) سورة فصلت / ٦، ٧.

المطْمُوسة تفعل بأصحابها الأفاعيل السود، حتى تُوردهم موارد التهلكة والبوار، وتلقى بهم في هوة سحيقة ليس لها قرار، نعوذ بالله تعالى من شر ذلك... فهل لأصحاب الأموال أن يفيقوا من غيبوبتهم ويُخرِجوا زكاة أموالهم، فتدوم النعمة عليهم في الدنيا، ويجدون خير زكاتهم عند ربهم يوم الجمع الأكبر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾[1].

ومن العجيب والغريب أنك تجد كثيراً من المطموسين عن هدى الله تعالى والجاحدين لِشُكْرِه من يملك المال الكثير، وينفقه في مسارب الشيطان، آلافاً مؤلفة، وقد يكون بالملايين، وهو لا يشعر في نفسه ألما، ولا حزناً ولا غماً لما أنفق وأهلك وأضاع، حتى إذا دعوت أحدهم إلى البذل والإنفاق ولو بشيء قليل في سبيل الله تعالى، كشر عن أنيابه الحيوانية وتغير وجهه وعلاه غبْرة وكأنك تريد أن تأخذ منه قطعة من جسده، ورد بلسانَ بذيءٍ بالمنع والبخل والإمساك.

وبعد (الأبرص) يتجه الملك إلى (الأقرع)، (وأتى الأقرع في صورته) أي في صورة الأقرع وهيئته السابقة، صورة الفقر والمرض والمسكنة، (فقال له مثل ما قال لهذا أي قال الملك للأعمى مثل ما قال للأبرص، من أنه رجل مسكين... إلخ، لكن الملك بالطبع سأل الأقرع (بقرة) (ورد عليه مثل ما رد عليه هذا) أي رد الأقرع أيضاً بالجحود والنكران

---

(١) سورة الزمر / ٤١.

والكذب، ولم يعطه البقرة التي سأله إياها، ولا حتى لقمة أو شربة ماء، فقال: (إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت) ولما كان الأقرع كاذباً أيضاً فيما ادّعاهُ من أنه ورث المال كابراً عن كابر ولم يكن مريضاً ولا، ولا، فقد حلت عليه لعنة الله وغضبه وتنزلت على رأسه النقمة وارتفعت عنه النعمة، وعاد هو الآخر مريضاً منبوذاً فقيراً محروماً من كل شيء وباء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير.

إن الأبرص والأقرع يمثلان قطاعاً عريضاً من الأغنياء، أعمى الله قلوبهم وبصيرتهم وأنساهم أنفسهم لضلالهم وجحودهم وغيّهم، فلا قَلْبَ لهم يرحَمُ فقيراً أو محروماً، ألا إنهم هم المحرومون حقاً، والخاسرون حقاً، والمبغضون حقاً من الله ورسله وملائكته والمؤمنين.

والآن فقد حان الحين لرؤية المثال الطيب ومُشاهدة النموذج الكريم لصنف من عباد الله السعداء المكرمين المحسنين، إنّهُ المؤمن بالله الصادق في إيمانه، ابتلاه الله تعالى بالفقر والعمى فرضي وصبر، فلما ابتلاه بالنعمة ورد إليه بصره حمد وشكر وكان من المحسنين، وها هو ذا الملك الكريم، وقد أتى الأعمى في صورته وهيئته التي كان عليها في الماضي، أعمى لا يبصر، فقيراً لا يجد قوت يومه، وقال الملك للأعمى: (رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري) وما أن استمع الأعمى - سابقاً - إلى كلمات الملك الذي جاءه في صورته السابقة، حتى استولت كلماته على نفسه ومشاعره ووجدانه،

وهزته هزاً عنيفاً صار كالقشعريرة تسري في كيانه كله، لقد جذبته صورته التي كان عليها في الماضي جذباً شديداً وأخذت بمجامعه فرآى نفسه وكيف كان قبل أن يشمله الرحمن بلطفه وعنايته وكرمه، كان أعمى لا يرى ولا يبصر، الليل عنده كالنهار، والنهار لديه كالليل، لا فرق بينهما عنده، وما كان يستطيع أن يبصر نفسه ولا أهله ولا ولده، ولا أرضاً ولا سماء ولا ما بينهما، ثم هو في نفس الوقت فقير ملصق بالتراب من شدة الفقر والعوز، لا يملك كثيراً ولا قليلاً، ثم رجع الأعمى بفكره وعقله وإيمانه إلى ما أصبح عليه الآن بفضل الله تعالى ومنته، من نور البصر الذي رده الله تعالى إليه، ومن نعمة المال وما تحتها من نعم كثيرة لا تحصى، لقد رأى فضل الله تعالى عليه لا يُحَدّ، ونِعَمُ الله من فوقه ومن تحته لا تُعَدّ، فواجه السائل المسكين بالصدق واليقين، ورد عليه رد الحامدين الشاكرين، وقال معترفاً بحقيقة ما كان عليه وما آل إليه (قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري) ونلحظ، أن الملك ذكّر الأعمى بنعمة الله تعالى عليه في رد بصره إليه، ولم يذكّره بإيتاء المال، كما قال للآخرَيْن، وذلك لأن نعمة البصر أعظم بكثير من نعمة المال، ومتى أقرّ بها كان لمن تحتها من النعم مقراً أيضاً، ولذلك أجاب الملك معترفاً برد نعمة البصر إليه، ثم أجابه إلى ما سأل وفوق ما سأل أضعافاً مضاعفة، لقد نظر الأعمى إلى واديه المملوء بالغنم، وقال للملك قَوْلَة الصادق المقِر بفضل الله الواسع عليه: (فخذ ما شئت ودع ما شئت) أي من الغنم ومما تحتاج إليه، بدليل التعميم في الأمر بالأخذ، ولم يقصره على الغنم وحدها، وكان الملك قد طلب شاة

واحدة، وتابع الأعمى يقول: (فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل) أي والله لا أشق عليك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل، وهذه رواية مسلم ـ رحمه الله ـ وفي رواية البخاري ـ رحمه الله ـ (والله لا أحمدك بشيء) ومعناه، لا أحمدك بِتَرْك شيء تحتاج إليه، فهو على تقدير لمضاف، وذلك لطيب نفسي بما تأخذ، لقد فعل الأعمى فعل الكرام الشاكرين، وقال قولة الحامدين، وهكذا يكون أصحاب النفوس الطيبة النّدِيّة. شَتَّان شتان ما بين الأعمى الصادق الشاكر، وبين صاحبيه الجاحدين الكاذبين، اللذين أوردا نفسيهما موارد التهلكة والخسران العظيم، ألا وإن للشاكرين جزاءهم الكريم وللجاحدين عقابهم الأليم، وهذا ما أعلم به الملك الأعمى، بعد أن طابت نفسه بذلاً وإنفاقاً وتصدقاً في سبيل الله تعالى، قال الملك للأعمى: (أمسك عليك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك، ويا له من حكم عادل صدر من أعدل الحاكمين جل وعلا، ونُفِّذَ في التو واللحظة إنه الحكم الباتُّ الذي لا ينقض على الجاحِدَيْن الكافرين المكذّبَيْن، حُكْمٌ بالعذاب والهوان والحرمان والنكال والخسران المبين في الدنيا والآخرة، لقد سخط الله عليهما، ويا لويل وهلاك وعذاب من سخط الله عليه، ونعوذ بالله من شر ذلك، ولقد قضى الله تعالى لعبده المؤمن الصادق الشاكر الحامد بما هو أعظم وأكرم من كل ما في الدنيا، قَضَى لهُ بالرضا والرضوان، مع الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار أولئك حزب الله، إلا إن حزب الله هم المفلحون، لقد أعْطَي الأعمى واتقى الله وخاف

عذاب الآخرة، فأدام الله عليه النعمة في الدنيا وباركها وزادها، وأَعدّ لهُ في الآخرة جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وتبارك الله القائل: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[1]، أي في الأولى والآخرة.

إن فيما قصَّهُ علينا رسولنا الصادق المصدوق محمد ﷺ ، من أمر الثلاثة من بني إسرائيل ومصير كل فريق منهم، فيه العبرة والعظة لأولي الألباب، الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه، وحريٌ بالمسلم العاقل أن يكون عبداً صادقاً شكوراً لله، باذلاً ومنفقاً الخير في سبيله تعالى، ابتغاء مرضاته وطمعاً في رضوانه وجناته، ولقد قال جلّ شأنه: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾[2]. وقال سليمان عليه السلام: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة إبراهيم / ٧.

(٢) سورة سبأ / ١٣.

(٣) سورة النمل / ١٩.

(الباب الثاني)

(الفصل الخامس)

من آثار الصدقات العظيمة :

أولاً : الصدقة المكفرة عن الذنب الكبير.

ثانياً : الصدقة تطفئ الخطيئة.

ثالثاً : الصدقة تحمي العرْض وتَذُبُّ عن الشَّرَف.

رابعاً : الصدقة في السِّرِّ تُطْفِئ غَضَبَ الرَّبّ.

أولاً: (الصدقة المكفرة):

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هَلَكْتُ، قال: (مَالَكَ؟) قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (هل تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟) قال: لا، قال: (فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟) قال: لا، قال: (فهل تجدُ إطعام ستين مسكيناً؟) قال: لا، قال: فمكث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبينما نحن كذلك أُتِيَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعَرَق[1] فيها تَمْر، قال: (أين السائل؟) فقال: أنا، قال: (خذ هذا فتصدَّق به) فقال الرجل: على أفْقَرَ منِّي يا رسول الله، فوالله ما بَيْنَ لابتَيْها (يريد الحَرَّتَيْن) أهلُ بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى بدَتْ أنيابه، ثم قال: (أَطْعِمْه أهلَك)[2].

هذا مثل تطبيقي من حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصدقة[3].

فما أرحمك، وما أحلمك، وما أبرَّك يا سيدي يا رسول الله، لقد جاءه هذا الصحابي الذي جامع امرأته في رمضان المعظم، وهو يحمل الذنوب والآثام، ثم رجع من عنده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يحمل الخير والبركة والطعام.

لقد ارتكب ما يبطل الصيام ويوجب القضاء والكفارة، وهو الجماع

---

(١) العَرَق: هو زَنْبِيل منْسُوج من نسائج الخُوص وكلّ شيْء مَضْفُورٌ فهو عَرَق.

(٢) متفق عليه، البخاري ـ الفتح (٤/١٩٣٦) واللفظ له، ومسلم (١١١١).

(٣) انظر نضرة النعيم / ٦ / ٢٥٢٨.

لا غيره، والكفارة على الترتيب الواجب ـ وهو رأي الجمهور ـ[1] أنه لا ينتقل من عتق رقبة مؤمنة، إلى صيام شهرين متتابعين، إلا إذا عجز عن الإعتاق، ولا ينتقل من صيام شهرين إلى إطعام ستين مسكيناً، إلا إذا عجز عن الصيام، ولهذا قال له الرسول ﷺ بعد أن علم بما وقع منه في نهار رمضان من جماعِه زوجته: (هل تجد رقبة تعتقها؟)، قال: لا، قال: (فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟) قال: لا، قال: (فهل تجد إطعام ستين مسكيناً؟) قال: لا.

ويمكث النبي ﷺ بعض الوقت بعد أن استمع إلى إجابات هذا الصحابي، ثم يأتي فرج الله ومدده، ويُؤْتَى للنبي ﷺ بِعَرَقٍ فيها تمر، زنبيل من الخوص مملوء تمراً، ويسأل رسول الرحمة والهدى والبركات عن السائل بعد ورود هذا التمر فيقول: (أين السائل؟) فيجيبه الصحابي: أنا، فيقول له الرسول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مشيراً إلى التمر: خذ هذا فتصدَّق به، أي: يطعم به ستين مسكيناً كفارة عنه، فيقول الصحابي: على أفقر مني يا رسول الله، فوالله ما بين لا بتيها[2] أهل بيت أفقر من أهل بيتي ـ سبحان الله ـ ما أعجب موقف هذا الصحابي، إنه حتى لا يكتفي بأن يعطيه الرسول ﷺ ما يكفر به عن فعلته ـ بل إنه يريد أكثر من ذلك، ويتعجب الرسول ﷺ من موقفه هذا، تعجب الراضي الرؤوف الحليم، ويعلم ما يريده الصحابي، فيضحك ﷺ حتى بَدَتْ نواجذه، وكان أكثر ضحكه ﷺ تَبَسُّماً، وقليلاً ما كان

(١) انظر الموضوع بالتفصيل في صحيح فقه السنة وأدلته (أبومالك) / ٢ / ١٠٩.
(٢) يعني طرَفي المدينة.

يضحك ﷺ حتى تبدو نواجذه[1] ثم قال له: (أطعمه أهلك)، ألا فسبحان من كمَّله وعلَّمه ورفعه فوق كل نبي ورسول، وجعله كما قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[2].

وقد فعل ﷺ مثل ذلك في عدد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، كما جاء ذلك في تفسير أول سورة المجادلة، والمتعلق بالظهار وحكمه، وذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور أول سورة المجادلة، ونذكر من ذلك هذين المثلين:

(الأول) عن عكرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن امرأة أخي عبادة بن الصامت جاءت إلى رسول الله ﷺ ، تَشْكُو زوجها تَظَاهَر عنْها، وامرأةٌ تفلي رسول الله ﷺ ، أو قال: تُدْهِنُه، فرفع رسول الله ﷺ رأسه إلى السماء، فقالت التي تفلى لامرأة أخي عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واسمها خولة بنت ثعلبة: يا خوْلة ألا تَسْكُتي، فقد ترينه ينظر إلى السماء، فأنزل الله فيها: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾[3] فعرض عليه ـ على زوجها أوس بن الصامت ـ عتق رقبة، فقال: لا أجد، فعَرَض عليه صيام شهرين متتابعيْن، فقال: لا أطيق، إن لم آكل كل يوم ثلاث مرات شَقَّ بي، فقال

---

(١) انظر الوفا بأحوال المصطفى، لابن الجوزي، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) سورة التوبة / ١٢٨.

(٣) سورة المجادلة / ١.

له النبي ﷺ : (فأطعم ستين مسكينا) قال: لا أجد، فأُتِيَ النبي ﷺ بشيء من تمر فقال له: (خذ هذا فاقسمه) ـ أي على ستين مسكينا كفارة عنك ـ فقال الرجل: ما بيْن لابتيها أفقر مني، فقال له النبي ﷺ : (كُلْهُ أنت وأَهْلَك).

(الثاني) أخرج عبدالرزاق في المصنف عن طريق أبي سلمة بن عبدالرحمن بن سلمة بن صخر الأنصاري أنه جعل امرأته عليه كظهر أمه، حتى يمضي رمضان، فَسَمَنَتْ وتربَّصَتْ ـ أي زوجته ـ فوقع عليها في النصف من رمضاه، فأتى النبي ﷺ كأنه يعظم ذلك، فقال له النبي ﷺ : (أتستطيع أن تعتق رقبة؟) فقال: لا، قال: (أفتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟) قال: لا، قال: (أفتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟) قال: لا، فقال النبي ﷺ : (يا فروة بن عمرو أعطه ذلك العرق) ـ وهو مكْتَل يأخذ خمسة عشر أو ستة عشر صاعا ـ فليطعمه ستين مسكيناً) فقال: أَعَلى أفقر مني، فوالذي بعثك بالحق ما بين لابَتَيْها أهل بيت أحوج إليه منَّا، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: (اذهب به إلى أهلك)[1].

الصيام والجماع في نهار رمضان:

الجماع لا غيره في نهار رمضان، هو الذي يبطل الصيام ويوجب القضاء والكفارة، ودليل ذلك ما تقدم من الأحاديث الشريفة، ونودّ

(١) الدّرّ المنثور، للإمام السيوطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠م ـ الجزء السادس / ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

هنا الإجابة على هذا السؤال: هل تجب الكفارة على المرأة كالرجل؟

إن الرسول ﷺ أمر الرجل بالكفارة وسَكَتَ عن المرأة، ولهذا فقد اختلف أهل العلم في المرأة التى جامعها زوجها، هل عليها كفارة أم لا؟ على أقوال:

(الأول) ليس على المرأة كفارة مطلقاً، وهو مذهب الشافعي وَقَوْلُ لأحمد، أنه يجزيها كفارة واحدة، وأنها على الرجل دونها لما يأتي: أن النبي ﷺ لم يأمرها بكفارة، مع أنه جامعها، والفعل قد حصل منه ومنها معاً، فدَلَّ على أنه لو رأى عليها كفارة لألزمها ذلك ولم يسكُتْ عنها.

(الثاني) أن على المرأة الكفارة كالرجل: وهو قول الجمهور: أبي حنيفة، ومالك، وقول للشافعي وأحمد في أصح الروايتين عنه، على اختلاف وتفاصيل لهم في الحرَّة، والأمة، والمطاوِعَة، والمكرهة، قالوا:

١ ـ لأنها هتكت صوم رمضان بالجماع، فوجبت عليها الكفارة كالرجل، وقد سَوَّت الشريعة بين الناس في الأحكام إلا في مواضِعَ قام الدليل على تخصيصها، فإذا لزمها القضاء لأنها أفطَرتْ بجماع متعمَّد كما وَجَب على الرجل، وجبَتْ عليها الكفارة لهذه العلِّة كالرجل سواء.

٢ ـ وأما عدم أَمْرِ النبي ﷺ للمرأة بالكفارة، فهذا حكاية حال، لا عُمُومَ لها، وقد تكون المرأة مفطرة بعُذْرٍ من مَرَضٍ أو سَفَرٍ، أو تكون

مكرهَةً أو ناسِيَةً لصومها أو نحو ذلك.

٣ ـ لأن المرأة لم تَسْتَفْتِ النبي ﷺ كما استفتاه الرجل، واعتراف الزوج عليها لا يوجبُ عليها حُكْماً ما لَمْ تَعْتَرِف.

٤ ـ ويحتمل أن يكون سبب السكوت عن حكم المرأة ما عرفه من كلام زوجها بأنها لا قدرة لها على شيء.

(الثالث) أن يجزيها كفارة واحدة، إلا إن كانت الكفارة بالصيام فعليهما، وهذا مذهب الأوزاعي،

قال الشيخ أبومالك سالم: قلت: والأرجح مذهب الجمهور، وقوْل الشافعي ليس ببعيد كذلك، والله أعلم[1].

قلت: بل قول الشافعي هو الأرجح، لأن الرسول ﷺ، في الصور الثلاث السابقة، لم يذكر الزوجة التي جامعها زوجها، لا من قريب ولا من بعيد، مع تعدّد الحالات، ولو كان على الزوجة شيء من الكفارة لذكرها رسول الله ﷺ، والله أعلم.

وقد علَّلَ الشافعية وجوب الكفارة على الزوج المجامع دون الزوجة الموطوءة وإن كانت صائمة، لأنَّ جِنَايَةَ الواطئ أَغْلَظ، فناسب أن يكون هو المكلف بالكفارة.

قال العلماء: ولا يجوز للفقير الذي قدر على الإطعام صرف ذلك الطعام إلى عِيَالِه، وكذلك غيرها من الكفارات، وما ذكر في الأحاديث

---

(١) صحيح فقه السنة (أبومالك) المجلد الثاني / ١٠٨ ـ ١٠٩.

الثلاثة السابقة، فإنما هو خصوصية لهم، هذا ومما ينبغي أن يُعْلَم، أنه يجب على المجامع مع الكفارة قضاء اليوم الذي أفطره من رمضان بالجماع، وأن الكفارة تَتَكَرَّرُ بتكرُّر الأيام التي أفطرها بالجماع، فإذا جامع في يومين في رمضان لزمه ـ مع القضاء ـ كفَّارتان، وإذا جامع في ثلاثة أيام، لزمه ثلاث كفارات، وهكذا، والكفارة على الترتيب الوارد في الحديث، عتق رقبة، فإن لم يجد، فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً.

ومن جامع امرأته في رمضان، ناسياً للصوم، أو جاهلاً بالحُرْمَةَ، أو أفْسَدَ به صوْماً غير صوم رمضان، أو أفطر مُتَعمداً ولكن بغير جماع، فلا كفارة عليه، وإنما عليه القضاء فقط، والمفطر المتعمد بغير الجماع وبدون عذر، عليه إثم كبير.

ثانياً: (الصدقة تطفئ الخطيئة):

عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدْخلني الجنة ويُباعدُني من النار؟ قال: (لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسَّره الله تعالى عليه: تعبُد الله لا تشركُ به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتُؤْتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت) ثم قال: (ألا أدُلُّكَ على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئُ الماءُ النار، وصلاة الرجل من جَوْف الليل، ـ وسطه ـ ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ حتى بلغ ﴿يعملون﴾،[١] ثم قال: (ألا أخبرُك برأسِ الأَمر وعموده وذرْوَة سَنَامه) قُلْت: بلى يا رسول الله، قال: رأسُ الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاة، وذرْوَةُ سنَامه الجهاد) ثم قال: (ألا أُخبرك بِملاكِ ذلك كلِّه؟) قُلت: بلى يا رسول الله، فأَخذ بلسانه قال: (كُفَّ عليكَ هذا) قلت يا رسول الله وإنّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: (ثكلَتْكَ أمُّك[٢] وهل يكُبُّ الناسَ في النار على وجُوهِهم إلا حصائدُ ألسنتهم؟)[٣].

ومحل الشاهد معنا في هذا الحديث الشريف، هو قوله ﷺ :

---

(١) السجدة / ١٦ ـ ١٧.

(٢) ثكلَتْك أمك: فَقَدتْكَ، وهو من الألفاظ التي تجرى على ألسنتهم، ولا يقصدون بها الدعاء، كقولهم: تَربَتْ يداك، وقاتلك الله.

(٣) رواه الترمذي وصححه برقم (٢٧٦١) وابن ماجة (٣٩٧٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢١١٠) قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح بطرقه، وهو في الترمذي (٢٦١٩) وأخرجه أحمد (٥/٢٣١) وابن ماجة (٣٩٧٣) ـ رياض الصالحين بتحقيقه / ٥٧٢.

(والصدقةُ تطفِئُ الخطيئة كما يطفِئُ الماءُ النار)

وهذه والله مِنَّة مباركة من الله الرحمن الرحيم، وعجيبة حبيبة من عجائب الصدقات، حيث إن الله تعالى جل شأنه، وهو الرؤوف الرحيم بعباده، قد جعل للصدقة الخالصة لله تعالى قوة في إذهاب الخطيئة التي ارتكبها المسلم ومحْوِها، تماما كقوّة الماء في إطفاء النار وإذهابها ومحوها، ألا فتبارك الله الرحمن الرحيم، الذي هيّأَ للمسلم أبوابا كثيرة لمغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، ومحو الخطايا، وكل مسلم ومسلمة، في أشد الحاجة لمثل هذه العطايا الإلهية التي لا تقدر بمال، فالكل خطَّاء، وهذه طبيعة بني آدم، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد وغيره عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (كل بني آدم خطَّاء، وخيرُ الخطائين التوابون)((1))، ولا يُستَثْنَى من ذلك إلا المصْطفون من أنبياء الله تعالى ورسله الكرام، فهم معْصُومُون عن الخطايا بعصمة الله تعالى، الذي اصطفاهم وكرمهم على العالمين.

ما هي الخطيئة؟

قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾[2]: يعني بذلك جل ثناؤه، ومن يعمل خطيئة، وهي الذنْب، أو إثْماً، وهو ما لا يحلُّ من المعصية، وإنَّما فرَّق بين الخطيئة والإثم، لأن الخطيئة قد

(1) رواه الإمام أحمد في مسنده، ورواه الترمذي، والبيهقيّ، والحاكم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في صحيح الجامع برقم (٤٥١٥) ورمز له بـ (حسن) وهو في المشكاة برقم (٢٣٤١).

(2) النساء / ١١٢.

تكون من قِبَلِ العمْد وغير العمد، والإثم لا يكون إلا من العمْد، فَفَصَلَ جل ثناؤه لذلك بينهما[1].

وقال الراغب الأصفهاني ـ رحمه الله:

الخطأ: العُدولُ عن الجهة، وذلك أضْرُب:

(أحدها) أن يُريد غَيْرَ مَا تَحْسُنُ إرادتُه ـ أي يريد فعل السَّيِّئ ـ فيفعله، وهذا هو الخطأ التّامّ المأخوذ به الإنسان، يقال: خَطِئَ يخطَأُ خطْأً وخطْأَةً، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[2]. وقال سبحانه وتعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾[4] فكل ما مضى متعمَّد.

(الثاني) أن يُريد ما يَحْسُنُ فعْلُه ـ أي فعل الحسن ـ ولكن يقع منه خلاف ما يريد، فيقال: أَخْطَأَ إخْطَاءً فهو مُخطِئ، وهذا قد أَصَابَ في الإرادة وأخطأ في الفعل، وهذا هو المعنى بقوله ﷺ: (رُفِع عن

(١) تفسير الطبري ـ المجلد الرابع، الجزء الخامس ص ٢٧٤ ط دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) سورة يوسف / ٢٩.

(٣) سورة يوسف / ٢٩.

(٤) سورة نوح / ٢٥.

أُمَّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[1]، وبقوله ﷺ: (إذا حكم الحاكمُ فاجتهد فأصاب فله أجْرَان، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أَجْر)، وفي رواية: (...وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد)[2]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾[3].

(الثالث) أن يُريد مالا يَحْسُنُ فعله ـ هو كالنوع الأول في الإرادة ـ ويَتَّفِقُ منه خلافه ـ أي: يقع الشيء الحسن الذي لم يُرِدْه ولم يقصده ـ فهذا مُخْطِئٌ في الإرادة، ومصيبٌ في الفعل، فهو مذمومٌ بقصْده، وغير محمود على فعله[4].

والمراد معنا من هذه الأضرب الثلاثة، الأول، وهو الخطأ عن عمد، وهو الذنب

---

(١) رواه الطبراني في الكبير عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال الألباني: صحيح بلفظ: وُضِع وهو في صحيح الجامع برقم (٣٥١٥) وفي الإرواء برقم (٨٢).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وأصحاب السنن إلا الترمذي، من حديث عمرو بن العاص وغيره، وهو حديث متواتر المعنى، وهو في صحيح الجامع برقم (٤٩٣) وفي مختصر مسلم (١٠٥٦).

(٣) سورة النساء / ٩٢.

(٤) المفردات للأصفهاني ـ كتاب الخاء ص ١٥١.

فمن رحمة الله تعالى بخلقه، أنه لم يكلّف أحداً بالعصمة المطلقة، لأن هذا ليس في مقدور النفس البشرية، وما جُبلَتْ عليه من نوازع الخير والشرّ، كما قال ربنا العظيم: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[1] فطبيعة الإنسان دائرةٌ بين الخير والشَّرّ، بين جِسْم كَثيف يشدّه إلى الأرض وزينتها، وروح صافية شفَّافَة ترتفع به إلى سماء الهداية ونورها، فالإنسان دائماً بين لمَّتَيْن: لمة من الملك إيعادٌ بالخير وتكذيب بالشرّ، ولمَّةٌ من الشيطان إيعادٌ بالشر وتكذيب بالخير، ومن المعلوم من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، أن الخطيئة التي تُرتكبُ عن عمد، لها أثرها السيّئ وخطرها الكبير على نفس المؤمن وقلبه، وإذا لم يسارع بتطهير نفسه من هذه الخطيئة بالتوبة إلى الله تعالى والتقرُّب إليه بالحسنات، فإنه يكون حينئذ ممن يلقون بأنفسهم إلى التهلكة، وذلك لأن القلب إذا أحاطت به الخطيئات حجبته عن نور ربه، وأوْدَتْ بصاحبه إلى الكفر ثم إلى النار، قال عز ذكره: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[2]. فالذين يتقلبون في الخطيئة في ليلهم ونهارهم، ولا ينتهون عن ذلك ولا يستغفرون ولا يتوبون ولا يتقربون إلى ربهم بما يذهب خطيئاتهم تلك، فهيهات هيهات أن ينجو أحدهم من عذاب الله، ولن يكون لهم إلا النار، روى الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود ﷺ

---

(١) سورة الشمس / ٧ ـ ١٠.

(٢) سورة البقرة / ٨١.

قال: قال رسول الله ﷺ : (إياكم ومحقّرات الذنوب، فإنَّهُنّ يجتمعن على الرجل حتى يُهْلِكْنَه، كرجل كان بأرضٍ فَلاة فحضَر صنيع القوم، فجعل الرجل يجيء بالعُود، حتى جمعوا من ذلك سواداً وأجَّجُوا ناراً فأنضجوا ما فيها)[1].

وروى الإمام أحمد وغيره عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : (إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به خُبْزَهم، وإن محقّرات الذنوب متى يُؤْخَذُ بها صاحبُها تُهْلِكْه)(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : (إن العبد إذا أخطَأ خطيئةً، تكتَبُ في قلبه نُكْتَةً، فإذا هو نَزَعَ واستغفر وتاب صقل قلبه[3]، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الرَّانُ الذي قال الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾[4])[5].

ومما تقدم نرى أن أمر الخطيئة عظيم وخطير، والمؤمن العاقل لا يتركُ نفسه تسبح في المعاصي على هواها حتى تودي به إلى الهلاك الأبديّ، بل إنه كلما غلبته نفسه وألَمَّتْ به خطيئته أو اقترف ذنباً، بادر

(١) صحيح الجامع الصغير (٢٦٨٦) والروض النضير (٣٥١).

(٢) رواه أحمد، والطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان، والضياء، عن سهل بن سعيد، وهو في الروض النضير (٣٥١) والصحيحة (٣٨٩) وصحيح الجامع (٢٦٨٧).

(٣) عاد قلبه صافياً مَجْلُوّاً.

(٤) سورة المطففين / ١٤ ـ ١٦.

(٥) حديث صحيح كما قال الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٥٤).

بالتوبة إلى الله تعالى، وأتبع توبته بالتقرب إلى الله تعالى بالحسنات التي من أفضلها الصدقات، وبهذا يذهب الله تعالى برحمته ومنَّته خطيئته، كما قال ربنا عزَّ وجل: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[1].

وقال ﷺ: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السَّيِّئةَ الحسنة تمْحُها، وخالِق الناس بخلق حسن)[2].

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله: وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة. ثم ذكر عدة أحاديث تؤكد هذا المعنى منها: ما جاء في الصحيحين عن عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه توضَّأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ، وقال: (من توضَّأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه، غُفِر له ما تقدم من ذنبه)[3].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أرأيتُم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يُبْقي من دَرَنِه شيئاً؟) قالوا: لا، يا رسول الله، قال: (وكذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنَّ الذنوب والخطايا)[4].

---

(١) سورة هود / ١١٤.

(٢) حديث حسن، رواه أبوداود وأحمد والترمذي وغيرهم عن أبي ذر، صحيح الجامع برقم (٩٧) وقال الشيخ الألباني (حسن) وهو في الروض النضير برقم (٨٥٥).

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري (١٥٩) وصحيح مسلم (٢٤٥).

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري (٥٢٨) وصحيح مسلم (٦٦٧).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفَّراتٌ ما بينهنّ إذا اجتُنِبت الكبائر)[1].

وروى البخاري عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلَة، فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ فقال الرجل: أليَ هذا يا رسول الله؟ قال: (لجميع أُمَّتي كلهم)[2]،[3].

هذا، ومعلوم أن الصدقات الخالصة لله تعالى من أفضل الحَسَنَات، ولقد أشهدتنا السنة المباركة الصحيحة، أحد الثلاثة الذين تخلَّفُوا عن (غزوة تبوك) بدون عذر، وهو كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنه لمَّا تابَ، تاب الله عليه، ونزل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[4]، وذهب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فرأى وجْهَه يبرُقُ من السرور وقال له: (أبْشِرْ بخير يوم مرّ عليك مذ ولدتك أمُّك) فقلت: أمن عِندكَ يا رسول الله؟ قال: (لا، بل من عند الله عز وجل) قال: وكان

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٢٥٦) وبرقم (٤٦٨٧).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير/ ٥ / ٣٥٥ ـ ٣٥٩.

(٤) سورة التوبة / ١١٨.

رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنَّ وَجْهَهُ قطعةُ قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلسْتُ بين يديه قلت: يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخَلِعَ من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (أَمْسِكْ عليك بعْض مالك فهو خير لك) فقلت: إني أُمْسِكَ سَهْمي الذي بخيْبر[1].

إن كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رأى ببصيرة المؤمن أن الصدقة في سبيل الله تعالى، هي خيْر ما يقدمه بين يَدَيْ توبته، لما لها من الأثر العظيم في مغفرة الذنوب وتكفير السيئات، ولذلك كان أول شيء يتقرب به إلى مولاه الذي تاب عليه وكرمه ومن معه بذكرهم بِعَدَدهم في كتابه الكريم، هو الصدقة ومما يَدُلُّ على أن الصدقة تكفر السيئات كذلك، ما رواه أبو داود وابن ماجة عن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: (فرض رسول الله ﷺ زكاة طُهْرَةً للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات)[2].

ففي الحديث دليل على أن الصدقات تكفر السيئات[3]، فيا للصدقات، ويا لبركتها، ويا لكرامتها عند ربنا العلي العظيم.

---

(١) جزء من حديث طويل متفق عليه، رواه البخاري (٨/٨٦، ٩٣) ومسلم (٢٧٦٩).

(٢) حديث حسن، أخرجه أبوداود (١٦٠٩) وابن ماجة (١٨٢٧) وغيرهما بسند حسن.

(٣) سبل السلام، لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق محمد صبحي حلاق، دار ابن الجوزي ـ الرياض ـ الطبعة السابعة ١٤٢٧هـ.

ثالثاً: (الصدقة تحمي العِرْضَ وتَذُبُّ عن الشَّرَف):

روى الخطيب البغدادي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (ذُبُّوا عن أَعْرَاضكم بأَمْوالكم)[1].

وقد أوردهُ الإمام أبوالعباس بن حجر الهيثمي ـ رحمه الله ـ في الباب الثاني فيما جاء في السخاء والصدقة برقم ٧٦.[2] فقد فهم الإمام الهيثمي من نص الحديث الشريف، أن المراد من الأموال التي تدافع عن العرض، هي أموال الصدقة في سبيل الله تعالى، وإن كان لفظ (بأموالكم) عام في الصدقة وغيرها.

فَمِنْ عَطاءات الصدقة المباركة الخالصة لوجه الله تعالى، أنها تحمي العِرْض وتَذُبُّ عن الشرف، ومن المعلوم الثابت أن العِرْض والشرف والكرامة عند المؤمن، شيء عظيم له وزنه واعتباره وقيمته العالية التي لا تقدّر بثمن، ولا يُعادلُهَا كل كنوز الأرض، ويُطْلَقُ العِرْض في اللغة على البَدَن والنفس وما يُمْدَحُ ويُذَمُّ من الإنسان، سواء كان في نفسه أو سلفه من آبائه وأجداده، والمسلم دائمُ الاهتمام بالمحافظة على عِرْضِه، بل إنه ليبْذُل نفسه وما له مختاراً في سبيل الدفاع عن

(١) حديث صحيح، رواه الخطيب البغدادي عن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ورواه ابن لال عن عائشة ـ رضي الله عنها، وهو في الصحيحة برقم (١٤٦١): السَّهْمي، وفي صحيح الجامع برقم (٣٤٢٦) ورمز له الشيخ الألباني بالصحة (صحيح).

(٢) في كتابه (الإنافة فيما جاء في الصدقة والضيافة) ط مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م ص ٩٣.

عرضه وأهله، وهذا أمر مؤكد عند كل عباد الله المؤمنين، ولما كان حفظ العرض والنسل له هذه المكانة.. فقد حذَّر الإسلام العظيم من تلويث الأعراض، واتهام الأبرياء، وتوعَّدَ فاعله بالعقاب والعذاب: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[2]، وقال جل شأنه: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾[3]، وقال عز ذكره: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾[4]، وقال جل ثناؤه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾[5]، قال الإمام ابن كثير: هذه الآية الكريمة فيها بيانُ حكْم جَلْد القَاذف للمحْصَنَة، وهي الحرّة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلا فكذلك يُجلَدُ قَاذفُه أيضاً، وليس في هذا نزاع بين العلماء، فأما إن أقام القاذف بيّنة على صحة ما قاله، رُدَّ عنه الحدّ، ولهذا قال تعالى: (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً، وأولئك

---

(١) سورة النور / ٢٣.

(٢) سورة النور / ١٩.

(٣) (سورة النور / ١٥.

(٤) سورة الأحزاب / ٥٨.

(٥) سورة النور / ٤.

هم الفاسقون)، فأوْجب على القاذف إذا لم يُقِمْ بيّنَةً على صحة ما قاله ثلاثة أحكام: (أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة. (الثاني) أنه تُرَدُّ شهادته. (الثالث) أن يكون فاسقا ليْسَ بعدْل، لا عند الله ولا عند الناس[1].

وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥ ﴾[2] يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي: فالتوبة في هذا الموْضع أن يُكَذِّبَ القاذفُ نفسه، ويقرّ أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه أن يكذب نفسه، حيث لم يأت بأربعة شهداء، فإذا تاب القاذف وأصلَح عمله وبدَّل إساءته إحساناً، زال عنه الفِسْق، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح[3].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (اجْتَنِبُوا السبع الموبقات[4]: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[5].

فقذف المحصنات المؤمنات وكذا قذف المحْصَنِينَ المؤمنين، كبيرة من الكبائر السبع، والتي توجب حد القذف - كما سبق - والقذف: رَمْيُ

---

(١) تفسير ابن كثير / م ٤ الجزء ٦ من ١٥ ـ ١٤.

(٢) سورة النور / ٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن / ٣ ـ ٣٥٤ ـ ٣٥٥، وانظر تفصيل الأقوال في هذه الآية الكريمة والتي قبلها في تفسير القرطبي م١٢ من ص ١٧١ ـ ١٨٢، ذكر - رحمه الله - ستا وعشرين مسألة في الموضوع.

(٤) الموبقات: المهلكات، قال ابن عباس في قوله تعالى: (وجعلنا بينهم موبقا) قال: مهلكا [الكهف / ٥٢].

(٥) متفق عليه، البخاري (١٩٣/٢) ومسلم (٦٤/١) وأبوداود (٢٨٧٤) وغيرهم.

المؤمِنَةِ المحْصَنَة، أو المؤمن المحصن بالزنا.

وتأكيداً لصيانة المجتمع وحماية الأعراض من أن يُعتدى عليها، فقد قَرَّرَ الإسلام عقوبة (الزنا) الذي حرمه الله تعالى من كل الوجوه، فقال جل شأنه: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

يقول الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله: وبَيْنَ قَتْل الأولاد ـ في الآية السابقة ـ والزنا صِلَةٌ ومناسَبَةٌ، وقد تَوَسَّطَ النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس، لذات الصلة وذات المناسبة، إن في الزنا قتلاً من نواحي شتّى، إنه قتلٌ ابتداءً، لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها، يتبعه غالباً الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين، قبل أن يتخلَّقَ أو بعد أن يتخلَّقَ، قبل مَوْلده أو بعد مولده، فإذا تُرك الجنين للحياة، تُرِكَ في الغالب لحياة شرِّيرة، أو حياة مَهِينَة، فهي حياة مضيعة في المجتمع على نحو من الأنحاء...، وهو قتل في صورة أخرى، قَتْلٌ للجماعة التي يفْشَوا فيها، فتَضيع الأنْسَابُ وتختلط الدماء، وتذهب الثقة في العِرْض والولد، وتتحَلَّلُ الجماعة وتَتَفَكَّكُ رَوَابِطها، فتنتهي إلى ما يشبه الموْت بين الجماعات...، وهو قتل للجماعة من جانب آخر، إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجيّة نافلةً لا ضرورة لها، ويجعل الأسرة تَبَعَةً لا داعى إليها، والأسرة هي المحضَنُ الصالح للفراخ الناشئة، لا تَصِحُّ فِطْرَتُها ولا تَسْلَم تربيتُها

(١) سورة الإسراء / ٢٢.

إلا فيه، وما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى انحلال، ثم قال: والقرآن يحذّر من مجرد مقاربة الزنا، وهي مبالغة في التحرُّزِ، لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرّزُ من المقاربة أضمن، فعنْد المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان[1].

قال ابن الهمام: في الزنا ضياع الذرّية وإماتَتِهَا مَعْنىً، بسبب اشتباه النَّسَب[2].

---

(١) تفسير الظلال / ٤ / ٢٢٢٣ ـ ٢٢٢٤.

(٢) مرقاة المفاتيح / ٧ / ١١٣.

رابعاً: (صدقة السِّرِّ تُطْفِئ غضب الرب - سبحانه-)

وهذه عجيبة سامية من عجائب الصدقات، ومنَّة غَالِيَة من مِنَن الرحمن الرحيم، على عباده المتصدقين، فليس هناك أشد على المخلوق من أن يغضب عليه خالقُه، هنالك يكون خسران الأولى والآخرة، وذلك هو الخسران العظيم.

معنى (الغضب)

قال الراغب الأصفهاني: الغضب: ثورانُ دم القلبِ إرادةَ الانتقام، وإذا وُصف الله تعالى به، فالمراد به الانتقام دون غيره، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾[(١)]، قوله: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ أي: تَردَّى وهَلَكَ، وخاب وخسر، لأنه عُدِمَ الرضا والإحسان، وحلَّ عليه الغضب والخسران[(٢)]، فغضب الله تعالى معناه: إرادة العقوبة، فهو صفة ذات، وإرادة الله تعالى صفة من صفات ذاته تعالى[(٣)].

وغضب الله تعالى على عبده يتضمّن أمرين: (الأول) يتعلق بالجزاء المترتب على الغضب الذي يوجب غاية العذاب والهوان. (الثاني) السبب الذي بحدوثه استحق العبد غضب الجبار سبحانه، ومعلوم أن الله تعالى أرأف وأرحم وأكرم من أن يغضب على عبد من

---

(١) سورة طه / ٨١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن / ٣ / ٢١٨.

(٣) انظر: تفسير الطبري / ١ / ٨٠.

عباده بلا ذنب يستوجب غضبه جل شأنه، فإن الله تعالى لا يظلم أحداً، قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ٤٠﴾[1]، وإذا غضب الجبار على أحد من خلقه ـ أعاذنا الله تعالى من ذلك ـ فمعنى ذلك أن المغضوب عليه مطرود من رحمة الله تعالى، محروم من مغفرته، بعيد عن الجنة، وَاقِعٌ في النار.

فهل هناك من عمل يطفئ غضب الرب ـ سبحانه ـ ويرفعه عنه؟

والإجابة، نعم، فإن الله تعالى وهو الرحمن الرحيم، والحليم الكريم، والغفور الشكور، قد جعل في صدقة السّرّ التي يتقرب بها العبد إلى مولاه، لا يريد بها إلا وجهه وعفوه، جعل فيها ما يطفئ غضبه تعالى، فيرفعه عن عبده وينزل عليه رحمته ومغفرته، ودليل هذا ما رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : صنائع المعروف تَقِي مصارع السوء، وصدقة السِّرِّ تُطفِئُ غضب الرب)[2].

وروى الترمذي وابن حِبَّانَ في صحيحه عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : (إن الصدقَة لتُطْفِئُ غضب الربّ، وتدفع ميتة السوء)[3].

---

(١) سورة النساء / ٤٠.

(٢) حديث صحيح، رواه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة، وهو في صحيح الجامع (٣٧٩٧) وفي صحيح الترغيب (٨٨٠).

(٣) أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحه عن أنس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وحَسَّنَه الألباني في صحيح الترغيب

فتبارك الله ذو الجلال والإكرام، الذي كتب على نفسه الرحمة، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ ﴾[1]، وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ ﴾ أي: أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان، وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قيل: هذا من جملة ما أمره الله سبحانه بإبلاغه إلى أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم، تبشيراً بِسَعَة مغفرة الله تعالى وعظيم رحمته[2].

روى الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إن الله تعالى لما خلق الخلق، كتب بيده على نفسه: إنَّ رَحْمَتي تغلب غضبي)[3].

وقد علَّمَنا رسول الرحمة ﷺ أن ندعُو الله ربَّنَا قائلين: (اللهم إنا نعوذ برضاك من سَخَطِك، وبمعافاتك من عقوبتك، ونعوذ بك منك، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)[4]، ولفظ النسائي: (أعوذ بعفوك من عقابك، وأعوذ برضاكَ مِن سَخَطِك، وأعوذ بك

والترهيب (٨٧٦).

(١) سورة الأنعام / ٥٤.

(٢) فتح القدير / ٢ / ١٢٥.

(٣) حديث صحيح، رواه الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة، وهو في الصحيحة برقم (١٦٢٩) وفي صحيح الجامع الصغير برقم (١٨٠٣).

(٤) رواه مسلم والترمذي والنسائي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهو في صحيح أبي داود (٨٢٣) وفي صحيح الجامع الصغير (١٢٨٠).

منك)[1].

فاللهم إنا نعوذ برحمتك من غضَبك، ونلْجَأُ إليكَ مِنْك، فإنه لا ملجَأ منْكَ إلا إليْك.

الغضب عند الناس:

شاع في الأمة داء خطير، ومرضٌ مهلك، يثير النفوس ويقلّب القلوب، ويخرج الإنسان عن عقله وصوابه، ويدفع به نحو الهاوية السحيقة، هنالك تنشأ الأفعال المحرمة، والأقوال المجرّمَة، ويكون القتل، والضرب، والتنازع، والخصام، كما يكون الطلاق، والفراق، وتفكيك الأسر وخراب البيوت، كما تعلو أصوات القذْف، والسَّبّ، والفُحْش، وكلمات الكفر بالله العظيم، أتدرون ما هذا الداء؟ وما هذا المرض؟ إنه داء ومرض الغضب البغيض.

تعريف الغضب عند الناس:

الغضب عند الناس هو: غليان دَمِ القلب طلبا لدفع المؤْذِى عنه، خشية وقوعه، فأوّلُه غليان دم القلب، وغايتُه إرادة إيصال الضرر إلى المغضوب عليه[2].

فالغضب شعلة نار اقْتُبِسَتْ من نار الله الموقدة، التي تطّلِع على الأفئدة، وإنها لَمُسْتَكِنَّةٌ في طيّ الفؤاد، اسْتِكْنانَ الجمْر تَحْتَ الرَّمَادِ، ويستخرجها الغضب كاستخراج الحَجِر النَّارَ من الحديد، وقد انكشف

(١) صحيح النسائي (٥٥٤٩).

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي / ١ / ٢٦٥.

للناظرين بنور اليقين، أن الإنسان ينزع منه عِرْقٌ إلى الشيطان اللعين، فَمن اسْتَفَزَّته نارُ الغضب فقد قَويَتْ فيه قرابة الشيطان[1]، حيث قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾[2]، ولهذا فإن الغضب يُحْدثُ هَيجَاناً حَادّاً عند الإنسان، ينتج عنه احمرار في الوجه، وخفقَانٌ في القلب، وزيادة في النَّبْض، وتتابُع في الأنفاس، إنه تَحَوُّلٌ عجيب يُخْرِجُ الإنسان عن طوْره، فينقلِبُ إلى شكل مخيف، تأباه النفوس، وتكرهه القلوب وأشمل وصف لحالة الغضب تلك، هي قوله ﷺ : (...ألا وإنَّ الغضَبَ جَمْرَةٌ في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حُمْرَةِ عينيْه، وانتِفَاخ أوْدَاجِه...)[3].

وعن سليمان بن صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اسْتَبَّ[4] رجلان عند ـ النبي ﷺ ، فجعل أحدهما يغضب ويحمرُّ وجهُه وتنتفِخَ أوْدَاجُه، فنظر إليه النبي ﷺ فقال: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ذا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فقام إلى الرجل رجلٌ مِمَّن سمع النبي ﷺ فقال: هل تدري ما قال رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال: لا، قال: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ذا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فقال له

---

(١) صحيح وصايا الرسول ﷺ لسعد يوسف أبو عزيز ط المكتبة التوفيقية ـ القاهرة ـ الحسين ـ أمام الباب الأخضر.

(٢) سورة الأعراف / ١٢.

(٣) دروس العام لعبد الملك القاسم ـ دار القاسم للنشر ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م ـ ص٥١٤.

(٤) استبَّ رجلان: شَتَمَ كل منهما صاحبه.

الرجل: أمجْنُوناً تراني؟[1].

فانظر أيها المسلم كيف أخرجه غضبه عن أَسْمَى شيء وهو طاعة رسول الله ﷺ فيما قال، فعصى الرسول، ورد قول الصحابيّ الناصح له، فارتكب المعصية بعد المعصية بسبب الغضب، ثم انظر إلى وصف آخر لحالة الغضب، حيث يروى أبوداود والترمذي والنسائي في الكبرى عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: استَبَّ رجلان عند النبي ﷺ ، فغضب أحدهما غضَباً شديداً، حتى خُيّلَ إليَّ أنّ أنْفَهُ يتَمَزَّع من شدة غضبه، فقال النبي ﷺ : (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهبَ عنه ما يجد من الغضب) فقال: ما هي يا رسول الله؟ قال: تقول: (اللهم إني أعوذُ بك من الشيطان الرجيم) قال: فَجَعَل معاذٌ يأمره، فأَبَى وضحِك، وجعل يزدادُ غضباً[2].

إن الغضَب قد مَكَّنَ إبليس اللعين منه، فجعل لا يلتفت إلى كلام معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وما ازداد إلا غَضَبَاً على غضب، فالأمر كما قال مجاهد ـ رحمه الله: قال إبليس: ما أعجَزَني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث:

١ ـ إذا سكَرَ أحدُهم أخَذْنا بخُزامته فقدْناه حيث شئنا، وعَمِلَ لنا بما أحببنا [أي: من كل شر وكفر ومعصية].

٢ ـ وإذا غَضِبَ قال بما لا يعلم، وعمل بما يندم.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٦٠٤٨) ومسلم (٢٦١٠) ومعنى (آنفاً): أي: سَابقاً.

(٢) حديث حسن، رواه أبو داود (٤٧٨٠) والترمذي (٣٤٥٢) والنسائي في الكبرى و(خُيِّلَ): مُثِّلَ، و(يَتَمَزَّع) يتشقّقُ ويتقَطَّعُ.

٣ ـ ونُبَخِّلُهُ بما في يديه، ونُمَنِّيهِ بما لا يقدرُ عليه[١].

فالغَضَبُ يُفْرِح الشيطان ويقعده، فعن سعيد بن المسَيِّب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه، وَقَعَ رجلٌ بأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فآذاه ـ أي شَتَمَه ـ فَصَمَتَ عنه أبوبكر، ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبوبكر، ثم آذاه الثالثة فانتصر أبوبكر ـ أي رَدَّ عليه ـ فقام رسول الله ﷺ ، فقال أبوبكر أَوَجَدْتَّ عَلَيَّ يا رسول الله؟ ـ أي أَغَضِبْتَ ـ فقال رسول الله ﷺ : (نَـزَلَ مَلَكٌ من السماء يكذّبُه بما قال لك، فلما انْتَصَرْتَ ـ أي لنفسك ـ ذهبَ الملك وقَعَدَ الشيطان، فلم أكن لأَجْلِسَ إذ قَعَدَ الشيطان)[٢].

أنواع الناس أمام الغضب:

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً صلاة العصر، ثم قام خطيباً، فلم يَـدَعْ شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حَفِظَهُ مَنْ حفظه، ونَسِيَهُ من نَسِيَه، وكان فيما حفظناه يومئذ: (ألا إنّ بني آدم خُلِقُوا على طبقات، ألا وإن منهم، البَطِيءَ الغضب السَّرِيعَ الفَيء، ومنهم سريعُ الغضب سريعُ الفيْء، فتلكَ بتِلْكَ، ألا وإن منهم سريعُ الغضب بطيءُ الفَيْء، ألا وخيرُهم بطيءُ الغضب سريع الفيْء، وشرُّهم سريعُ الغَضَبِ بطيء الفيْء)[٣].

---

(١) صحيح وصايا الرسول ﷺ (أبو عزيز) م ٣ ص ٣٠٢.

(٢) حسن، انظر صحيح سنن أبي داود (٤٠٩٤).

(٣) حديث حسن بشواهده، رواه الترمذي (٢١٩١) وقال: حسن صحيح.

الرسول ﷺ يوصي المؤمن ألا يغْضَب:

ولأن الغضب قد يوقع المسلم فيما لا يحمد عقباه، بل قد يصلُ به إلى الكفر والعياذ بالله تعالى ـ فقد أوصانا الرسول ﷺ ألا نَغْضَب، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أَوْصِنِي، قال: (لا تغْضَبْ)، فَرَدَّدَ مِراراً، قال: (لا تغضب)[1].

ومعنى (لا تغْضَبْ) أي: اجْتَنِبْ أسْبَابَ الغضب.

وعن جَارِيَةَ بْن قُدَامَةَ، أن رجلا قال: يا رسول الله، قُلْ لي قَوْلاً وأَقْلِلْ لعلِّي أَعيه، قال: (لا تغْضب) فأعاد عليه مرارا، كل ذلك يقول: (لا تغضب)[2] و(أَعِيه): أفْهَمُه وأحفظُه.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه سأل رسول الله ﷺ : ما يُبَاعِدُني منْ غَضَبِ الله عز وجل؟ قال: (لا تَغْضَبْ)[3].

الغضبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كله:

فعن حميد بن عبدالرحمن، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ، قال: قال رجل: يا رسول الله، أوْصِني، قال: (لا تَغْضَبْ) قال: أي: حميد بن عبدالرحمن ـ ففكرت حين قال رسول الله ﷺ ما قال، فإذا

(١) رواه البخاري في صحيحه (٦١١٦).

(٢) حديث حسن رواه أحمد (٤٨٤/٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٩/٨)، رواه أحمد والطبراني في الأوسط، ورواه في الكبير كذلك، ورجال أحمد رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى (٦٨٣٨) ورجاله رجال الصحيح، ورواه ابن حبان في صحيحه (٥٦٦٠).

(٣) حديث حسن، رواه أحمد (١٧٥/٢) وقال الهيْثَمي في مجمع الزوائد (٦٩/٨) رواه أحمد وفيه ابن لهيعة، وهو ليّن الحديث، وبقية رجاله ثقاة، ورواه ابن حبان (٢٩٦).

الغضب يجْمَعُ الشر كله[1] وهذه حقيقة بيّنة لكل الخلْق، قال عكرمة ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله سبحانه: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾[2]، في حق يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ قال: السَّيِّد الذي لا يغلبه الغضب.

وقال الحسن ـ رحمه الله تعالى: يا بن آدم، كلما غضبتَ وثَبْتَ، ويوشك أن تَثبَ وَثبَةً فتقع في النار. وقال عطاء بن أبي رباح ـ رحمه الله تعالى: ما أبكى العلماء بكاء آخر العمر من غضْبَة يغضبها أحدهم، فتهدم عمل خمسين سنة، أو ستين سنة، أو سبعين سنة، ورُبَّ غضبة قد أقْحمت صاحبها مقْحَماً ما اسْتَقَاله[3].

وقال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لولده الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: احْذَر الغضَب، فإنَّهُ يُسَفِّهُ الحليم، ويطيش العالِم، ويفقد معه العقل، ويظهر معه الجهل.

أضرار الغضب على جسم الإنسان

وكما أن للغضب أضراره الدينية، فله كذلك أضراره البدنيّة، فقد ذكر الطِّبُّ أن الغضب يؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم، والذي قد ينشأ عنه (الشَّلَلُ النِّصفي) والذي ربما أدَّى إلى الوفاة، بالإضافة إلى ما يُسبِّبُه من حالات: الهستريا، والاكتئاب، وانفصام الشخصية،

(١) حديث حسن، رواه أحمد (٣٧٣/٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٩/٨) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) سورة آل عمران / ٣٩.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا.

والانهيار العصبي.. الخ، فالغضب باب من أبواب الجحيم في الأولى قبل الآخرة.

فإذا غضب الرجل، قلَّبَتْهُ الشياطين كما يُقَلِّبُ الصبْيان الكرة

فعن وهب بن منبّه ـ رحمه الله ـ قال:

كان راهب في صَوْمَعَتِه فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع، فجاءه حتى ناداه فقال له: افتح، فلم يُجِبْه، فقال: افتح فإني إن ذهبتُ نَدِمْتَ، فلم يلتفت إليه، فقال: إني أنا المسيح، قال الراهب: وإن كنت المسيح فما أصنع بك، أليس قد أمرْتنا بالعبادة والاجتهاد، ووعدتَّنَا القيامة، فلو جئتنا اليوم بغيره لم نَقْبَلْه منك.

فقال: إني الشيطان وقد أردتُّ أن أضلّك فلم أستطع، فجئتُكَ لتسألني عما شئت فأخبرك.

فقال: ما أريد أن أسألك عن شيء، قال: فولَّى مُدْبراً.

فقال الراهب: ألا تسمع؟ قال: بلى.

قال: أخبْرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟

فقال: الحِدَّة[1]، إن الرجل إذا كان حِدِّيدا، قَلَّبْنَاهُ كما يُقَلِّبُ الصبيان الكرة[2].

---

(١) الحِدَّة: الغضب.

(٢) الإحياء / ٣ / ١٦٥ ـ ١٦٦.

مثال لمن أهلكهم الغضب

آخر ملوك غَسَّان يهلكُه الغضب ويودي به إلى الكفر والخسران

قال أهل السِّيَر: إن جِبلَّةَ بن الأَيْهَم، آخر ملوك بني غسان، حين رَغب في الإسلام أقبل إلى المدينة المنورة، في موكب كبير، عليهم ثياب الوَشْي[1] وهو لابِسٌ تَاجَه، ففرح عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقدومهم.

فلما جاء موسم الحج، خرج جِبلَّةُ للحج مع عمر، فبينما هو يطوفُ بالبيت، إذ وَطئَ على إزاره رجل من فِزَارَة فَحَلَّ الإزار، فلطمه جبلةُ على أنْفِه فهَشَّمَهُ وسال الدَّمُ، فاستعدى الفزاري عليه عمر، فقال عمر لجبلة: ما دعاك لأن تَلْطم الفزاري؟

قال: إنه وَطِئَ إزاري فَحَلَّه.

قال عمر: أما وقد أقْرَرْت، فإمَّا أن تُرْضِيَهُ، وإلا فعل بك مثل ما فعلت به.

قال جبلة: أيصنع هذا، وأنا ملك وهو سوقه؟

قال عمر: لقد سوى الإسلام بينك وبينه، فما تفضله بشيء إلا بِحُسْن العمل.

قال جبلّة: والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية.

---

(١) وَشْيُ الثوْب: علامات وخطوط تظهر على الثوب.

قال عمر: إنه لكذلك[١].

قال جبلة: أَخّرني إلى غدٍ، حتى أفكّر في الأمر يا أمير المؤمنين.

قال عمر: ذلك لك.

فلما كان جُنْحُ الليل خرج جبلة هو وأصحابه، وواصلوا سيرهم حتى دخلوا القُسْطَنْطِينِيَّة على (هِرَقْل) فتنصَّرَ جبلة، وأقام عنده[٢].

وفي ذلك يقول حافظ إبراهيم ـ رحمه الله:

وفي حديث فتى غسان موعظة
لكل ذي نَعْرَةٍ يأْبَى تناسِيها
فما القويُّ قويّاً رغم عِزَّتِه
عند الخصومة والفاروق قاضيها
وما الضَّعِيفُ ضعيفاً بعد حجَّته
وإن تخاصَمَ واليها وراعيها

فانظر أخي القارئ، كيف حمل الكِبْر والغضب والحدّة هذا الأمير على الارتداد والخروج من مِلّة الإسلام، نسأل الله العفو والعافية[٣].

والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن والسنة والتاريخ.

---

(١) أي: أنت كذلك عزيز في الإسلام مادمت على الحق، والظلم والعدوان ليسا من الإسلام.
(٢) سيرة عمر بن الخطاب للأستاذ أحمد التّاجي (٢٣١، ٢٣٢).

(٣) تعليق سعد يوسف أبوعزيز في كتابه (صحيح وصايا الرسول ﷺ) المجلد الثالث ص ٣٠٤.

مَدْحُ الله تعالى ورسوله ﷺ لمن كَظَم غيْظَه وأبْطَلَ غضبه

قال الله تعالى في سورة آل عمران يصف عباده المتقين: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[1]، قال العلامة الشيخ عبدالرحمن السعدي في تفسيره: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذِيَّةٌ تُوجِبُ غيْظَهم ـ وهو امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجِب للانتقام بالقول والفعل ـ هؤلاء لا يعملون بمقْتَضَى الطّباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيْظ، ويصبرونَ عن مقابلة المسيءِ إليهم: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ ﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فِعْل، والعفْوُ أبْلَغُ من الكظْم، لأن العفْو ترك المؤاخذة، مع السّمَاحة عن المسيء، وهذا إنما يكون مِمَّن تحلَّى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممّن تاجَر مع الله، وعفا عن عباد الله، رحمة بهم، وإحسانا إليهم، وكراهة لحصول الشَّرِّ عليهم، وليَعْفُوَ الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[2] ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن، وأعلى، وأجَلّ، وهي الإحسان، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

(١) سورة آل عمران / ١٣٤.

(٢) سورة الشورى / ٤٠.

فالإحسان في عبادة الخالق

فسَّرَها النبي ﷺ بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لمْ تكن تراه فإنه يراك)[1].

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النَّفْع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشّر الديني والدنيوي عنهم... ثم قال: ويدخل في ذلك بَذْلُ النَّدى، وكفّ الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله تعالى وحق عبيده[2].

حكي أن غلاماً لجعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سكب الماء على يديه في الطِّشْتِ، فطار الماء على ثوبه، فنظر إليه جعفر نظرة منكَرَةً، فقال العبد: يا مولاي (والكاظمين الغيظ) قال: كَظَمْتُ غيْظي، فقال الغلام: (والعافين عن الناس) قال له: قد عفوْت عنك، فقال الغلام: (والله يحب المحسنين) فقال: اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى، ولك مني ألف دينار[3].

وقال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ

---

(١) جزء من حديث صحيح مشهور عن الإسلام والإيمان والإحسان... رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برقم (٨) ورواه غيره.

(٢) تيسير الكريم الرحمن / ١ / ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٣) بحر الدموع لابن الجوزي (١٧٣ ـ ١٧٤).

﴿١٩٩﴾[1].

وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾[2].

وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾[6].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾[7] والآيات في ذلك

(١) سورة الأعراف / ١٩٩.

(٢) سورة الحجر / ٨٥.

(٣) سورة النور / ٢٢.

(٤) سورة الشورى /٤٣.

(٥) سورة الشورى / ٤٠.

(٦) سورة آل عمران / ١٥٩.

(٧) سورة فصّلت / ٣٤ ـ ٣٥.

كثيرة معلومة، والتي تدل على أن كظم الغيظ وترك الغضب، والعفو عن المسيء، بل والإحسان إليه، ذلك كله هو الشَّهْد والتِّرياق للنفس، وهو الأجر والثواب والمدح من الله العلي العظيم.

وكم في السنة كذلك من أحاديث شريفة صحيحة تدعو إلا ذلك أيضاً، من ذلك.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: مَا خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرَيْن قطُّ إلا أَخذ أيْسَرهما ما لم يكن إثْماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قطُّ، إلا أن يُنْتَهَكَ حرمةُ الله، فينتقم لله تعالى)[1].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أَمْشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرَانيٌّ غليظ الحاشية، فأَدركه أَعرابيٌّ، فجبذه بردَائه جَبْذَةً[2] شديدة، فنظرتَ إلى صَفْحَة عاتقِ للنبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وقد أَثَّرَت بها حاشية الرّدَاء من شدة جَبْذَته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفتَ إليه، فضحك، ثم أَمَرَ له بعطاء)[3] فانظر أيها المسلم الكريم، رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، سيد الخلق وسيد البشر وسيد النبيين والمرسلين، يُفَعَلُ به هكذا، وهو بإشارة واحدة منهُ يُؤْخذ هذا الأعرابيُّ الجِلْف أَخْذاً شديداً، ولكنَّ محمداً ﷺ يأبى إلا العفو والكرم والإحسان، بل وإجابة طلب هذا المسيء إليه، بل وهو يضحك، فسبحان من وصف خُلُقَهُ

(١) متفق عليه، البخاري (٦ / ٤١٩) ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) الجبْذة: الجذْبَة، والصفحة: الجانب، والعاتق: ما بين العُنق والكتف.

(٣) متفق عليه، البخاري (١٠ / ٢٣٤) ومسلم (١٠٥٧).

بالعظمة والكمال فقال له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[1].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يَحكي نَبِيّاً من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومُه فأدمُوه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[2].

وهكذا كان رسول الله ﷺ في كل حياته، رؤوفا بالناس رحيما بهم، يهديهم ويرشدهم، ويعفو عنهم ويصفح، ويستغفر لهم، ويدعو لهم، وسبحان الله القائل في حقه: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[3].

والصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ هم أول من تأَسَّى بالرسول ﷺ في أخلاقه الكريمة، وفي عفوه وصفحه ومقابلة الإساءة بالإحسان.

فها هو أبو بكر ـ الصديق ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يغضب غضباً شديداً على مِسْطح ابن أثاثه، وهو قريبه ومن فقراء المهاجرين، وكان أبوبكر ينفق عليه، فلما خاض مسطح مَعَ منْ خاض في حق عائشة ـ رضي الله عنها والمبرأة من فوق سبع سماوات ـ في حادثة الإفك، قال أبوبكر: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله قوله

(١) سورة القلم / ٤.

(٢) متفق عليه، البخاري (١٢ / ٢٤٩) ومسلم (١٧٩٢).

(٣) سورة التوبة / ١٢٨.

تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾[1] فقال أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، وأَرجَعَ إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعُها منه أبداً[2]. وكم لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من آيات وآيات في العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة.

وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدخل عليهُ عُيَيْنة بن حصن بن حذيفة، مع ابن أخيه الحرُّ بن قيس، فلما دخلا عليه قال عيينة: هِي يابن الخطاب، فوالله ما تُعْطِينَا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدْل، فغضب عمر حتى هم أن يُوقع به، فقال له الحرّ: يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى لنبيه: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ (١٩٩) ﴾[3] وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل. انفرد بإخراجه البخاري[4].

وكذلك كان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آيات وآيات في العفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان، وكظم الغيظ، وهاهو أبو ذرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَشْتُمُه رجل فيقول له: يا هذا لا تستغرقْ في شَتْمِنَا، ودع للصلح موضعا... فإنّا لا نكافئُ من عَصَى الله فينا بأكبر من أن نطيع الله فيه.

---

(١) سورة النور / ٢٢.

(٢) انظر: تيسير العلي القدير / ٣ / ٢٦٥.

(٣) سورة الأعراف / ١٩٩.

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٦٤٢).

وسئل الأَحنف بن قيس ـ رحمه الله ـ يوما:

نراك عظيم الحِلْم، فَمِمَّنْ تَعَلَّمْتَهُ؟ فأجابهم الأحنف قائلاً:

تعلمته من قيْسِ بنِ عاصم المنقري، كنَّا يوماً في مجلسه نتلقَّى نُصْحَه، ونستمع مِن حِكَمِه، وهو جالس مُحْتَبِياً، وبينما نحن كذلك، إذ أقبل أبناؤه عليه، ومعهم فتى مقتول يتَشَحَّطُ في دمه، وفتى آخر مُكَبَّلٌ بالسلاسل والقيود، فكان المقتول ابن قيْس، والمكبَّل هو قاتله وهو ابن أخيه، فأقبل عليه أبناؤه وقالوا له: قامت مُشَاحَنَةٌ بين هذين، فقتل ابنُ عَمِّنَا أَخَانَا، ولم نفعل به شيئاً إلا بعد رأيك وأمرك، فماذا تأمُرُنا؟

فالتفت إلى القاتل وقال له: يا بن أخي: لماذا فعلت هذه الجريمة الشَّنْعَاء؟ فوالله لقد أثمْت بربك، ورميت نفسك بسهمك، وقتلت ابن عمك، ثم أنشد هذين البيتيْن:

أقول للنفس تأْساءً وتَعْزِيَةً

إحدى يَدَيَّ أصابتْنِي ولم تُرِدِ

كلاهما خلف عن فقد صاحبه

هذا أخي حين أدعوهُ وهذا ولدي

ثم سكت قليلاً وقال لأكبر أبنائه: حُلَّ وثاق ابن عمّك، وافكُكْ قيُودَه عنه، وادْفِنْ أَخاك، وسُقْ إلى أمه مائة ناقة دية ابنها، فإنها

غريبة عَنَّا ـ من قبيلة أخرى ـ قال الأحنف: فوالله ما فَكَّ حَبْوَتَه[1] ولا غَيَّرَ جِلسَتَهُ، ولا قطع حديثه الذي كان يتحدث فيه، فكُنَّا نعجب من حلمه في مواطن الشرور.

ورثاه الشاعر فقال:

فما كان قيس موْته موْت واحد

ولكنه بنيان قوم تهدَّمَا[2]

وأسمع رجلٌ عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلاما... فقال عمر:

أردتَّ أن يَسْتَفِزَّني الشيطان لعزّة السلطان، فأنالُ منك اليوم ما تنالُه مني غداً، فانصرف رحمك الله.

وحُكِيَ أن رجلاً قال لضرار بن القعقاع، والله لو قلت واحدة لسمعت عشراً... فقال له ضرَار، والله لو قلت عشراً لم تسمع واحدة.

وشتم رجل الشعبي الفقيه فقال له الشعبي: إن كنت صادقاً يغفر الله لي، وإن كنت كاذباً يغفر الله لك. والأمثلة في ذلك كثيرة كثيرة[3].

إن أمثال هؤلاء المؤمنين السابقين قد وصفهم الله بقوله تعالى:

---

(١) الحبْوَةُ: الاحْتِبَاء، يقال: حلَّ فلان حَبْوَته. ويقال: احْتَبَى فلان بالثوب: أدَاره على ساقَيْه وظهره وهو جالس. [المعجم الوسيط / ١ / ١٥٤].

(٢) هامش (الحلم) لابن أبي الدنيا ص ٤٤، تحقيق مجدي السيد إبراهيم [عن كتاب: صحيح وصايا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المجلد ٣ ص ٣١١ ـ ٣١٢].

(٣) انظر: وصايا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لطه عبدالله عفيفي ط دار الاعتصام ـ القاهرة ـ المجلد الأول من ص ٤٦٧ ـ ٤٧٧.

﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] أي: قد تخلَّقُوا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيَم، فصار الحِلْمُ لهم سجيّة، وحسن الخلق لهم طبيعة، إنهم كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسيره لقوله تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾[2] قال: الصَّبْرُ عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا عصمهم الله، وخَضَعَ لهم عدوّهم.

البطولة في الناس، ضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب:

إن ضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب، بطولة لا يستطيعها إلا الأشداء أقوياءُ الإرادة، والمؤمنون أقوياء الإيمان، فليس من السَّهْل إذا غضب الإنسان أن يضبط نفسه ويكُفَّ غضبه، وليس من السهل إذا اغتاظ الإنسان أن يضبط نفسه ويكظم غيظه، ويكف عن الانتقام ممَّن أغضبهُ أو غاظَهُ، ولذلك جعل الرسول ﷺ البطولة في الناس ضبط النفس عن الاندفاع بعوامل الغضب، وعرَّفَ الصُّرَعَةَ من الرجال، وهو بَطَلُ المصارعة، بأنه الذي يملك نفسه عند الغضب.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (ليس الشديد

---

(١) سورة الشورى / ٣٧.

(٢) سورة فصلت / ٣٤.

بالصُّرَعَة[1] إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[2].

إن العرَب يطلقون على بطل المصارعة الذي يصارع الناس ويغلبهم كلمة (صُرَعة) بضم الصاد وفتح الراء، ويكبّرون أمره ويعظّمون شأنه، فاستغل الرسول ﷺ إعجاب الناس بالرجل الصُّرَعة وتقديرهم له، ثم حَوَّلهم عنه إلى البطل الحقيقي، وهو الذي يملك نفْسَه عند الغضب، وذلك لأن ملك النفس عند الغضب بطولَةٌ إنسانية فعلاً، تعتمد على العقل وقوّة الإرادة، أما بطولة المصارعة، فهي امْتِيَازٌ جسديٌ يعتمد على قوة العضلات والتدريب الجسدي[3].

---

(١) أي الذي يصرع الناس ويغلبهم، وأمَّا الصُّرْعة بسكون الراء، فهو الضعيف الذي يصْرعُهُ الناس.

(٢) متفق عليه، البخاري (١٠ / ٤٣١) ومسلم (٢٦٠٩) ورواه غيره.

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها ـ حبنكة ـ م ٢ ص ٣٤٣.

العلاجُ الإلَهي والمحمدي للغضب والانتصار عليه ودفعه:

أولاً: الاستعاذة:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]، وقال ﷺ في حقّ من اشتد غضبه: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب) فقال معاذ ﷺ: ما هي يا رسول الله؟ قال: (اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم) [سبق] قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجنّ فإنه لا حيلة فيه إذا وسْوَسَ إلا الاستعاذة بخالقه، الذي سلَّطه عليك، فإذا استعذت بالله والتجأْت إليه كَفَّهُ عنك ورَدَّ كيْده[2].

ثانياً: تنفيذ وصية الرسول ﷺ في ذلك الأمر، حيث قال لمن سأله الوصية: (لا تغضَبْ) وردَّدَها مراراً ـ كما سبق.

ثالثاً: معرفة فضل الله تعالى لمن تجرَّع الغضب وكظم غيظه.

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من جُرْعَةٍ أعظم عند الله من جُرْعَةِ غيْظٍ كَظَمَها عبد ابتغاء وجه الله)[3].

و(**جُرْعَة**): الشُّرْبُ مرّة واحدة، و(**كَظَمَها**): تجرّعها، واحتمل

(١) سورة فصِّلَتْ / ٣٦.

(٢) تفسير ابن كثير / المجلد الرابع ـ الجزء السابع ص ١٨١.

(٣) حديث صحيح، صحيح ابن ماجة (٣٣٧٧) وفي الزوائد: إسناده صحيح، ورواته ثقات.

سببها وصبر عليها.

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: دُلَّني على عمل يُدْخِلُني الجنة؟ قال رسول الله ﷺ: (لا تغضبْ ولك الجنة)[1].

وعن معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (من كَظَمَ غيْظا وهو قادر على أن يُنْفِذَه، دعاه الله سبحانه على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيِّرَه من الحور العين ما شاء)[2].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (... ومن كَظَمَ غيْظَاً ـ ولو شاء أن يمضيهُ أمْضَاه ـ مَلأَ الله قلبَه رضاً يوم القيامة)[3].

وعن أبي كبْشة عُمَر بن سعد الأنْمَارِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ثلاثٌ أقسم عليهنّ وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظُلِمَ عبد مَظْلَمَةً صَبَرَ عليها إلا زاده الله عزاً...الحديث)[4]. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (ما نَقَصَتْ صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عِزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه)[5].

---

(١) حديث حسن، قال الهيْثمي في مجمع الزوائد (٨/٧٠): رواه الطبراني في الكبير والأوْسط، وأحد إسْنَادَي الكبير رجاله ثقات.

(٢) حسن بشواهده، رواه أبوداود (٤٧٧٧) والترمذي (٢٠٢١) وقال: حسن غريب، وابن ماجة (٤١٨٦).

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر، وهو في صحيح الجامع (١٧٦) حسن.

(٤) رواه الترمذي (٢٣٢٦) وأخرجه أحمد (٤/٢٣٠) وهو صحيح.

(٥) رواه مسلم (٢٥٨٨).

رابعاً: الوضوء:

عن أبي وائل القاص قال: دخلنا على عُرْوَةَ بن محمد السَّعْدي، فكلَّمَهُ رجلٌ فأَغضبَه، فقام فتوضَّأ فقال: حدثني أبي عن جدِّي عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ الغضبَ من الشيطان، وإن الشيطان خُلقَ من النار، وإنما تُطْفَأُ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضَّأْ)[1].

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد (٤/٢٢٦)، وأبو داود (٤٧٨٤).

خامساً: الالتصاق بالأرض:

وذلك لأن قُرْب الإنسان من الأرض يذكره ببدَايَته ومنْتَهَاه، فالله تعالى يقول: ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥ ﴾[1].

سادساً: الاضطجاع:

عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا غضب أحدُكم وهو قائم فليجْلِسْ، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فلْيضْطَّجع)[2].

سابعاً: أن يتفكر في الأخبار الواردة في ذم الغضب ومقارنتها بالأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ وثوابه الجزيل. فهذا مما يشجّعُه على كظْم غيظه.

ثامناً: أن يخوّف نفسه بعقاب الله تعالى:

وهو أن يقول: قدرةُ الله عَلَيَّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فعن أبي مسعود البدْرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ أضرب غلاماً لي بالسَّوْط، فسمعتُ صوْتاً من خلفي: (اعلم أبا مسعود) فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذ هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: (اعلم أبا مسعود أن الله عز وجَلَّ أقْدرُ عليك منك على هذا الغلام) فقلت: لا أضرب مَمْلُوكاً بعده أبداً، وفي رواية: فقلت: يا رسول الله هو حُرٌّ لوجه

---

(١) سورة طه / ٥٥.

(٢) حديث صحيح، انظر صحيح سنن أبي داود (٤٠٠٠).

الله تعالى، فقال: (أما لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النار، أو لَمَسَّتْكَ النار)[1].

تاسعاً: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفْق مراد الله تعالى لا على وفْق مُرَادِه، فكيف يقول: مُرَادي أوْلى من مراد الله، ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم.

عاشراً: معرفة أن الغضب من الشيطان، وأن الشيطان يُورِدُ الإنسانَ مواردِ التهلكة.

الحادي عشر: السكوت حال الغضب وحبْسِ اللّسَانِ وإلْجَامه.

قال ﷺ: (اعملوا ويسِّرُوا ولا تُعَسِّروا، وإذا غَضِبْتَ فاسْكُت، وإذا غضبتَ فاسكُتْ، وإذا غضبْتَ فاسكُتْ)[2].

الثاني عشر: أن يتذكر أنه في حالة كظم الغيظ، يكون في مراتِبَ أعلى من غيره، وقد ورد حديث عن الذي يكتم غضبه، وأمر الله تعالى بذلك.

الثالث عشر: أن يتذكر أنه في حالة الغضب قد يظْلِم، ويَتَعَدَّى فيأْثم، وقد قال ﷺ فيما رواه مسلم وأبوداود وابن ماجة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (كل المسلم على المسلم حرَام، مالُه، وعِرْضُهُ، ودمُه، حَسْبُ امْرِءٍ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاه المسلم)[3].

---

(١) صحيح، أخرجه مسلم (٣ / ١٢٨٠، ١٢٨١).

(٢) رواه أحمد في مسنده.

(٣) حديث صحيح، مختصر مسلم (١٧٧٥)، وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (٤٥٠٩)

الرابع عشر: معرفة نتائج الغضب وعواقبه:

وكيف أدَّتْ كلمة في ساعة هَيَجَانٍ إلى فراق الزوجة وحِرْمَان الأولاد، وتضييع الحقوق، والاعتداء على الضعفاء والإخوان.

الخامس عشر: التقرب إلى الله بحسن الخلق مع المؤمنين والتَّجَاوُزِ عن مُسِيئِهِم، فقد قال ﷺ: (إن المؤمن ليُدْرِكُ بحُسْنِ الخُلُقِ درجة القائم الصائم)[1].

السادس عشر: ذكر الله في كل موْطن، خاصة عند حالات الغضب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[2] فإن المسلم بذكر الله عند الغضب يخنس الشيطان، ويُرَدُّ خاسِئاً حسيراً، ولا يستطيع أن ينال منه.

---

(١) حديث صحيح، رواه أبوداود وابن حِبَّان عن عائشة - رضي الله عنها - وهو في المشكاة (٥٠٨٢) وفي صحيح الجامع (١٩٣٢).

(٢) سورة الأعراف / ٢٠١.

الغضب الممدوح والغضب المذموم:

ما سبق عليه الكلام من قبل، فهو من الغضب المذْمُوم شرعاً وعقلاً، لأنه غضب للدنيا وللنفس، ويتسَبَّب فيه الشيطان اللعين.

أما الغضب المحمود:

فهو الغضب لله وفي الله إذا انتهكت محارم الله، كما كان النبي ﷺ يغضب، وذلك كثير في حياته.

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيلَ منه شيء قطُّ فينتَقِمَ من صاحبه، إلا أن يُنْتَهَك شيءٌ من محارم الله، فينتقم لله تعالى)[1].

وعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت: (ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين قطُّ إلى أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تُنْتَهَك حرمة الله، فينتقم لله تعالى)[2].

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾[3].

---

(١) رواه مسلم (٢٣٢٨) وأخرجه أحمد (٦/٣٢، ٢٨١).

(٢) متفق عليه، وسبق في هذا الموضوع.

(٣) سورة الحج / ٣٠.

وحرمات اللّه تعالى، كُلُّ مَالَهُ حُرْمَة وأَمَرَ باحترامه، من عبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، وكالحَرَم، والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها، فتعظيمها يكون إجلالاً بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متثاقل، فأي انتهاك لحرمة من حرمات الله تعالى يُوجب على المؤمن أن يغضب لله تعالى وأن يدافع عن حرماته جل شأنه.

(الباب الثاني)

الفصل السادس

صدقة المسروق

صدقة المسروق

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما من مسلم يَغْرِسُ غرْساً أو يـزْرع زرْعـاً، فيأكل منه إنسانٌ أو طيرٌ أو بهيمة، إلا كانت له صدقة)[1]، وفي رواية مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وما سُرِقَ منه له صدقة)[2]، والشاهد معنا قوله: (وما سُرِق منه له صدقة)، ولفظ (السَّرِقَة) وإن جاء في معرض الحديث عن صدقة الزروع والأشجار، إلا أنه يَتَّسِعُ لكل سرقة، ولكل مسروق، فالعبرة ـ كما هو معلوم ـ بعموم اللفظ لا بخصوص السَّبَب.

والسرقة شرٌّ مستطير، يملأ الأرض شرقاً وغرْباً وشمالاً وجنوباً، وأجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، تنقل لنا ليلاً ونهاراً، أخبار السرقات في العالم من سرقات لبنوك الأموال، وللشركات الكبرى، وللمتاحف العالمية، ولما لا يعد ولا يحصى من أنواع المسروقات، حتى سرقات الأسرار الحربية، والصناعية، والعلمية...إلخ، ويكاد لا يسلم من السرقة أحد، حتى الموظف البسيط العائد من عمله بمرتبه الشهري، قد يُسْرَقُ منه فلا يعود لأهله بشيء منه، فيكون الحزن والهمّ والغمّ، ومن أين ينفق على نفسه وأهله طوال الشهر، والدين الإسلامي العظيم، جاء ليحافظ على الضرورات الخمس: الدِّين،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٣٧/١٠) حديث رقم (٦٠٠٨) ومسلم في صحيحه (١١٨٩/٣) حديث رقم (١٤ ـ ١٥٥٣) والترمذي في السنن (٦٦٦/٣) حديث رقم (١٣٨٢) والدارمي (٣٤٧/٢) حديث رقم (٢٦١٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١١٨٨/٣) حديث رقم (٧ ـ ١٥٥٢).

والنفس، والعقل، والنَّسْل، والمال، ولهذا قالوا: الإسلام جاء لجلْبِ المصالِح وَدَرْءِ المفاسد، ومن أجل هذا كانت التشريعات، ومنها: الحدود، والتعزيرات.

ولقد شدَّدَ الرسول ﷺ على حُرْمة المال فقال في خطبته في حجة الوداع، بعد حمد الله تعالى والثناء عليه: (أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا)[1].

كما قرر القرآن العظيم حدّ القَطْع على من اعتدى على مال الغير بالسرقة فقال: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[2] قال الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ في قوله: (والسارق والسارقة.. الآية) يقول جل ثناؤه: ومن سرق من رجل أو امرأة، فاقطعوا أيها الناس يده، ولذلك رفع السارق والسارقة، لأنهما غير مُعَيَّنَيْن، ولو أريد بذلك سارق وسارقة بأعيانهما، لكان وجه الكلام النَّصْب، وقد روى عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ: (والسارقة والسارقة فاقطعوا أيمانهما) وهذه قراءة شاذة، وإنَّ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه (كتاب الفتن) ومسلم في صحيحه (كتاب الآداب)، والترمذي في السنن برقم (٢١٥٩) وابن ماجة برقم (٣٠٥٥).

(٢) سورة المائدة / ٣٨ ـ ٤٠.

الحكم عند جميع العلماء موافِقاً لها، لابها، بل هو مستفادٌ من دليل آخر[1].

والجمهور على رفع السارق والسارقة على الابتداء، والخبر جملة (فاقطعوا أيديهما) هو ما قاله المبرّد، وضمير الخطاب في هذه الجملة لوُلاة الأمور بقرينة المقام، ووجه ذكر السارقة مع السارق، دفع توهّم أن يكون صيغة التذكير في السارق قيداً، بحيث لا يجرى حدّ السرقة على النساء، وقد كانت العرب لا يقيمون للمرأة وزْنا، فلا يُجْرون عليها الحدود[2].

وقد بدأ الله تعالى بالسارق في هذه الآية قبل السارقة، وفي الزنى بالزانية قبل الزاني: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ﴾[3].

لأن حب المال على الرجال أغْلب، وهم الأقوى على ذلك من النساء، فقدم الرجال في السرقة، وقدم النساء في الزنى، لأن حبّ شهوة الاستمتاع على النساء أغلب[4].

وقد كان قطع يد السارق حُكماً من عهد الجاهليّة، قضى به

---

(١) انظر: تفسير الطبري ط دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ المجلد الرابع ـ الجزء السادس ص ٢٢٨، وانظر تفسير ابن كثير ط دار طيبة ـ الرياض ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ الجزء الثالث (م) ١٠٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ـ الجزء الخامس / ٩٩.

(٣) سورة النور / ٢.

(٤) انظر تفسير الطبري م الرابع ج السادس / ٢٢٨.

الوليدُ بن المغيرة، فأَقرَّه الإسلام كما في الآية، وأول رَجُل قطعت يدُه في الإسلام، الخيار بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف، وأول امرأة قطعة يدها المخزوميَّةُ مُرَّةُ بنتُ سفيان.

وقوله: (جزاءً بما كَسَبَا نكالا من الله، والله عزيز حكيم).

الجزاء: المكافأة على العمل بما يناسب ذلك العمل من خير أو شر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[٢]، والنكال: العقاب الشديد الذي من شأنه أن يصدّ المعاقب عن العود إلى مثل عمله الذي عوقب عليه، وهو مشتقٌ من النكول على الشيء، أي: النكوص عنه والخوف منه[٣]، ففي قوله: (جزاء بما كسبا نكالا من الله)، أي: ذلك القطع، جزاء للسارق بما سرقه، من أموال الناس، (نكالاً من الله) أي تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره، ليرتدع السُّرّاق إذا علموا أنهم سيقطعون إذا سرقوا[٤]، فحكمة مشروعية القطع، الجزاء على السرقة جزاءً يقصد منه الرَّدْع وعدم العوْد، أي: جزاءً ليس بانتقام، ولكنه استصلاح، وضَلَّ من حَسبَ القطع تعْويضاً عن المسروق، فقال من بيتيْنِ ينسبان إلى المعَرِّي[٥]،

(١) سورة النبأ / ٣١ ـ ٣٦.

(٢) سورة الشورى / ٤٠.

(٣) تفسير التحرير والتنوير ـ الجزء الخامس / ١٠١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن الجزء الأول / ٥٢٤.

(٥) والبيتان ليسا في (السقط) ولا في (اللزوميّات).

قال:

يـدٌ بخمس مئين عَسْجَدٍ وُدِيَـتْ

مـا بـالـهـا قـطعـت في ربـع ديـنـار

ونُسِبَ جوابه لِعَلَم الدين السَّخَاوي، قال:

عِـزُّ الأمـانـة أغـلاهـا، وأرخصَها

ذُلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري(١)

فهذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، ففي باب الجنايات نَاسَبَ أن تُعَظَّمَ قيمة اليد بخمسمائة دينار، لِئَلاَّ يُجْنَى عليها، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدْر الذي تُقْطَع به ربْع دينار، لأنها لما كانت أمينة، كانت ثمينة، ولما خَانَتْ هانَتْ.

(والله عزيز حكيم)

أي: فلا يبالي - مع عِزَّته الموجَبة لامتثال أمره - عِزَّةَ منْ دونه، (حكيم) في شرائعه، فَيَخْتَلَّ نظام العالم بمخالفة أمره، إذ فيه نفع عام للخلائق(٢).

(فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم)

---

(١) تفسير التحرير والتنوير - الجزء الخامس / ١٠١.

(٢) تفسير القاسمي - تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ط مؤسسة التاريخ العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، المجلد الثالث / ص ١١٦، ١١٩.

قوله: (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح) السياق يفيد أن المراد بالظلم هنا، السرقة، أي: فمن تاب من بعد سرقته وأصلح أمره[1].

(فإن الله يتوب عليه) أي: يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة، وأكّد الله تعالى عدَالَة حدّ السرقة، وأنه جاء على وفق الحكمة والعدْل والرحمة فقال: (ألم يعلم أن الله له ملك السماوات والأرض، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير) أي: ألم تعلم أيها الرسول، وكُلَّ مُبَلِّغٍ حُكْمَ الله، أن الله تعالى هو المالك لجميع من في السماوات والأرض، وهو المدبّر له، والحاكم فيه الذي لا معقّب لحكمه، وهو الفعال لما يريد، ولا يفعل إلا ما فيه الحكمة والعدْل والرحمة، حتى يتوافر الأمن للفرد والجماعة، وتطمئن النفوس على أموالها، وهي آمنة على البيت والأهل وأماكن العمل، ومن حكمته أنه وضع العقاب للمحاربين المفسدين في الأرض، واللصوص المهدِّدين حرمة المال، وحرّية الإنسان، وأنه يغفر للتائبين من الفريقين، إذا صدقوا في التوبة وأصلحوا أعمالهم، لأن الهدف ليس هو العقاب لذاته، وإنما تحقيق الصلاح ونشر الأمن وإشاعة الطمأنينة، ومن حكمته وعدله أنه يعذّب العصاة تربية وزجراً لهم ولأمثالهم، وتأميناً لمصالح العباد، ومن رحمته أنه يرحم التائبين ويسقط عنهم العقاب، وهو القادر على كل شيء من التعذيب والرحمة، والله أرحم بعباده من أنفسهم، وأشدّ من رحمة الأم بولدها، فهذا العقاب للحِرَابَةِ والسَّرِقَةِ لمصلحتهم

(١) تفسير فتح القدير (الشوكاني) ط دار الوفاء ـ المنصورة (ج م ع) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، المجلد الثاني / ٤٣.

ومصلحة إخوانهم في المجتمع، فلَيْسَ لأحد أن يتباكى على يد عضو في المجتمع، لأن هذا العضو فاسدٌ ضار، يهدم ويخرّب، وليس فيه أمل بخير إذا لم يصلح حاله[1].

إن الشريعة الإسلامية حين قررت عقوبة القطع لم تكن قاسية، وهي الشريعة الوحيدة في العالم، التي لا تعرف القسوة، وما يراه البعض قسوة، إنما هو القوة والحسم اللذان تمتاز بهما الشريعة، يتمثلان في العقوبة، كما يتمثلان في العقيدة، وفي العبادات، وفي الحقوق وفي الواجبات، ولعل لفظ الرحمة ومشتقاته أكثر الألفاظ وروداً في القرآن، وإن الشريعة لتُلْزِم المسلم أن لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يسكن ولا يعمل ولا يتعبد ولا ينام ولا يستيقظ حتى يذكر اسم الله الرحمن الرحيم، فإذا ذكره ذكر الرحمة والتأثر بها في قوله وفعله، والرسول ﷺ يقول: (الراحمون يرحمهم الرحمن) ويقول: (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) فالرحمة أساس من أسس الشريعة الأوّليّة، وشريعة هذا شأنها لا يمكن أن تعرف للقسوة سبيلاً[2].

إن الإسلام العظيم حينما شرع الحدود الزاجرة، شرع إلى جانبها تشريعات تقِي من الوقوع في أعمال تؤدي إلى إقامة الحد،

ففي موضوع حدّ السرقة، شرع تأمين حاجيات الفرد، فإن كان

(١) التفسير المنير د/ وهبة الزحيلي، ط دار الفكر ـ بيروت ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م الجزء السادس ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٢) المرجع السابق / ٦٥٤ ـ ٦٥٦.

عاملا، فرض له من بيت مال المسلمين ما يهيئ له فرص العمل من رأسمال وأدوات، وما يتصل بذلك، فيصبح الفرد بعد زمن قليل منتجاً مسْتغْنِياً عن مساعدة غيره، بل يصبح هو مساعداً غيره في تهيئة فرص العمل، فيكون المجتمع كله متساعداً متضامناً متكافلاً،..

إن الهدف من العقوبة في الإسلام ليس هو تعذيب الجاني، بل الهدف سلامة المجتمع،

ولقد ثبت أن هذه العقوبات التي شرعت في الإسلام، قد أَدَّتْ إلى الغاية المنشودة، وسِجِلُّ التاريخ يتحدث عن ذلك عبر العصور الماضية والحاضرة، فهي إذن الدواء الناجحُ الناجع، بينما نرى القوانين الوضعية في أرْقى الدول، لم تؤد إلى هذه الغاية، وهي سلامة المجتمع وأمنه واستقراره، والأحداث التي تنشرها الصحف اليومية والنشرات والإحصاءات التي تنشر بين حين وآخر، تتحدث عن ذلك بما لا يقبل الشك[1]. حتى أصبح اللصوص وقطاع الطرق يتمتعون بالقوة المؤثرة في كثير من بلدان العالم، فيستولون على أموال الناس بالباطل، ويؤيدون الساسة الذين يتساهلون مع أعمالهم البشعة، بل ويمدونهم بالمال الحرام ليكسبوا الانتخابات، وعصابة (المافيا) الإيطالية من أشهر تلك العصابات التي أصبح لها تأثير بالغ في الكثير من أمور المجتمع، وهي في نفس الوقت تستعصي على كل قانون أو عقاب في كثير من أحوالها.

---

(١) انظر: الفقه المنهجي / ٣ / ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

وإليك ثلاث اعتراضات على حد قطع اليد في السرقة:

الاعتراض الأول: أن العقوبة بقطع يد السارق محض ضرر السارق.

نعى ابن القيم ـ رحمه الله ـ على المتباكين على هؤلاء اللصوص، الذين يقولون: إن القطع شر محض على المقطوع فقال: السارق إذا قُطِعَتْ يده فَقَطْعُهَا شَرٌّ بالنسبة إليه، وخيْرٌ محْض بالنسبة لعموم الناس، لما فيه من حفظ أموالهم ودفع الضرر عنهم.

وقال الأستاذ عبدالكريم زيدان: أما صيرورة المقطوع عالة على المجتمع، فهذا إذا كان صحيحا، فمن الصحيح أيضا أن يقال: إن صيرورة المقطوع عالة على المجتمع، وقد انكَفَّ إجرامه، خَيْر له وللمجتمع من أن يبقى مجرماً سليم اليدين ينال كسبه من السحت والحرام.

الاعتراض الثاني: كيف يكون القطع لمن سرق ثلاثة دراهم دون مختلس ألف دينار أو منتهبها أو غاصبها؟

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الإجابة عن ذلك: هذا من تمام حكمة الشارع، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه، فإنه يَنْقُبُ الدور، ويهْتِكُ الحِرْز، ويكسر القفْل، ولا يمكن لصاحب المتاع الاحتراز بأكثر من ذلك، فلو لم يُشْرَع قطعه لسرق الناس بعضهم بعضا، وعظم الضرر، واشتدت المحنة بسبب السُّرَّاق، بخلاف المنتهب والمختلس، فإن المنتهب

هو الذي يأخذ المال جهرةً بمرأى من الناس، فيمكنهم أن يأخذوا على يديه، ويُخَلِّصُوا حق المظلوم، أو يشهدوا له عند الحاكم، وأما المختلس، فإنه إنما يأخذ المال على حين غفلة من مالكه وغيره، فلا يخلو من نوع تفريط يُمَكِّنُ به المخْتَلِسُ من اخْتِلاسه، وإلا فمع كمال التحفظ والتيَقُّن لا يمكنه الاختلاس، فليس كالسارق، بل هو بالخائِنِ أشبه، وأيضاً، فإن المختلس يأخذ المال من غير حِرْز مثله غالبا، فإنه الذي يقاتلكَ ويختلس متاعك في حال تخليك عنه وغفلتك عن حفظه، وهذا يمكن الاحتراز منه غالباً، فهو كالمنتهب، وأما الغاصب فالأمر فيه ظاهر، وهو أوْلى بعدم القطع من المنتهب، ولكنْ يسُوغُ كَفُّ عدوان هؤلاء بالضرب، والنكال، والسجن الطويل، والعقوبة بأخذ المال.

ومدار الدفع من ابن القيم لهذا الاعتراض هو: توفّر الحِرْز في السرقة، وهو غاية ما يملكه الناس من الاحتراز، مع اختفاء السارق، وهذا المعنى لا يوجد في كل من المنتهب والمختلس، والغاصب، على ما أوضحه ـ رحمه الله.

الاعتراض الثالث: التفاوت بين دية اليد إذا جُنِيَ عليها، فإن ديتها خمسمائة دينار، وبين عقوبتها بالقطع إذا سرق، فإن نصاب السرقة الموجِب للقطع ثلاثة دراهم؟

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في الجواب عن ذلك:

وأما قطع اليد في ربع دينار، وجعل ديتها خمسمائة دينار حفظا لها وصيانة.

وفي التقدير بثلاثة دراهم في القطع حكمة ظاهرة، فإنها كفاية المقتصد في يومه وليلته[1].

هذا ويجب أن يُعْلَم أن سبب اشمئزاز خصوم الإسلام وأعدائه من عقوبة القطع والرجم ـ بالنسبة للزاني المحصن ـ هو كونهم خصوماً للإسلام قبل كل شيء، فلا يريدون أن يحكموا عقولهم في حقيقة هذه الحدود، وأسبابها وأهدافها ونتائجها، ودوافعها وشروطها، إذ أن من المعلوم بَدَاهَةً أن الخِصْم حينما يمارس خصومته، إنما ينطلق من دافع أنه خِصْم، قبل أن ينظر فيما يقتضيه المنطق والحق والتفكير السليم، وإلا لم يكن اسمه خِصْماً، وهذه الحقيقة تجعل النقاش مع أمثال هؤلاء الناس في جزئيَّة من جزئيات الإسلام الذي هم خصومه ـ كجزئية الحدود مثلاً ـ سعيا عابثاً لا طائل من ورائه، ولا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة[2].

وقد قرأت من سنين عديدة، أن وَفْداً أوروبِّياً من العلماء والمفكرين ـ غير المسلمين ـ قدم إلى المملكة العربية السعودية، يجادل العلماء، في أمر الحدود، خاصة حدَّ السرقة وحدّ الزنا، وكان الجدال معهم غير منتج للحق، لأنهم كانوا خصوماً للإسلام ـ وفي نهاية المطاف قال لهم أحد العلماء، إنكم تحكمون الواقع في نظرياتكم، قالوا: بلى، قال: إننا إذا أخذنا عاصمة من عواصمكم كـ(رُوماً) في إيطاليا، أو لندن، في بريطانيا، أو باريس في فرنسا، وتقصَّيْنا ما يحدث خلال يوم وليلة

(١) انظر صحيح فقه السنة (أبو مالك) ٤ / ٩٠ ـ ٩٥.

(٢) الفقه المنهجي / ٣ / ٤٤٠ ـ ٤٤١.

في هذه المدن من السرقات، وما يترتب عليها من أحداث مفجعة، خاصة إذا اشتد الصراع بين السراق وبين حراس الأموال ـ كما يحدث في البنوك ـ فإننا نجد أن العشرات إن لم يكن المئات، قد قُتلوا، وأن العشرات إن لم يكن المئات قد جُرحوا، منهم من فقد ذراعيه، ومنهم من فقد بصره ومنهم من كسرت رجله، ومنهم من كسرت ذراعه، ومنهم، ومنهم.. إلخ.

ولكن انظر في المملكة، فمن قطعت يدهما في خلال عام كامل لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، مع أمن الناس على حياتهم وأموالهم، فأيهما خير للناس، قانون الله أم قانون الخلق؟! ولو أنك سرْت بسيارتك في الصحراء بلا حراسة وسيارتك مليئة بالذهب لما تعرّض لها أحد، على عكس ما عندكم، فإنهم ينصحون الناس بقولهم: حياتك أهم من مالك، فإذا تعرض لك أحد ليأخذ مالك، فاعطه كل شيء وانج بنفسك[1] فأُفحِم الوفد الأوروبي، وانتهى النقاش.

وبعد، أخي المؤمن.. أختي المؤمنة.

تتجلى رحمة الله تعالى ومنته وفضله على عباده، الذين أصابتهم مصيبة السرقة الملعونة، فَيُعْلِمُنَا رسوله محمد ﷺ، أن ما سرق منهم لن يضيع هباء، بل سيكون لهم صدقة مقبولة عند الله تعالى، سواء كان هذا المسروق، زرعا، أو ذهبا أو فضة، أو غير ذلك، وفي ذلك تسلية لهم بالصبر على نقصان المال، فإن أجره بغير حساب[2]. وهذا الصبر

---

(١) هذا الكلام خلاصة ما أذكره عن هذا الموضوع.

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح ـ شرح مشكاة المصابيح، للعلامة محمد بن عبدالله التبريزي، تحقيق الشيخ

على تلك المصيبة يعطيهم الله به خيراً آخر، كما في رواية مسلم عن أبي يحيى صهيب بن سِنَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سَرَّاءُ شكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له)(١).

إضافة إلى أن الهم والغم الذي يصيب المؤمن بسبب سرقة ماله، فهذا أيضاً يرزقه الله به تكفير خطاياه، كما في رواية الشيخين عن أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: (ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ـ تَعَب ـ ولا وصَب ـ مرض ـ ولا هَمّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غمّ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)(٢).

ثم يتوالى فضل الله تعالى على هذا المسلم الذي أصيب بمصيبة فَقْد ماله عن طريق السرقة، فيأجره عليها، ويخلف عليه خيراً منها في الأولى والآخرة، كما جاء في حديث مسلم وغيره عن أم سلمة ـ رضي الله عنهما ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أْجُرْني في مصيبتي واخْلُفْ لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته وأخْلَفَ له خيراً منها)(٣).

جمال عيتاني ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م المجلد الرابع ص ٣٤٨.

(١) رواه مسلم برقم (٢٩٩٩).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٠ / ٩١) ومسلم (٢٥٧٣).

(٣) رواه مسلم في صحيحه عن أم سلمة، وابن ماجة، ورواه أحمد في مسنده عن أم سلمة عن أبي سلمة، وهو في صحيح الجامع برقم (٥٧٦٤) وقال الشيخ الألباني: صحيح.

وهكذا تتوالى العطاءات الإلهية على هذا المسلم، الصابر الراضي بقضاء الله وقدره، الداعي ربه تعالى أن يخلف عليه ما سُرق منه، هنالك تهون المصيبة، وتصبح مِنَّةً من فضل الله تعالى، على من صبر ورضى وشكر، ويرزقه الله بها أنواعاً من العطايا الإلهية الكريمة.

(الباب الثاني)

(الفصل السابع)

صدقات متنوعة

أولاً: صدقة الزروع والأشجار.

ثانياً: صدقة منيحة النّاقَة والشاة والعنز.

ثالثاً: صدقة من أنفق زوجين في سبيل اللّه.

رابعاً : صدقة ظل فسطاط.

خامساً: صدقة الناقة المخطومة.

سادساً: صدقة إفراغُكَ الماء من دلْوِكَ في دَلْوِ أخيك.

أولاً: صدقة الزروع والأشجار:

إن من آيات الله تعالى المبثوثة في كونه العظيم وملكه الواسع والدالة على قدرته وعظمته جل شأنه، آيات الزروع والأشجار، وفي كتاب الله الكريم عشرات الآيات التي تتحدث عن بعض نعم الله تعالى على الإنسان، والمتمثلة في الزروع المختلفة والأشجار المتنوعة، والثمار المتشابهة وغير المتشابهة، من ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[1]، ويصف لنا القرآن العظيم الجنتين في سورة الكهف فيقول: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾[2]، ويصف الحق تبارك وتعالى في سورة المؤمنون شجرة الزيتون التي تخرج من جبل طور سيناء بمصر، وهو جبل المناجاة فيقول: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[3].

وفي الحديث عن نور الله تعالى في سورة النور يقول قيوم السماوات والأرض وما بينهما: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ

(١) سورة الأنعام / ٩٩.

(٢) سورة الكهف / ٣٢، ٣٣.

(٣) سورة المؤمنون / ٢٠.

مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]، فانظر أخا الإسلام الكريم كيف أعلى الحق تعالى الشجرة وكرّمها لتدخل في إطار ضرب المثل بنور الله تعالى، وبالشجرة وصفت الكلمة الطيبة والخبيثة، قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾ ﴾[2].

وبلغ من أمر الشجرة في السنة المطهرة أن رسولنا الحبيب محمد ﷺ قد شبهها بالمسلم، فعن عبدالله بن دينار أنه سمع عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟ قال عبدالله بن عمر فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ فقال: (هي النخلة) قال ـ أي عبدالله بن عمر ـ فذكرت ذلك لعمر ـ ابن الخطاب ـ والده ـ قال: لأن تكون قلت: هي النخلة أحب إليَّ من كذا وكذا)[3]، هذا، ومن الزروع والأشجار يحيا الإنسان والحيوان، قال تعالى: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ

---

(١) سورة النور / ٣٥.

(٢) سورة إبراهيم / ٢٤ ـ ٢٦.

(٣) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن ابن عمر، صحيح الجامع (٢٢١٨) وقال: صحيح.

﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[1].

والأشجار تعتبر الرئة الصحية للبشرية كلها، وفي هذا فائدة حياتية عظيمة لكل إنسان، وكلَّمَا قلّت الأشجار والغابات قل الهواء النقي الذي يتنفسه الإنسان، وفي هذا خطر كبير عليه، ولذلك فإن الدعوة الآن تشتد وتتصاعد من أجل الحفاظ على البيئة الطبيعية وعلى الغابات المنتشرة في شتى أرجاء العالم، خاصة غابات الأمازون، وفوائد الزروع والأشجار فوق أنها حياة للإنسان والحيوان، تكاد لا تحصى ولا تعد، ومن أجل هذا فقد رأينا الاهتمام العظيم في كتاب الله الكريم والسنة المطهرة بالأشجار والزروع وسبحان الذي أنبت الإنسان من الأرض نباتاً، وأخرج منها نباتها بإذن الله إخراجاً، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[2]، وقال جل شأنه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾[3]، إنه بالزروع الأشجار تستمر حياة الإنسان على هذه الأرض، وبدونهما يفقد الإنسان مادة الحياة التي عليها يحيا، كما يفقد الهواء الصالح ليتنفس به، وحينئذ ينتهي به الأمر إلى

---

(١) سورة عبس / ٢٤ ـ ٣٢.

(٢) سورة نوح / ١٧ ـ ١٨.

(٣) سورة الواقعة / ٦٣ ـ ٦٧.

الفناء والعدم، ومما تقدم نرى الأهمية القصوى للزروع والأشجار في استمرار حياة الإنسان على الأرض، ألا وإن عالم النبات عالم واسع عريض، يكاد لا يحصى، وفي كل يوم يكتشف علماء النبات من أسراره وأحواله كل غريب وعجيب، ألا فسبحان الله المنعم الودود القريب، وبين أيدينا الآن كلام من فم الرسول ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، يبشر كل من يغرس شجراً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو حيوان، بالثواب والأجر من المولى العلي الكريم جلَّ وَعَلا، فهاهو الرسول ﷺ يقول: (ما من مسلم يغْرِسُ غَرْساً إلا كان ما أُكِل منه صدقة، وما سُرِق منه له صدقة، ولا يرزؤُه أحد إلا كان له صدقة) وفي رواية لمسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (لا يغرس المسلم غرساً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة)، وفي رواية لمسلم أيضا: (لا يغرس مسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة)[١].

ففي نور هذا الحديث الشريف نشهد تكريم الله تعالى للمسلم وتيسير أبواب الخير له ليحصل على ثواب الصدقة لما زرعه أو غرسه، والمراد بالمسلم الرجل والمرأة، وخرج الكافر فلا يثاب في الآخرة على شيء، سواء كان المسلم حراً أو عبداً مطيعاً أم عاصياً، فلا يغرس غرساً، أي مغروساً، وهو خاص بالشجرة، ولا يزرع زرعاً، أي مزروعاً من أي نوع كان فيأكل منه إنسان، سواء كان ذلك الأكل عن طريق التصدق ـ

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس ـ الصحيحة ٧، وصحيح الجامع (٥٧٥٧) وقال صحيح.

فهذا ثواب آخر غير ثواب التصّدق - أو الهبة أو الإهداء أو حتى بطريق القوة والغصب أو السرقة أو إنقاصه بأي طريق كان، وكذا لا يأكل منه دابة أو تتلفه، والمراد بالدابة كل ما يدب على الأرض، صغرت أم كبرت، وكذا لا يأكل منه طير بوضعه له طواعية، أو التقطه الطير التقاطاً، وكذا لا يأكل منه جِنيٌّ أيضا بدلالة قول الرسول ﷺ في الرواية الثالثة (فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء) فقوله (شيء) يعم كل آكل من إنس أو جن أو غيرهما، ومن واسع رحمة الله تعالى وكرمه، أن صدقة الزرع أو الغرس هذه، تستمر ما بقي الزرق أو الشجر الذي يؤكل من ثماره، أو ينتفع به، وكذا ما تولَّد من الزرع أو الشجرة حتى ولو ظل ذلك إلى يوم القيامة، وهذا بالطبع ممكن في غرس الأشجار، لأن فيها ما يبقى على الأرض - لو ترك وشأنه - مئات السنين، والواقع المشاهد في المشارق والمغارب يؤكد ذلك ويثبته، قال ابن العربي: من سعة كرم الله تعالى أنه يثيب على ما بعد الحياة كما يثيب على ذلك في الحياة، وذلك في ستة: (صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو غرس أو زرع أو الرباط، فللمرابط ثواب عمله إلى يوم القيامة).

هذا ولا يشترط لحصول ثواب الصدقة هنا أن يباشر الزارع أو الغارس العمل بنفسه، بل يدخل في ذلك من استأجر عمالاً للزرع أو الغرس، ثم إن هذه الصدقات تتناول أيضاً من غرس لنفقة نفسه أو عياله، بدليل قوله ﷺ: (فأكل منه إنسان) بل إن ما عجز عنه صاحب الغرس أو الزرع فلم يتمكن من حصاده أو جمعه فله به أيضا صدقة،

قال صاحب (دليل الفاتحين) محمد المكي: والصدقة حاصلة فيما عجز عن جمعه كالسنبل المحجوز عنه بالحصيد فيأكل منه حيوان، فإنه مندرج تحت مدلول الحديث، وهذا حديث آخر فيه دلالة تامة صريحة على أن ثواب الصدقة للغارس ـ أي للشجر ـ يكون لكل ما خرج من ثمر ذلك الشجر، فعن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (ما من رجل يغرس غرسا إلا كتب الله له من الأجر قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغرس)(١) أي سواء أكل أم لم يؤكل كما يدل عليه ظاهر الحديث، ونقل الطيبي عن محي السنة أن رجلاً مَرَّ بأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يغرسُ جَوْزَةً ـ أي صغيرة ـ فقال: أتغرس هذه وأنت شيخ كبير؟ وهذه لا تطعم ـ أي لا تخرج ثمرتها لتطعم ـ إلا في كذا وكذا عاماً؟ فقال أبوالدرداء: ما على أن يكون لي أجرها ويأكل منها غيري، ومهما بلغت البشرية في حثها على غرس الأشجار والمحافظة على البيئة وجمالها وعدم إفسادها، فلا يمكن بحال أن تصل أبداً إلى هذا المستوى العالي السماوي، والذي جاء به الإسلام على يد خير الأنام محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث يقول: (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ـ أي الواحدة من صغار النخل ـ فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل)(٢)، فالحديث الشريف يشهدنا القيامة وقد قامت، وزلزلتها حاضرة ورعبها شديد،

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي أيوب، ورمز له العلامة المناوي (صحـ) قال الإمام المنذري: رواته محتج بهم في الصحيح إلا الليثي، وقال الهيثمي: وفيه عبدالله بن عبدالعزيز الليثي، وثَّقه مالك وسعيد بن منصور وضعَّفه جماعة وبقية رجاله رجال الصحيح، فالمصنف رمز لحسنه. [انظر: فيض القدير / م٥ ص ٤٨٠، حديث رقم (٨٠٣٥)].

(٢) رواه أحمد في مسنده والبخاري في الأدب عن أنس: قال الهيثمي: ورجاله ثقات أثبات.

والأمل في الأكل من ثمر النخلة محال، لكنه العمل وأجره المترتب على غرس النخلة، في هذه اللحظات التي لا توصف لشدتها وهولها، يبقى أثره وثوابه عند الله تعالى).

وقد اختلف العلماء - أكرمهم الله تعالى - في أطيب المكاسب وأفضلها، فقيل: التجارة، وقيل الصنعة باليد، وقيل الزراعة، وهو الصحيح - ذكر ذلك صاحب دليل الفاتحين: ومن بركات وخيرات الأحاديث الشريفة السابقة نجد ما يلي:

أولاً: الإنسان المسلم يثاب على ما يسرق من ماله أو أتلفته دابة أو طائر ونحوهما.

ثانياً: المسلم إذا عمل عملاً مباحاً فانتفع به إنسان أو حيوان أثيب عليه.

ثالثاً: المسلم لو باع زرعه أو غرسه في حياته لآخر فله ثواب أيضاً.

رابعاً: الحث على اقتناء الضِياع، وَفَعَلَهُ كثير من السلف خلافاً لمانعه.

جاء في فيض القدير: ولا يعارضه خبر: (ولا تتخذوا الضيعة)[1] لأنه محمول على الإكثار منها وميل القلب إليها حتى تفضي بصاحبها إلى الركون إلى الدنيا، وأما اتخاذ الكفاية منها فغير قادح، ألا فطوبى لمن زرع أو غرس فأكل من تحت يده إنسان أو جني أو طائر أو حيوان،

---

(١) ونص الحديث: (لا تتخذوا الضَّيْعَةَ فترغبوا في الدنيا)، رواه الترمذي وصححه (٢٣٢٩) وأخرجه أحمد (٢٥٨٩) وصححه ابن حبّان (٢٤٧١) والحاكم (٤/٣٢٢) ووافقه الذهبي.

وهنيئاً وبشرى بالأجر والثواب من الله الكريم، لمن يملأون أرضهم وشوارعهم ودورهم وحدائقهم بالزرع والغرس، فيأكلون ويؤكِلون، ويستمتعون ويؤجَرون، ولقد كنت مدعوا ذات يوم لقضاء بعض الوقت في مزرعة أخ كريم وكانت (بالعبدلي) بالكويت، وهي ما شاء الله مزرعة واسعة فيها من الزروع والأشجار والنخيل والطيور والحيوانات ما فيها، ويقوم الأخ صاحب المزرعة بالإشراف عليها بنفسه، حتى إنه ليقضي غالب أيام الأسبوع ليلا ونهارا بها، وقال لي: إن أبنائي يقولون لي: لا داعي لأن تجهد نفسك بالإشراف على المزرعة وأنت والحمد لله، لديك من الخير الكثير من الله تعالى، ما يكفيك ويغنيك عن ذلك العمل الشاق، لكنني لم أستمع إليهم، فهذا العمل أحبه وأرتاح له وأجد نفسي فيه، قلت له: إنك بِمُواصَلتِك هذا العمل الطيب في مزرعتك، كأنك على نهر جار إليك بالحسنات والمكرمات من الله تعالى، وذكرت له من الكتاب والسنة في ذلك الأمر ما شاء الله تعالى أن أذكره حينئذ، وقلت له انظر في مزرعتك هذه وكم يُخرج الله فيها من زروع وثمار، وكم ينبت الله فيها من أنواع الخضر المختلفة الأشكال والألوان والطعم والمذاق، وكم كبد رطبة من طير وحيوان أو دابة فيها.. وكم.. وكم.. إلخ.

ثم عندك خمسة عشر أسرة يحيون على أعمالهم في تلك المزرعة، وكل ذلك لك أجره، فمن يستطيع أن يحسب لك ذلك الأجر، خاصة إن خلص التوجه وكمل ابتغاء مرضاة الله تعالى ونيل ثوابه، لا يستطيع

ذلك إلا ملائكة الرحمن، فإن لك الأجر حتى في الدابة الصغيرة التي قد لا ترى إلا بالنظر القريب إليها، حين تأكل أو تشرب أو تسكن أو تستظل في مزرعتك إنك والله على خير عظيم، فاثبت عليه ما استطعت، والله يمنّ عليك من فضله الواسع، الخير الوافي في الأولى والثواب العظيم يوم لقاء رب العالمين، فلتحرص أيها المسلم على الزرع والغرس أينما كنت وعلى أي قدر استطعت مهما كان قليلاً، فإن أجره عند الله تعالى كثير، فليكن ذلك في حديقة منزلك، أو حتى في جزء صغير من المنزل إن أمكن، أو حتى في الأواني المخصصة للزرع إن لم توجد أماكن، فهذا عمل طيب يحبه الله تعالى ويثيب عليه، ويكفيك أنك أنشأت زرعاً أو غرست غرساً يسبح الله تعالى، الذي يقول: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾[1].

ويكفيك أنك أنشأت زرعاً وغرست غرساً يسجد لله تعالى، كما قال ربنا العظيم: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ﴿١٨﴾﴾[2].

وفي قوله تعالى: (والنجم والشجر يسجدان) جاء في تفسير الشيخ حسنين محمد مخلوف والمسمى (صفوة البيان لمعاني القرآن):

---

(١) سورة الإسراء / ٤٤.

(٢) سورة الحج / ١٨.

النجم هنا: النبات الذي ينجم أي يظهر ويطلع من الأرض ولا ساق له، والشجر: النبات الذي له ساق وسجودهما، انقيادهما له تعالى فيما يريد بهما طبعاً، كانقياد الساجد لخالقه، ألا فسبحان من سبح بحمده كل شيء وسجد له كل شيء، وخضع له كل مخلوق، وتبارك الله الذي فتح أبواب الخير والثواب والرضا للمسلمين، مما لا يدخل تحت عد أو حصر، فنعم المولى الودود الكريم.

ثانياً: صدقة منيحة النَّاقة والشَّاة والعنز:

كثيراً ما نجد في حيّ من الأحياء أو منطقة من المناطق، خاصة المناطق الريفية الزراعية، أو المناطق الصحراوية التي يسكنها أصحاب الإبل والشاة والماعز، أنّ منهم من وسَّع الله عليه في الرزق فهو يملك من الأنعام الكثير، ومنهم من ضُيِّقَ عليه في الرِّزق، فلا تراه يملك ناقة ولا شاة ولا ماعزاً، والإسلام هو دين الرحمة والمودة والتراحم، وكثيراً ما يحث المسلم ليكون جواداً كريما، باذلا الخير والعون لإخوانه المسلمين رحيماً بهم، يمنحهم العطية تلو الأخرى، تقرُّباً إلى الله تعالى لنيل ثوابه الجزيل، ففي ذلك خير لأهل العطاء والفقراء على السواء، من ذلك منيحة الناقة والشاة والماعز، حيث اعتبر الإسلام ذلك من خير الصدقات المقبولة عند الله تعالى، فعن صدقة منيحة الناقة يروي أبوهريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (نعْم المنِيحةُ اللِّقْحَةُ الصَّفِيُّ منْحَةً، والشاةُ الصَّفِيُّ، تغْدو بإناء وتروح بإناء)[1]، و(المنيحة) النَّاقة، واللَّقْحَةُ: صفةٌ لسَابقتها، أي الملقوحة، وهي ذاتُ اللبن القريبة العهد بالولادة، و(الصَّفِيُّ) صفة ثانية، أي الكثيرة اللبن، وقوله: (تغدو بإناء وتروح بإناء، أي تَحْلِبُ إناء بالغداة وإناء بالعشيّ، أو تغدو بأجر حَلْبها في الغدوّ والرّواح وعن منيحة الناقة أيضا ـ ومنيحة الشاة وبيان قدْر وجزاء كل منهما عند الله تعالى، يروي أبوهريرة ـ أيضاً ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: (خيرُ الصدقة المنيحة، تغدو بأجر وتروح

---

(١) متفق عليه [انظر اللؤلؤ والمرجان ـ الجزء الأول ص ٢١١ برقم (٥٩٩)] وهو في صحيح الجامع (٦٧٧٤).

بأجر، منيحة النّاقَة كعتاقة الأحمر، ومنيحة الشاة كعتاقة الأسود)[1]، ففي هذا الحديث الشريف ـ أيضاً ـ ترغيب عظيم للمسلم القادر ليمنح أخاه المسلم ناقته الحلوب لينتفع بلبنها صباحا ومساءً، ففي ذلك ثواب عظيم للمعْطي، فهي تغدو بأجر وتروح بأجر، والغدوُّ أول النهار، والرواح منه إلى الغروب، والمراد بالأجر هنا، ما تحلبه الناقة من اللبن في الصباح وفي المساء، لأن كل حلْبة فيها منْفعة للمعْطي، ويخبر الحديث الشريف أيضا أن منيحة الناقة هذه تساوي عند الله تعالى عتق عبْد أحمر، وهي أفضل من منيحة الشاة الحلوب التي تُساوي عِتْق عبد أسود، ففي كل منهما ثواب عتق رقبة، تلك التي يعتق الله تعالى بكل عضو منها عضواً من المُعتق لها من النار، فيا له من ثواب عظيم وفضل كريم من رب العالمين لمن ترفَّقَ بجيرانه وإخوانه المحرومين فقدم لهم منيحة الناقة أو منيحة الشاة ليشربوا لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

وأما عن صدقة منيحة العنز، ففي الحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: (أربعون خَصْلة أعلاهُنَّ مِنْحة العنْز، لا يعمل عبد بخصلة منها رجاءَ ثوابها وتصديق موعودها، إلا أدخله الله تعالى بها الجنَّة)[2]، فهذا الحديث الشريف يخبرنا أن منيحة العنز، وهي أنثى المعْز التي تُعَارُ ليُؤخذ لبنُها ثُم تُردُّ على صاحبها، من أفضل الصدقات وأعظم القربات إلى الله تعالى،

(١) رواه مالك في الموطأ ورواه البخاري، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ورواه أبو داود عن ابن عمر، وصحيح الجامع برقم ٨٩١، وقال صحيح.

وأنها فوق أربعين خصلة، كل خصلة منها تدخل صاحبها الجنة، وإن الجنة والله لثواب عظيم يتمناه كل مسلم ومسلمة، إنه ثواب يرزقه الله تعالى لمن أحبه ورضي عنه وأعدّ له جنات تجري من تحتها الأنهار، في دار الخلود والبقاء.

وتبارك الله الكريم ذو الفضل العظيم، الذي يتقبَّل القليل من عباده المحسنين المتصدقين، ويثيبهم عليه بالعطاء الكثير، رحمة منه وفضلاً، والله واسع عليم.

ثالثاً: صدقة من أنفق زوجين في سبيل الله:

جاء في الفتح الرباني تحت باب فضل الصدقة في سبيل الله، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من أنفق زوجين في سبيل الله دعي من أبواب الجنة)[1]. وعنه أيضا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من أنفق زوجاً أو زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا مسلم هذا خير هلم إليه)[2]. وعن صعصعة بن معاوية عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما من مسلم ينفق من كل مالٍ لهُ زوجين في سبيل الله عز وجل إلا استقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده، قلت: وكيف ذاك؟ قال: إن كانت رجالاً فرجلين وإن كانت إبلاً فبعيرين، وإن كانت بقراً فبقرتين)[3].

وهذه الأحاديث الشريفة المبشرة بالخير العظيم تُعْلِمنا بالخير اليقين على لسان أصدق البشر محمد رسول رب العالمين، بأن من كان لديه مال فأنفق زوجين، يعني اثنين من أي صنف كان من أصناف المال، وقد جاء ذلك مفسراً في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه قال: وكيف ذاك؟ قال: إن كانت رجالاً فرجلين (أي عبدين في سبيل الله تعالى) وإن كانت إبلاً فبعيرين، وإن كانت بقراً فبقرتين، فجزاء من فعل ذلك أنه يدعى من قبل خزنة الجنة إلى ما عنده مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر، ألا فنعم المولى المنعم الكريم.

---

(١) متفق عليه، وهو في صحيح الجامع (٦١٠٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، رواه أحمد في مسنده والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم عن أبي ذر، وصحيح الجامع برقم (٥٧٧٤) وقال صحيح.

(٣) رواه النسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرك.

رابعاً: صدقة ظلٍّ فسطاط في سبيل الله، أو خدمة خادم، أو طَروقة فحل:

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال ﷺ: (ظِلُّ فُسْطاط في سبيل الله، أو خدْمة خادم في سبيل الله. أو طروقة فحْل في سبيل الله)[1]، والفسطاط، بيت من الشَّعْر والمراد بظل الفُسطاط، أن ينصب خباءً للغُزَاة يستظلُّون فيه، فذلك من أفضل الصدقات عند الله تعالى، لأنَّ في الاستظلال به رحمة للمستظلين، خاصة إذا كان ذلك في وقت اشتداد الحرَّ أو سقوط الأمطار، وهو إسهام طيب لخدمة جند الله تعالى والعمل على راحتهم وتشجيعهم على مواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى، ومشاركة مِمَّن لا يقدر على الجهاد بنفسه.

ومن روح هذا الحديث الشريف نرى الفضل العظيم - أيضاً - لمن يقيم للناس المظلات في الأماكن التي يضطرون إلى الانتظار فيها، كمواقف السيارات ونحوها، هذا، والمراد بخدمة خادم، أن يُعطى الغازي خادما يخدُمه مدَّة الجهاد في سبيل الله تعالى ثم يرده إليه، فذلك عند الله تعالى من أفضل الصدقات كما جاء في الحديث، لأن المجاهد سوف ينتفع بهذا الخادم، انتفاعاً عظيماً، فيتفرغ للجهاد، ومن روح هذا الحديث الشريف أيضاً نرى - والله أعلم - أنه يدخل تحت ذلك بدرجة أقلّ، من يعطي خادمه إلى أخيه المسلم ليخدمه مدَّة ما، كأن يكون

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب. وقال الألباني: حسن، كما في صحيح الترمذي برقم (١٣٢٦).

مريضاً أو مسافراً، فذلك من الصدقات المقبولة بإذن الله تعالى.

وأما طروقة الفحل في سبيل الله، فالمراد بـ (طروقة فَحْل) إعطاء دابة مطروقة، أي بلغتْ أوَانَ طرْق الفحْل، لأنَّ هذا الوقْتَ هُو وقت كمال الانتفاع بها، فذلك العطاء له أجر عظيم، وهو من أفضل الصدقات، لأن نفعه للمعطى كبير وخاصة إذا ظلَّت عند المعْطى لعام أو أكثر، فتَلِدُ فينتفع بلبنها ويستخدمها أيضاً في زراعته.

هذا، وعن الأمور الثلاثة السابقة، ظل الفسطاط، والخادم في سبيل الله تعالى، وطروقة فحل في سبيل الله، يقول صاحب الفتح الرباني، فإن أعطى أحد هذه الأمور الثلاثة على سبيل التَّمْليك أو الحَبْس - أعني الوقْف - إن كان في غنى عن ذلك، فالفضل أعظم.

فلله الحمد الكثير والشكر الجزيل على عطائه الواسع ومدده الذي لا ينفد، والله يحب المحسنين.

خامساً: صدقة الناقة المخطومة في سبيل الله:

عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَيَأْتِيَنَّ أو لتأْتِيَنَّ بسبعمائة ناقة مخطومة)[1]، هذا الحديث الشريف يبين لنا فضل وثواب من تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله عز وجل ليستعين بها الغزاة في حمل أمتعتهم والركوب عليها ونحو ذلك، والناقة المخطومة، أي ذات الخطام، والخطام للبعير أن يؤخذ حبل من ليف أو شعر أو كتان، فيجعل في أحد طرفيه حلقه، ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة، ثم يقلد البعير ثم يثني على مخطمه، وأما الذي يجعل في الأنف دقيقا فهو الزمام، وكون الناقة مخطومة، فيه دلالة على أنها جيدة فالخطام لا يكون إلا للبعير أو الناقة الكبيرة الجيدة، وثواب من تصدق بتلك الناقة المخطومة في سبيل الله ثواب وأجر سبعمائة ناقة، ويحتمل كما هو الأظهر عند الإمام النووي، أن يكون له في الجنة سبعمائة ناقة مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه، كما جاء في خيل الجنة ونجبها، وهذا الثواب موافق لقول الله تعالى في سورة البقرة عن المنفقين أموالهم في سبيل الله: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾[2]، فهنيئاً بهذا الأجر العظيم وما فوقه مما يكرم الله به عبادهُ المتصدقين في سبيل الله حيث يضاعف لهم أجرهم أضعافاً كثيرة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

(١) رواه مسلم في صحيحه والنسائي [انظر الفتح الرباني م٩، ص ١٧٣].

(٢) سورة البقرة / ٢٦١.

سادساً: صدقة إفراغ الماء من دلوك في دلو أخيك:

عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ معروف صدقة، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلْوك في إنائه)[1].

قوله: (وأن تفرغ من دلوك في إنائه).

الدلو: إناء يستقى به من البئر[2] والإناء: الوعاء للطعام والشراب[3] فالدلو وعاءٌ كبير يستقى به من البئر، أما الإناء فوعاء صغير للطعام أو الشراب، والحديث الشريف يصور لنا مسلما في دلوه ماء، وقد التقى بأخيه المسلم الذي ليس عنده ماء ومعه وعاء صغير للشراب، وفي هذه الحالة فإن الإسلام وهو دين الرحمة والعطف والبرّ، يدعو من في دلوه الماء أن يبادر بإفراغ بعض منه في وعاء أخيه، فهذا من المعروف الذي أمر به الإسلام وحث عليه، وهو في نفس الوقت صدقة مقبولة عند الله تعالى، ويزداد الأجر ويتضاعف الثواب إذا كان هذا الإفراغ في الأحوال التي يصعب فيها وجود الماء، كأن يكونا في صحراء، أو في رحلة ما، أو سفر طويل ونحو ذلك، فإن هذا يكون من أعظم الصدقات وأقرب القربات إلى الله تعالى لأن فيه الإبقاء على الحياة، وصدق الله القائل:

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وقال الألباني: صحيح، كما في صحيح الترمذي (١٦٠٥).

(٢) المعجم الوسيط (حرف الدال) م١، ص ٢٩٥.

(٣) المعجم الوسيط (حرف الألف) م١، ص ٣١.

﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ
نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا
فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ
كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة المائدة / ٣٢.

(الباب الثالث)

فضل الصدقة من لحظة الموت إلى دخول الجنة

(الباب الثالث)

فضل الصدقة من لحظة الموت إلى دخول الجنة

ويشتمل على ما يأتي:

أولاً : تصدَّق قبل أن يأتيك الموت.

ثانياً : الصدقة تدفع ميتة السوء.

ثالثاً : الصدقة تحمي صاحبها من فتنة القبر.

رابعاً : الصدقة خيرما يقدمه المسلم لنفسه يوم القيامة.

خامساً: الصدقة تَسْتُرُ صاحبها من النار.

سادساً: الصدقة فِدَاءٌ للنفس من عذاب اللّٰه.

سابعاً: المتصدق لا يخاف ولا يحزن يوم الفزع الأكبر.

ثامناً: الصدقة تنفع الموتى.

تاسعاً: المتصدق في ظل صدقته يوم القيامة.

عاشراً: الصدقة تدخِلُ صاحبها الجنة.

أولاً: تَصَدَّقْ قبل أن يأتيك الموت:

سبحان الله الحي الذي لا يموت، سبحان الله الذي لا يبقى إلا وجهه ولا يدوم إلا ملكه، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ ﴾[1] ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨ ﴾[2] **فتبارك الله الذي تفرَّد بالخلود والبقاء وكتب على عباده الموت والفناء، لتجزى كل نفس بما تسعى،** ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾[3].

إن أكبر واعظ هو الموت، الذي قدره الله تعالى على خلقه، وكتبه على جميع عباده، وانفرد جل جلاله بالبقاء والدوام، فما من مخلوق مهما امتد أجله وطال عمره، إلا والموت نازل به ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ ﴾[4] **ولو جعل الله الخلود لأحد من خلقه، لكان ذلك لأنبيائه المطهرين ورسله المقربين، وكان أولاهم بذلك أصفى أصفيائه وخيرته من خلقه، سيد ولد آدم على الإطلاق، محمد صلوات الله وسلامه عليه، كيف وقد نَعَاهُ إلى نفسه، وأخبره أنه سيموت كسائر الناس، فقال تعالى:** ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ﴾[5] **وقال تعالى:** ﴿ وَمَا

---

(١) سورة الرحمن / ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة القصص / ٨٨.

(٣) سورة الملك / ١، ٢.

(٤) سورة العنكبوت / ٥٧.

(٥) سورة الزمر / ٣٠.

جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[1].

فالموت حَتْمٌ لا محيص عنه ولا مفرّ منه، يصل إلينا في بطون الأودية وعلى رؤوس الجبال، وفوق الهواء وتحت الماء، وبين القلاع المنيعة والحصون المتينة ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾[2]، ولو نجا أحد من الموت لبَسْطَة في جسمه، أو قوّة في بدنه، أو وفْرة في ماله، أو سَعَة في سلطانه وملكه، لنجا من الموت كثير من الناس، ولكن الموت لا يترك مخلوقاً ولا يُبقي حيّاً،... فأين آدم الذي خلقه الله بيده واصطفاه، وجعل الجنة منزله ومثواه؟ وأين نوح الذي وهبه الله عمراً طويلاً، وما نسيه الموتُ وما تخطّاه؟ أين موسى بن عمران الذي كلمه الله على جبل الطور بسيناء وناجاه؟ أين داود الذي ألان له الحديد وبنعمته أرضاه؟ أين سليمان الذي وهبه الله ملكاً لا ينبغي لأحد سواه؟ أين إبراهيم الذي أتمَّ كلمات الله، وكان أُمَّةً وجعله للناس إماماً؟ أين عيسى بن مريم الذي كان يبرئ الأكْمَهَ والأبْرصَ ويُحْيي الموتى بإذن الله؟.. أين الملوك الأكاسرة؟ أين السلاطين الجبابرة؟ أين من تَمَرَّد على الخَلْق وظَلَم؟ أين فرعون؟ أين هامان؟ أين قارون؟ أين فُصَحَاءُ الزمان؟ أين من طَلَبَ فَغَلَب، وحكم ورَسَم؟ هجَم عليهم هادم اللذات، ومفرّق الجماعات، ومُيَتِّمُ البنين والبنات.

---

(١) سورة الأنبياء / ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة النساء / ٧٨.

إن الموت لا يخاف من أحد، ولا يُبْقي أحداً، بل ينْزَع الطفل من حِضْنِ أُمّه، ويهجِم على الشابّ القوي، وعلى الفارس الشجاع البطل، ويأخذ الشيخ الكبير، والفاضل الجليل، والحاكم الأمير، والأديب البليغ، والطيب الماهر، والمخترع البارع، ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[١]، ما أقرب الموت ، كل يوم يَدْنُو مِنَّا ونحن ندْنو منه، وليس بيننا وبينه إلا أن يبْلغ الكتاب أجله، فإذا نحن في عداد الموتى.

إن نسيان الموتِ ضلال مبين وبلاء عظيم، ما نَسيه أحد إلا طغى، وما غفل عنه إنسان إلا غوى، ولذلك فقد كان الرسول ﷺ يأمر أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بألا يغفلوا عن ذكر الموت، ويقول: (أكثروا من ذكر هادم اللّذّات) يعني الموت[٢].

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبي فقال: (كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابِرُ سبيل)، وكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[٣]، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطَّ النبي ﷺ خطوطاً فقال: (هذا الإنسان، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب)[٤].

---

(١) سورة الأعراف / ٣٤.

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة (٢٣٠٨) وقال: حديث حسن، ورواه غيره.

(٣) رواه البخاري (١١/١٩٩) وأخرجه الترمذي (٢٣٣٤).

(٤) البخاري (١١/٢٠٣) وأخرجه الترمذي (٢٣٣٥) وابن ماجة (٤٢٣٢).

ولذلك فقد كان السلف الصالح يكثرون من ذكر الموت حتى في أوقات الصفاء وأيام السرور، وكان ذلك يبعثهم دائماً على الجد في طاعة الله، استعداداً للموت وما بعد الموت، لا يلهيهم شيء عن طاعة الله ومراقبته والخوف منه، ولا يصرفهُم عن الإيمان صارف، وليس لَمَحَبَّة الدنيا سبيل إلى قلوبهم، فهم كما وصفهم ربهم جل جلاله: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[1].

وهناك من الناس من لا يعملون إلا للدنيا الفانية، ولا يتذكرون الآخرة الباقية، يجمعون ولا يشبعون، يَصْرِفُونَ أَموالهم في سبيل الشيطان والشهوات والأهواء، ولا ينفقونها في سبيل الله، منعوا حق السائل والمحروم، ولم يرحموا الجوْعى والبائسين، فبشر هؤلاء بعذاب أليم، وحرمان من الرحمن الرحيم، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون، وتمضي بهم أيام عمرهم وهم في غفلة غافلة، عن كل هدى وصلاح، حتى يأتيهم الموت فجأة، ويأخذهم ربهم أخذ عزيز مقتدر، هنالك يُكْشَفُ عنهم الغطاء، وَيَـرَوْنَ الحق رَأْيَ العين، وأنهم كانوا في ضلال مبين، لاهين بأموالهم وأولادهم عن ذكر الله، فهم اليوم في خسران مبين، الآن، والآن فقط تمنوا لو أنهم أطاعوا الله والرسول، وتمنوا لو أنفقوا في سبيل الله وتصدقوا، وتمنوا لو يُؤَخَّرَ عنهم الموت ويعودون إلى الحياة ليَتصدقوا وليكونوا من عباد

---

(١) سورة النور / ٣٧، ٣٨.

الله الصالحين، ولكن هيهات هيهات، لا عودة لهم ولا رجعة، وليس لهم الآن إلا النَّدَامةَ والحَسْرَة، ويصور لنا القرآن الكريم حالهم هذا عندما يأتيهم الموت فيقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1]، وقد اختلف المفسرون في حق من نزلت هذه الآيات، فمنهم من قال: في حق المؤمنين بدلالة قوله: (يا أيها الذين آمنوا..) ومنهم من قال: نزلت في حق المنافقين، والمعنى: (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله)، أي: عن فرائض الله تعالى نحو الصلاة والزكاة والحج، أو عن طاعة الله تعالى، (ومن يفعل ذلك)، أي: ألهاه ماله وولده عن ذكر الله، (فأولئك هم الخاسرون) أي: في تجارتهم حيث باعوا الشريف الباقي بالخسيس الفاني، (وأنفقوا مما رزقناكم) كما أوجب عليكم ربكم، (من قبل أن يأتي أحدكم الموت)، أي: دلائله وعلاماته، فيسأل الرجعة إلى الدنيا، وهو قوله: (رب لولا أخرتني إلى أجل قريب) أي: هلا أمهلْتني وأخّرت أجلي إلى زمان قليل، وهو الزيادة في أجله حتى يتصدّق ويتزكّى، وهو قوله: (فأصّدّق وأكن من الصالحين) قال ابن عباس - رضي الله عنهما: تصدّقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت، فلا تُقبلُ توبة ولا ينفع عمل. ثم أخبر تعالى بأنه لا يُؤَخَّرُ من انْقَضَتْ

(١) سورة المنافقون / ٩ - ١١.

مُدَّةُ أَجَله فقال: (ولن يؤخر الله نفسا) عن الموت (إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون) أي: لو ردّوا إلى الدنيا ما زكّوا ولا حَجُّوا، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1] [2].

فانظر أيها المسلم الكريم، إلى حال هذا الممسك البخيل المانع حق الله تعالى الواجب في ماله، إنه يتمنى أن يؤخر الله أجله ولو لفترة قصيرة، ليصلح عمله، وأوَّلُه كما جاء على لسانه (فأصَّدَّق...) فلا صلاح ولا نجاة ولا فوز بجنة لشحيح بخيل ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[3].

وقد جاء في السنة المطهرة ما يطلعنا على مثل حال هؤلاء الأشحاء الذين لا يتصدقون ولا ينفقون في سبيل الله تعالى طوال حياتهم، حتى إذا مضى أوان الصدقة وجاءهم الموت قالوا: لفلان كذا، ولفلان كذا، وليس هذا أوان الصدقة، قال ﷺ: إجابة لمن قال له: أي الصدقة أعظم أجراً؟ (أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان كذا)[4]. وعن بشر بن جحاش القرشي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الأنعام / ٢٨.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود / ٢٥٤١٩.

(٣) سورة محمد / ٣٨.

(٤) متفق عليه، البخاري (٣/٢٢٦) ومسلم (١٠٣٢) ورواه غيرهما.

بصق يوما في كفه فوضع عليها أُصْبُعَه ثم قال: قال الله تعالى: (يابن آدم، أنَّى تُعْجِزُني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سوَّيْتُكَ وعدَّلتُك مَشَيْتَ بين بُرْدَيْنِ وللأرض منك وئيد ـ صوت شدة الوطء على الأرض ـ فجمعْت ومنعْت، حتى إذا بلغت التَّراقِي ـ أي: بلغت الروح العظام التي بين ثَغْرَةِ النَّحْر والعاتق ـ قلت: أتصدق، وأنَّى أوانُ الصدقة؟)[1].

فبادر بالصدقة أيها المؤمن الكريم، قبل أن يأتي يوم لا ريب فيه، يَوْمٌ لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾[3].

وقال عز ذكره في سورة الشعراء على لسان إبراهيم ـ عليه السلام: ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾[4].

اللهم اجعلنا بمنتك وفضلك ممن أتى الله بقلب سليم، آمين.

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد في مسنده (٤/٢١٠) وابن ماجة (٢٧٠٧) والحاكم (٢/٥٠٢) وحسنه الشيخ مصطفى العدوي في الأحاديث القدسية (٢٤) كما حسنه الدكتور عبدالعلي عبدالحميد في (شعب الإيمان) / ٧ / ٨٥.

(٢) سورة البقرة / ٢٥٤.

(٣) سورة إبراهيم / ٣١.

(٤) سورة الشعراء / ٨٧ ـ ٨٩.

ثانياً: الصدقة تدفع مِيتَةَ السُّوء وتَقي مَصَارعه

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (إن الصدقة لتطفئ غضب الرّبّ وتدفع ميتة السوء)[1].

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السِّرِّ تطفئُ غضب الرب)[2]، وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (صدقة السّرّ تطفئُ غضب الربّ، وصلةُ الرحم تزيد في العمر، وفعلُ المعْروف يقِي مصَارع السّوء)[3].

قوله: (وتدفع ميتة السوء)، قال الحافظ العراقي: الظاهر أن مراده ما استعاذ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كهدْم، وَتَرَدٍّ، وغَرْق، وحَرْق، وتَخَبُّطِ الشيطان عند الموت، أو موت الفجاءة، أو الشُّهْرَة، كالمصْلوب[4].

ومِمَّا لا شك فيه أن الصدقة الخالصة لوجه الله تعالى، من أفضل أنواع المعروف، الذي يقدمه المسلم لأخيه، وكذلك فكل معروف صدقة، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كل معروف صدقة)[5]،

(١) أخرجه الترمذي برقم ٦٤٤ سنن الترمذي تحقيق د مصطفى الذهبي الجزء الثالث ص ٣٣، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وأخرجه القضاعي، عن أبي هريرة بلفظ: (الصدقة تمنع ميتة السوء).

(٢) رواه الطبراني عن أبي أمامة، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٧٦).

(٣) حديث صحيح، رواه البيهقي في شعب الإيمان، وهو في صحيح الجامع الصغير برقم (٣٧٦٠) وقال الألباني: صحيح.

(٤) سنن الترمذي تحقيق د مصطفى الذهبي الجزء الثالث ص ٣٣، مكتبة المعارف ـ الرياض، الطبعة الأولى للطبعة الجديدة ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم (٦٠٢١) ومسلم برقم (١٠٠٥) والترمذي برقم (١٩٧٠) وابن

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (كل معروف صدقة، والدال على الخير كفاعله...)[1].

والأحاديث الثلاثة الأُوَل تتحدث عن فضل الصدقة، كصدقة، وعن فَضْلِهَا كَكَوْنٍ عَالٍ من ألوان المعروف، وأنها تَحُول بين صاحبها وبين خاتمة السوء، والعياذ بالله تعالى ـ عند الموت.

الموتُ نهايةُ كل مخلوق:

قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾[3]، وقال جل شأنه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[4]، والآيات في ذلك كثيرة.

حبان برقم (٣٣٧٩) ورواه الإمام أحمد عن جابر، وعن حذيفة، وهو في مختصر مسلم برقم (٥٤٤) وفي الروض (٢٣١) وفي صحيح الجامع الصغير برقم (٤٥٥٥).

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، وهو في الصحيحة برقم (١٦٦٠) وفي صحيح الجامع الصغير برقم (٤٥٥٦).

(٢) سورة آل عمران / ١٨٥.

(٣) سورة لقمان / ٣٤.

(٤) سورة النحل / ٦١.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبِي فقال: (عِشْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيْتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبَحْتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[1].

قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لرياض الصالحين: وقد جاء في معنى قول ابن عمر، حديث مرفوع أخرجه الحاكم (٣٠٦/٤) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه: (اغْتَنِمْ خمْساً قبل خمس: شبابَكَ قبل هرمك، وصحّتك قبل سَقَمِك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك) وإسنادُه حَسَن كما قال الحافظ في الفتح (٢٠١/١١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَطَّ النبي ﷺ خُطُوطاً فقال: (هذا الإنسان، وهذا أَجَلُه، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب)[2].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطَّ النبي ﷺ خَطًّا مُرَبَّعاً، وخطَّ خَطًّا في الوَسطِ خارجاً منه، وَخَطَّ خُطَطاً صِغَاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، فقال: هذا الإنسان، وهذا أجلهُ محيطاً به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارجُ أَمَلَه، وهذه الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاض، فإن أخطأه هذا، نَهَشَهُ هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا)[3].

---

(١) رواه البخاري (١١/١٩٩)، وأخرجه الترمذي (٢٣٣٤).

(٢) رواه البخاري (١١/٢٠٣) والترمذي (٢٣٣٥) وابن ماجة (٤٢٣٢).

(٣) رواه البخاري (١١/٢٠٢) والترمذي (٢٤٥٦) وابن ماجة (٤٢٣١).

وهذه صورته

الأجل					
					الأمل

إن الموت هو نهاية كل مخلوق، مهما امتد أجله وطال عمرُه، فهو كما أخبر القرآن الكريم والسنة المطهرة، حَتْمٌ لا مَحيصَ عنه ولا مفرَّ منه، يصل إلى الخلق أينما وجدوا، ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾[١]، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾[٢]، فسبحان مَنْ تفرَّدَ بالخلود والبقاء ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴾[٣]، وكتب على عباده الموت والفناء، لتجزى كل نفس بما تسعى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾[٤].

السعيد من خُتِمَ له بخاتمة السعادة، والشقيّ من ختم له بخاتمة الشقاوة:

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾[٥]، إن السعيد حقاً هو من أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع رسوله محمداً ﷺ في كل ما جاء به، إنه سيكون حقاً من الذين

(١) سورة النساء / ٧٨.
(٢) سورة الرحمن / ٢٦، ٢٧.
(٣) سورة الحديد / ٣.
(٤) سورة الزلزلة / ٧ و٨.
(٥) سورة هود / ١٠٥.

يقول الله تعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] ويقول فيهم جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[2].

وإن الشقي حقاً - نعوذ بالله من ذلك - هو من عصى الله تعالى واتبع هواه وأعرض عن هديه في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فباء بخاتمة الشقاوة - والعياذ بالله - فكان من الذين يقول القرآن العظيم فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[3]، والذين يقول القرآن المجيد فيهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾[4]، وقال فيهم أيضا: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) سورة النحل / ٣٢.

(٢) سورة فصلت / ٣٠ - ٣٢.

(٣) سورة النحل / ٢٨، ٢٩.

(٤) سورة الأنفال / ٥٠، ٥١.

﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾[١].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (الميِّتُ تَحْضُرُهُ الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً قالوا: اخْرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرُجي حميدة، وأبشري بروح وريحان وَرَبٍّ غير غضبان، فلا يزالُ يقالُ لها حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء فيُفْتَحُ لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فُلانٌ، فيقال: مَرْحَباً بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيِّب، ادخُلي حميدة، وأبشري بِرَوْح وريحانٍ وربٍّ غير غضبان، فلايزال يُقال لها ذلك حتى يُنْتَهَى بها إلى السماء التي فيها الله عَزَّ وَجَلَّ.

وإذا كان الرجل السوء قال: اخرُجي أيتها النفس الخبيثَة، كانت في الجسدِ الخبيث، اخرُجي ذمِيمَةً، وأبشري بحميم وغَسَّاقٍ وآخَرُ من شكله أزواج[٢]، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماءِ فلا تُفْتَحُ لها، فيقال: فلان، فيقال: لا مرْحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجِعي ذميمة، فإنها لا تفتح لها أبواب السماء، فيُرْسَلُ بها من السماء، ثم تصير إلى القبر)[٣].

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمَّا يُلْحَد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حوْله، وكأنَّ على رؤوسِنا الطير، وفي يده عودٌ

(١) سورة الأنعام / ٩٣.

(٢) أي: وأشياءَ من هذا القبيل، قاله ابن كثير في تفسيره / ٤ / ٦٣.

(٣) حديث صحيح، انظر صحيح سنن ابن ماجة (٣٤٥٦) والمشكاة (١٦٢٧).

ينكُتُ في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء، وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويَخْفِضُه، ثلاثا، فقال: (استعيذوا بالله من عذاب القبر) مرتين أو ثلاثاً، ثم قال(١): (اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر) ثلاثاً، ثم قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكةٌ بيضُ الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفَنٌ من أكْفَانِ الجنة، وحَنُوطٌ(٢) من حَنُوطِ الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البَصَر، ثم يجيء ملك الموْت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرجُ فَتَسِيلُ كما تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقَاء فيأخذها، فإذا أخذها، لم يَدَعوها في يده طَرْفَةَ عَيْنٍ حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكَفَنِ وفي ذلك الحنُوط، ويخرُجُ منها كأطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْك وُجدت على وَجْهِ الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرُّون على مَلأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّب؟ فيقولون: فُلانُ ابنُ فلان، بأحْسَنِ أسْمائه التي كانوا يُسَمُّونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى سماءِ الدنيا، فَيَسْتَفْتِحُونَ له، فَيُفْتَحُ له، فَيُشَيِّعُهُ من كل سَمَاءٍ مُقَرَّبُوها إلى السماء التي تليها، حتى يَنْتَهِي إلى السماء السابعة، فيقول الله عزَّ وَجَلَّ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوا عبدي إلى الأرض، فإني منها خلقْتُهم، وفيها أعيدُهم، ومنها أُخرجُهم تارةً أُخرى، فتُعَادُ رُوحُه، فيأتيه مَلَكَان،

---

(١) قال الأستاذ زهير، المشرف على طبع صحيح الجامع الصغير: لقد جمع شيخنا روايات هذا الحديث من جميع مصادره وأرجو أن أُصْدِرَ شرحه قريباً إن شاء الله [صحيح الجامع] المجلد الأول ص ٣٤٤، وهذا الحديث برقم (١٦٧٦).

(٢) الحنُوط: ما يُخْلَطُ من الطِّيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة.

فَيُجْلِسَانه، فيقولان له: مَنْ رَبُّك؟ فيقول: رَبِّيَ الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنتُ به وصَدَّقْت، فَيُنَادي مُناد من السماء أن صدق عبدي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّة، وألبسُوه من الجنَّة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من رُوحِها وطِيبِهَا، ويُفْسَحُ له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه، ويأتيه رجُلٌ حَسَنُ الوجه، حسن الثياب، طَيِّبُ الريح، فيقول: أَبْشِرْ بالذي يَسُرُّكَ، هذا يَوْمُكَ الذي كنت تُوعَدُ، فيقول له: مَنْ أَنْتَ؟ فوجْهُكَ الوجْهُ يجئ بالخيْر، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رَبِّ أَقِمِ الساعة، ربِّ أَقِمِ الساعة، حتى أَرْجِعَ إلى أَهْلِيَ وَمَالي.

وإن العبْد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نَزَلَ إليه من السماء ملائكة سُودُ الوجوه، معهم المسُوح، فيجلسون منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرُجي إلى سَخَط من الله وغَضَب، فتفرَّقُ في جَسَده، فَيَنْتَزعها كما يُنْتَزَع السُّفُودُ من الصُّوفِ المبْلُول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرْفَةَ عيْن حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرجُ منها كأنْتَنِ ريح جِيفَةٍ وُجِدَت على ظهر الأرض، فيصْعَدُون بها، فلا يمرُّون بها على مَلأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقْبَحِ أسمائه التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا، فَيُسْتَفْتَحُ له، فلا يُفْتَحُ له، ثم قَرَأَ: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾[1]،

---

(١) سورة الأعراف / ٤٠.

فيقول الله عز وجل: اكْتُبُوا كِتَابَه في سِجِّينَ في الأرض السُّفْلَى، فتُطْرَح رُوحُهُ طَرْحَاً، فتعادُ رُوحُه في جسده، ويأتيه مَلَكَانَ فيُجْلِسَانه فيقولان له: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: هَاهْ هَاهُ[(١)] لا أدري، فيقولان له: مَا دينُك؟ فيقول: هَاهْ هَاهْ لا أَدْري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعِثَ فيكُم؟ فيقول: هَاهْ هَاهْ لا أدري، فينادي مُنَادٍ من السماء: أن كَذَبَ عبدي، فَأَفْرِشُوه من النار، وافتحوا له بَاباً إلى النار، فيأتيه من حَرِّهَا وسُمُومِها، وَيَضِيقُ عليه قبره، حتى تَخْتَلِفَ أَضْلاعُه، ويأتيه رَجُلٌ قبيح الوجه، قبيحُ الثياب، مُنْتِنُ الرِّيح، فيقول: أَبْشِرْ بالذي يَسوؤُكَ، هذا يومُك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بالشَّرِّ؟ فيقول: أنا عملُكَ الخَبِيثُ، فيقول: رَبِّ لا تُقِم الساعة)[(٢)].

إنها حقاً لحظات رهيبة، لحظة رؤية ملائكة الموت، وسماع كلامهم، عندها يرى المؤمنُ حُسْنَ عمله، ويُبَشَّرُ بجنَّة ربه، ويرى المسيء سوء عمله، ويُبَشَّرُ بحميم وغَسَّاق، وآخرُ من شَكْلِه أزواج.

إنها والله ساعة مهولة ذات كَرْبٍ شديد، وما بعدها إلا وَعْدٌ أو وعيد، لو تفكَّرْتَ في حلولها وأنت في نعيم وهناء، لتكَدَّرَتْ حياتُك، ولهانَتِ الدنيا

---

(١) (هاه هاه): كلمة تقال في الضَّحِك وفي الإبْعَاد، وقد يُقَالُ للتَّوَجُّع، وهو أَلْيَقُ بمعنى الحديث.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أبوداود (٢/٢٨١)، وأحمد (٤/٢٨٧ ـ ٢٨٨) والحاكم (١/٣٧ ـ ٤٠) وقال: صحيح على شرط الشَّيْخَيْن، وأقرَّه الذهبي، وهو كما قالا، وصححه ابن القيم في (إعلام الموقعين) (١/٢١٤) و(الروح) (٦٥) وقال ابن تيمية في (الفتاوي) (٤/٢٩٠) حديث حسن ثابت، وقال البَيْهَقِيُّ في (إثبات عذاب القبر) (٣٩) هذا حديث كبير صحيح الإسناد، وصححه الألباني في (أحكام الجنائز) (١٥٩) وهو في صحيح الجامع (١٦٧٦) وقال: وقد سُقْتُهُ سِيَاقاً واحداً، ضامًّا إليه جميع الزوائد والفوائد التي وردَتْ في شيء مِنْ طُرُقه الثابتة عند هؤلاء وغيرهم، بصُورة لا تجدها في غيره، والحمد لله على توفيقه. [سياق الحديث للألباني].

عندك، وصغر عظيمها في عيْنك، ولتبدَّل فرحُكَ حُزْناً، وسعادتُك كَدَراً، كيف لا، وأنت تفارق المال والولد، والأحبابَ والأصحابَ، إلى دار الجزاء والحساب، أهوالٌ تهونُ عندها أهوال.

حتى تنْتَهي في رحلة طويلة إلى أحد الفريقين: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾[١].

قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَلا أحدثكم بيَوْمَيْن ولَيْلَتَيْن لم تَسْمَع الخلائق بمثلهنّ: أوَّلُ يوم يجيئُك البشيرُ من الله تعالى، إمَّا برضَاهُ، وإمَّا بسَخَطه، ويوم تُعْرَضُ فيه على ربك آخذاً كتابَكَ إما بيمينكَ وإمَّا بشمالك، ولَيْلَةَ تَسْتَأْنفُ فيها المبيت في القبور، ولم تَبُتْ فيها قطّ، وليلة تمخّضُ صبيحتُها يومَ القيامة[٢].

العبدُ لا يدري بما يُخْتَمُ له:

إن العبْد على أي حال كان، لا يدري بما يُخْتَمُ له، ولا يعلم هل سبق في علم الله تعالى أنه شقيٌّ أو سعيد، والخاتمَةُ تجيء على ما سبق في اللَّوْحِ المحفوظ، ولذلك فإن عباد الله الصالحين، كانوا يخافون من الخاتمة خوفاً عظيماً، ولقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أن يقول: (يَا مُقَلِّبَ القلُوب ثَبِّتْ قلْبي على دينكِ) قال: فقلنا يا رسول الله، آمَنَّا بِكَ وبِمَا جئت به، فهل تخافُ

(١) سورة الشورى / ٧، وانظر (الأنفاس الأخيرة) لعبد الملك القاسم (١١).

(٢) التذكرة (القرطبي) (٩٨).

علينا؟ قال: (نعم، إن القُلوبَ بين أُصْبُعَيْنِ من أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُها)[1].

وروى أحمد عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن قلوب بَنِي آدم بين أُصْبُعَيْنِ من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف شاء) ثم قال ﷺ: (اللهم مُصَرِّفَ القلوب صَرِّفْ قلوبَنَا على طاعتك)[2] وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الأنفال/ ٢٤] قال مجاهد: حتى يتركه لا يعْقِل، وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه، وقال ابن عباس: يَحُول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان[3].

وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه مَلَكاً، ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيّ أو سعيد، ثم يَنْفُخُ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وهو في المشكاة (١٠٢) والسنة (٢٢٥) وفي صحيح الجامع (٧٩٨٧) وقال الألباني: (صحيح).

(٢) انفرد مسلم بإخراجه عن البخاري، فَرَوَاه مع النسائي من حديث حيوة بن شريح، وهو في الصحيحة (١٦٨٩) وصحيح الجامع (٢١٤١).

(٣) انظر تفسير ابن كثير ـ الجزء الرابع ـ ص ٣٥.

بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة)[1] ومن أوضح الأمثلة لذلك ما رواه الإمام البخاري تحت عنوان (باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها) عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نظر النبي ﷺ إلى رجل يقاتل المشركين، وكان من أعظم المسلمين غناء عنهم، فقال: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا، فاتبعه رجل من القوم، وهو على ذلك الحال من أشد الناس على المشركين حتى جُرِح، فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدْيَيْه حتى خرج من بين كتفيه، فأقبل الرجل إلى رسول الله مسرعاً فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: (وما ذاك) قال: قلت لفلان: من أحب أينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان أعظمنا غناء عن المسلمين، ـ أي كان يقاتل بقوة وشجاعة عن المسلمين ـ فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جُرِح استعجل الموت فقتل نفسه، فقال النبي ﷺ عند ذلك: إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنّما الأعمال بالخواتيم)[2]، وقال ﷺ: (إنما الأعمال بخواتيمها)[3].

وقال ﷺ: (لا تَعْجبُوا لِعَمَلِ عَامِلٍ حتى تنظروا بما يُخْتَم له)[4].

وأخـرج الـبـزَّار مـن حديث ابـن عمر ـ رضي الله عنهما ـ حديثا

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣) وهو في صحيح الجامع (١٥٤٣).

(٢) رواه البخاري (٤٢٠٢) وهو في فتح الباري برقم (٦٤٩٣) ج ١١.

(٣) متفق عليه، البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢).

(٤) رواه أحمد بإسناد صحيح عن أنس، وهو في الصحيحة (١٣٣٤) وصحيح الجامع (٧٣٦٦).

فيه ذكر الكتابَيْنَ ـ كتاب السعادة وكتاب الشقاوة ـ وفي آخره (العمل بخواتيمه).

فهذه الخاتمة والخوف منها هي التي قطعت أعناق الرجال مع ما هم فيه من حسن الحال، لأنهم لا يدرون بم يختم لهم، فالخوف من سوء الخاتمة ـ والعياذ بالله تعالى ـ عند أهل الصلاح شديد.. شديد.. ولقد كان أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من هو؟ ـ يقول: والله لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى رِجْلَيَّ في الجنّة.

ولقد بكى بعض الصحابة عند موته فسئل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (إن الله تعالى قبض قبضة فقال: هذه إلى الجنة برحمتي، وقبض قبضة فقال: هذه إلى النار ولا أبالي)[1]، ولا أدري في أي القبْضتيْن كنت.

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع، فقيل له: يا أبا عبدالله عليك بالرجاء، فعفو الله أعظم من ذنوبك، فقال: أوَعَلَى ذنوبي أبكي، لو علمت أني أموت على التوحيد لم أُبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا[2].

وكان مالك بن دينار يقوم طول ليله، قابضاً على لحيته ويقول: يا رب قد علمتَ ساكن الجنة من ساكن النار، في أي الدارين منزل

(١) رواه أبو يعلى في مسنده عن أنس، وهو في الصحيحة (٤٧) وصحيح الجامع (١٧٨٤).

(٢) المستخلص في تزكية الأنفس / لسعيد حوي، دار السلام ـ القاهرة شارع الأزهر الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

مالك[1].

وكان حبيب العجمي يبكي ويقول: من خُتِمَ بـ (لا إله إلا الله) دخل الجنة، ثم يبكي ويقول: ومن لِيَ بأن يختم لي بـ (لا إله إلا الله).

ولقد رأى سفيَان الثوري رجلاً متعلقا بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم سَلِّمْ، فقلت: يا أخي ما قضيتك؟ قال: كنا أربعة إخوة مسلمين، فتوفى منا ثلاثة، كل واحد منهم قد فُتِنَ عند موته، ولم يبق إلا أنا، فلا أدري بما يُخْتَمُ لي.

ولقد مرض أحد العارفين بالله تعالى مرض الموت فقال لبعض إخوانه: أقعد عند رأسي حتى أموت، فإن متُّ على التوحيد فاشتر بجميع ما أملك لوزاً وسكَّراً ووزّعه على صبيان البلد.

هذا، ولَكَمْ قص علينا أهل الصدق والصلاح من الذين يقومون بدفن الموتى، من قصص مرعبة وعجيبة لمن مات ميتة السوء والعياذ بالله تعالى، ولقد شاهد أحد هؤلاء سيارة مسرعة تنحرف عن الطريق وتنقلب عدة مرات، وسارع إليها ليجد ثلاثة شبان وقد أوشكوا على مفارقة الحياة وهم سكارى، وحاول مراراً أن يُلَقِّنَهم الشهادة فلم يستجيبوا، وظلوا يردّدون الأغاني الشيطانية، فما قبض أحدهم إلا وقد اسودّ وجهه، وختم له بالعمل القبيح.

ألا وإن أكثر ما يمكر بهم عند الموت، ويختم لهم بأَسْوَأ العمل، أرباب البدع، وأصحاب الضلالات، والمجاهرون بالمعاصي، وضعاف الإيمان.

---

(١) المنتقى من المواعظ والنفائس والحكم / ٢ / ٢١٩.

طَلَبُ حُسنِ الخاتمة وأسبابها:

وطلب حسن الخاتمة إنما يكون بالأخذ بالأسباب التي توصِل إلى حُسْن الخاتمة، وتتمثل في طاعة الله تعالى وطاعة رسول الله ﷺ، واتخاذه أسوة حسنة في كل صغيرة وكبيرة، كما قال ربنا ـ عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1].

مع الابتعاد عن جميع الأسباب التي تنشأ عنها سوء الخاتمة ـ والعياذ بالله تعالى.

أسباب حسن الخاتمة:

(السبب الأول): خوف الله عز وجل ـ والخشية من سوء الخاتمة، فيؤدي ذلك إلى إحسان العمل، وقد كان السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ يخافون من سوء الخاتمة، فيحسنون العمل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من خاف أَدْلَج، ومن أدْلجَ بلغَ المنزل، ألا إنَّ سِلْعَةَ الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة)[2].

(السبب الثاني): التوبة من جميع الذنوب والمعاصي واتباعها بالأعمال الصالحة.

---

(١) سورة الأحزاب / ٢١.

(٢) رواه الترمذي وحسّنه (٢٤٥٠) وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥٤) وفي صحيح سنن الترمذي (٢/٢٩٧).

لأن التَّسْويف[1] في التوبة من أسباب سوء الخاتمة، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾[2].

(السبب الثالث): الدعاء بحسن الخاتمة وإظهار الافتقار إلى الله عز وجل.

ولهذا كان النبي ﷺ يكثر الدعاء بالثبات على دين الله عز ـ كما سبق.

ومن ذلك في القرآن الكريم قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾[3]، فينبغي للمسلم أن يكثر من هذه الأدعية التي هي من أسباب حسن الخاتمة، وأن يكثر من قول: (لا حوْل ولا قوة إلا بالله).

فعن عبدالله بن قيْس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يا عبدالله بن قيْس! ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟) فقلت: بلى يا رسول الله، قال: (قل لا حول ولا قوة إلا بالله)[4].

(السبب الرابع): قِصَرُ الأمل، وهو من أسباب حسن الخاتمة، وطول الأمل ضد ذلك، لأن قِصَرَ الأمل، يحث صاحبه على اغتنام الأوقات والأعمال الصالحة، ويؤكد ذلك حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: (كن في

---

(١) تَسوَّفَ: مَطَل.

(٢) سورة النور / ٣١.

(٣) سورة آل عمران / ٨.

(٤) متفق عليه، البخاري (٦٦١٠) ومسلم (٢٧٠٤).

الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك)[1].

وعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَطَّ النبي ﷺ خَطًّا مُرَبَّعاً، وخط خطًّا في الوسط خارجاً منه، وخطَّ خُطَطَاً صِغَاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: (هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخُطط الصّغار الأعراض، فإن أَخْطَأَه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشَه هذا)[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يزالُ قلْبُ الكبير شَابًّا في اثنَتَيْن: في حبّ الدنيا وطول العمر)[3]، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يَهْرَمُ ابنُ آدم وتَشُبُّ منه اثنتان: الحرْص على المال، والحرص على العمر)[4].

فينبغي للمسلم ألا يركن إلى الدنيا، فإنها متاع زائل، والله المستعان.

(السبب الخامس): بُغْضُ المعاصي والابتعاد عنها.

فذلك من أسباب حسن الخاتمة، وضدُّ ذلك حُبُّها وإِلْفُها، فينبغي

---

(١) البخاري (٩٤١٧).

(٢) البخاري (٦٤١٧).

(٣) متفق عليه، البخاري (٦٤٢٠) ومسلم (١٠٤٦).

(٤) متفق عليه، البخاري (٦٤٢١) ومسلم (١٠٤٧).

للمسلم أن يبغض كل ما حَرَّمَه الله ورسوله ﷺ، لأن الإنسان إذا أصَرَّ على المعاصي ومات على ذلك كان من أسباب سوء الخاتمة، وبُعِثَ على ما مات عليه، ولهذا قال ﷺ: (من مات على شيء بعثه الله عليه)(١).

(السبب السادس): الصبر عند المصائب.

فإن ذلك من أسباب حسن الخاتمة، وضد ذلك الجَزَع، أو الانتحار من أسباب سوء الخاتمة. ـ نسأل الله العفو والعافية. فينبغي للمسلم الصبر ابتغاء الله عز وجل، فعن صُهَيْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (عَجَباً لأمر المؤمنِ إنّ أمرَه كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبَرَ فكان خيراً له)(٢)، ولا شك أن المصائب تُكفِّرُ الخطايا والسَّيِّئات، فينبغي للمسلم الصبر، والثبات، واحتساب الأجر على الله عز وجل، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حَطَّ الله به سيئاته كما تحطُّ الشَّجرة ورقها)(٣).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: (ما يصيب المسلم من نَصَب ولا وَصَب ولا همّ ولا حَزَن ولا أذى ولا غمّ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّرَ الله بها من خطاياه)(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/٣١٤) عن جابر ـ رضي الله عنه ـ والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/٣٤٠) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٣).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) متفق عليه، البخاري (٥٦٤٨) ومسلم (٢٥٧١).

(٤) متفق عليه، البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

(السبب السابع): حُسْنُ الظَّنّ بالله ـ عز وجل.

وهو من أسباب حسْن الخاتمة، وسوء الظن بالله من أسباب سوء الخاتمة، فينبغي للعبد أن يعلم أن الله عز وجل لا يظلم مثقال ذرَّة، ولا يظلم الناس شيئاً، وهو عند ظنّ عبده، قال النبي ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني...)[(١)].

وعن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله)[(٢)].

(السبب الثامن): معرفة ما أعدّه الله عز وجل من النعيم المقيم للمؤمنين.

وهو من أسباب حسن الخاتمة، لأن هذا العلم يحث على العمل والاستقامة على طاعة الله عز وجل، رغبة فيما عنده من الثواب، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠ ﴾[(٣)]، فينبغي للمسلم أن يعلم أن مستقرّ أرواح المؤمنين في الحياة البَرْزَخيَّة في الجنة، فعن عبدالله بن أحمد، عن أبيه، عن الشافعي، عن مالك عن الزهريّ، عن عبدالرحمن بن كعب، عن أبيه كعب أن رسول الله ﷺ قال: (إنَّما نَسَمَةُ المؤمنِ طائرٌ يُعَلَّق في شجر الجنة، حتى يُرْجعه الله تعالى إلى جسده يوم يبعثه)[(٤)].

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣٢٦) ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) صحيح مختصر مسلم (٤٥٥) وفي صحيح الجامع (٧٧٩٢).

(٣) سورة القصص / ٦٠.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣/٤٥٥) والنسائي (٢٠٧٣) وابن ماجة (٤٢٧١) وموطأ الإمام مالك

أما أرواح الشهداء فهي أعظم من ذلك، فقد ثبت في الصحيح أن: (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل...)[1].

فينبغي للمسلم أن يعمل بهذه الأسباب الحسنة، ويبتعد عن أسباب سوء الخاتمة، أسأل لله العظيم رب العرش الكريم أن يحسن لنا جميعا سوء الخاتمة، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه[2].

(السبب التاسع) صنائع المعروف.

كما جاء في أول موضوع (الصدقة تدفع ميتة السوء ـ من أحاديث صحيحة تدل على ذلك، وهذا حديث آخر لم يذكر وهو: عن عمرو بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: إن صدقة المسلم تزيد في العُمُر، وتمنع ميتة السوء، ويُذْهِبُ الله بها الكِبْر والفَخْر)[3]، عن مصعب بن عثمان، قال: كان عبدالرحمن بن أبان ـ رحمه الله ـ يشتري أهل بيت، ثم يأمرُ بهم فيكْسَوْنَ ويُذَهَّبُون، ثم يُعْرَضون عليه، فيقول: أنتم أحرار لوجه الله، أستعين بكم على غمرات الموت، قال: فمات وهو قائم في مسجده[4].

---

(٤٩) وصححه الألباني في الصحيحة (٩٩٥) وفي صحيح سنن النسائي (٢/٤٤٥).

(١) رواه مسلم (١٨٨٧) من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر: صلاة المؤمن (القحطاني) الجزء الثالث / ١٠٩٠ ـ ١٠٩٩.

(٣) رواه الطبراني عن طريق كثير بن عبدالله، وهو ضعيف، كما قال الهَيْثَمي في مجمع الزوائد (٣/١١٠) ورواه الترمذي (٦٦٤) وحَسَّنَه، من حديث أنس، وقد صححه ابن خزيمة لغير هذا المتن [انظر: الترغيب/ ١ / ٦٧٣ ـ تحقيق محي الدين ديب مستو وآخرَيْن].

(٤) المنتظم لابن الجوزي (٧/١٢٢).

عَلامَات حُسْنِ الخاتِمة

العلامة الأولى: توفيقه لعمل صالح قبل الموت.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (إنما الأعمال بالخواتيم)، وفيه أيضا عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بخواتيمها، كالوعاءِ إذا طَابَ أعلاه طابَ أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله).

وقال صلى اله عليه وسلم: (إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله) فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: (يوفّقُه لعمل صالح قبل الموت ثم يقبضه)[1]، وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، دخل الجنة)[2].

وعن عمرو بن الحمق، قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أَحَبَّ الله عبداً عَسَلَه) قالوا: وما عسله؟ قال: يُوَفِّقُ له عملا صالحاً بين يدي أجله حتى يَرْضى عنه جيرانه)[3].

العلامة الثانية: النطق بكلمة التوحيد قبل الموت.

فعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (من كان آخر

---

(١) رواه الترمذي (٢١٤٣) وصححه، والحاكم (٣٤٠/١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وانظر فيض القدير (٢٥٦/١) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٧٤١) والمشكاة (٥٢٨٨).

(٢) حديث صحيح، المشكاة (١٦٢١) والإرواء (٦٨٧) وصحيح الجامع الصغير برقم (٦٧٤٩).

(٣) رواه أحمد (٢٠٠/٤) والحاكم (٣٤٠/١) وصححه الذهبي، وانظر فيض القدير (٢٥٦/١).

كلامه (لا إله إلا الله) دخل الجنة)[1].

قال العَيْني: قال الكرماني: قول: لا إله إلا الله، أي هذه الكلمة، والمراد هي وضَميمَتُها محمد رسول الله[2].

العلامة الثالثة: المَوْتُ بِرَشْحِ الجبين.

كان أبوبكر العامري، المعروف بـ (ابن الجَنَازة) ـ رحمه الله ـ لما احْتُضِرَ قال له أصحابه: أَوْصِنَا. فقال: أوصيكم بثلاث: بتقوى الله، ومراقبته في الخلوة، واحذروا مصرعي هذا، عشت إحدى وستين سنة، وَمَا كأَنّي رأيتُ الدنيا، ثم قال لبعض أصحابه: انظر: هل ترى جبيني يَعْرَق؟ قال: نعم. فقال: الحمد لله، هذه علامة المؤمن ـ يريد بذلك قول النبي ﷺ: (المؤمِنُ يَمُوتُ بعرق الجبين)[3]، ثم بسط يده عند الموت وقال:

هَا قد مَدَدتُّ يدي إليك فردّها

بالفضل لا بشماتة الأعداء

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله: قال بعض العلماء: إنما يعرق جبينُه حياءً لما اقترف من مخالفته[4].

---

(١) صحيح، رواه أحمد، وأبوداود والحاكم عن معاذ بن جبل، وهو في المشكاة (١٦٢١) والإرواء (٦٨٧) وأحكام الجنائز (٣٤) وهو في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢) عون المعبود (٢٦٧/٨) وانظر صحيح قصص الرسول ﷺ / ١ / ٤٣٩.

(٣) صحيح، رواه أحمد والنسائي والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(٤) المنتظم (٣١٨/١٧).

العلامة الرابعة: الموت ليلة الجمعة أو نهارها.

عن ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة، إلا وقاه الله فتنة القبر)[1].

العلامة الخامسة: الاستشهاد في سبيل الله.

فعن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن رجلا قال: يا رسول الله، ما بَالُ المؤمنين يُفْتَنُون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: (كفى ببارقة السُّيُوفِ على رأسه فتنة)[2].

العلامة السادسة: الموت بسبب من أسباب الشهادة غيْر القتل في سبيل الله.

عن جابر بن عَتِيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيدٌ، والغَرِيقُ شهيدٌ، وصاحبُ ذاتِ الجَنْبِ شهيدٌ، والمبْطُونُ شهيدٌ، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموتُ تحت الهَدْم شهيدٌ، والمرأةُ تموتُ بِجُمْعٍ شهيدة).

قال في عون المعبود: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سِوَى القتل في سبيل الله) أي غيْرَ الشهادة الحقيقية، و(المطعون) هو الذي يموت بالطاعون، و(الغريقُ شهيد) وهو الذي يموت بالغرق، و(صاحب الجَنْب) وهي قُرْحَةٌ أو قُرُوحٌ تصيب الإنسان داخل جَنْبِه، ثم تُفْتَح ويَسْكُنُ الوَجَع، وذلك وقت الهَلاك، ومن علاماتها: الوَجَع تحت الأضلاع، وضيق النفس مع

(١) حديث حسن، رواه أحمد وغيره عن ابن عمرو، وهو في صحيح الجامع (٥٧٧٣).

(٢) حديث صحيح، صحيح الجامع (٤٤٨٣).

ملازمة الحُمَّى والسعال، وهي في النساء أكثر، و(المبطون) من إسهالٍ، أَو اسْتِسْقَاء، أو وَجَع بطن، و(صاحب الحريق) الذي يموت بالحرْق، و(تحت الهَدْم) أي حائط ونحوه، و(المرأة تموتُ بِجُمْع) قال الخطابي: معناه أن تموتَ وفي بطنها ولَداً[1]. وجاء في الصحيح الذي رواه أحمد وغيره قوله ﷺ: (وفي النَّفَساء يَقْتُلُها وَلَدُها جَمْعاً شهادة)[2].

أي ماتت وولدها في بطنها، يقال: ماتت المرأة بِجُمْعٍ: إذا ماتت وولدها في بطنها، وقيل: إذا ماتت عَذْرَاء[3].

وعن أبي الأَعْوَر سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ـ رضي الله عنهم ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ قُتل دون ماله فهو شهيد، ومَنْ قُتل دون دَمه فهو شهيد، ومَنْ قُتل دون دينه فهو شهيد، ومَنْ قُتل دون أهله فهو شهيد)[4].

وعن أبي مالك الأشعريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ فَصَلَ[5] في سبيل الله عز وجلّ فماتَ أو قُتِلَ فهو شهيدٌ، أو وَقَصَه[6]

---

(١) عون المعبود (٢٦٢/٨).

(٢) جملة من حديث حسن، ورواه أحمد والطبراني وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٠/٥): رجالهما ثقات.

(٣) الترغيب والترهيب، تحقيق (مستو) المجلد / ٢ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٤) رواه أبوداود (٤٧٧٢) والترمذي (١٤٢١) وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي (١١٥/٧) وابن ماجة (٢٥٨٠) وأحمد (١٦٢٨)، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه لرياض الصالحين: وإسناده صحيح، وكذلك قال الشيخ أحمد شاكر.

(٥) أي خرج من منزله.

(٦) وقَصَهُ: أي صَرَعَهُ فَدَقَّ عُنُقَهُ.

فَرَسُهُ أو بعيره، أو لدغَتْهُ هَامَّةٌ[١]، أو مات على فِرَاشه، أو بأَيِّ حَتْفٍ شاء الله، فإنه شهيدٌ وإن له الجنة)[٢].

وقال ﷺ: (القتلُ في سبيل الله شهادة، والنُّفَسَاءُ شهادة، والحَرق شهادة، والسُّلُّ شهادة، والبطن شهادة)[٣]، وقال ﷺ: (من قُتِلَ دونَ مَظْلَمَته فهو شهيد)[٤]، وعن أُمِّ حِرام ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: (المَائِدُ في البحر[٥] الذي يصيبه القيْء له أجْر شهيد، والغريق له أجر شهيدَيْن)[٦].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (سيِّدُ الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ورجُلٌ قام إلى إمَامٍ جَائرٍ، فأَمَرَه ونهاه، فقتله)[٧].

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من سأَلَ الله الشهادة بصِدْق، بَلَّغَهُ الله منازل الشهداءِ وإن مات على فراشه)[٨].

وتبين لك أخي المسلم وأختي المسلمة أن الشهداء غير القتل في سبيل الله هم:

١ ـ المطعون ـ الذي يموت بالطاعون. ٢ ـ الغريق. ٣ ـ صاحب

(١) الهامة: إحدى الهوام، وهي ذوات السموم القاتلة، كالعقْرب والحَيَّة ونحوهما.

(٢) رواه أبوداود (٤٩٦) والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وحسنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٦٤١٣).

(٣) ورواه الطبراني في الكبير وله شواهد.

(٤) رواه النسائي، وأحمد (٢٧٨٠) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٥) المائد في البحر: هو الذي يموت بسبب دوار البحر.

(٦) صحيح، رواه الطبراني في الكبير، وغيره، وانظر: صحيح الجامع (٥١٨٧).

(٧) حسَن، رواه الحاكم، وغيره، وانظر: صحيح الجامع (٣٦٧٥).

(٨) رواه مسلم، وهو في مختصر مسلم (١٠٧٨) وفي صحيح الجامع (٦٢٧٦).

ذات الجَنْب. ٤ ـ المبطون ٥ ـ الحريق. ٦ ـ الهدْم. ٧ ـ المرأة تموت وولدها في بطنها. ٨ ـ من قتل دون ماله. ٩ ـ من قتل دون دمه. ١٠ ـ من قُتِلَ دون دينه. ١١ ـ من قتل دون أهله، وهو بمعنى (من قتل دون عرضه). ١٢ ـ من خرج من منزله في سبيل الله فمات بأَيّ حتْفٍ كان فهو شهيد. ١٣ ـ السُّلّ. ١٤ ـ من قتِل دونَ مظْلَمَته. ١٥ ـ من مات بدوار البحر. ١٦ ـ من قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله. ١٧ ـ من سأل الله الشهادة بصدق وإن مات على فراشه.

وهذه والله رحمة واسعة من الله الرحمن الرحيم، ومنة كريمة منه على عباده الذين اتّصَفوا بتلك الأوصاف السابقة، حيث جعلهم ربهم من الشهداء لينالوا الأجر العظيم والمقام الكريم، فتبارك الله الرحمن المنان ذو العرش العظيم.

العلامة السابعة: من مات مُرَابِطاً في سبيل الله.

قال ﷺ: (كل مَيِّت يُخْتَمُ على عَمِله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله، فإنه يُنَمَّى له عملُه إلى يوم القيامة، ويأمنُ فتنَةَ القبْر)، وفي رواية (وَيُؤَمَّنُ مِنْ فَتَّان القبر)(١).

---

(١) رواه أبوداود والترمذي والحاكم عن فضالة بن عبيد، ورواه أحمد عن عقبة بن عامر، وهو في المشكاة (٣٨٢٣)، والترغيب (٢/١٥٠) وصحيح الجامع (٤٥٦٢) وقال الألباني: (صحيح).

أسباب سوء الخاتمة ـ والعياذ بالله تعالى:

معنى سوء الخاتمة:

اعلم أن سوء الخاتمة على رُتْبَتَيْنِ، إحداهما أعظم من الأخرى،

فأما الرتبة العظيمة الهائلة، فأن يَغْلُبَ على القلب عند سكراتِ الموت وظهورِ أَهْوَاله، إما الشَّكُّ وإما الجحود، فَتُقْبَضُ الروح على حال غلبة الجحود أو الشَّكّ، فيكون ما غَلَبَ على القلب من عُقْدَةِ الجُحُودِ حجَاباً بينه وبين الله تعالى أبداً، وذلك يقْتَضِي البُعْدَ الدائم والعذاب المخلَّد.

وأما الرتبة الثانية وهي دونها، فأن يغلب على القلب عند الموت، حُبَّ أَمْر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويَسْتَغْرِقُه حتى لا يَبْقَى في تلك الحالة مُتَّسَعٌ لغيره، فَيَتَّفِقُ قبْضُ روحه في تلك الحال، فيكون استغراقُ قَلْبِه به مُنَكِّساً رأسه إلى الدنيا، وصارفاً وجهه إليها[1].

قال أبو محمد عبدالحق في كتاب التذكرة للقرطبي:

واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكُونُ لِمَن استقام ظاهره وصَلَحَ باطنه، مَا سُمِعَ بهذا، ولا عُلِمَ به، والحمد لله، وإنما تكون لمن كان له فساد في العقْل، وإصرارٌ على الكبائر، وإقدام على العظائم، فرُبَّمَا غَلَبَ ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فَيَسْتَولي عليه

(١) المسْتخْلص في تزكية الأنفس لسعيد حوى ط دار السلام ـ القاهرة ش الأزهر، الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨ م ص ٢٩٦.

الشيطان عند تِلْك الصَّدْمة، ويختطفه عند تلك الدهشة - والعياذ بالله تعالى، ثم العياذ بالله تعالى.

أو يكون ممن كان مستقيما، ثم يتغيَّرُ عن حاله، ويخرج عن سُنَّته، ويَأْخُذَ في غير طريقه، فيكون ذلك سَبباً لسوء الخاتمة، كَبَلْعَام بن باعوراء، الذي آتاه الله تعالى آياته فانسلخ منها، بخلُوده إلى الأرضِ واتباع هواه، وقد قال القرآن في شأنه:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾(١) (٢).

وقال الحافظ بن رجب في جامع العلوم والحكم:

إن خاتمة السوء، والعياذ بالله تعالى، تكون بسبب دَسِيسَة باطنة للعبد، لا يطلع عليها الناس، من جهة عمل سيئ، ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخَفِيَّة توجب سوء الخاتمة عند الموت، والعياذ بالله تعالى، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار، وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمله، فتوجب له

---

(١) سورة الأعراف / ١٧٥ و١٧٦.

(٢) كتاب التذكرة للقرطبي - المجلد الأول ص ١٩٣ - مكتبة دار المنهاج - الرياض - الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - تحقيق ودراسة الدكتور صادق بن محمد بن إبراهيم.

حُسْنَ الخاتمة[1].

وقال سعيد حوى في المستخلص في تزكية الأنفس:

فإن قلت: فما السبب الذي يُفْضي إلى سوء الخاتمة؟ فاعلم أن أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مَجَامِعَها:

أمَّا الختم على الشك والجحود فينحصِر سببه في شيئين:

(أحدهما) يُتَصَوَّرُ مع تمام الورع والزُّهْد وتمام الصلاح في الأعمالن كالمبْتَدِع الزَّاهد، فإن عاقبته مخطرة جداً، وإن كانت أعماله صالحة.

(ثانيهما) ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حُبّ الدنيا على القلب، ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقَوِيَ حب الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلبُ ويقسو ويَسْوَدّ، وتتراكم ظلمة النفوس على القلب، فلا يزال ينطفئُ ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبْعاً ورَيْناً[2].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١ / ١٧٢) وانظر: المفهم لما أشكل في تلخيص كتاب مسلم للقرطبي / ١ / ٣١٩.

(٢) المستخلص في تزكية الأنفُس (سعيد حوى) ص ٢٩٦ و٢٩٧.

وهذه هي أهم أسباب سوء الخاتمة ـ والعياذ بالله تعالى ـ تفصيلاً:

السبب الأول: التّعبُّدُ بالبِدَع:

وقد ورد التحذير من ذلك في عدة أحاديث، منها:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خشية الله تعالى في السِّرِّ والعلانية، والعدْلُ في الرضا والغضب، والقَصْدُ في الفقر والغنى،

وثلاث مُهْلِكَات: هَوىً مُتَّبَعٌ، وشُحٌّ مُطَاعٌ، وإعجاب المرْءِ بنفسه[1].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ[2] وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فمنْ كانت فتْرَتُهُ إلى سُنَّتِي فقد اهتدى، ومن كانت فِتْرَتُهُ إلى غير ذلك فقد هَلَكَ)[3].

ولا يخفى أن من الهلاك: الضلال عن كلمة التوحيد عند الموت، ـ والعياذ بالله تعالى ـ قال عز وجل: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[4].

---

(١) حديث حسن، رواه أبو الشيخ، والطبراني في (الأوسط) وانظر: صحيح الجامع (٣٠٣٩).
(٢) الشِّرَّة: هي النَّشَاطُ والهِمَّةُ.
(٣) صحيح، رواه ابن أبي عاصم، وابن حِبَّان في صحيحه، وصححه الألباني.
(٤) سورة إبراهيم / ٢٧.

السبب الثاني: النفاق:

وقد مضى مثاله في حديث صحيح في هذه الصدقة، عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نظر النبي ﷺ إلى رجل يقاتل المشركين، وكان من أعظم المسلمين غناء عنهم، فقال: (من أحَبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا)، فاتّبعه رجل من القوم، وهو على ذلك الحال من أشد الناس على المشركين حتى جُرِح، فاستعجل الموْت، فجعل ذُبابة سيفه بين ثَدْيَيْه حتى خرَج من بين كتفيْه، فأقبل الرجل إلى رسول الله ﷺ مُسْرِعاً فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: (وما ذاك)؟ قال: قلتَ لفلان: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظُر إليه، وكان أعظمنا غناءً من المسلمين، فعرفتُ أنه لا يموت على ذلك، فلما جُرِحَ استعْجَلَ الموْت فقتل نفسه، فقال النبي ﷺ عند ذلك: (إن العبد ليعمل عَمَلَ أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم)[1].

السبب الثالث: كثرة الذنوب والإصرار عليها:

فكثرة الذنوب والإصرار عليها، تجعل بين صاحبها وبين الله تعالى، حجاباً مانعاً من رحمة الله، ونور الله، ومن فضل الله، فخاتمَتُه خاتمة سوء ـ والعياذ بالله تعالى، ومثواه النار، قال تعالى عن أمثال هؤلاء: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٢٠٢) وهو في فتح الباري برقم (٦٤٩٣) ج ١١.

(٢) سورة الملك ١٠ و١١.

إنهم كما قال القرآن العظيم: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[1]، وهذا بسبب كثرة الذنوب والمعاصي والإصرار عليها، فكيف يختم لأمثالهم بخاتمة السعادة، وهم على طاعة ربهم، وطاعة رسوله ﷺ معرضون؟

قال عبدالعزيز بن أبي رَوَّاد: حضرتُ رجلا عند الموت يُلَقَّنُ الشهادة: (لا إله إلا الله) فقال في آخر ما قال: (هو كافرٌ بما تقول) ومات على ذلك، قال: فسألت عنه، فإذا هو مُدْمِنُ خَمْر، وكان عبدالعزيز يقول: (اتقوا الذنوب، فإنها هي التي أوْقَعَتْه)[2].

السبب الرابع: الانْهِمَاكُ في الدنيا ونِسْيانُ الآخرة:

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله: قيل لرجل عند الموت: قل (لا إله إلا الله)، فقال الرجل: الدار الفلانيَّة أصلحوا فيها كذا وكذا، والجنان الفلانية اعملوا فيها كذا.

وقيل لآخر: قل (لا إله إلا اله) فجعل يقول: البقرةُ الصفراء، غَلَبَ عليه حبُّها والاشتغال بها. نسأل الله تعالى السلامة والممات على الشهادة بِمَنِّه وكرمه[3].

(١) المطففين / ١٤ ـ ١٧.

(٢) جامع العلوم والحكم / ٦٥.

(٣) الصحيح من التذكرة (٤٣).

السبب الخامس: أكل لحوم العلماء:

قال الحافظ ابن عساكر ـ رحمه الله: اعلم يا أخي، وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلني وإياك ممَّنْ يخْشاه ويَتَّقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء مَسْمُومَة، وعادةُ الله في هَتْك أستار منْتَقصهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثَّلْب، بلاه الله تعالى قبل موْته بموْت القلب.

(قصة مؤثرة)

نال عبدالله القُصيمي من العلم كثيراً، وبَرَعَ فيه، وخاصة علم العقيدة، وأثنى عليه معاصروه، وجَرَّدَ قَلَمَه في الردّ على مخالفي أهل السنة والجماعة، فرَدَّ على (الدجْوى) في كتابه (البيارق النَّجْدِيَّة) وألَّفَ كتابه (الفصل الحاسم بين الوهَّابيِّين ومخالفهم) وله كتاب عن الوثنية، يقال إنه من أروع ما كُتبَ في هذا المجال، قال عنه معاصروه: إننا لم نرهُ قطّ إلا وقد تأبَّطَ كتابا، وكان مُولَعاً بقراءة (صحيح البخاري)، ولكن هذا الرجل كانت به آفةٌ تَنْخَرُ به ، وهي: تحقيرُ الآخرين، والثناء على النفس وتزكيتها، والحسد لمن قَبْلَهُ من أنداده من أهل العلم وقرناءه، وجميع هذه النقاط يجمعها الغرور والإعجاب بالنفس، يقول: فما أنا إلا الشمس في غيْر بُرْجِهَا: وما أنا إلا الدُّرَر في لُجَج البحْرِ فكيف أصبح؟

أصبح من جلسائه، أصحاب الكفر، والغانية، والكأس، بل وألَّفَ كتاباً يستهزئُ بالتوحيد وأهله، فتصدى له بعض أهل العلم والفضل، وكشف زَيْفَهُ، ورَدَّ ضلالته[1].

(١) من أخبار المنْتكِسِين، لصالح بن مقبل العصيمي (٢٣٠ ـ ٢٣٣) ط دار بن خزيمة، [عن كتاب

أقول: إنه صدق فيه قول الحق جل وعلا في سورة الأعراف: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[1].

علامات سوء الخاتمة - والعياذ بالله تعالى

(العلامة الأولى): الحِرْمَانُ من النطق بكلمة التوحيد عند الموْت.

(العلامة الثانية): الموتُ على كبيرة أو كبائر دون توبة، خصوصاً ما يتعلَّقُ منها بحقوق العباد، قال ﷺ: (والذي نفسي بيده، لو قُتِلَ رجلٌ في سبيل الله، ثم عاش ثم قتل، ثم عاش ثم قتل وعليه ديْن، ما دخَل الجنة حتى يُقْضَى دَينُه)[2].

(العلامة الثالثة): الثناء على الميِّت بِشَرٍّ:

فعن أنس رضي الله عنه قال: مُرَّ بجنازة فأُثْنِيَ عليها خيرًا، فقال النبي ﷺ: وجَبَتْ، وجبت، وجبت) ومُرَّ بجنازة فَأُثْنِيَ عليها شرًّا، فقال نبي الله ﷺ: (وَجَبَتْ، وجبت، وجبت) فقال عمر رضي الله عنه فداك أبي وأمّي، مُرَّ بجنازة فأُثْنِيَ عليها خيرًا، فقلتَ: (وجبت، وجبت، وجبت، ومُرَّ بجنازة فَأُثْنِيَ عليها شرًّا ، فقلتَ: (وجبت، وجبت، وجبت)؟ فقال ﷺ : (من أثنيْتُمْ عليه خيراً وجبت له الجنة ومن أثنيتُم عليه شرًّا وجبت

(صحيح قصص الرسول) المجلد الأول ص ٤٤٤ - لسعد أبوعزيز.

(١) سورة الأعراف / ١٧٥.

(٢) حسن، صحيح النسائي (٤٦٩٨).

له النار، أنتم شهداءُ الله في الأرض)[(١) (٢)].

(علامات أخرى)

وهناك علامات أخرى تعد علامات سوء الخاتمة ـ والعياذ بالله تعالى ـ منها: سواد الوجه عند الاحتضار، التحوُّل عن القبلة بعد الدفْن[(٣)]، الظُّلْمُ في الوصيّة، فيخالف فيها حدود الله تعالى ويتعداها، كأن يكتب لأحد أولاده وصية بكل ماله ويحرم الآخرين،

اللهم إنا نسألك حسن الخواتيم، اللهم اختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين، اللهم اجعلنا من الذين يقول فيهم قرآنك العظيم: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[(٤)].

اللهم من أحْيَيْتَهُ منا فأحْيِه على الإسلام، ومن توفَّيْتَه منا فَتَوَفَّهُ على الإيمان، اللهم اجعل آخر كلامنا (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ﷺ. اللهم ارزقنا قبل الموت توبة، وعند الموت شهادة، وبعد الموت جنة ونعيما ورضواناً، اللهم آمين[(٥)].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري ومسلم وغيرهما وهو في صحيح الجامع (٧١٠٦) وفي أحكام الجنائز ص ٤٤ و٤٥.

(٢) انظر: صحيح قصص الرسول ﷺ ـ المجلد الأول من ص ٤٣٥ ـ ٤٤٤ لسعد يوسف أبوعزيز.

(٣) أهوال القبور لابن رجب الحنبلي.

(٤) سورة إبراهيم / ٢٧.

(٥) للاستزادة والتفصيل، في موضوع الخاتمة، انظر: سَكْب العَبَرات للدكتور سيد بن حسين العَفَّاني ـ ط دار العفاني ـ القاهرة ـ خلف الجامع الأزهر، الطبعة الرابعة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م ـ المجلد الأول من ص ٥١ ـ ١٢٠.

ثالثاً: الصدقة تحمي صاحبها من فتنة القبر:

إن للصدقة مكرمة عظمى تتعلق بالقبر وفتنته وعذابه، فلقد شاءت حكمة الله تعالى في خلقه أن يبتلي الناس في الحياة الدنيا، المرة بعد المرة، حتى يتبين منهم المؤمن الصادق، من المنافق الكاذب، وسبحان الله القائل: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾[1].

حتى إذا انتهت مسيرة الإنسان على هذه الأرض وأشرف على الموت، كانت الخاتمة على حسب حال الإنسان فيما بينه وبين ربه، إما موتةُ خير وتوحيد وإيمان، وإما موتة شرٍّ وكُفر وعصيان، حتى إذا قُبضَ وأُدخِلَ القبر كانت الفتنة الأخيرة، فتنة القبر، حين تعود الروح إلى الجسد بأمر الله تعالى ويبدأ الملكان الموكلان به، (منكر ونكير)، في سؤاله، وفي هذه الحال الدقيقة، يواجَه المؤمن بالفتنة الشيطانية اللعينة، تريد أن تصل إليه من أي جهة من جهاته الأربع، من قِبَلِ رأسه، أو عن يمينه، أو عن شماله، أو من عند رجليه، ولو تمكن الشيطان اللعين من الدخول إليه عن طريق أي جهة من الجهات الأربع السابقة، فمعنى ذلك أنه سيتمكن من إغوائه والتشويش عليه والمكر به، أما إذا لم يستطع الشيطان أن يدخل إليه لوجود حرس شديد في تلك الجهات الأربع، فسيكون المؤمن في منجاة منه، فيجيب الملكين إجابة حق تنجيه

(١) سورة العنكبوت / ٢ و٣.

من فتنة القبر وعذابه، ونسأل أيها الأحباب، عن طبيعة هذا الحرس الشديد، الذي يحمي المؤمن، ويدافع عنه في تلك اللحظات الحاسمة والبالغة الشدة والحرج، إن الحرس أيها الكرام يتمثل في بعض أنواع من الطاعات الأساسية التي يؤديها المؤمن لوجه الله تعالى، النوع الأول منها يتمثل في الصلاة، التي هي ثاني أركان الإسلام العظيم، والنوع الثاني الصيام، وهو الركن الرابع في الإسلام والنوع الثالث الزكاة، وهي الركن الثالث في الإسلام والنوع الرابع فعل الخيرات، وفي المقدمة منه، صدقة التطوع، والصلة والمعروف والإحسان، ولقد جاء خبر حراسة الطاعات السابقة للمؤمن في قبره عند السؤال في قوله ﷺ: (والذي نفسي بيده، إن الميت إذا وُضع في قبره، إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمناً، كانت الصلاة عند رأسه، والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قِبَلي مدخل، ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس، قد مثلت له الشمس عند الغروب، فيقال له: هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه، وماذا تشهد عليه، فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقولان: إنك ستصلي، أخبرنا عما نسألك عنه، أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه؟ وما تشهد عليه؟ فيقول: محمد، أشهد أنه رسول

الله جاء بالحق من عند الله، فيقال له على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسروراً، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدئ منه، وتجعل نسمته في النسيم الطيب، وهي طير معلق في شجر الجنة، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[١]، قال: وذكر ضد ذلك في الكافر إلى أن قال: (ثم يُضَيَّقُ عليه في قبره إلى أن تختلف منه أضلاعه، فتلك المعيشة الضَّنْك التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[٢] [٣].

إن هذا الحديث الشريف، يُرينا كيف أن الصدقة فرضاً وتطوعاً، تحمي المؤمن من فتنة القبر من جهتين اثنتين: الأولى عن يساره، والثانية عند رجليه، حماية تمثل نصف الحماية الكلية للطاعات في الجهات الأربع، وتلك رحمة من الرحمن الرحيم، يرحم بها عباده المنفقين في سبيله، فرضاً وتطوّعاً، ويحفظه من فتنة القبر وعذابه، فيجيب الملكين الموكلان به في القبر إجابة الحق والصدق والنجاة،

---

(١) سورة إبراهيم / ٢٧.

(٢) سورة طه / ١٢٤.

(٣) حديث صحيح، رواه أحمد في مسنده، ورواه أبو حاتم في صحيحه، ورُوي بمعناه مختصراً: (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه.. الحديث) رواه البخاري ومسلم وأبوداود، والنسائي، وهو في الصحيحة (١٣٤٤) وصحيح الجامع الصغير (١٦٧٥).

كما قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (المسلم إذا سُئِل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾[1] [2].

وروى الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يُلْحَد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، كأنَّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عودٌ ينكُتُ[3] به في الأرض، فرفع رأسه فقال: (استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرَّتيْن أو ثلاثاً، ثم قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقْبَالٍ من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه كأنَّ وجوههم الشمس، معهم كَفَنٌ من أكفان الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان)، قال: (فتخرج تسيل كما تَسيلُ القطرة مِنْ فِيِّ السِّقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طَرْفَةَ عيْن، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج

---

(١) سورة إبراهيم / ٢٧.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٤٦٩٩) ومسلم (٢٨٧١) ورواه باقي الجماعة.

(٣) (ينكت): يُفَكِّرُ ويحَدِّثُ نفسه، وأصله من النكْت بالحصى، ونكْت الأرض بالقضيب، وهو أن يُؤثر فيها بطرَفِه، فِعْلُ المفكّر المهموم، وينكُتَ بقضيب: أي: يضْرب الأَرض بطرفه.

منها كأطْيب نفْحَة مِسْك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرُّون ـ يعني بها ـ على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح [الطيب] فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي [كانوا] يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيُفْتَحُ له، فَيُشَيِّعُهُ من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنْتَهَى به إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليِّين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقْتُهم، وفيها أعيدهم، ومنها أُخرجهم تارةً أخرى).

قال: (فتعادُ روحه [في جسده]، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربُّك؟ فيقول: ربِّيَ الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بُعثَ فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وصدَّقْتُ، فينادي منادٍ من السماء: أن صدقَ عبدي، فأفرشوه من الجنَّة وألبسُوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة ـ قال: فيأتيه من ريْحِهَا وطِيبِها، ويفسحُ له في قبره مدَّ بَصَرِه، ويأتيه رجُلٌ حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الرِّيح، فيقول: أبشر بالذي يَسُرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: ربّ أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي).

قال: (وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال

من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سودُ الوجوه معهم المُسُوح، فيجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سَخَط من الله وغَضَب)، قال: (فَتَفْرَقُ في جسده، فينتزعها كما يُنْتَزَع السَّفودُ من الصوف المبْلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طَرْفة عيْن، حتى يجعلوها في تلك المُسُوح، ويخرُج منها كأنْتَنِ ريح جيفة وُجِدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا [حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا] فيُسْتَفْتَحُ له فلا يفتح له) ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

فيقول الله: (اكتبوا كتابه في سجّين، في الأرض السُّفلى، فتُطْرَحُ رَوحُه طرحاً) ثم قرأ: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾[2]، (فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربُّك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذَب عبدي فأفرشوه

(١) سورة الأعراف / ٤٠.

(٢) سورة الحج / ٣١.

من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حَرِّها وسمومها، ويُضَيَّقُ عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومَن أنت فوجهُك [الوجه] يجيء بالشرّ، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربِّ، لا تُقِم الساعة)[1].

قال ابن القيم ـ رحمه الله: إن مذهب سلف الأمة، أن المرء إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مُفارقة البدن منعّمة أو معذّبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً، يحصل له ومعها النعيم أو العذاب، فإذا كان يوم القيامة أُعيدت الأرواح إلى الأجساد، وجميع هذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، ولقد كان الرسول ﷺ يُعَلّم أمته كيف يدعون الله تعالى ليقيهم شر الفتَن ومنها فتنة القبر، فعن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله يدعو في الصلاة[2]: (اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدَّجَّال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغْرَم) فقال له قائل: ما أكثر ما تَسْتَعيذُ من المغرم؟ فقال: (إن الرجل إذا غَرِمَ حَدَّث فكَذب، ووعَدَ فأَخْلَفَ)[3].

فلنتَّق الله تعالى، ولنحرص على الأخذ بالأسباب المَنَجّيَةِ من فتنة

---

(١) صحيح، رواه أحمد وأبوداود وابن خزيمة، وغيرهم من البراء، وهو في الجنائز (٥٥) وفي صحيح الجامع (١٦٧٦) وقد جمعه الألباني من جميع مصادره.

(٢) متفق عليه، البخاري (٨٣٢) ومسلم (٥٨٩) وأبوداود (٨٨٠) والنسائي (٥٦/٣) في المجْتَبَى.

(٣) بعد التشهد الأخير.

القبْر وعذابه، وفي مقدمة هذه الأسباب: (الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج للمستطيع، وأعمال الخير التي يحبها الله تعالى ويرضاها، ومن أفضلها الصدقة الخالصة لوجه الله تعالى.

رابعاً: الصدقة من خير ما يقدمه المسلم لنفسه يوم القيامة:

ما أسعد المتصدق بصدقته يوم يقوم الناس لرب العالمين، وما أشقى البخيل ببخله يوم لا ينفعه ماله ولا شفاعة الشافعين، المتصدق يجد الخير والإحسان الذي قدمه لنفسه موجوداً عند الله الكريم المنان، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[1]، وكما قال جل شأنه: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

والبخيل المانع حق السائل والمحروم، يجد ما له الذي لم يؤد زكاته قد أُحْمِيَ عليه فيكْوَى به وجْهُه وَجَنْبُه وظهرُه، ويقال له هذا ما كنزت لنفسك فذق ما كنت تكنز، كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[3].

المتصدق استجاب لأمر الله بالإنفاق والتصدق في سبيله، واتّقى

---

(١) سورة البقرة / ١١٠.

(٢) سورة المزمل / ٢٠.

(٣) سورة التوبة / ٣٤ و٣٥.

الله وقدّم لغَده، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

والبخيل أعرض عن أمر الله ومنع حق السائل والمحروم والمسكين وغفل عن يوم الدين، هنالك يناله النّدم المفْجِع، والحسرة المدمّرة، والخسران المبين، ويتمنى لو قدم لحياته الحقيقيّة ما ينفعه ويغنيه، ويبين القرآن العظيم حقيقة حاله يوم البعث فيقول: ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾ ﴾[2].

المتصدق امتثالاً لأمر ربه، تراه يوم القيامة في فرح وسرور بما قدم من خير وإحسان ليوم النشور، على وجهه البشر والنضرة، وفوقه ظل الله الظليل، يوم لا ظل إلا ظل الله للمتصدقين والمحسنين، والبخيل تراه في حزن حزين وغم عميم، وعذاب أليم، على وجهه غَبرة، وفي قلبه حسْرة، ولا ناصر له ولا معين، إن شرّ الندامة يوم القيامة، يوم تعلم كل نفس بما قدم وأخرت، كما قال تعالى: ﴿ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ

---

(١) سورة الحشر / ١٨.

(٢) سورة الفجر / ١٥ ـ ٢٦.

وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾[1]، وكما قال سبحانه: ﴿ يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾[2]، ولقد كان عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكثر في خطبه أن يقول: شرُّ العذل - أي الملامة والعتب - عند الموت، وشر الندامة يوم القيامة.

في هذا اليوم العظيم الذي لا مثيل له، ينظر الإنسان في كل الجهات فلا يرى إلا ما قدّم من خير أو شرّ، وفي هذا يروي الشيخان - رحمهما الله - عن عديّ بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه تُرْجُمَان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أَشْأَم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة)[3].

ففي هذا اليوم الجامع المزلزل، يكلم الله جل جلاله بالكلام النفْسِيّ القائم بذاته عز وجل عبْدَه، ليس بين الله تعالى وبين العبد ترجمان، هنالك ينظر العبد في الجانب الأيمن فلا يرى إلا ما قدم من صالح عمله، وينظر في الجانب الأيسر فلا يرى إلا ما قدم من سيئ العمل، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار حذاء وجهه، ثم يأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين باتخاذ صالح العمل وقاية منها، ولو كان الاتقاء بِشقّ تمرة، أو بكلمة طيبة، يُطَيِّبُ بها قلب المسلم[4]، فالصدقة المقبولة في هذا

---

(١) سورة الانفطار / ٥.

(٢) سورة القيامة / ١٣.

(٣) متفق عليه، البخاري (٣/٢٢٥) ومسلم (١٠١٦).

(٤) انظر: دليل الفاتحين / ١ / ٣٧٥ و٣٧٦.

اليوم تقي المتصدق من النار، وفي تحليل نفسي رائع، يبين الرسول ﷺ لأصحابه، أن مَال الإنسَانِ الحقِّ الذي ينفعه يوم لقاء الله، هو ما قدمه في سبيل الله تعالى، ابتغاء مرضاته وطلباً لثوابه، وأن ما تركه ليس له فيه شيء.

فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أيّكُم مالُ وَارثه أحبُّ إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منّا أحد إلا مالُه أحبُّ إليه، قال: فإن ماله ما قدَّم، ومال وارثه ما أخّر)[1].

قال ابن بطال في شرح هذا الحديث الشريف: فيه التَّحْريض على ما يمكن تقديمه من المال في وجوه البِرّ والقُرب، لينتفع به في الآخرة، فإن كل ما يخلفه يصير ملكا للوارث كما قال: (ومال وارثه ما أخَّر)، فإن عمل فيه بطاعة الله اختص بثوابه عن الميت، وإن عمل فيه بمعصية الله تعالى، فذاك أبعد لمالكه الأول من الانتفاع إن سلم من تبعته، ولا يعارض حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير لك من أن تذرهم عالة)، لأن ذلك فيمن تصدَّق بماله كله أو معظمه في مرضه، وهذا الحديث فيمن تصدَّق حال صحته[2]، إن المؤمن يعلم علم اليقين من نور كتاب الله رب العالمين، ومن هدى سنة سيد المرسلين ﷺ، أن العمل في الدنيا وثيق الصلة بالمسؤولية يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ

(١) البخاري (١١/٢٢١) وأخرجه النسائي (٦/٢٣٧).

(٢) دليل الفالحين / ٢ / ٥٤٧، وحديث سعد بن أبي وقاص، رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن.

أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾[1]، **فمن قدَّم صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد.**

(١) سورة الكهف / ٤٩.

خامساً: الصدقة تستر صاحبها من النار:

إن رحمة الله تعالى قريبٌ من المحسنين، فهم أهل رحمته ولطفه ومنَّته، أولئك الذين تحركت عواطفهم الإنسانية بنور الإيمان، فسارعوا إلى تخفيف معاناة إخوانهم المسلمين، على قدر استطاعتهم وجهدهم، حتى ولو كان الشيء المتصدق به قليلاً، فالله تعالى برحمته لا يكلف نفساً إلا ما آتاها، والله بفضله وكرمه يجعل من الصدقة القليلة الخالصة لوجهه تعالى، حاجزاً منيعاً بين المتصدِّق بها وبين النار في يوم القيامة، وتلك عجيبة جديدة من عجائب الصدقات، ولنستمع أيها الكرام إلى المصطفى ﷺ وهو يخاطب أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ويقول لها: (يا عائشة: استتري من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسُدّ من الجائع مسدها من الشبعان)[1].

فالحديث الشريف يرشدنا إلى أن الصدقة تحول بين صاحبها وبين النار يوم القيامة، وتكون سترا له منها، حتى ولو كانت هذه الصدقة شق تمرة أو ما يعادلها، وهذه منَّة كُبرى من الله تعالى للمتصدق في ذلك اليوم الرهيب، الذي لو كان للكافر فيه ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدى به من سوء العذاب وشدة الحساب ولن يُتَقَبَّلَ منه، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٨٥٥).

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾[1].

وعن عدي ابن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (اتقوا النار ولو بشق تمرة)[2]، وشق التمرة كما هو معلوم نصفها أو جانبها، والمعنى أن المتصدق لو لم يجد إلا شق تمرة فليتصدق به، فإنه يفيده ويستره من النار يوم القيامة، وعن فضالة ابن عبيد مرفوعاً (اجعلوا بينكم وبين النار حجاباً ولو بشق تمرة)[3]، وهكذا رأينا في الأحاديث السابقة، كيف أن الله تعالى يتقبل ممن اخْتُبِرَ بالتَّضْييق عليه فصبر، ولم يجد ما يتصدق به إلا القليل، ولو كان هذا القليل شق تمرة فتَصدق به، فإن الله برحمته جاعل له من هذا القليل حجاباً وساتراً من النار يوم القيامة، فعلى المؤمن ألا يحتقر أبداً ما أقدره الله تعالى على التصدق به مهما كان يسيراً، والأحاديث الشريفة الصحيحة تدعو الأغنياء من المؤمنين والمقلين منهم على السواء إلى المبادرة إلى الصدقة كل على قدره ووسعه، ولقد كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها متمثلة لأمر الرسول ﷺ ووصيته لها، فكانت تبذل كل ما في وسعها لتعطي السائل ما وُجِدَ عندها، ولو كان الموجود لديها رغيفها الوحيد، الذي ستفطر عليه، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يبذلون غاية جهدهم ليحصلوا على ما يتصدقون به في سبيل الله تعالى، وروى عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا أُمرنا بالصدقة كنا نُحَامل - أي

(١) سورة المائدة / ٣٦ و٣٧.

(٢) البخاري (٣/٢٢٥) ومسلم (١٠١٦) (٦٨).

(٣) حديث حسن رواه الطبراني عن فضالة بن عبيد، الصحيحة (٨٩٧) وصحيح الجامع الصغير برقم (١٥٣).

نحمل على ظهورنا بالأجرة ونتصدق بها - فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه فقال المنافقون: إن الله غني عن صدقة هذا - يشيرون إلى أبي عقيل، ثم قالوا: عن الآخر - أي الذي جاء بالكثير - ما فعل هذا إلا رياءً، فنزلت ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

لقد استهزأوا بالفقراء وعابوهم وهم يفعلون الخير، واحتقروا ما جاءوا به، أما من تصدق من المؤمنين بالشيء الكثير فقالوا عنه ما فعله إلا رياء، فعاقبهم الله تعالى بعدْله فسخر منهم وأهانهم وأذلهم وفضحهم على الملأ، وأمثال هؤلاء المنافقين في زماننا هذا كثير وكثير، أنهم أناس يعيبون كل عمل طيب قَلَّ أم كثر، وفي نفس الوقت هم لا يقدمون خيراً أبداً، فهم يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، فحق عليهم قول الحكم العدل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]، فلنكن جميعاً أهلاً لِفعل الخير كلٌّ على قدْر استطاعته، ولنبادر بالصدقة قبل الوقوف بين يدي الرحمن، يقول ﷺ في الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله عز وجل ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر عمن أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدمه، وينظر عمن أشأم منه، فلا يرى إلا شيئاً قدمه، وينظر أمامه فتستقبله النار، فمن

(١) سورة التوبة / ٧٩.

(٢) سورة الحديد / ٢٤.

استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل)[1].

يقول الدكتور محمد أديب صالح تحت عنوان (اتقوا النار ولو بشق تمرة).

كثيرة هي تلك الأحاديث التي تضع العباد أمام الحقائق المذهلة التي تواجه الإنسان يوم القيامة، وفي الوقت نفسه تقدم قوارب النجاة وتأخذ بيد المكلف إلى ساحة العمل المُجْدِي في هذه الدار، وهو العمل الخالص لله عز وجل مهما قلَّ مادام هو الممكن، ومادام قد فُعِل على الوجه الذي بينه الرسول ﷺ، فإذا توافر للمسلم ذلك كان العمل قيماً - أي حقيقياً - بفضل الله تعالى أن يقي صاحبه مصارع السوء في ذلك اليوم العصيب، حيث تشتد الحاجة إلى العمل المنجي ويتعاظم الافتقار إلى جبار السماوات والأرض الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى[2].

ثم يقول الدكتور محمد أديب صالح بعد ذكر الأحاديث التي تتحدث عن الصدقة القليلة لوقاية الإنسان من النار: وواضح أن هذا كله فيمن لا يجد إلا ذلك القليل مما يتقي به النار، بَذْلاً في سبيل الله تعالى، فما بالك بمن يجد ما هو أكثر وأوفر، كيف لا يَبْنِي وقايةً تقيه من النار، يَصُوغُها من العمل المرضي لله عز وجل.

إن الله اللطيف الخبير، قد فتح الباب واسعاً برحمته الواسعة أمام

---

(١) رواه الإمام أحمد عن عدي بن حاتم الطائي، ورواه البخاري (٣/٢٢٥) ومسلم (١٠١٦) وغيرهم وهو حديث صحيح، صحيح الجامع م ٢ ص ١٠٠٩، برقم ٥٧٩٨.

(٢) القيامة مشاهدها وعظاتها في السنة النبوية / ١ / ٢١٩ (د/ محمد أديب صالح) ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م.

كل مسلم قادر أو غير قادر ليقي نفسه شر النار الحامية يوم يشتد الهول ويعظم الكرْب، ولا نجاة إلا بالعمل الصالح مهما قل مادام هو المستطاع ومادام قد صحبته النية الخالصة لله تعالى، فاللهم إنَّا نعوذ برحمتك من عذابك ونلجأ إليك منك فإنه لا ملجأ منك إلا إليك، اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.

سادساً: الصدقة فداء للنفس من عذاب الله:

عن الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صلى الله علي وسلم قال: (إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام، بخمس كلمات أن يعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن) فذكر الحديث إلى أن قال فيه: (وآمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقربوه ليضربوا عنقه فجعل يقول: هل لكم أن أفدي نفسي منكم، وجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه)[1].

نفسُ الإنسان، وما أدراك ما نفس الإنسان؟

إنها هو، وهو هي، وما أسعد الإنسان بنفسه إذا زكاها بالطاعات وقاد مسيرتها بمنهج رب الأرض والسماوات سبحانه، وما أشقاه بها إذا أضلها وأغواها، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[2]. أي، من زكّى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى فاز بكل مطلوب، وظفر بكل محبوب، عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها)[3].

---

(١) رواه الترمذي وصححه، وابن خزيمة واللفظ له وابن حبَّان في صحيحه والحاكم وقال، صحيح على شرطهما ـ أي البخاري ومسلم، وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٥٥٣)، وصحيح الجامع (١٧٢٤) وقال صحيح.

(٢) سورة الشمس / ٧ ـ ١٠.

(٣) رواه مسلم عن زيد بن أرقم برقم (٢٧٢٢) والترمذي (٣٥٥٦٧) والنسائي ٢٦٠/٨.

﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾: أي خسر من أضلها وأغواها وأخملها ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح[1].

وفي القرآن العظيم آيات كثيرة تتحدث عن الموقف العظيم يوم القيامة، وأهواله وأحواله، وفي هذا اليوم يود من أجرم وكفر وعصى وأبى وحقت عليه كلمة العذاب لو يفتدي نفسه من عذاب الله بكل شيء.

ففي سورة (يونس) يقول الحكم العدل جل ثناؤه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[2].

أي ولو أن كل نفس من الأنفس المتصفة بأنها (ظلمت) نفسها بالكفر بالله وعدم الإيمان به ﴿ مَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ من كل شيء من الأشياء التي تشتمل عليها من الأموال النفيسة والذخائر الفائقة، ﴿ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ ﴾ أي جعلته فدية لها من العذاب يوم القيامة لا ينفعها الفداء ولا يقبل منها[3]، ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾[4].

فالنفس في يوم الحساب لا تملك شيئاً إلا ما قدمت من عمل

---

(١) زبدة التفسير من فتح القدير ص ٨٠٩.

(٢) سورة يونس / ٥٤.

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن / ٦ / ٧٩.

(٤) سورة آل عمران / ٩١.

صالح لوجه الله تعالى، أما النفس الظالمة، فقد تركت كل شيء خلفها في الدنيا وحُشرت عارية من كل شيء، وهي لا تملك لا عملاً ولا ديناراً ولا شيئاً، وعلى فرض أنها كانت تملك الدنيا بكل جوانبها وأركانها في هذا الوقت إذاً لقدمته بلا تردد فداء لها من عذاب الله تعالى، بل وحتى لو كانت تملك ملء الأرض كلها ذهباً لافتدت به، ولكن النفس الظالمة الكافرة الجاحدة لا تملك شيئاً في يوم القيامة، ولو ملكت فلا قبول لكل ما تقدمه فداء لها مهما عظم، وليس لها إلا النار والعياذ بالله تعالى، والمجرم في هذا اليوم الشديد يود أيضاً لو يفتدي نفسه بأقرب وأحب الناس إليه في الدنيا، بأبنائه وزوجه وأخيه وعشيرته التي تؤويه عند الشدائد، ومن في الأرض جميعاً من الثقلين وغيرهما من الخلائق، يود لو يقبل منه ذلك فداء لنفسه لينجو من عذاب الله تعالى، ولكن ذلك كله مجرد أمنية لا تتحقق وليس له إلا النار الملتهبة المحرقة، قال تعالى في سورة المعارج: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾[1].

يقول الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله ـ في الظلال[2] ـ عن هذا المجرم الكافر ـ فما بال المجرم؟ إن الهول ليأخذ بحسه، وإن الرعب ليذهب بنفسه، وإنه يودّ لو يفتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه، ممن كان يعتد بهم بنفسه في الحياة ويناضل عنهم ويعيش لهم، ببنيه،

---

(١) سورة المعارج / ١١ ـ ١٥.

(٢) م ٦ ص ٣٦٩٧.

وزوجه، وأخيه، وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه، بل إن لهفته على النجاة لتفقدُه الشعور بغيره على الإطلاق فيودّ لَوْ يفتدى بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه، ثم يقول: وبينما المجرم في هذه الحال، يتمنى ذلك المحال، يسمع ما يُيَئِّس ويُقْنِط من كل بارِقة وأمل، أوكل حديث خادع في النفس،

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

هذا، والحديث الشريف الذي معنا، يصور رجلاً وقع أسيراً في قبضة أعدائه، فأوثقوه في صورة شديدة حيث جعلوا يده إلى عنقه، وقربوه إلى المكان المعد ليقتل بضرب عنقه، وهذا الأسير كي ينقذ نفسه، رجا أعداءه وتوسل إليهم ليقبلوا منه الفداء لنفسه، وجعل يقدم إليهم كل ما استطاع من مال، حتى رضوا وفدى نفسه منهم، هذه صورة دنيوية، وشتان ما بينهما وبين الصورة الأخروية، إنه بضربة واحدة بالسيف يهلك الأسير وينتهي، وحياته أيضاً في الدنيا قصيرة ومنتهية، لكن عذاب الآخرة شديد ومديد قال تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2]، وقال: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾[3]،

---

(١) سورة المعارج / ١٥ ـ ١٨.

(٢) سورة هود / ١٠٦ و١٠٧.

(٣) سورة الزخرف / ٧٧.

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

والرسول ﷺ وهو الرحمة المهداة والنعمة المُزداة والسراج المنير، والدال على كل خير في الأولى والآخرة، يدل أتباعه المسلمين على فداء للنفس من عذابها يوم الدين، يوم يقوم الناس لله رب العالمين، وهذا الفداء يسير وفي متناول كل من شاء من أهل الإسلام، إنه الصدقة، على إطلاقها، على قدر استطاعة كل إنسان، فلا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، فالرسول ﷺ قد أمرنا في الحديث الشريف بالصدقة لنفُكَّ بها رقابنا من عذاب الله يوم القيامة، وقد أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم، أنه سَيُزَحْزَحُ عن النار وينجو منها التقيّ النقيّ الباذل ماله في سبيل الله تعالى، قال جل شأنه:

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

فطوبى لمن وفقه الله تعالى وتصدّق فتحرّر وحيل بينه وبين عذاب الله تعالى بصدقته، وويْل للجاحدين الممسكين المانعين حق السائل والمحروم في أموالهم، من يوم عظيم وهول جسيم وعذاب أليم،

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة النساء / ٥٦.

(٢) سورة الليل / ١٧ ـ ٢١.

(٣) سورة الشعراء / ٨٨ ـ ٨٩.

سابعاً: المتصدق لا يخاف ولا يحزن يوم الفزع الأكبر:

الأمن وعدم الخوف نعمة كبيرة أنعم الله بها تعالى على عباده المؤمنين الصادقين، فهم الأحق بالأمن والأمان، في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالى على لسان إبراهيم ـ عليه السلام: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1]، أي: فأيّ الفريقين أحق بالأمن من عذاب الله؟ الموحّدُ أم المشرك؟ فقال الله قاضيًا بينهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾، أي يشرك، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2]، إن مصدر الأمن لهم هو الله جل جلاله، وليس فوق ذلك أمان، والله سبحانه هو (المؤمن) أي: المصدق لرسله بإظهار معجزاته عليهم، ومصدّق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم به من العذاب، وقيل: المؤمن الذي يؤمّن أولياءه من عذابه، ويؤَمّنُ عباده من ظلمه، يقال: آمنه من الأمان الذي ضد الخوف[3]، ولأهمية الأمن والأمان فقد كان هو أول مطلب لإبراهيم ـ عليه السلام ـ من ربه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا

(١) سورة الأنعام / ٨١ ـ ٨٢.

(٢) تفسير القرطبي / ٧ / ٣٠.

(٣) تفسير القرطبي / ١٨ / ٤٦.

﴿ بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[1] جاء هذا في سورة البقرة، وفي سورة إبراهيم - عليه السلام - يقول أيضا: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2] وهذا لأنه بدون الأمن والأمان لا يمكن إقامة حياة مستقرة طيبة كريمة، ولما استقبل يوسف - عليه السلام - أبويه وإخوته في مصر، لفت نظرهم إلى تلك النعمة العظيمة وقال لهم: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[3].

ولما دعا الرسول ﷺ إلى الإسلام، قالوا له على لسان الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، حيث أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف إن اتَّبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا، فرد عليهم بقوله: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي: ألَم نَعْصمْهُم وَنجعَل مكانهم حَرَماً ذا أمن لحرمة البيت الحرام الذي تتناحر العرب حوله وهم آمنون ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ فإذا كان حالهم ما ذُكر وهم عبدةُ أصنام، فكيف يخافون التّخطّف إذا ضموا إلى حرمة البيت

(١) سورة البقرة / ١٢٦.
(٢) سورة إبراهيم / ٣٥.
(٣) سورة يوسف / ٩٩.

حرمة التوحيد، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1]، أي: جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا ذلك[2].

وقد كان لحادث أصحاب الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب وتوقير من حوله وعدم التعرض لهم بحال، فقد توجّه أبرهة بجيشه العظيم إلى الكعبة المشرفة يريد هدْمها وصرف الناس عنها، فَحَمَى الله تعالى البيت وأهله وأهلك أبرهة وجنده، كما قال تعالى في سورة الفيل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾ ﴾[3]، وبهذا الحدث العظيم ازدادت مكانة أهل مكة عند العرب، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين، وحيثما حلُّوا وجدوا حسن الاستقبال والرعاية، وشجّعهم ذلك على تنظيم رحلتين تجاريتين عظيمتين، إحداهما إلى اليمن في الشتاء، والأخرى إلى الشام في الصيف، ثم أرشدهم ربهم إلى شكره وعبادته بما أنعم عليهم بذلك فقال: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾[4]، لقد وعد الله المؤمنين الصادقين بالأمن والأمان والحياة الطيبة في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ

(١) سورة القصص / ٥٧.
(٢) تفسير أبي السعود / ٧ / ١٩.
(٣) سورة الفيل.
(٤) سورة قريش.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]، **وقال تعالى:** ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[2]، **والحياة الطيبة تشمل جميع أنواع النعم التي تنشرح بها الصدور في الدنيا والآخرة، ولا يكون ذلك إلا بالأمان واطمئنان القلب وسكون النفس وعدم الخوف والحزن وكل ما يعكّر صفو الحياة الطيبة، أما من عصى الله ورسوله وكفر بأنعم الله عليه، فإن الله تعالى يَسْلُبُ منه الأمن والأمان، ويُحْيِيه حياة الخوف والفزع والجوع واليأس من رحمة الله تعالى، قال رب العزة:** ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾[3].

وهكذا يفعل الله تعالى بكل من أعرض عن طاعة الله ورسوله ولم يؤمن بآيات ربه، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ولقد وعد الله تعالى عباده المؤمنين المتصدقين الذين ينفقون

---

(١) سورة النور / ٥٥.

(٢) سورة النحل / ٩٧.

(٣) سورة النحل / ١١٢ ـ ١١٣.

أموالهم في سبيل الله مخلصين، بلا مَنّ ولا أذى، ولا لسبب من الأسباب غير ابتغاء وجه الله الكريم، وعدهم بالأمن والأمان وعدم الخوف والحزن في الدنيا ويوم العرض الأكبر على الله تعالى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، والعجيب أيها المؤمن الكريم، أنك تجد هذا المعنى بكل وضوح في سورة البقرة وفي ثلاث آيات، في ثلاث صفحات متتابعات، عدا ما جاء في باقي سور القرآن الكريم، ففي الآية الثانية والستين بعد المائتين من سورة البقرة يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾[1]**، وفي الآية الرابعة والسبعين بعد المائتين يقول الله سبحانه:** ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾[2]**، وفي الآية السابعة والسبعين بعد المائتين يقول الله تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾[3].

إن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة، يمدح عباده المنفقين في سبيله، لا يريدون إلا وجهه، ولا يبتغون أجراً من أحد سواه، سواء كان هذا الإنفاق في سبيل الجهاد، أو في صورة زكاة أو صدقات، أو إنفاق

(١) سورة البقرة / ٢٦٢.

(٢) سورة البقرة / ٢٧٤.

(٣) سورة البقرة / ٢٧٧.

على النفس والزوجة والأولاد، أو رعاية يتيم أو لشفاء مريض، أو غير ذلك من وجوه الخير والإحسان التي يحبها الله تعالى ورسوله، وفي نفس الوقت فإنهم لا يُتْبِعُون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مَنًّا على ما أعطوه، فلا يمُنُّون به على أحد، لا بقول ولا بفعل، ولا يؤذون من أحسنُوا إليه بأي لون من ألوان الإيذاء، فهؤلاء قد وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي: ثوابهم على الله لا على أحد سواه، ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1] ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾ على ما خَلَّفوا وراءهم من الحياة الدنيا وبهجتها، لأنهم يَغْتَبِطون بالآخرة، وما أعده الله لهم فيها من جنات ونعيم، وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للنفقة في سبيل الله تعالى[2].

إن النار لا تقربهم، قد حجبها الله عنهم ووقاهم منها بفضل صدقاتهم وإحسانهم.

والشمس لا تمسهم، فهم في ظل الله الظليل، يوم لا ظل إلا ظلّه، خصَّ من بين ما خصّ، المتصدقين بالليل والنهار سراً وعلانية، فهم في ظل صدقاتهم.

إنهم لا يحزنون، وكيف ذلك، وقد رأوا ما قدموا لهذا اليوم العظيم من عمل صالح وإحسان إلى البؤساء والمحرومين، رأوا ما قدموا وقد

(١) سورة الأنبياء / ١٠٣.

(٢) انظر: تفسير القرطبي / ٣ / ٣٠٧ـ ٣٠٩.

جعله الله لهم أضعافاً مضاعفة، أضعافاً كثيرة، حتى صارت اللقمة كالجبل، إكراماً منه لهم ورحمة، فهنيئاً لهم بما عملوا وبما قدموا وبما أحسنوا، وهنيئاً لهم بقول ربهم الرحيم: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[1]، **وبقول ربهم الحليم:** ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة النمل / ٨٩.

(٢) سورة الأنبياء / ١٠٣.

ثامناً: الصدقة تنفع المتوفي:

من مكرمات الصدقة الطيبة، أن الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم بعباده قد جعل منها باباً موصولاً بالخير والغفران يستقبل منه العبد فضل الله تعالى عليه ثواباً للصدقة التي أُخْرِجَتْ عنه بعد أن انتقل من الحياة الأولى وانقطع عمله فيها إلى الحياة الآخرة.

وهذه الخصوصية الحبيبة للصدقة لا يشترك معها فيها إلا الدعاء وقضاء الدين، بالنصوص الواردة في الجميع، من ذلك في الدعاء قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾[2]، وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم ﷺ: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾[3]، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ما من عبد يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل)[4]، وعنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: (دعوة المرء لأخيه المسلم بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك

---

(١) سورة الحشر / ١٠.

(٢) سورة محمد / ١٩.

(٣) سورة إبراهيم / ٤١.

(٤) رواه مسلم (٢٧٣٢).

بمثل)[1]، ومما جاء في قضاء الدَّيْن، ما روي عن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ إذا أُتي له بجنازة لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ويسأل عن ديْنه، فإن قيل عليه ديْن، كفَّ عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه.

فأُتي بجنازة، فلما قام ليكبِّر قال ﷺ: (هل على صاحبكم من دين؟ فقالوا ديناران يا رسول الله، فعَدَلَ النبي ﷺ عنه وقال: صلوا على صاحبكم، فقال قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هما علي يا رسول الله وهو بريء منهما، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لقتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جزاك الله عنه خيراً: فكَّ الله رهانك كما فككتَ رهان أخيك، إنه ليس من ميت يموت عليه دين إلا وهو مرتهن بدينه، ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة)[2].

ويصح الحج عن الميت إذا مات وعليه حج الإسلام سواء أوصى بذلك أم لم يُوصِ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت إن أمي نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت، أفأَحج عنها؟ قال: (نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله ـ أي حق الله ـ فالله أحق بالوفاء)[3].

وكذا إذا أوصى المتوفى بحج التطوع فيجوز أن يحج عنه من الثلث،

---

(١) رواه مسلم (٢٧٣٣).

(٢) القصة رواها البخاري (٣/٣٦٨)، وأحمد (٤/٤٧) والنسائي (١/٢٧٨) والترمذي (٢/١٦١) وابن ماجه (٢/٧٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١٨٥٢ ـ فتح).

وأما الصوم عن المتوفى الذي مات وعليه صيام وكان قد تمكَّن من صيامه قبل موته فقد اختلف العلماء فيه:

فجمهور العلماء، منهم أبوحنيفة ومالك والمشهور عن الشافعي، يقولون بأن وَليَّه لا يصوم عنه ويطعم عنه مُدًّا كلَّ يَوْم.

والمذهب المختار عند الشافعية، أنه يستحب لوليه أن يصوم عنه، ويبرأ الميت، ولا يحتاج إلى إطعام عنه، واستدلوا بما رواه أحمد والشيخان عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: (من مات وعليه صيام صام عنه وليه)[1]، زاد البزار لفظ (إن شاء)[2]، وروى أحمد وأصحاب السنن عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: (إن أمي ماتت وعليها صيام شهر أفأقضيه عنها)، قال: (لو كان على أمك دين أكنت قاضيه؟) قال: نعم، قال: (فدين الله أحق أن يقضى)[3].

قال النووي: وهذا القول هو الصحيح المختار الذي نعتقده، وهو الذي صححه محققوا أصحابنا الجامعون بين الفقه والحديث، ولهذه الأحاديث الصحيحة[4]. فمن مات وعليه صيام فإن الله تعالى قد جعل له سبيلاً لرفع الإثم عنه، إما بإطعام عن كل يوم، كما ذهب إليه الجمهور، وإما بأن يصوم عنه وليه، كما اختار ذلك الشافعية،

(١) متفق عليه ـ أخرجه البخاري برقم (١٩٥٢) ومسلم (١٥٣ ـ ١١٤٧) وأخرجه أبوداود (٢٤٠٠) وأخرجه غيرهم.

(٢) سند هذه الجملة (إن شاء الله) حسن.

(٣) متفق عليه، البخاري (١٩٥٣) ومسلم (١١٤٨).

(٤) فقه السنة (سيد سابق) م١، ص ١١٦ وما بعدها.

وسبحان الله الرحمن الرحيم، وأما قراءة القرآن، فقد قال الإمام النووي، المشهور من مذهب الشافعي أنه لا يصل، أي ثواب القراءة وقال جماعة من أصحابنا أنه يصل ثوابها، وبه قال أحمد ابن حنبل، وأما الصلاة وسائر الطاعات فلا تصله ـ أي ثوابها ـ عندنا ولا عند الجمهور، وقال أحمد رحمه الله ـ يصله ثواب الجميع كالحج، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ العبادات قسمان: مالية، وبدنية، وقد نبَّه الشارع بوصول ثواب الصدقة على وصول ثواب سائر العبادات المالية، ونبه بوصول ثواب الصوم، على وصول ثواب سائر العبادات البدنية، وأخبر الشَّارع بوصول ثواب الحج المركَّب من المالية والبدنية، فالأنواع الثلاثة ثابتة بالنص والاعتبار، هذا ومن المعلوم أنه لابد من نية الفعل عن الميت، وهاهي ذي الأحاديث الشريفة التي تتعلق بوصول ثواب الصدقة إلى المتوفى، فعن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أمي افْتُلِتَتْ نَفْسُها وأراها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدق عنها؟ فقال النبي ﷺ: (نعم)[1]، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله: إن أمي توفيت أفينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: (نعم)، قال: فإن لي مَخْرفاً[2] فأشهدك أني قد تصدقت به عنها)[3]، قال أبوعيسى الترمذي، هذا حديث حسن، وبه يقول أهل العلم، يقولون: ليس شيء يصل إلى الميت إلا الصدقة والدعاء، وقد

(١) حديث متفق عليه وأخرجه البخاري في ٢٣ ـ كتاب الجنائز (اللؤلؤ والمرجان م١، ص ٢٠٦).

(٢) مخرف: أرض فضاء واسعة.

(٣) الحديث أخرجه البخاري (٢٩٧/٥) وأبوداود (١٥/٢) والنسائي (١٣٠/٣) وغيرهم، والرجل المذكور في الحديث هو سعد بن عبادة أخا بني ساعده.

سبق أن ذكرنا ما يتعلق بالحج والصيام وقراءة القرآن ـ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أبي مات وترك مالاً ولم يوص، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه؟ قال: (نعم)، قال البغوي في (شرح السنة)، حديث صحيح أخرجه مسلم عن ابن حُجْر وغيره[1]، وهو قول أهل العلم، قالوا: ليس يصل إلى الميت إلا الصدقة والدعاء.

فالأحاديث الشريفة السابقة، أحاديث مباركة فيها الخير والرحمة والبشرى، فيها فتح أبواب قبول الصدقة ووصول ثوابها من الأحياء إلى الأموات، من المؤمنين والمؤمنات، خاصة أولي الأرحام منهم، حيث يقول ربنا العظيم ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾[2]، **وخاصة الوالدين، فلطالما حث الإسلام الكريم على الإحسان إليهما في حياتهما وبعد وفاتهما، قال تعالى:** ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾[3].

وها هو الحديث الأول ـ فيما سبق ـ تُشهدنا فيه السيدة الطاهرة المبرأة من فوق سبع سماوات، أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ

---

(١) مسلم (٥/٧٣) والنسائي (٢/١٢٩) وابن ماجه (٢/١٦٠) وأحمد (٢/٣٧١).

(٢) سورة الأحزاب / ٦.

(٣) سورة الإسراء / ٢٣.

صحابيا جاء إلى رسول الله ﷺ، ليستفتيه في أمر قد شغله وأهمه، فقال للنبي ﷺ: (إن أمي افتلتت نفسها وأراها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدق عنها، هذا هو نص السؤال الذي توجه به الصحابي إلى رسول الله ﷺ، فقوله: (إن أمي افتلتت نفسها).

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في شرح مسلم: ضبطناه نفسها، ونفسها بنصب السين ـ أي كما ذكر ـ ورفعها، أي تقول: (نفْسُها) فالرفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، والنصب على أنه مفعول ثان، قال القاضي، وأكثر روايتنا فيه بالنصب، وقوله (افتلتت) بالفاء، هذا هو الصواب الذي رواه أهل الحديث وغيرهم، ورواه ابن أبي قتيبة (اقْتُلِتت) نفسها، بالقاف بدل الفاء، قال: وهي كلمة تقال لمن مات فجأة، ولمن قتلته الجن، ولم قتله العشق، قال: والصواب الفاء، قالوا: ومعناه ماتت فجأة، وكل شيء فعل بلا تمكث، فقد افْتُلت، وقال: افتلت الكلام، واقترحه واقتضبه، إذا ارتجله.

وجاء في شرح السنة للبغوي قال: قوله (افتلتت) أي ماتت فجأة، أي أخذت فلتة بَغْتة، هذا وقوله (وأراها لو تكلمت تصدقت) يشير إلى أن أمهُ كانت ممن يقبلون على فعل الصدقات في حياتهم تقرباً إلى الله تعالى، ولعله قد سمع منها قبل وفاتها بمدة، أنها تود أن تتصدق عند وفاتها لكنها لم تحدد وتركت ذلك لوقْته، لكن الأجل فاجأها بغْته فلم تتكلم ولم توص بشيء، وهذا ما يدل عليه قوله: (وأراها لو تكلمت تصدقت)، أي لعلمي رغبتها في ذلك من قبل، والله أعلم،

وقوله: (أفَأتصدَّقُ عنها) أي: أَفينْفَعُها أن أتصدق عنها وإن لم تُوص؟ فأجابه الرسول ﷺ: (نعم) أي: ينفعها صدقتك عنها.

وجاء في صحيح ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ باب الصدقة عن الميّت إذا توفى عن غير وصية وانتفاع الميت بها في الآخرة، قال: خرج سعد بن عبادة رضي الله عنه مع النبي ﷺ في بعض مغازيه، فحضرت أمَّ سعْد الوفاةُ، فقيل لها: أوصى فقالت: فيما أوصى؟ إنما المال مال سعد، فتُوفيت قبل أن يقدم سعد، فلما قدم سعد ذكر له ذلك، فقال: يا رسول الله، هل ينفعها أن أَتصدَّق عنها؟ قال: (نعم) قال سعد: حائط كذا وكذا صدقة عنها لحائط سماه، أي بستانٍ سَمَّاه[1].

وعلى ما تقدم فقد رأينا رحمة الله تعالى التي أجراها على لسان رسول الرحمة محمد ﷺ، تَفْتح باب القبول للصدقة عن المتوفي سواء أوصى أم لم يوص، وسبحان الله الرحيم الودود، إن الصدقة على المتوفى لنيل الثواب وتكفير السيئات ورفع الدرجات، هي باب عظيم من أبواب بر الأباء والأمهات بعد الممات، ومن المعلوم الثابت في الإسلام العظيم، أن بر الآباء والأمهات من أعظم القربات إلى الله تعالى، ولقد أمر الله تعالى عباده بعبادته وتوحيده جل شأنه، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك، فقال الله الواحد الأحد: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا

(١) إسناده حسن، وهو في الموطأ (٢/٢٢٧ ـ ٢٢٨) وقد ورد في صحيح ابن خزيمة الجزء الرابع / ص ١٢٤، برقم (٢٥٠٠).

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾[1]، كما قرن جل شأنه شكر الوالدين بشكره، فقال الغفور الشكور ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[2].

ولقد جعل القرآن العظيم البر بالوالدين وصفاً للأنبياء والمرسلين، فقال عن يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾[3]، وقال عن عيسى ـ عليه السلام: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾[4]، وقال عن يوسف ـ عليه السلام: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[5]، هذا وكم في القرآن الكريم من آيات بينات تحث على البر بالوالدين وترفع منزلة البار بهما إلى الدرجات العلا، وكذلك في السنة المطهرة الصحيحة، كم فيها من أحاديث شريفة تحض على البر بهما، من ذلك إخباره ﷺ أن برَّ الوالدين من أفضل الأعمال عند الله تعالى بعد الصلاة التي هي عماد الدين، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟

(١) سورة الإسراء / ٢٣ و٢٤.

(٢) سورة لقمان / ١٤.

(٣) سورة مريم / ١٤.

(٤) سورة مريم / ٣٢.

(٥) سورة يوسف / ١٠٠.

قال: الصلاة على وقتها) قلت: ثم أي؟ قال: (برُّ الوالدين) قلت: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)[1].

أقول: إن منا من وفقه الله تعالى وأعانه على البر بوالديه في حياتهما، ومنا من لم يوفق إلى ذلك الفضل العظيم والخير العميم والرحمة الواسعة، ومنا من لم يسعد بوالديه أو أحدهما وهو شاب يستطيع القيام ببرهما، فقد يموت أحدهما أو كليهما وما يزال الإنسان صغيراً لا يدري إلا القليل، فأما من وفقه الله تعالى إلى أن يكون باراً بوالديه، في حياتهما، فهنيئاً له بذلك، وعليه ألا يحرم نفسه من مواصلة برهما بعد وفاتهما، امتداداً للخير له ولهما على السواء، رحمة من الله وفضلاً، وأما من لم يوفق إلى البر بوالديه في حياتهما، أو لم يتمتع بهما وهو قوي راشد يمكنه برهما، فإن الصدقة عليهما فرصة طيِّبة للبر بهما بعد وفاتهما، ولقد بلغ من فضل الصدقة أنها مع غيرها من أعمال البر التي يصل ثوابها إلى المتوفى، تمحوا العقوق الذي صدر من أولادهما تجاه والديهما، قال ﷺ: (إن الله لا يحب العقوق)[2].

فكم من الناس من أساء إلى والديه في حياتهما ولم يعبأ بحقهما وبرهما والرحمة بهما، حتى إذا تقدمت به السن، وكان له أولاد، وعلم كيف هي رحمة الآباء والأمهات بأولادهم، وبَذْلِهِمَا كل شيء حتى

(١) البخاري (٢٦/١٠) مسلم (٨٥).

(٢) صحيح، صحيح الجامع (١٨٥٠) والصحيحة (١٦٥٥) رواه أبوداود والنسائي والحاكم والبيهقي ومالك عن رجل ضمري.

حياتهما في رضا واختيار وسرور في سبيل أولادهما، ندم وتحسر على ما فرّط وقصّر وضيّع من أجر عظيم، ثم ما تَحَمَّل أيضاً من وزر ثقيل بسبب العقوق، ويقول كيف أصلح ما مضى، كيف أعوض الوالدين عن برهما وأكفر عن عقوقي لهما، وما هو السبيل المشروع إلى ذلك، وهل يمكن أن أَدْرَأَ عَنِّي حالة العقوق الشديدة هذه، يوم أن أبعث وأقف بين يدي الله تعالى، والجواب على كل ما تقدم، بـ (نعم) يمكن ذلك وهذا هو الدليل، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد ليموت والداه أو أحدهما، وإنه لهما لعاق، فلا يزال يدعو لهما ويستغفر لهما حتى يكتبه الله باراً)[1].

وعن مالك بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (استغفار الولد لأبيه من بعد الموت من البر)[2]، وأخرج أحمد ـ رحمه الله ـ بسند رجاله، رجال الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنى لي هذه، فيقول: باستغفار ولدك لك)[3].

وعَنْ أبي أسيد مالك بن ربيعة الشاعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال: يا رسول

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أخرجه أحمد عن أبي هريرة بسند رجاله رجل الصحيح، وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: (إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)، وأخرجه ابن ماجة (٣٦٦٠) وحسنه الألباني، في صحيح ابن ماجة (٢٩٥٣) وفي الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

الله، هل بقي من بِرّ أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما، فقال: (نعم، الصلاة عليهما ـ أي بالدعاء لهما ـ والاستغفار لهما، وإنفَاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما)[1].

ولا شك أن الصدقة حينما تكون بين يدي الاستغفار والدعاء للوالدين، يكون الأثر الرحيم أبْـرَكُ وأعلى، وهي أيضا مع الدعاء والاستغفار متفق على وصول ثوابهما، بل إن الصدقة لأكثر تأكيداً للبر بالوالدين، لما فيها من الكلفة وتقديم المال العزيز على النفس، فلنحرص على البر بالوالدين في حياتهما، وبعد وفاتهما، ولنواصل البر بهما، صدقة ودعاءً واستغفاراً.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٩٧/٣) وسنن أبي داود (٥١٤٢) وابن ماجة (٣٦٦٤) وفي سنده علي بن عبيد الساعدي، ولم يوثّقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات، وأخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

تاسعاً: المتصدق في ظل صدقته يوم القيامة:

هذه عجيبة من عجائب الصدقات، إنها شيء يرجوه كل مؤمن، ويتمنَّاه كل تَقيّ، ويتشوّق إليه كل وَليّ، ألا وهو ظل الله تعالى للعبد يوم القيامة، يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّ الله عز وجل.

عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (كل امرئٍ في ظِلّ صدقته حتى يُقْضَى بين الناس)[1].

وروى ابن خزيمة عن يزيد بن أبي حبيب، عن مَرْثَد بن عبدالله اليَزَني: أنه كان أوَّلَ أهل مصر يروح إلى المسجد، وما رأيتُه داخلاً المسجد قطُّ إلا وفى كمِّه صدقة، إما فلوس، وإما خبز، وإما قمح، حتى رُبَّمَا رأيتُ البَصَل يحمله، قال: فأقول يا أبا الخير: إن هذا يُنْتِنُ ثيابك، قال: فيقول: يابن أبي حبيب، أما إني لم أَجد في البيت شيئاً أتصدق به غيره، إنه حدّثني رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: (ظِلُّ المؤمِنِ يوم القيامة صدقته)[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشابٌّ نشأَ في عبادة الله تعالى، ورجُلٌ قلبُه معلَّقٌ في المساجد، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه، وتفرَّقا عليه، ورجل دعته امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجمال، فقال: إني أخاف الله،

(١) صحيح، رواه أحمد (١٤٧/٤) وابن خزيمة (٢٤٣١) وابن حبان (٣٢٩٩) في صحيحيهما، والحاكم (٤١٦/١) وقال: صحيح على شرط مسلم، وهو في صحيح الجامع (٤٥١٠) وفي صحيح الترغيب والترهيب (٨٦٢).

(٢) صحيح، رواه ابن خزيمة (٢٤٣٢) في صحيحه.

ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينه، ورجُلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)[1].

القيامة وأهوالها:

إن ما جاء في القرآن الكريم، وفي سنة رسول الله ﷺ، من كشف تلك الأهوال التي تحيط بالناس يوم القيامة، إنما هو دعوة إلى المنهج المتكامل الذي على المسلم سلوكه في الدنيا، وهو يمضي ما قدّر له من العمر، فلا ينْسَى وهو في الدنيا، أن الدار الآخرة هي دار القرار، وأنها هي الحياة الحقيقية، كما قال الله تعالى في سورة (العنكبوت): ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾[2]، كما لا يغفل عن تلكم العظائم، التي تطبع مشاهد القيامة يوم الحشر الأكبر، ولقد أخذ الصحابة - رضوا الله عليهم - بهذا المنهج، كذلك فعل من تبعهم بإحسان عَبْر تاريخ الأمَّة الطويل، روى ابن أبي شيبة في (مُصَنَّفه) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: (إنما أخاف عليكم اثنين: طول الأمل، واتباع الهوى، فإن طول الأمل يُنْسِي الآخرة، وإن اتباع الهوى يصدّ عن الحق، وإن الدنيا قد ترَحَّلَتْ مُدْبرة، وإن الآخرة مُقْبِلَة، ولكل واحد منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل) وقد جاء عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يُكْثِر في خطبته أن يقول: (شَرُّ

(١) متفق عليه، البخاري (١١٩/٤)، ١٢٤، ومسلم (١٠٣١).

(٢) سورة العنكبوت / ٦٤.

العَذَل ـ أي الملامة والعتب ـ عند الموْت، وشرّ الندامة يوم القيامة)[1]، وهذه المعرفة عن يوم القيامة وما يكون فيه من أهوال عظيمة، يجب أن يتم الارتباط بينها وبين حركة المسلم على هذه الحياة الدنيا، ليكون يومها من الناجين.

صفة حال الناس وهم في الموقف العظيم

إذا انتهى الناس إلى الموقف الذي أعده الله تبارك وتعالى مكاناً لاجتماع خلقه فيه في ذلك اليوم العظيم، وشرَّفَهُ جَلَّ جلالُه بالنزول فيه لفصل القضاء بين عباده، فإن الخلق يكونون فيه على ما لا يُتَصَوَّرُ ولا يُدْرَكُ كُنْهُه من القَلَقِ والخوف العظيم، وقد جاء في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية الشريفة أوصافاً كثيرة لهذا الموقف العظيم، كما يتبيَّنُ ذلك من عرض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الآتية:

أولاً: صفة ذلك في القرآن الكريم:

قال الله تعالى في وصْف خَوْف وَامْتلاء الخَلائق بالغَمّ، ووقوف قلوبهم في حَناجرهم: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾[2]، قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوْف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة، والسّدّي، وغير واحد، ومعنى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ

(١) القيامة ـ مشاهدها وعظاتها في السنّة النبوية، للدكتور محمد أديب صالح ط ـ المكتب الإسلامي ـ بيوت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٤م ـ المجلد الأول ص ١٥١.

(٢) سورة غافر / ١٨.

﴿ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ
﴿٤٣﴾﴾[1].

وقال جل شأنه مبيِّناً حال الكفار وما يصيبهم من الفزع الشديد لهول ما يروْن وذلّتهم وفراغ قلوبهم من كل شيء: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾[2].

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ خطاب للرسول ﷺ، والمراد تثبيته على ما هو عليه، من أنه مطَّلع على أحوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه خافية، والوعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة، أو هو خطاب لكل من توهّم غفلته جهلاً بصفات الله تعالى واغتراراً بإمْهَالِه، و﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ ﴾ الكافرون من أهل مكة وأمثالهم، إنما يؤخر عذابهم ليوم ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ أي: ترتفع فيه أبصارهم فلا تَقَرُّ في أماكنها لهول ما ترى، يقال: شخص بصر فلان، أي: فتحه فلم يَغْمِضه،﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين إلى الداعي ومقْبِلين، وأصله الإقبال على الشيء ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ أي: رافعيها إلى السماء ناظرة أمامها ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ ﴾ لا يرْجع إليهم بصرهم، بل تبقى عيونهم شاخصة لا تطرف، ﴿ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ أي: قلوبهم خالية من العقل والفهم،

---

(١) تفسير ابن كثير ط دار طيبة ـ الرياض ـ الطبعة الثالثة ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥هـ المجلد السابع.

(٢) سورة إبراهيم / ٤٢ و٤٣.

لفزعهم وفرْط الحيرة والدهشة[1].

وقال عز ذكره في بيان حال المؤمنين والكافرين، وما امتاز به كل فريق من علامات الشقاء أو السعادة: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2].

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قرأ هذه الآية فقال: تبْيَضُّ وجوه أهل السّنة، وتسودّ وجوه المنافقين.

قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: إذا كان يوم القيامة رُفِع لكل قوم ما كانوا يعبدونه، فيسعى كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، وهو قوله تعالى: ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[3]، فإذا انتهوا إليه حَزِنوا فتَسْوَدُّ وُجُوهُهم من الحُزْن، وبَقِيَ أهل القِبْلة واليهود والنصارى لم يعرفوا شيئاً مما رُفع لهم، فيأتيهم الله تعالى فيسجد له من كان يسجد في الدنيا مطيعاً مؤمناً، ويبقى أهل الكتاب والمنافقون لا يستطيعون السجود، ثم يُؤْذنُ لهم فيرفعون رؤوسهم، ووجوه المؤمنين مثل الثلج بياضاً، والمنافقون وأهل الكتاب إذا نظروا إلى وجوههم حَزِنُوا حزناً شديداً فاسْوَدَّتْ وجوههم، فيقولون: (ربنا

---

(١) التفسير المنير، للدكتور وهبة الزحيلي ط دار الفكر ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م / ١٣ / ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) سورة إبراهيم / ٤٢ و٤٣.

(٣) سورة النساء / ١١٥.

مالنا مُسوَدَّةٌ وجوهنا، فوالله ما كنا مشركين؟ فيقول الله للملائكة: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[(١)].

قال أهل المعاني: ابْيِضَاضُ الوجوه: إشْرَاقُها واسْتِبْشَارُها وسرُورُها بعملها وبثواب الله، واسْوِدَادُها: حُزْنُهَا وكآبتُها وكسوفُها بعملها وبعذاب الله، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[(٢)]، وقال سبحانه: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ ﴾[(٣)]. وقال جل شأنه: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ ﴾[(٤)] [(٥)].

إن الوجوه تَسوَدُّ ـ والعياذ بالله ـ وتكون كَالِحَةً مغبَّرةً ذليلة، لأن أرواح أصحابها كانت تعيش في الدنيا على ظلمة الكفر وعَفَنِ الذنوب ودخان المعاصي، فانطبعت النفس على الوجه، بما على صاحبها من الجرائر السيئة، وبدأ بالمسْوَدَّة في الجزاء، لأن المقام مقام ترهيب ونكاية بأهل الكفر والضلال، فيقال لهم توبيخاً: (أكفرتم) يا سود الوجوه وعبيد الشهوات (بعد إيمانكم) بما جُبِلْتُم عليه من الفِطَر السليمة، ومكّنتُم به من العُقُول المستقيمة، من النَّظر في الدّلائل، ثم بما أخذَ عليكم أنبياؤكم من العهود (فذوقوا العذاب) أي: الأليم العظيم (بما

---

(١) سورة الأنعام / ٢٤.
(٢) سورة يونس / ٢٧.
(٣) سورة القيامة / ٢٢ ـ ٢٤.
(٤) سورة عبس / ٣٨ ـ ٤٠.
(٥) تفسير البغوي ط دار طيبة ـ الرياض ـ الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٣م ـ المجلد الثاني / ٨٧.

كنتم تكفرون) وأنتم تعلمون، فإنكم في لعنة الله ماكثون[1]، وقال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]، قال الإمام الطبري ـ رحمه الله: يقول تعالى ذكره: وترى يا محمد يوم تقوم الساعة أهْلَ كل مِلّة وَدِينٍ جاثية: يقول: مُجْتَمِعَة مُسْتَوْفِزة على رُكَبِها من هول ذلك اليوم، وكذا قال مجاهد، وابن زيد، والضحّاك[3].

وقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾[4]

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ ﴾ أي: كيف تَقُون أنفسكم ﴿ إِن كَفَرْتُمْ ﴾ أي: إن بقيتم على كفركم ﴿ يَوْمًا ﴾ أي: عذاب يوم ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ لشدَّة هوله، أي: يصير الوِلْدان شيوخاً، والشّيب جمع أَشْيَب، وهذا يجوز أن يكون حقيقة، وأنهم يصيرون كذلك، أو تمثيلاً، لأن مَنْ شاهد الهوْل العظيم تقاصرَتْ قواه، وضعفتْ أعضاؤه، وصار كالشيخ في الضَّعْف وسقوط القوة، قال ابن أبي الحديد: يقال في اليوم الشديد: إنه لَيُشِيبُ نَوَاصيَ الأطفال، كلام جاري مجرى المثل، وليس ذلك على حقيقته، لأن الأُمَّةَ مجمعة على أن الأطفال لا تتغيَّرُ حُلاهم في الآخرة

(١) انظر: نظم الدرر للإمام برهان الدين البقاعي ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ـ المجلد الثاني / ١٣٤.

(٢) سورة الجاثية / ٢٨.

(٣) تفسير الطبري (جامع البيان) ط دار الفكر ـ بيوت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م المجلد الثالث عشر ـ الجزء الخامس والعشرون / ١٥٤.

(٤) سورة المزمّل / ١٧ و١٨.

إلى الشَّيْب، والأصل في هذا، أن الهموم والأحزان إذا توالت على الإنسان شابَ سريعاً، قال أبوالطيب:

والـهَـمُّ يـخْـتَـرِم الجسـيـم نحافة

ويُشـيـبُ ناصيـةَ الـصَّـبـيّ ويُـهْـرِمُ

وقوله: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾: وصف لليوم بالشدة أيضاً، وأن السماء على عِظَمِهَا وإِحْكَامِها تنفطر فيه، أي: متشققة به لشدّته وعظيم هوله، فما ظنك بغيرها من الخلائق[١].

وقال جل ثناؤه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾[٢]، فهؤلاء الذين جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، يودُّون يوم القيامة لو تسوى بهم الأرض، أي: تبتلعهم ويكونون تراباً وعَدَماً، كما قال تعالى في سورة النبأ: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾[٣]، إن الكافر لَمَّا يَرَى البهائم بعد القصاص لها صارت تراباً، يتمنَّى وهو في عذابه أن لو كان تراباً مثل البهائم، ولولا العذاب وشدته ودوامه لما تمنى أن يكون ترابا[٤]، وقال

(١) انظر: فتح القدير للإمام الشوكاني، ط دار الوفاء ـ المنصورة ـ جمهورية مصر العربية ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م ـ المجلد الخامس / ٣١٦، (تحقيق د عبدالرحمن عميرة)، وانظر: تفسير القاسمي لعلامة الشام محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤م ـ المجلد السابع / ٢٠١.

(٢) سورة النساء / ٤٢.

(٣) سورة النبأ / ٤٠.

(٤) أيسر التفاسير (الجزائري) المجلد الخامس / ٥٠٦.

سبحانه: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾[1].

يقول الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله: وَالصَّاخَّةُ لفظ ذو جَرَس عنيف نافذ، يكاد يخْرَقُ صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شَقّاً، حتى يصل إلى الأذن صَاخّاً مُلِحّاً!

وهو يمهّد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذي يليه، مشهد المرء يَفرُّ وينْسَلِخُ من أَلْصَقِ الناس به، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ ﴾... أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنْفَصِم، ولكن هذه الصَّاخّة تمزق هذه الروابط تمزيقاً، وتقطع تلك الوشائج تقطيعاً، والهول في هذا المشهد عظيم، يُفْزِعُ النفس ويفصلها عن محيطها، ويستبدّ بها استبداداً، فلكلٍّ نَفْسُهُ وَشَأْنُه، ولكلٍّ هَمُّهُ الخاص به، الذي لا يَدَعُ له فَضْلَةً من وعْيٍ أو جهْد ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ والظلال الكامنة وراء هذه العبارة وفي طَيَّاتها ظلال عميقة سحيقة، فما يوجد أخصر ولا أشمل من هذا التعبير، لتصوير الهمّ الذي يشغل الحِسَّ والضّمير.. ذلك حال الخلق جميعاً في هَوْل ذلك اليوم[2].

هذا، والآيات كثيرة في وصف هذا اليوم العظيم، يوم القيامة، وما يقع فيه من الكرب الشديد، والفزع العظيم، وما يكون عليه الخلق من

(١) سورة عبس / ٣٣ ـ ٣٧.

(٢) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ط دار الشروق ـ بيروت ـ الطبعة الشرعية الثانية عشرة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ـ المجلد السادس / ٣٨٣٤.

أحوال وصفات شَتَّى، بينها القرآن الكريم تمام البيان، حتى إنها لتكاد أن تصل إلى أن يتخيلها الإنسان وكأنها قد وقعت، لظهورها وكثرة العناية بها، وإبرازها في صورة واضحة جليَّة، وفي أساليب متعددة مؤثرة.

ثانياً: صفة يوم القيامة في السنة النَّبوية الشريفة:

وأما في السنة النبوية، فقد جاء فيها أن العَرَقَ يبلغ من الإنسان على مقدار عمله، فمن الناس من يبلغ العرق إلى إنصاف أذنيه، ومنهم من يلجمهم إلْجَاماً، ومنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حِقْوَيْه، فهم على حالات شتى، ومصداق هذا ما يأتي:

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[1]، قال: يقوم أحدهم في رَشْحِه إلى أنصاف أذنيه)[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يَعْرَقُ الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقُهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويُلْجِمُهُم حتى يبلغ آذانهم)[3]، وفي رواية مسلم (سبعين عاماً، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس)[4]، ولهذا فإن الإنسان ليتمنى من شدة الهول والعرَق أن يُذْهَب

---

(١) سورة المطففين / ٦.

(٢) متفق عليه، البخاري (١١/٣٩٢) ومسلم (٥/٧١٤).

(٣) متفق عليه، البخاري (١١/٣٩٢).

(٤) مسلم (٥/٧١٥).

به ولو إلى النار ويستريح منه، كما ورد عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (إن الرجل ليُلْجِمُه العرَق يوم القيامة فيقول: يا رب أَرِحْني ولَوْ إلى النار)[1].

وفي الصحيح عن عدي بن حاتم أن رسول الله ﷺ قال: (ثم ليقفَنَّ أحدكم بيْن يدى الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترْجم له، ثم ليقولَنَّ له: أَلَمْ أُوتكَ مالاً؟ فَلَيَقُولَنَّ بلى، ثم ليقولَنَّ: ألم أُرسِل إليك رسولاً؟ فليقولَنَّ بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فَلْيَتَّقِيَنَّ أحدُكم النار ولو بِشِقّ تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة)[2].

وفي هذا الموقف الرهيب يكون للشَّمْسِ وقْع شديد على الناس، فهي تدْنو من رؤوس البشر - رغم حرارتها الهائلة - حتى تكون مقدار ميْل، وللإنسان أن يتصور ما يلحق أهل الموقف من حرارتها، وهذا ما رواه المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تُدْنَى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم مقدار مَيْل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرَق، فمنهم من يكون إلى كعْبيْه، ومنهم من يكون إلى ركْبَتَيه، ومنهم من يكون إلى حِقْوَيَه، ومنهم من يُلْجِمُهُ العرَقُ إلجاماً، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه)[3]، وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (تدنُو الشمس من الأرض فيعرَق الناس، فمن

---

(١) قال المنذري: (٣٩٠/٤) رواه الطبراني في الكبير بإسناد جيّد، ولعل هذا خاص بغير المؤمنين.
(٢) صحيح البخاري (٢٨١/٣).
(٣) أخرجه مسلم (٧١٥/٥).

الناس من يبلغ عرقُه عَقِبَيْه، ومنهم من يبلغ الخاصرة، ومنهم من يبلغ مَنْكِبَيْه، ومنهم من يبلغ عنقه، ومنهم من يبلغ وسط فِيه ـ أي: فمه ـ وأشار ـ أي عقبة بن عامر ـ بيده فَأَلْجَمَهَا فاه، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا، ومنهم من يغطّيه عرقه، وضَرَب بيده إشارة)[1].

وهنا قد يَرِدُ على أذهان بعضهم سؤال: من أين هذا العرق؟ هل هو من الإنسان نفسه؟ أم من غيره؟ ثم ما سبب هذا العرق كله؟

وقد أجاب الإمام النووي ـ رحمه الله ـ فيما يَعْزُوهُ إليه البرديسي عن ذلك بقوله: قال النووي: يحتمل أن المراد بالعَرَق عرَقُ نفسه وغيره، ويحتمل عرَق نفسه خاصة، قال: وسبب كثرة العَرَق تراكُم الأهوال ودنُوّ الشمس من رؤوسهم.

على أنه لا ينبغي أن يستبعد الإنسان مثل هذه الحالات في أهل الموقف، فلا يقالُ مثلاً: كيف يغرق أحدُهم بعرَقه ويكون الذي يقرْبه ـ مثلا ـ عرقه إلى ركبتيه؟ لأنا نقول: إن أحوال الآخرة لا تقاسُ على أحوال الدنيا، فهي أمور غيبية، ومَرَدُّها إلى قدرة الله تبارك وتعالى، فهو القادر أن يجعل واحداً يغْرَقُ في عَرَقه، وآخر لا تصيبه قطرة من الماء، وهو على كل شيء قدير، ويُقَرِّبُ لنا هذا المعنى ما حصل لموسى ـ عليه السلام ـ عندما ضرب البحْر بعصاه، فانْفَلَقَ فكان كل فرْق كالطَّوْد العظيم، فمشوا فيه، ومع ذلك لم يصب الماءَ أَحَداً منهم، قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ

(١) حديث صحيح، رواه أحمد والطبراني والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[1]، ومعنى ﴿ فَٱنفَلَقَ ﴾ أي: انشق: ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ أي: شقّ أي الجزء المنفرق، كالجبل العظيم[2]، فهذا دليل مشاهد محسوس من قدرة الله تعالى، قوم دخلوا في البحر جميعاً، هؤلاء نجوا ـ موسى وقومه ـ وأولئك أُغرِقوا ـ فرعون وجنده.

وكل ذلك بقدرة الله تعالى، فكذلك العرَق في الآخرة[3].

قال الإمام ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله: وأخرج ابن المبارك وابن أبي شيبة، واللفظ له، بسند جيّد عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تُعْطى الشمس يوم القيامة حَرَّ عشر سنين، ثم تدْنو من جَمَاجِم الناس، حتى تكون قاب قوْسيْن، فيعْرقُون حتى يرشح العرق في الأَرض قامة، ثم يرتفع حتى يغرغر الرجل، ثم ذكر صاحب الفتح ما ورد في صحيح ابن حبان من قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة حتى يقول: يا رب أرحني ولو بالنار)، ثم يعلق ابن حجر العسقلاني على ما تقدم فيقول:

ومن تأمل الحالة المذكورة عرف عظم الهول فيها، وذلك أن النار تحف بأرض الموقف، وتدنو الشمس من الرؤوس قدر ميل، فكيف تكون حرارة تلك الأرض، وماذا يرويها من العرق حتى يبلغ منها سبعين ذراعاً

---

(١) الشعراء / ٦٣ ـ ٦٥.

(٢) أيسر التفاسير (الجزائري) المجلد / ٣ / ٦٥٢.

(٣) انظر: الحياة الآخرة للدكتور غالب بن علي عواجي ـ المكتبة العصرية الذهبية ـ جدّة الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م ـ المجلد الأول / ٢٤٣ ـ ٢٥٠.

مع أن كل واحد لا يجد إلا قدر موضع قدمه، فكيف تكون حالة هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم فيه، ويتابع الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله فيقول: إن هذا لما يبهر العقول ويدل على عظيم القدرة، ويقتضي الإيمان بأمور الآخرة، أن ليس للعقل فيها مجال، ولا يعترض عليها بعقل ولا قياس، ولا عادة، وإنما يؤخذ بالقبول ويدخل تحت الإيمان بالغيب، ومن توقف في ذلك دلَّ على خسرانه وحرمانه، ثم ختم رحمه الله تعليقه هنا فقال: وفائدة الإِخْبَارِ بذلك أن يتنبه السامع فيأخذ في الأسباب التي تخلصه من تلك الأهوال، ويبادر إلى التوبة من التبعات ويلجأ إلى الكريم الوهاب في عونه على أسباب السلامة، ويتضرع إليه في سلامته من دار الهوان وإدخاله دار الكرامة بمنه وكرمه[1].

أقول: في هذا اليوم الأعظم والموقف المزلزل والحر الشديد، والشمس الملتهبة القريبة والقلوب الواجفة والأبصار الخاشعة، والناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، في هذا اليوم المشهود تتجلى رحمة الله على عباده الصالحين، فتظللهم أعمالهم الصالحة، ويقيهم الله تعالى شر الشمس وحرارتها، ومن الأعمال الصالحة ، الصدقة الخالصة لله تعالى.

وهذا والله فضل عظيم، ومِنَّة كبرى من الله الرؤوف الرحيم بعباده المتصدقين، الخلق يقفون تحت الشمس الحارقة، ويغرقون في العَرَق الملْتهب، وقد أحيط بهم فلا يستطيعون فراراً ولا يقدرون على

(١) فتح الباري / ١١ / ٤٠٢ ط المكتبة السلفية ـ شارع الفتح ـ الروضة القاهرة. الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ.

شيء، والمتصدقون والمتصدقات ينعمون في ظل الله الظليل، يوم لا ظل إلا ظل الله تعالى.

فأي ظِلٍّ كريم هذا الذي شرفه الله تعالى بنسبته إليه؟

المراد بظل الله تعالى:

إضافةُ الظلّ إلى الله تعالى إضَافَةُ تَشْرِيف.

قال القسطلاني: ظِلُّ الله، أي: ظل عرشه يوم لا ظل في القيامة ودُنُوِّ الشمس من الخلْق إلا ظله.

وقال النووي في شرح مسلم: (١٢٠/٧): قال القاضي: المراد هنا ظل العرش، والمراد أنه يكون يوم القيامة، إذا قام الناس لرب العالمين، ودنت منهم الشمس واشتد حَرُّها، وأخذهم العَرَق، كلٌّ واحد منهم على قدْر حاله وعمله، ولا ظل هناك لشيء إلا العرْش.

وقال الشيخ عطية محمد سالم: إن حقيقة الإظلال بالعرْش لا نستطيع تكييفها كتكييفِنا للظل في الدنيا، لأن الشمس من كواكب السماء الدنيا، فأين هي من العرش حتى تعلُوه، فيكون هو الحاجز دونها ويستظلون بظله، والخلاصة في أمر الظل ما قاله ابن عبدالبر: ومن كان في ظل الله - يوم القيامة - يوم لا ظل إلا ظل الله تعالى، نجا من هوْل ذلك الموقف إن شاء الله تعالى، والله أعلم، جعلنا الله منهم برحمته، آمين[1].

(١) التمهيد لابن عبدالبر (٢ / ٢٨٢) وانظر: ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله، للدكتور سيد حسين العفّاني ط دار العفّاني - القاهرة - خلف الجامع الأزهر. الطبعة الثانية عشر ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م ص ٦٩ - ٧٦.

عاشراً: الصدقة تدخل صاحبها الجنة:

ما أكرم الصدقة المقبولة عند الله تعالى، الذي يأخذ الصدقات من عباده بيمينه ويضاعفها لهم أضعافا كثيرة.

وما أسعد المؤمن بصدقته يوم القيامة، حيث يجعلها الله تعالى بفضله ومنِّته، سببا في دخوله الجنة، وَبَاباً له إلى الجنة، قال ﷺ في الصحيح: (أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفّق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفّف [متصدّق] ذو عيال)[1].

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَسْنَدتُّ النبي ﷺ إلى صدري فقال: (من قال لا إله إلا الله خُتِمَ له بها دخل الجنة، ومن صام يوماً ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة)[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (من أنفق زوجين في سبيل الله، نودي في الجنة يا عبدالله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعِيَ من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصَّدَقة دُعِيَ من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الريَّان، فقال أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأبي أنت

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (محمد ناصر الألباني) مكتبة المعارف ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م ص ١٨.

(٢) رواه أحمد بإسناد لا بأس به.

وأمي، ما علَى مَنْ دُعِيَ من هذه الأبواب ضرورة، فهل يُدْعَى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم)[1].

فهذه الأحاديث الشريفة المباركة، تُعْلِمُنا بكل وضوح أن المتصدق ابتغاء مرضاة الله تعالى، هو من أهل الجنة، وما أدراكم ما الجنة؟ إنها أسمى وأعظم وأغلى ما يتمناه المؤمن ويصبو إليه من ربه تعالى ذي الجلال والإكرام.

والحديث عن الجنة ونعيمها وما أعد الله فيها للمؤمنين، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ومما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر.. حديث محبب إلى نفس كل مؤمن ومؤمنة.

والحديث عنها في القرآن الكريم والسنة المطهرة، حديث طويل وجميل، وحسبنا في هذا المقام، أن نذكر بعضاً من أوصافها وجمالها وكمالها وأحوال أهلها فيها.

الجنة هي دار المتقين، دارُ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، دارٌ جنانها تجري من تحتها الأنهار، دار قصورها لَبِنَةٌ من ذهب ولبنة من فضة، طينها المسك الفيّاح، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، وخيامها اللؤلؤ المجَوَّف، هي والله نور يتلألأ، ورَيْحَانة تهْتَزّ، ونهر مطَّردٌ، وفاكهة وخضرة، وزوجات حسان.

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد أخرجه البخاري مختصراً في كتاب الصوم ـ باب الريان برقم (٩٦٣) عن أبي هريرة.

فيها الجمال المبين، والحور العين، فيها النعيم الدائم، فيها كل شيء باسِم، فيها يُرْفع الحجاب فينظر الفائزون إلى وجه العزيز الوهاب.

ومما جاء في وصف الجنان في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[1].

وقال الحنان المنان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[2].

وقال عز ذكره: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[3].

وقال الحميد المجيد: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾[4].

(١) سورة الحجر / ٤٥ ـ ٤٨.

(٢) سورة الحج / ٢٣.

(٣) سورة الدخان / ٥١ ـ ٥٥.

(٤) سورة محمد / ١٥.

وقال الرحمن الرحيم: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

ومما جاء في وصف الجنة في السنة المطهرة:

قال ﷺ: (إن أوّل زُمْـرَة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشدِّ كوكب دُرِّيٍّ((٢)) في السماء إضاءة، لا يَبُولُون ولا يَتَغَوَّطون ولا يَمْتَخِطون ولا يَتْفلون، أَمْشَاطُهُم الذهب، وَرَشْحُهم[3] المسك، وَمَجامِرُهم الأَلُـوَّة[4]، وأزواجهم الحور العين، أخلاقُهُم على خلقِ رَجُلٍ واحد، على صورة أبيهم آدم: ستون ذراعاً في السماء)[5].

(١) سورة الواقعة / ١٠ ـ ٤٠.

(٢) ثابت مضيء عظيم المقدار.

(٣) ندى العرَق على الجسد.

(٤) المجمر: الذي يوضع فيه النار والبخور، والأُلُوَّة: هي العود الهندي الذي يتبخّر به.

(٥) متفق عليه، البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤) ورواه غيرهما.

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (يدخل أهل الجنَّةِ الجَّنَة جُرْداً مُرْداً مُكَحَّلِين بني ثلاثٍ وثلاثين)[1].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (إن هل الجنة ليتراءَوْن أهل الغُرَفِ من فوقهم كما يتراءَوْن الكوكب الدُّرِّيّ الغَابِرَ في الأفُقِ من المشرق والمغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)[2].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (إن للمؤمن في الجنة لَخَيْمَةً من لُؤْلُؤَةٍ واحدةٍ مُجَوَّفَة، طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً)[3].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر، اقرأوا إن شئتم: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[4] وموضع سوط من الجنة خير من الدنيا وما فيها، واقرأوا إن شئتم:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٥) وهو حسن بشواهده، وهو في صحيح الجامع (٧٩٢٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١).

(٣) متفق عليه، البخاري (٤٨٧٩) ومسلم (٢٨٣٨).

(٤) سورة الواقعة / ٣٠.

فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [1] [2].

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل: تريدون شَيْئاً أزيدكُم، فيقولون: أَلَمْ تُبَيّضْ وجوهَنا، ألم تُدْخلْنَا الجنة وتُنَجّنا من النار؟ قال: فَيُكْشَفُ الحجاب فما أُعْطُوا شيئاً أَحَبَّ إليهم من النظر إلى ربهم)، ثم تلا هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ [3] [4].

أرأيت أيها المؤمن المتصدق الكريم، هذا النعيم وهذا التكريم وهذا الملك العظيم الذي أعده الله تعالى لعباده الصالحين المتصدقين، فاحرص كل الحرص على أن تكون منهم، واستمر في العطاء لله تعالى طوال الحياة، يُيَسّرُك الله لكل خير، ويُيَسِّرُ لك طريق الجنة، يقول العليّ الأعلى والمولّي المولى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ [5].

والمعنى: أن من أعطى وبذل أمواله في سبيل الخير، واتقى الله تعالى في أموره، وصدّق بالمجازاة على ذلك، وهو دخول الجنة، كما روى

---

(١) سورة آل عمران / ١٨٥.

(٢) صحيح، رواه الترمذي (٣١٩٧) وروى البخاري بعضه (٣٢٤٤، ٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤).

(٣) يونس / ٢٦.

(٤) صحيح، رواه مسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٢) ورواه غيرهما.

(٥) سورة الليل / ٥ ـ ١١.

ابن أبي حاتم عن كعب في الصحيح قال: سألت رسول الله ﷺ عن الحسنى قال: الجنة)[1]، فسنيسره للخصلة التي هي الحسنى وهي عمل الخير، حتى يسهل عليه فعله، فيكون مآله الجنة.

وأما من بخل بما له واستغنى عن ربه عز وجل، وكذب بالجزاء على ذلك، فَسَنُهَيِّئُهُ للخصلة العسرى، ونسهّلها له، حتى يتَعسَّر عليه أسباب الخير والصلاح، ويضعف عن فعلها، فيؤديه ذلك إلى النار، ولا يغني عنه ماله يوم القيامة إذا ترَدَّى وسقط في النار[2]، نعوذ بالله من ذلك، اللهم اجعلنا من أهل الفردوس الأعلى، أمين.

---

(١) صححه نسيب الرفاعي في تيسير العلي القدير / ٤ / برقم ٦٣٨.

(٢) انظر: فتح البيان / ١٥ / ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

الباب الرابع
الصدقات غير المالية
الفصل الأول
صدقة نوم المتهجد

الفصل السادس
صدقة نوم المتهجد
ويشتملُ على ما يلي:

أولاً: صدقةُ الربِّ على المتهجِّدِ الذي غلبَتْهُ عيناهُ حتى أصبحَ.

ثانياً: الترغيبُ في قيامِ الليلِ من القرآنِ الكريمِ.

ثالثاً: الترغيبُ في قيامِ الليلِ من السنةِ المطهرةِ.

رابعاً: صلاةُ التَّهجدِ.

خامساً: حكمُ صلاةِ التهجدِ.

سادساً: وقتُ قيامِ الليلِ.

سابعاً: هديه ﷺ في القيامِ في السَّفَرِ.

تاسعاً: جوازُ التطوع جماعة أحياناً في قيامِ الليلِ.

عاشراً: آدابُ قيامِ الليلِ وتشتملُ على ما يلي:

١. ينوي عند نومه قيام الليلِ.

٢. يمسحُ النومَ عن وجههِ عند الاستيقاظِ.

٣. يفتح تهجده بركعتينِ خفيفتينِ.

٤. يستحبُّ أنْ يكونَ تهجدُهُ في بيته.

٥. المداومةُ على قيامِ الليلِ وعدمه قطعهِ.

٦ . إذا غلبَهُ النعاسُ ينبغي لهُ أن يتركَ الصلاةَ وينامَ حتى يذهبَ عنهُ النومُ.

٧ . يستحبُّ لهُ أن يوقظَ أهلَهُ.

٨ . يقرأ المتهجدُ جزءاً من القرآن الكريمِ، أو على حسبِ ما تيسَّرَ.

٩ . الجهرُ بالقراءةِ والإسرار بها في قيامِ الليلِ.

١٠ - طولُ القيامِ مع كثرةِ الركوعِ والسجودِ هو الأفضلُ في صلاةِ الليلِ.

١١ . عددُ الركعاتِ التي كانَ النبي ﷺ يصلّيها بالليلِ.

١٢ - يختمُ تهجدهُ بوترٍ.

١٣ - تعريفُ الوِتْرِ.

١٤ - حكمُ الوِتْرِ.

١٥ - وقتُ الوِتْرِ.

١٦ - ماذا يُقرأُ في الوِتْرِ.

١٧ - عددُ ركعاتِ الوِتْرِ وصفتهِ.

١٨ - ما يقولُ في قنوتِ الوِتْرِ.

١٩ - هل يجوزُ التنفلُ بعدَ الوِتْرِ؟ وهل يكررُ الوِتْرُ؟

٢٠ - هلْ يشترطُ أنْ يُسْبَقَ الوترُ بصلاةٍ شفْعٍ؟

٢١ - قضاءُ الوِتْرِ.

٢٢ - كم يقضي الوِتْرُ.

الحادي عشر: الأسبابُ المعينة على قيامِ الليلِ.

الثاني عشر: أحوالُ الصالحينَ مع الليلِ.

الثالث عشر: فضلُ قيامِ الليلِ:

ويشتملُ على النقاط التاليةِ:

١. خصَّ الله تعالى رسولَهُ محمداً ﷺ بقيامِ الليلِ على سبيلِ الوجوبِ زيادة له في عُلُوّ قدره.

٢. صلاةُ الليلِ أفضلُ الصلوات بعدَ المفروضَة.

٣. القائمُ بالليلِ مقامُه محمودٌ.

٤. قائمُ الليلِ منَ الشاكرينَ.

٥. قيامُ الليلِ دَأْبُ الصالحينَ.

٦. رحمةُ الله تعالى للزوجينِ المتعاونين على قيام الليلِ وكتابتهما من الذاكرينَ.

٧. أهلُ قيامِ الليلِ يسمونَ عبادُ الرحمن.

٨. أصحابُ قيامِ الليلِ هُم أهلُ الإيمانِ الكاملِ.

٩. نفي التَّسْويةِ بين قُوَّامِ الليلِ وبينَ غيرهم.

١٠ - المحافظون على قيامِ الليلِ محسنونَ مستحقون لرحمةِ الله تعالى وجنته.

١١ - لا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهم من قُرَّةِ أعينٍ.

١٢ - قيامُ الليلِ بابٌ عظيمٌ لدخولِ الجنةِ وعلوّ الدرجاتِ.

١٣ - القائمون بالليل لهم غُرَفٌ خاصةٌ في الجنةِ.

١٤ - قيامُ الليلِ يغبطُ عليه صاحبهُ لعظيم ثوابه.

١٥ - قراءةُ القرآنِ في قيامِ الليلِ غنيمةٌ عظيمةٌ.

١٦ - قائمُ الليلِ مستحقٌ لمدح الرسول ﷺ.

١٧ - قائمُ الليلِ يُعْطَى ما سأَلَ.

١٨ - قيامُ الليلِ شرفٌ عظيمٌ للمؤمنِ.

١٩ - قُوَّامُ الليلِ من الذين يحبُّهم اللهُ تعالى ويضحكُ إليهم ويسْتَبْشرُ بهم.

٢٠ - قائمُ الليلِ يعطيه الله ما رجا ويؤمّنهُ ممَّا يخافُ.

من ٢١ - ٢٤ . قيامُ الليلِ يقرِّبُ منَ اللهِ تعالى، ويكفرُ السيئاتِ، وينهى عن الإثُم، ويطردُ الداءَ من الجسدِ.

٢٥ - قيامُ الليلِ بابٌ عظيمٌ من أبوابِ الخيرِ.

٢٦ - أهلُ قيامِ الليلِ ينادي عليهم يوم القيامةِ ويكرمون بالسبق إلى دخول الجنة.

٢٧ - نزولُ الملائكةِ والسكينةِ وحضورُ عمار الدار صلاة المصلِّي بالليلِ لاستماعِ القرآن.

٢٨ - القيامُ لصلاةِ الليلِ يحررُ القائم منْ عقدِ الشيطانِ.

٢٩ - القائمُ بالليلِ الذي غلبهُ النومُ يكتبُ له قيامُهُ بنيّتهِ، ويكونُ نومُهُ صدقةٌ عليه.

أولاً: صدقةُ الربِّ على المتهجدِ الذي غلبتهُ عيناهُ حتى أصبح:

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أتَى فِرَاشَهُ وهوَ ينْوي أنْ يقومَ يُصَلّي من الليلِ، فَغَلَبَتْهُ عيناهُ حتى أصبحَ، كُتِبَ لَهُ ما نَوَى، وكانَ نومُه صدقةً عليه مِن ربِّه**»[1].

من أعجبِ الصدقاتِ الإلهيةِ التي يمنُّ اللهُ بها على عبادِه، هذه الصدقةُ التي يتحدثُ عنها هذا الحديثُ الشريفُ، إنها بحقٍّ عجيبةُ العجائبِ من الصدقاتِ.

إنها ليستْ صدقةً بمالٍ ولا بعملٍ، ولا بقولٍ للغيرِ، ولا للنفسِ، إنها صدقةٌ في مقابلةِ نومٍ، وعظمتها أنها من اللهِ العليِّ الأعلى والولي المولى، وقد اختصَّ اللهُ بها كلَّ منْ لهُ صفةُ هذا العبدِ، الذي أوَى إلى فراشهِ، وهو ينوي بصدْقٍ أن يقومَ ليصلِّي بالليلِ لربِّهِ تعالى، لكنَّ النومَ غَلَبَهُ فلمْ يقْم بالليلِ، ولمْ يؤدّ صلاةَ التهجُّدِ، كان المتوقعُ والأمرُ كذلك، أن يعذره ربُّه لغلبةِ النومِ عليهِ، فقدْ صحَّ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهُ قالَ: «**رُفِعَ القلمُ عن ثلاثةٍ، عن المجنون المغلوب على عقله حتى يَبْرَأ، وعن النائمِ حتى يستيقظَ،**

---

(١) صحيح رواه النسائي (٣/٢٥٨)، وابن ماجة بإسناد جيّد، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك، عن أبي الدرداء، وهو في صحيح الترغيب (١٩، ٦٠٠)، وصحيح أبي داود (١١٨٧): ابن نصر. وفي صحيح الجامع برقم (٥٩٤١) وقال: (حسن).

وعن الصّبيّ حتى يحتلمَ»[1].

لكن سعةِ رحمة اللهِ تعالى التي كتبها لعبادهِ المتقينَ، شاءتْ إلا أنْ تكتبُ لهُ ثوابَ ما نوى من صلاةٍ وقراءةٍ للقرآنِ وذكر لله تعالى، كما كان يفعلُ كلَّ ليلةٍ.

ولم يقفْ الكرمُ الإلهي عند هذا الحد، بل تعداهُ إلى ما هو أعلى من ذلك لقد جعل الله نومَهُ صدقةً عليه من ربِّه ذي الجلالِ والإكرامِ، ولا حرجَ على فضل الله تعالى، وما دامت صدقةٌ من اللهِ تعالى عليه فهي مقبولةٌ ولا شك في ذلك، واللّه تعالى إذا قبل من العبد شيئاً قبل معه كلَّ أعماله، فهنيئاً هنيئاً للمتهجدين لربهم، قياماً وركّعاً وسجداً، هذا، ولما كان هذا الحديث الشريف يتعلقُ بقيامِ الليلِ وصلاةِ التهجدِ، فسوفَ نتعرض لهذا الموضوعِ بشيءٍ من التفصيلِ لتمامِ الفائدة.

(١) صحيح، رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، والحاكم، وهو في الإرواء (٢٩٧) وفي صحيح الجامع الصغير (٣٥١٢).

ثانياً: الترغيبُ في قيام الليل من القرآن الكريم:

قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾(١). وقال سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾(٢).

وقال جل جلاله في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾(٣).

وقال عزَّ ذكره في سورة السجدة: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١١٣ - ١١٥.

(٢) الإسراء: ٧٩.

(٣) الفرقان: ٦٤.

(٤) السجدة: ١٦ - ١٧.

وقل جل ثناؤه في سورة الزمر: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[1].

وقال جلَّ ثناؤه في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾[2].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[3]. وقال سبحانه في سورة المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾[4].

---

(١) الزمر: ٩.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) الذاريات: ١٥ - ١٨.

(٤) المزمل: ١ - ٦.

وقال تبارك اسمه في سورة الإنسان: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

وسوف نتعرضُ لشرح هذه الآيات الكريمة عند الكلامِ على فضائلِ قيامِ الليلِ بحولهِ تعالى.

---

(١) الإنسان: ٢٦.

ثالثاً: الترغيبُ في قيامِ الليلِ من السنةِ:

عن سالم بن عبدالله بن عمر بن لخطاب، رضي الله عنهم، عن أبيه: أن رسول الله صلى الله لعيه وسلم قال: «**نعمَ الرجلُ عبد الله لو كان يصلّي من الليلِ**» **قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلكَ لا ينامُ من الليلِ إلا قليلاً**».[(١)]

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص . رضي الله عنهما . قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله لا تكنْ مثل فلان، كان يقومُ من الليلِ فتركَ قيام الليلِ**».[(٢)]

وعن عائشة . رضي الله عنها . قالت: كان النبي ﷺ يقومُ من الليلِ حتَّى تتفطَّرَ قدماهُ، فقلتُ لهُ: لم تصنعُ هذا يا رسول الله، وقد غُفر لكَ ما تقدَّمَ من ذنبكَ وما تأخَّر؟ قال: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً**»[(٣)].

وعن علي . رضي الله عنه . أنَّ النبي ﷺ طَرَقَهُ وفَاطمةَ ليلاً، فقال: «**ألا تُصَلِّيَان عنِ**».[(٤)]

وعن أبي هريرة . رضي الله عنه . قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصيامِ شهر المحرم، وأفضلُ الصلاة بعد الفريضةِ صلاةُ الليلِ**»[(٥)].

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣/٥)، ومسلم (٢٤٧٩).

(٢) متفق عليه، البخاري (٣/٢٣)، ومسلم (٧٧٤)، وأخرجه النسائي (٣/٢٠٤).

(٣) متفق عليه، البخاري (٨/٤٤٩)، ومسلم (٢٨٢٠) و(٢٨١٩).

(٤) متفق عليه، (٣/٨، ٩)، ومسلم (٧٧٥)، وأخرجه النسائي (٣/٢٠٥).

(٥) رواه مسلم (١١٦٣).

وعن عبدالله بن سلام ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن النبي ﷺ قال: «**أيها الناسُ أفشوا السلامَ، وأطعموا الطعامَ، وصلُّوا بالليلِ والناسُ نيامٌ، تد خلوا الجنةَ بسلامٍ**».[1]

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**أحبُّ الصلاةِ إلى الله صلاةُ داود، وأحبُّ الصيامِ إلى الله صيام داود، كان ينام نصفَ الليلِ ويقومُ ثُلُثَهُ وينامُ سدسهُ ويصومُ يوماً ويفطرُ يوماً**».[2]

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ «**أن رسول الله ﷺ كان ينامُ أولَّ الليلِ، ويقومُ آخرَهُ فيصلّي**».[3]

وعن جابر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «**إن في الليل لساعةً لا يوافقُها رجلٌ مسلمٌ يسأل الله تعالى خيراً من أمْرِ الدنيا والآخرةِ، إلا أعطاهُ إياهُ**»[4].

هذا، وستأتي أحاديث أخرى، تُشْرَحُ مع هذه الأحاديث للتدليل على فضائلِ قيامِ الليلِ ومكْرُمَاته، وعطاءِ الله تعالى الواسعِ للقائمينَ بالليلِ.

---

(١) صحيح، رواه الترمذي (٢٤٨٧)، وأخرجه أحمد (٤٥١/٥)، وابن ماجة (١٣٣٥)، والدارمي (١/٣٤٠)، وإسناده صحيح، وصححه الحاكم (١٣/٣)، ووافقه الذهبي، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند الحاكم (١٢٩/٤).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٣/٣)، ومسلم (٨١٦/٢).

(٣) متفق عليه، البخاري (٢٧/٣)، ومسلم (٧٣٩).

(٤) مسلم (٧٥٧).

رابعاً: صلاةُ التَّهجُّد:

تعريف التهجّد:

التهجدُ: هو صلاةُ التطوعِ ليلاً بعدَ نومٍ في أي ليلةٍ من ليالي العامِ.

قال الإمامُ الطبري: التَّهَجُّدُ: التيقّظ والسَّهرُ بعد نومه مِنَ الليلِ، وأما الهُجُودُ نفسه فالنومُ، قال الشاعر:[1]

ألا طَرَقَتْنَا والرفاقُ هجودُ   فباتت بِعُلاَّتِ النوالِ تجودُ

والعُلاَّت: جمع عِلَّة، اسم للمرّة من العَلّ، وهو السَّقْيُ الثاني بعدَ الأولِ.

والنوالُ: ما يعطيه الحبيبُ حبيبهُ من ثمرةِ الحبِّ.

وقال الإمامُ القرطبي: التهجُّدُ: التَّيَقّظُ بعد رَقْدَةٍ، فصار اسماً للصلاةِ، لأنهُ ينتبهُ لها.[2]

فالتهجدُّ: القيامُ إلى الصلاةِ من النومِ، والمتهجدُ: هو القائم إلى الصلاة من النومِ.[3]

---

(١) تفسير الطبري المجلد التاسع، ص ١٤١، ط١، دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) تفسير القرطبي المجلد العاشر، ص ٣٠٨، ط دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية.

(٣) انظر: لسان العرب، باب الدال فصل الهاء (٤٣٢/٣)، والقاموس المحيط، باب الدال فصل لهاء ص ٤١٨.

وقال الإمامُ ابنُ عاشور: التهجدُّ: الصلاةُ في أثناءِ الليلِ، وهُوَ اسْمٌ مُشتقٌ من الهجودِ، وهو النومُ.[1]

التهجدُ بالمعنى بالسابقِ، يوافقُ معنى (**الناشئة**) عند الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ القائلُ: الناشئةُ لا تكونُ إلاَّ بعدَ رَقْدة، ومن لم يرقُدْ فلا ناشئةَ له.[2] قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾[3]

فناشئةُ الليل: قيامُ الليلِ، قال ابن مسعود: الحبشةُ يقولونَ: نَشَأَ: أي: قامَ، ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾: أي أشدُّ موافقة بين القلب والبصر، والسمع واللسان، لانقطاعِ الأصواتِ والحركات، قاله مجاهد، وابن أبي مليكة وغيرهما، وقال ابن عباس بمعناه، أي: يواطئُ السمع القولَ، قال الله تعالى: ﴿**ليواطئوا عدة ما حرم الله**﴾[4]. أي: ليوافقوا، والوطاءُ خلافُ الغطاءِ.

هذا، وصلاةُ الليل تجوز في أولِ الليلِ ووسطِه وآخره، كلُّ ذلك فعل رسول الله ﷺ، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: «**ما كنا نشاء**

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، الجزء ١٤، ص١٤٦، ط مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) شرح منتهى الإرادات (للبُهُوتي) تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، المجلد الأول، ص ٥٠٧ – ٥٠٨.

(٣) المزمل: ٦.

(٤) التوبة: ٣٧.

أن نرى رسول الله ﷺ في الليل مصلياً إلا رأيناهُ، ولا نشاء أن نراهُ نائماً إلا رأيناهُ»[1].

(١) صحيح، أخرجه البخاري (١٠٩٠)، والنسائي (١٦٢٧)، واللفظ له، والترمذي (٧٦٩).

خامساً: حكم صلاة التهجد:

صلاة التهجد سنة مرغب فيها(١) فهي سنة مؤكدة ثابتةٌ بالكتابِ والسنةِ وإجماع الأمةِ. وكان قيامُ الليلِ فريضة أول الأمرِ ثم صارَ تطوعاً بعدَ ذلك في حقِّ الأمةِ سئلتْ أمّ المؤمنينَ عائشة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ عن قيام رسول الله ﷺ فقالتْ للسائلِ: ألستَ تقرأُ هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ قال: بلى، قالت: إن الله افترضَ القيامَ في أولِ هذه السورة، فقامَ نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفختْ أقدامُهم، وأمسَكَ الله خاتمتها اثنى عشر شهراً في السماء، ثم أنزل الله التخفيف في آخرِ هذه السورةِ، فصار قيامُ الليل تطوّعاً بعدَ فريضةٍ.(٢) وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله:

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾(٣)

قال: أمر الله نبيهُ والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً، فشقّ ذلك على المؤمنين، ثم خفَّف الله عنهم ورحمهم وأنزل بعد هذا ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾(٤).

---

(١) انظر: كشاف القناع عن متن الإقناع، الشيخ منصور بن يونس البهوتي، بتحقيق: إبراهيم أحمد عبدالحميد، ط دار عالم الكتب ـ الرياض، طبعة خاصة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣، المجلد الأول (٥١٥). (٢) مجموع فتاوى ومقالات لابن باز، (١١/٢٩٦).

(٢) صحيح، رواه مسلم (١/٢٥٦)، والبيهقي (٤/٤٩٩)، وأبو داود في باب صلاة الليل.

(٣) المزمل: ٢.

(٤) المزمل: ٢٠.

فوسَّعَ الله ولم يضيّق، قال: كان بين الآيتين سنة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾، ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ إلى آخر السورة.

وعن الحسن. رحمه الله تعالى قال: الحمدُ لله الذي جعلَ قيامَ الليلِ تطوعاً بعد فريضة. وعن قتادة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾.[(١)]

افترضَ اللهُ قيامَ الليلِ في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً، فأمسكَ اللهُ خاتمتها في السماء اثنى عشر شهراً، ثم أنزلَ اللهُ التخفيفَ في آخرها، فصار قيامُ الليلِ تطوعاً منْ بعدِ فريضة، قال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فنسخت هذه الآيةُ ما كانَ قبلها. وعن مجاهد في قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ قال: رخَّص لهم في قيامِ الليل. وعن عكرمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ قال: لَبِثُوا بذلك سنة فشقَّ عليهم وتورَّمَت أقدامُهم، ثم نسختها آخر السورة في قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾.[(٢)]

---

(١) المزمل: ١ – ٤.

(٢) انظر: مختصر قيام الليل لشيخ الإسلام أبي عبدالله محمد بن نصر المروَزي، اختصرها العلامة أحمد بن علي المقريزي، ط مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤، ص ٢٣ – ٢٤، وانظر: كتاب التهجد للإمام أبي محمد عبدالحق بن عبدالرحمن الإشبيلي، حققه مسعد عبدالحميد السَّعْدَني وآخر، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤، ص ١٥٩، وانظر: كتاب الصلاة والتهجد للإمام السابق بتحقيق عادل أبو المعاطي ص ٢٦٣، ط دار الوفاء ـ المنصورة بجمهورية مصر العربية ـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

هذا وقولُ الرسول ﷺ: «**أفضلُ الصلاةِ بعدَ الفريضة قيامُ الليل**».[1] يؤكدُ سُنِّيَّةَ صلاة التهجدَ وقيام الليل. وقد أجمع المسلمون على ذلك.

(١) رواه مسلم، كتاب الصيام، برقم ١١٦٣.

سادساً: وقتُ قيام الليل:

صلاةُ الليلِ تجوزُ في أوَّلِه، ووسطه، وآخره، لحديث أنس ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «**كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر نظُنُّ أن لا يصومَ منه، ويصومُ حتى نظنّ أن لا يفطرَ، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته**».[1]

وهذا يدلُّ على التيسير، فعلى حسب ما تيسَّرَ للمسلمِ يقومُ، ولكن الأفضلَ أن يكونَ القيامُ في الثلثُ الآخرِ من الليلِ، لحديث عمرو بن عبسة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أنه سمعَ النبي ﷺ يقول: «**أقربُ ما يكونُ الرَّبُّ من العبدِ في جوفِ الليلِ الآخرِ، فإن استطعتَ أن تكون ممن يذكرُ الله في تلك الساعةِ فكنْ**» رواه الطبراني بلفظ: «**أفضلُ الساعاتِ جوفُ الليلِ الأخيرِ**».[2]

ومما يزيد ذلك وضوحاً حديث أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليلِ الآخر فيقولُ: «من يدعوني فأستجيب لهُ، من يسألُني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ (فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجرُ)**»[3].

(١) رواه البخاري في (كتاب التهجد) برقم ١١٤١.

(٢) رواه الترمذي في (كتاب الدعوات) برقم ٣٥٧٩، وأبو داود بنحوه في (كتاب التطوع) برقم (١٢٧٧)، والنسائي في (كتاب المواقيت) برقم ٥٧٢، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٨٣/٣) ورواه الطبراني في الكبير، وغيرهم وهو في الصحيحة (٥٥١)، وصحيح الجامع (١١٠٦).

(٣) متفق عليه، البخاري (١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

وعن جابر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن في الليل لساعةً لا يوافقُها عبد مسلم يسألُ اللّه خيراً من أمرِ الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كلّ ليلةٍ**».[(١)]

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عله وسلم قال لهُ: «**أحبُّ الصلاةِ إلى اللّه صلاة داود عليه السلامُ، وأحبُّ الصيامَ إلى اللّه صيامُ داود، وكان ينامُ نصفَ الليلِ، ويقومُ ثلثهُ، وينامُ سدسهُ، ويصومُ يوماً ويفطرُ يوماً، ولا يَفِرُّ إذا لاقى**».[(٢)]

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت حينما سُئلت: أي العمل كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ؟ قالتْ: الدائم، قلتُ: متى كان يقوم؟ قالت: كان يقومُ إذا سمعَ الصارخُ[(٣)].

وفي حديثها الآخر - رضي الله عنها - «**إن كان رسول اللّه ﷺ ليوقظه اللّه من الليلِ، فما يجيء السَّحَرُ حتى يفرغَ من حزبهِ**».[(٤)]

وأفْضَلُ وقتٍ للاستغفارِ هو وقت السحَرِ، وهوَ السدسُ الأخيرُ

---

(١) رواه مسلم في (كتاب المسافرين) برقم ٧٥٧.

(٢) متفق عليه، البخاري في (كتاب التهجد)، برقم ١١٣١، ١٩٧٩م، ومسلم في (كتاب الصيام) برقم (١١٥٩).

(٣) الصارخ: الديك إذا صاح.

(٤) رواه أبو داود في «كتاب التطوع» برقم ١٣١٦، وحسنه لألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٢٤٤/١).

من الليلِ، لقوله تعالى في وصف عبادهِ المتقين: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨﴾[1]. وقال تعالى في حقِّ المتقين المستحقين لجنائه: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾.[2]

عن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما ـ كان يحيى الليلَ صلاة ثم يقولُ: يا نافع أأسحرْنا؟ فأقولُ: لا، فيعاود الصلاة، فإذا قلتُ: نعم، قعد يستغفرُ اللهَ ويدعو حتى يصبحَ.

وعن الحسن ـ رحمه الله ـ ﴿وبالإسحار هم يستغفرون﴾ قال: مدُّوا الصلاة إلى السحر، ثم دعوا وتضرّعوا، وفي رواية: مدُّوا العقبَ منَ الليلِ، فكانَ الاستغفارُ من السحرِ من آخر الليلِ.

وكان عبدالله بن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يخرجُ من ناحية داره مستخفياً ويقولُ: «**اللهم دعوتني فأجبتُك، وأمرتني فأطعتُكَ، وهذا السحرُ فاغفر لي؟ فقال: إن يعقوب ـ عليه السلام ـ حين سوّف بنيه ـ أي قال لهم: «سوف أستغفر لكم ربّي إنه هو الغفور الرحيم**».[3]

أَخَّرَهم إلى السَّحَرِ.

---

(١) الذاريات: ١٨.

(٢) آل عمران: ١٧.

(٣) مختصر قيام الليل (٩٧ – ٩٦).

وعن إبراهيم التميمي ـ رحمه الله ـ في قول يعقوبَ ـ عليه السلام ـ لبنيه ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ قال: أَخَّرَهم إلى السَّحَرِ.

وعن الجريري أن داود ـ عليه السلام ـ قال لجبريل ـ عليه السلام ـ أيُّ الليلِ أفضلُ؟ قال: ما أدري، غيرَ أنَّ العرشَ يهتزُّ من السَّحَرِ.[1]

وقال سيار: قلت لبكر بن أيوب: يا أبا يحيى: أكانَ أبوكَ يجهرُ بالقراءةِ من الليلِ؟ قالَ: نعم جهراً شديداً، وكان يقومُ من السَّحَرِ الأعلى.

وقال حفص بن ميسرة الصنعاني عن أبي هشام: ينادي منادٍ من أولِ الليلِ: أين العابدون؟ قالَ: فيقومُ أناسٌ فيصلّون بين المغربِ والعشاءِ، ثم يأتي وسطُ الليلِ فيقولُ: أين القانتون؟ فيقوم ناسٌ فيصلّون لله في وسطِ الليلِ، ثم يأتي بالسَّحَر فيقول: أين العاملون؟ قال: هم المستغفرونَ بالأسحارِ.

وعن أبي يعقوب الضبي قال: سمعتُ جعفر بن محمد يقول: من صلَّى من الليلِ ثم استغفر في آخرِ الليلِ سبعينَ مرة، كتب من المستغفرين بالأسحارِ.[2]

---

(١) مختصر قيام الليل (٩٧ – ٩٦).

(٢) المرجع السابق (٩٨ – ٩٧)، وانظر: تفسير الطبري المجلد الثالث، ص (٢٠٩ – ٢٠٨).

سابعاً: هدْيَهُ ﷺ في القيام في السَّفَر:

ما كان رسول الله ﷺ ليترك قيام الليل في السفر، وهو أول من يعلم ما في قيام الليل، من خير كثير، وفضل عظيم، وثواب جزيل، من الله رب العالمين.

عن حميد بن عبدالرحمن قال: إن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قال: قلت: وأنا في سفر مع رسول الله ﷺ، والله لأرْقُبَنَّ رسول الله ﷺ للصلاة حتى أرى فعله، فلما صلى صلاة العشاء وهي العتمة، اضَّطجَعَ هَوِياً من الليل، ثم استيقظ فنظر في الأُفق فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[١]

ثم أَهْوَى رسول الله ﷺ إلى فراشه فاسْتَلَّ مِنْهُ سِوَاكاً، ثم أَفْرَغَ في قدح من إدَاوَةٍ عنده ماء، فاسْتَنَّ، ثم قام فصلى حتى قلتُ: قد صلى قدر ما نام، ثم اضَّطجَعَ حتى قلت: قد نام قدْر ما صلى، ثم استيقظَ ففعلَ كما فعل أول مرة، وقال مثل ما قال، ففعل رسول الله ﷺ ذلك ثلاث مرات قبل الفجر.[٢]

وعن عبدالله بن عامر بن ربيعة أن أباه أخبره أنه رأى النبي ﷺ،

---

(١) آخر أية (١٩١) من سورة آل عمران.

(٢) إسناده صحيح، رواه النسائي في سننه، وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم، انظر: حديث رقم (١٢٠٩) (مشكاة المصابيح)، وقال عبدالقادر الأرناؤوط: إسناده حسن.

صلى السَّبُحَةَ بالليل في السفر على ظهر راحلته حيث توجهت به.[1]

وعن عبدالله بن عمر . رضي الله عنهما . قال: «**رأيت رسول الله ﷺ إذا أعجله السَّيْرُ في السفر يؤخِّر صلاة المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء، قال سالم: وكان عبد الله يفعله إذا أعجله السَّيْر، ويقيم المغرب فيصليها ثلاثاً، ثم يُسَلِّم، ثم قلَّمَا يَلْبَثُ حتى يقيم العشاء فيصليها ركعتين، ثم يسلم، ولا يَسْبَحُ بينهَما بركعة، ولا بعد العشاء بسجدة، حتى يقوم من جوف الليل**».[2]

قال سالم: كان عبدالله بن عمر يصلي على دابته من الليل وهو مسافر، ما يبالي حيثُما كان وجهه، قال ابن عمر: «**وكان رسول الله ﷺ يَسْبَحُ على الراحلةِ قبل أي وجْهٍ تَوَجَّهَ، ويُوتِرُ عليها، غير أنه لا يصلى عليها المكتوبة**».[3]

ومن هذه الأحاديث نرى أن رسول الله ﷺ، كان يتهجَّدُ ويصلي الليْلَ في السفرِ، ونَفْيُ التطوّع في السفر ليس محمولاً على الوِتْرِ، أو صلاة الليل، وأنه ﷺ كان يتطوَّعُ على الدابةِ.

قال الشافعي: ثبت عن النبي ﷺ، أنه كان يَتَنَفَّلُ ليلاً وهو يُقْصِر،

(١) رواه البخاري في (الوتْر في السفر)، ومسلم في (صلاة المسافرين) باب: جواز النافلة على الدابة في السفر، وأحمد في مسنده.

(٢) رواه البخاري في (تقصير الصلاة) باب: هل يؤذن أو يقيم.

(٣) رواه البخاري في (تقصير الصلاة) باب: ينزل للمكتوبة.

وفي الصحيحين عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**كان رسول الله ﷺ يصلي في السفر على راحلته حيث توجَّهَتْ، يُومِئُ إيمَاءً صلاة الليل، إلا الفرائض، ويوتر على راحلته**»[1] [2].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٢/٤٠٧) في الوتر، ومسلم (٧٠٠) في صلاة المسافرين. وكذا أخرجه (النسائي) في (القِبْلَة) باب: الحال التي يجوز عليها استقبال غير القِبْلة.

(٢) انظر: زاد المعاد (١/٤٧٣ – ٤٧٥)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط، ط. مؤسسة الرسالة ـ الطبعة السابعة والعشرون (٦ مجلدات) ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، وانظر: رهبان الليل، د. سيد العفاني (١/٢٦٢ – ٢٦٥)، ط دار العفاني، الطبعة الثالثة والعشرون ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

ثامناً: قضاءُ قيامِ الليلِ

وذلك إذا فاتته صلاة الليل من مرض أونام عنه.

عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ: «**كان إذا فاتتهُ الصلاة من الليل من وَجَعٍ أو غيره، صلى من النهار ثِنْتَيْ عشرة ركعة**».[1]

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أثبته، وكان إذا نام من الليل أو مرض، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، قالت: وما رأيت رسول الله ﷺ قام ليلة حتى الصباح، وما صام شهراً متتابعاً إلا رمضان**».[2]

ومن حديث لها عند مسلم: «**كان نبي الله ـ ﷺ ـ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها، وكان إذا غلبه نوُم أو وَجَع عن قيام الليلِ، صلى من النهار ثنتيْ عشرة ركعة...**» الحديث.

ولها عند الترمذي: «**كان النبي ﷺ إذا لم يُصَلِّ من الليْل منعه من ذلك النوم، أو غلبتْه عيناه، صلى من النهار ثِنْتَيْ عشرة ركعة**».[3]

قال صاحب «تحفة الأحوذي»: أي: فيما بَيْن صلاة الفجر

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٧٤٦)، (١٤٠) واللفظ له، ورواه الترمذي والنسائي.
(٢) رواه مسلم، واللفظ له، ورواه أبو داود.
(٣) رواه الترمذي في الجامع ـ كتاب الصلاة ـ باب منه، وقال: حديث حسن صحيح.

والظهر، وفيه دليل على استحباب المحافظة على الصلاة، وحثَّ على ذلك أمته، وبَيَّنَ الوقت الذي يقضي فيه صلاة التهجد.

متى يقضي من نام عن حزبه من الليل؟

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من نام عن حِزبه[1]، أو عن شيء منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل»**.[2]

وهذه منة من الله تعالى على عبده المتهجد الذي اعتاد على حِزْبٍ له كل ليلة، فإذا فاته هذا الفضل ليلاً، لغلبة النوم عليه، كان له فسحة ليأتي به من صلاة الفجر إلى صلاة الظهر، فلا يحرم من ثوابه الذي يعطيه الله له، لو أدَّاهُ ليلاً.

وفي الحديث الشريف استحباب المحافظة على الأَوْرَاد، وأنها إذا فاتَتْ تُقْضَى، قال صاحب «عوْن المعبود»: والحديث يدل على مشروعيّة اتخاذ وِرْدٍ في الليل، وعلى مشروعية قضائه، إذا فات لِنَوْم أو عُذْرٍ من الأعذار، وأن من فعله فيما بين صلاة الفجر إلى صلاة الظهر، كان كمن فعله في الليل.

أما ما جاء فيمن كانت له صلاة بالليل غلبه عليها النوم، وأنها تكتب له أجر صلاته، فلا تعارُض بينها وبين القضاء، فكما قال صاحب «عوْن المعبود»: فلِلْمُحَافَظَةِ على العَادة التي يحبها الله ورسوله

---

(١) «حزبه»: هو ما يجعله المسلم على نفسه من صلاة أو قراءة أو ذكر.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٧٤٧) واللفظ له، ورواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجة، والترمذي، وابن خزيمة.

ولمُضاعَفَةِ الأجر، والله أعلم.

قال الإمام السيوطي: **قوله:** «**من نام عن حِزْبه**» أي: من نام في الليل عَنْ وِرْدِه، والحَمْلُ على الليلِ بقرينة النوم، ويشهد له آخر الحديث، وهو قوله: «**ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر**» ثم الظاهر أنه تَحْرِيضٌ على المبادرة، ويحتمل أن فضل الأداء مع المضاعة مشروط بخصوص الوقْت، وفي الحديث دليل على أن النوافل تُقْضَى.

وقال أيضاً: **الحِزْبُ:** هو الجزءُ من القرآن يُصلَّى به.اهـ[1]

(١) انظر: رهبان الليل (العفاني) الجزء الأول من ٢٧٥ - ٢٧٧، وصحيح فقه السنة (أبو مالك) الجزء الأول ٤١٦، ورياض الصالحين بتحقيق شعيب الأرنؤوط من ٤٦٤ - ٤٦٩.

تاسعاً: جوازُ التطوعِ جماعةً أحياناً في قيامِ الليلِ:

كانَ أكثرُ تطوعِ النبي ﷺ منفرداً، وأحياناً كان يصليه جماعةً، فصلى بحذيفة . رضي الله عنه . مرةً.[1] وابن عباس . رضي الله عنهم . مرَّة[2] وبأنس وأمه واليتيم مرةً[3] وبابن مسعود مرة[4] وبعوف بن مالك مرة[5] وصلى بأنسٍ وأمِّه، وأمِّ حرام خالةُ أنسٍ مرةً[6] وصلى بعتبان بن مالك وأبي بكر مرة[7] وَأَمَّ أَصْحَابَهُ . رضي الله عنهم . في بيت عثمان . رضي الله عنه . مرة[8] ولكن لا يتخذُ ذلكَ سنةً راتبة، وإنما إذا فعلَ ذلكَ أحياناً، فلا بأسَ، إلا صلاةَ التراويحِ، فإنَّ الجماعةَ فيها سنّةٌ دائمة[9].

---

(١) مسلم برقم (٧٧٢).

(٢) متفق عليه، البخاري (٩٩٢) ومسلم (٨٢، ٧٦٣).

(٣) مسلم برقم (٦٥٨).

(٤) متفق عليه، البخاري (١٣٥) ومسلم (٧٧٣).

(٥) أخرجه أبو داود برقم (٨٣٧) والنسائي برقم (١٠٤٩).

(٦) مسلم برقم (٦٦٠).

(٧) متفق عليه، البخاري (١١٨٦) ومسلم (٣٣) .

(٨) انظر المغني لابن قدامة (٥٦٧/٢).

(٩) انظر: الاختيارات الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٩٨.

عاشراً: «آدابُ قيامِ الليّلِ» وتشتملُ على ما يلي:

١ ـ **يَحْتَسِبُ النَّوْمَةَ والقَوْمَةَ**: وذلكَ ليحصلَ على الأجر في جميعِ أحوالِه، في النَّوم، وفي اليقظةِ، وقد تذاكرَ معاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنهما ـ الأعمالَ الصالحةَ، فقالَ معاذُ: يا عبدالله[1] كيفَ تقرأُ القرآنَ؟ قال: أَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقاً[2] قال: فكيفَ تقرأُ أنت يا مُعاذ؟ قال: أنامُ أول الليلِ، فأقومُ وقد قضيتُ جزئي من النومِ، فأقرأ ما كتب الله لي، فأَحْتسبُ نَوْمَتي كما أَحُتَسِبُ قَوْمتي.

وفي رواية «**فقال معاذ لأبي موسى: كيفَ تقرأ القرآنَ؟ قالَ: قائماً، وقاعداً، وعلى راحلتي، وأتفوَّقُهُ تفوُّقاً، قال: أما أنا فأقومُ وأنامُ، فأحتسبُ نَوْمَتي كما أحتسبُ قومتي**»[3].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «ومعناه أنه يطلبُ الثوابَ في الراحةِ كما يطلبهُ في التَعبِ، لأنَّ الراحةَ إذا قُصِدَ بها الإعانَةَ على العبادَةِ حصَّلت الثواب»[4].

قال الدكتور سعيد القحطاني: وسمعتُ الإمام عبدالعزيز بن

(١) أبو موسى الأشعري اسمه عبدالله بن قيس.

(٢) أي: ألازم قراءته ليلا ونهاراً، شيئاً بعد شيء وحيناً بعد حين، مأخوذ من فواق النَّاقة، وهو أن تحْلَبَ ثم تترك ساعة، حتى تدرَّ، ثم تُحلَب هكذا دائماً، انظرفتح الباري لابن حجر (٦٢/٨) عن كتاب «صلاة المؤمن» د سعيد القحطاني ص٣٧١.

(٣) متفق عليه، البخاري (٤٣٤١) واللفظ له، ومسلم (١٧٣٣).

(٤) فتح الباري ٦٢/٨.

عبدالله بن باز - رحمه الله - يقولُ: وهذا فيه حسنُ سيرة الصحابة وغيرتهم، والمذاكرةُ فيما بينهم، وفيه الاحتسابُ حتى النَّوْمَةُ والقَوْمَةُ، فالمسلمُ ينظمُ وقتَهُ، وينظمُ أمورَهُ: ساعةً للقرآنِ، وساعة لأمورهِ الأخرى، وساعةً لأهلهِ[(١)].

٢ - ينوي عندَ نومهِ قيامِ الليلِ، وينوي بنومه التقوى على الطاعةِ، ليحصلَ على الثوابِ على نومه، لحديث عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من امرئٍ تكونُ له صلاةٌ بليلٍ، فغلبَهُ عليها نومٌ، إلا كتِبَ لهُ أجرُ صلاتهِ، وكانَ نومُهُ صدقةً عليهِ**»[(٢)] ولحديث أبي الدرداء أن النبي ﷺ قالَ:

«**مَنْ أتى فراشَهُ وهو ينوي أن يقوم يصلِّي من الليلِ، فغلبْتهُ عيناهُ حتى أصبحَ، كُتِبَ لهُ ما نوى، وكان نومُهُ صدقة عليهِ من ربِّهِ عزَّ وجلَّ**»[(٣)].

٣ - يمسحُ النومَ عن وجههِ عندِ الاستيقاظِ، ويذكرُ اللهَ تعالى، ويتسوَّكُ ويقولُ: «**لا إله إلا اللّه وحدهُ لا شريكَ لهُ، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، سبحانَ اللّه، والحمد للّه،**

---

(١) صلاة المؤمن ٣٧٢.

(٢) رواه النسائي في (كتاب قيام الليل) برقم ١٧٨٤، وأبو داود في (كتاب التطوع) برقم ١٣١٤، ومالك في الموطأ (١/١١٧) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١/٦٣٨) وفي إرواء الغليل (٢/٢٠٥).

(٣) رواه النسائي في (كتاب قيام الليل برقم ٦٨٧، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١/٣٨٦) وفي إرواء الغليل (٤٥٤). وصحيح الجامع (٥٩٤١).

ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبر، ولا حول ولا قوةَ إلاَّ باللّه العليِّ العظيم، ربِّ اغفر لي»، لحديث عبادة بن الصامت ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ قال: «**من تَعَارَّ منَ الليلِ فقالَ: «لا إلهَ إلا اللّه وحدهُ لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِ شيءٍ قديرٌ، الحمد للّه، وسبحانَ اللّه، ولا إله إلاَّ اللّه، واللّه أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللّه، ثم قالَ: اللهم اغفرْ لي، أو دَعَا استجيب (له)»**[1] [2].

وفي حديث ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ قال: «... **استيقظ رسول اللّه ﷺ فجعلَ يمسحُ النومَ عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران...**»[3] من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ

---

(١) (له) زادها ابن ماجة في سننه برقم ٣٨٧٨.، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢/٣٣٥).

(٢) رواه البخاري في (كتاب التهجد) برقم ١١٥٤.

(٣) رواه مسلم في (كتاب صلاة المسافرين) برقم ١٨٢، وأصل الحديث متفق عليه.

ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ
وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ
ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ
جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا
عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ **إلى آخر السورة، وتعداد الآيات
بالضبط (إحدى عشرة آية) من ١٩٠ إلى ٢٠٠.**

وعن حذيفة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «كان النبي ﷺ إذا قامَ من الليلِ يشوصُ فاهُ بالسواك»(١).

وعن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانَ النبي ﷺ إذا قامَ من الليلِ يتهجدُ قالَ: اللهم لكَ الحمدُ، أنت

(١) متفق عليه، البخاري (كتاب الغسل) برقم ٢٤٥، ومسلم (كتاب الطهارة) برقم ٢٥٤.

قَيِّمُ السماواتِ والأرضِ، ومن فيهن، ولكَ الحمدُ، لك ملكُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنّ، ولكَ الحمدُ، أنتَ نورُ السماواتِ والأرضِ ومن فيهنّ، ولكَ الحمد، أنتَ ملكُ السماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنّ، ولكَ الحمدُ، أنتَ الحقُّ ووعدُكَ الحقُّ، ولقاؤكَ حقٌّ، وقولكَ حقّ، والجنةُ حقّ، والنارُ حقّ، والنبيونَ حقّ، ومحمد ﷺ حقّ، والساعة حقّ، اللهمَّ لك أسلَمْتُ وبكَ آمنتُ، وعليكَ توكلتُ، وإليكَ أنبتُ، وبكَ خاصمتُ، وإليكَ حاكمتُ، فاغفر لي ما قدمتُ وما أَخَّرْتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ، لا إلهَ إلاَّ أنتَ»(١).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قالَ: «**لا إله إلا أنتَ لا شريكَ لكَ، سبحانك، اللهمَّ أستغفرُكَ لذنبي، وأسألكَ رحمتكَ، اللهم زدني علماً ولا تُزغْ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنكَ رحمةً، إنك أنتَ الوهّابُ**»(٢).

٤ ـ يفتح تهجّدّهُ بركعتينِ خفيفتينِ:

لحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**كان رسول اللّه ﷺ إذا قامَ من الليلِ ليصلّي افتتحَ صلاتَه بركعتينِ خيفتينِ**»(٣).

(١) متفق عليه، البخاري (١١٢٠) و(٦٣١٧) ومسلم (٧٦٩) وأبو داود (٧٧١) والترمذي (٣٤١٨) والنسائي (٣/٢٠٩ ـ ٢١٠) في المجتبي، ورواه غيرهم.

(٢) رواه أبو داود (٥٠٦١) والنسائي (٨٦٥) في عمل اليوم والليلة، والحاكم في المستدرك (١/٤٥٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن حبان (٥٥٣١) الإحسان.

(٣) رواه مسلم، (كتاب صلاة المسافرين) برقم ٧٦٧.

٥ ـ يستحبُّ أن يكونَ تهجدُّهُ في بيته: لأنَّ النبي ﷺ كان يتهجدُ في بيتِه، ولحديث زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قالَ: «... **فعليكم بالصلاةِ في بيوتِكم، فإنَّ خيرَ صلاةِ المرءِ في بيتِه إلا الصلاةَ المكتوبةَ**»[1].

٦ ـ المداومةُ على قيامِ الليلِ وعدمِ قطعه:

يُستحبُّ أن يكونَ للمسلمِ ركعاتٌ معلومةٌ يداومُ عليها، فإذا نشَطَ طوَّلها، وإذا لم ينشَط خفّفها، وإذا فاتتهُ قضاها، لحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «**خذوا من الأعمالِ ما تطيقون، فإن الله لا يملُّ حتى تملّوا**» وكان يقولُ: «**أحبُّ العمل إلى الله ما داومَ عليهِ صاحبهُ وإن قَلَّ**»[2]

ولحديث عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال ليَ النبي ﷺ: «**عبدالله لا تكن مثلَ فلان، كانَ يقومُ منَ الليلِ فتركَ قيامَ الليلِ**»[3]

ولحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «... **وكانَ رسول الله ﷺ إذا صلّى صلاةً أحبَّ أن يداومَ عليها، وكانَ إذا غلبهُ نومٌ أو وَجعٌ عن قيامِ الليلِ، صلَّى من النهارِ ثنتي عشرةَ ركعةً**»[4]

ولحديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قالَ: قال رسول الله ﷺ:

(١) متفق عليه، البخاري برقم ٧٣١، ومسلم واللفظ له برقم ٧٨١.

(٢) متفق عليه، البخاري (٩٧٠) ومسلم واللفظ له (٧٨٢).

(٣) متفق عليه، البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١١٩).

(٤) رواه مسلم (٧٤٦).

«من نامَ عن حِزْبِه أو شيء منه فقرأَهُ فيما بينَ صلاةِ الفجرِ وصلاة الظهرِ كُتِبَ لهُ كأنَّما قرأَهُ من الليّلِ»[1].

٧ ـ إذا غلبهُ النعاسُ ينبغي له أن يتركَ الصلاةَ وينامَ حتى يذهب عنهُ النومُ:

لحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «**إذا نَعِسَ أحدكم في الصَّلاةِ فليرقد حتى يذهب عنهُ النومُ، فإنَّ أحدكم إذا صلّى وهوَ ناعِسٌ، لعلَّهُ يذهبُ يستغفرُ فيسبّ نفسهُ**»[2] ولحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ يرفعه: «**إذا قامَ أحدكم منَ الليلِ فاستعْجَم القرآن على لسانِه فلم يدْرِ ما يقولُ فليضطجع**»[3].

٨ ـ يستحبُّ له أن يوقظَ أهلَهُ:

لأن النبي ﷺ ـ كما سبق ـ «**كانَ يصلّى من الليلِ، فإذا أوتَرَ قال لعائشة ـ رضي اللّه عنها ـ قومي فأوتري يا عائشة**»[4].

وكانَ ﷺ يوقِظُ أزواجَهُ ويقولُ: «**أيقظوا صواحِبَ الحجراتِ**».

كما ذهبَ إلى ابنته فاطمة وعلى ـ رضي الله عنهما ـ يحثهما على صلاةِ الليّلِ ويقولُ لهما: «**ألا تصلّيان**» كما حثَّ الزوجينِ على معاونة كلٍّ منهما للآخرِ ليوقِظهُ لصلاةِ الليّلِ، وبين أنَّ في ذلك

---

(١) رواه مسلم (٧٤٧).

(٢) متفق عليه، البخاري (٢١٢) ومسلم (٧٨٦).

(٣) رواه مسلم (٧٨٧).

(٤) متفق عليه، البخاري (٩٩٧) ومسلم واللفظ له (٧٧٤).

الرحمةَ لهما من الله تعالى، وكتابتهما من الذاكرينَ، وقد سبقَ الكلامُ على ذلكَ بالتفصيلِ.

٩ ـ يقرأ المتهجدُ جزءاً من القرآنِ الكريمِ، أو أكثر، أو أقلّ، على حسبِ ما تيسَّرَ، معَ التدبّرِ لما يقرأ، وهو مخيّر بينَ الجهر بالقراءةِ والإسرارِ بها إلا أنَّه إنْ كانَ الجهرُ أنشطُ لهُ في القراءة، أو كانَ بحضرَتهِ من يستمعُ قراءتَهُ، أو ينتفعُ بها، فالجهرُ أفضلُ، وإن كانَ قريباً منهُ منْ يتهجَّدُ، أو مَنْ يتضرَّرَ برفعِ صوتِهِ، فالإسرارُ أولى، وإنْ لم يكنْ لا هذا، ولا هذا، فليفعل ما شاءَ(١).

وقد دلتِ الأحاديثُ على هذا كلِّهِ:

فعن عبدالله بن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «**صليتُ معَ رسول الله ﷺ ليلةً فأطالَ حتى همَمْتُ بأمرِ سوءٍ، قيلَ: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه**»(٢).

وعن حذيفة بن اليمان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قالَ: «**صليتُ معَ النبي ﷺ ذاتَ ليلةِ، فافتتحَ البقرةَ فقلتُ: يركعُ عند المائةَ، ثم مضى فقلتُ: يصلِّى بها في ركعةِ، فمضى فقلتُ: يركعُ بها، ثم افتتحَ النساءَ فقرأها، ثم افتتحَ آل عمران فقرأها، يقرأُ مَترسِّلاً، إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سَبَّح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سألَ، وإذا مرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذَ**»(٣).

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة ٢/٥٦٢.

(٢) متفق عليه، البخاري (١١٣٥) ومسلم واللفظ له (٧٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/٣٨٤، ٣٩٧) ومسلم (١/٥٣٦) والنسائي (٣/٢٢٦).

وعن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قمتُ معَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلةً، فقرأ سورةَ البقرةَ، لا يمر بآيةٍ رحمة إلا وقفَ فسألَ، ولا يمرَّ بآية عذابٍ إلا وقف فتعوّذَ، ثم ركعَ بقدرِ قيامهِ، يقولُ في ركوعه: «**سبحانَ ذي الجبروتِ، والملكوتِ، والكبرياءِ، والعظمة**» **ثم سجدَ بقدرِ بقيامه، ثم قال في سجودهِ مثلَ ذلكَ، ثم قامَ فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة**»[1].

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أنه رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلِّي منَ الليّلِ، فصلّى أربع ركعاتٍ، فقرأ فيهنَ: البقرة، وآل عمرانَ، والنساءَ، والمائدة أو الأنعامٍ**»[2].

وعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجلاً قرأَ المفصّلِ في ركعة، فقالَ لهُ: «**هَذًّا كهَذ الشِّعْرِ؟ لقد عرفتُ النظائر التي كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرن بينهنّ، فذكرَ عشرينَ سورة من المفصَّلِ سورتين من آل حم في كلِّ ركعة**»[3].

وفي لفظ: «**كانَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأهُنَّ اثنتين اثنتينِ في كلِّ ركعة**» وقالَ: عشرونَ سورةً من أولّ المفصل على تأليفِ ابن مسعود آخرهُنّ من الحواميم: «حم» الدخان، و)عم يتساءلون([4] وفي لفظ

(١) رواه أبو داود (كتاب الصلاة) برقم ٨٧٣ والنسائي (كتاب الافتتاح) برقم ١٠٤٩، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/١٦٦).

(٢) رواه أبو داود (كتاب الصلاة) برقم ٨٧٣، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/١٦٦).

(٣) متفق عليه، البخاري (كتاب الأذان) برقم ٧٧٥، ومسلم كتاب صلاة المسافرين برقم ٢٧٥.

(٤) رواه البخاري (كتاب فضائل القرآن) برقم ٤٩٩٦.

لمسلم: «عشرونَ سورة في عشر ركعات من المفصلِ في تآليف عبدالله»[(١)]
وفي لفظ لمسلم: «... **هَذًّا كهذِّا الشِّعْر، إنَّ أقواماً يقرأون القرآنَ لا يجاوزُ تَرَاقيهم، ولكن إذا وقعَ في القلبِ فرسَخَ فيه نفعٌ، وإنَّ أفضلَ الصلاةِ الركوعُ والسجودُ، إني لأعلمُ النظائرَ التي كان رسول الله ﷺ يُقْرنُ بينهنّ...**»[(٢)].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**قام رسول الله ﷺ بآية من القرآنِ ليلة**»[(٣)].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ **قال: «قامَ النبي ﷺ بآية حتى أصبحَ يردِّدُها، والآيـة: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾**[(٤)] [(٥)].

وما سبق من الأحاديثِ الشريفةِ يدلُ بوضوح على التنويعِ في القراءةِ في صلاةِ الليلِ، على حسبِ ما يفتح اللهُ بهِ، على عبدِهِ، وعلى حسَبِ الأحوالِ وقوةِ الإيمان.

١٠ ـ الجهرُ بالقراءةِ والإسرارُ بها في قيامِ الليّلِ:

---

(١) رواه مسلم (٢٧٦).
(٢) رواه مسلم (٢٧٥).
(٣) رواه الترمذي (كتاب الصلاة) برقم ٤٤٨، وصحح إسناده الألباني في صحيح الترمذي (١/١٤٠).
(٢) المائدة ١١٨.
(٥) رواه ابن ماجة (كتاب إقامة الصلاة) برقم ١٣٥٠، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١/٢٢٥) وصححه الأرنؤوط في حاشيته على جامع الأصول (٦/١٠٥).

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾[1].

والمخافتةُ: الإسرارُ، قيلَ: معناهُ: لا تُخافِتْ مخافتَةً لا يسمعُها من يصلّي خلفَك، والخفوتُ: خفضُ الصَّوتِ، قال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾ إنما ذلكَ في الدعاءِ[2].

وعن عبدالله بن أبي قيس قالك سألتُ عائشة . رضي الله عنها . كيف كانت قراءةُ النبي ﷺ بالليل؟ أكان يُسرُّ بالقراءة أم يجهرُ؟ فقالت: «**كلُّ ذلكَ قد كانَ يفعلُ، رُبَّمَا أسرَّ بالقراءةِ، وربَّما جهرَ، فقلتُ: الحمد لله الذي جعلَ في الأمرِ سَعة**»[3].

وعن عبدالله بن عباس . رضي الله عنهما . قال: «**كانت قراءةُ الرسول ﷺ ربّما يسمَعهُ من في الحجرةِ وهو في البيتِ**»[4].

---

(١) الإسراء: ١١٠.

(٢) شرح السنة (البغوي) بتحقيق علي معوض وآخر، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ الجزء الثاني ٤٥٤.

(٣) أخرجه أو دود (كتاب الوتر) برقم ١٤٣٧، والترمذي (كتاب فضائل القرآن) برقم ٢٩٢٤، والنسائي (كتاب قيام الليل وتطوع النهار) برقم ١٦٦٢، وابن ماجة (كتاب إقامة الصلاة) برقم ١٣٥٤، وأحمد (١٤٩/٦) وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٣٦٥/١) وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٠/١) في (كتاب صلاة التطوع، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أبو داود (كتاب اصلاة) برقم ١٣٢٧، والترمذي في (الشمائل المحمدية) باب ما جاء في

وروى عن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: «**كانت قراءةُ النبي ﷺ بالليّلِ يرفعُ طوْراً، ويخفضُ طوْراً**»[1].

وعن أبي قتادة ـ رض الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال لأبي بكر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: «**مررتُ بك وإنكَ تُصَلِّي تخفضُ صوتَكَ**» قالَ: قد أسمعتُ من ناجيتُ يا رسول الله، قال: «**ارفع قليلاً**» وقال لعمر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ مررتُ بكَ وأنتَ تصلِّي رافعاً صوتَكَ فقالَ: يا رسول الله: «**أوقظُ الوَسْنان، وأطردُ الشيطان، قال: «اخفض قليلاً**»[2]. والوَسْنَان: النَّعْسَان.

وعن عائشة ـ رضي اللهِ عنها ـ أن النبي ﷺ سمعَ رجلاً يقرأُ من الليلِ، فقالَ: «**يرحمهُ الله، لقد أذكرني كذا وكذا، آيةً كنتُ قد أسقطتُها من سورة كذا وكذا» وفي لفظ «كان النبي ﷺ يستمع قراءةَ رجل في المسجد فقالَ: «رحمه الله، لقد أذكرني آيةً كنت أُنْسِيتُها**»[3].

١١ ـ طولُ القيامِ مع كثرةِ الركوعِ والسجودِ هو الأفضلُ في

صقراءة رسول الله ﷺ برقم ٣١٤.

(١) أخرجه أبو داود (كتاب الصلاة) برقم ١٣٢٨، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٠/١) في كتاب التطوع وقال: هذا حديث صحيح الإسناد،، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أو داود في (كتاب التطوع) برقم ١٣٢٩، والترمذي (كتاب الصلاة) برقم ٤٤٧، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٤٧/١).

(٣) متفق عليه، البخاري (كتاب فضائل القرآن) باب من لم ير بأساً أن يقول سورة البقرة، وسورة كذا وكذا، ومسلم واللفظُ له (كتاب فضائل القرآن) بابُ الأمرِ بتعهد القرآن وكراهة قول نسيتُ آية كذا، وجوازُ قول: أنسيتُها.

صلاةِ الليل:

إنَّ طولَ القيامِ مع كثرةِ الركوعِ والسجود هو الأفضلُ في صلاةِ الليّلِ، ما لم يشق ذلكَ، أو يسبب الملل، لحديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «**أفضل الصلاة طولُ القنوتِ**»[1] والقنوتُ في الحديث يُروى بمعانٍ متعددة، فيطلقُ على الطاعةِ، والخشوعِ، والصلاةِ، والدعاءِ، والعبادةِ، والقيامِ، وطول القيامِ، والسكوتِ، والسكونِ، وإقامة الطاعةِ، والخضوع [2].

وذكر الحافظ ابن حجر أن ابن العربي ذكر أن القنوتَ ورد لعشرة معانٍ، نظمها الحافظ زين الدين العراقي[3]:

ولفظُ القنوتِ أعدد معانيه تجد	مزيداً على عشرةِ معانٍ مرضيةٍ
دعاءٌ، خشوعٌ، والعبادةُ، طاعةٌ	إقامتُها، إفرادُ بالعبوديةِ
سكوت، صلاة، والقيام، وطوله	كذا دوامُ الطاعةِ الرابح القنيه.

و(القنية): ما اكتُسبت.

ولحديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ، أنَّ رجلاً سألهُ عن عملٍ يدخلُ بهِ الجنةَ، أو بأحبِّ الأعمالِ إلى الله، فقالَ: سألتُ رسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم (كتاب المسافرين) برقم ٧٥٦.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، باب القاف مع النون، (١١١/٤) ومشارق الأنوار على الصحاح والآثار للقاضي عياض، حرف القاف مع سائر الحروف (١٨٦/٢) وهدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر ص١٧٦ ـ عن كتاب: صلاة المؤمن ٣٧٢.

(٣) فتح الباري (٤٩١/٢).

عن ذلكَ فقالَ: «عليكَ بكثرةِ السجودِ للهِ، فإنكَ لا تسجد لله سجدةً، إلا رفعَكَ اللهُ بها درجةً، وحَطَّ عنك بها خطيئةً»[1] ولحديث ربيعة بن سعد الأسلمي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: كنتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ، فآتيه بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سَلْ» فقلتُ: أسألكَ مرافقتكَ في الجنة. قالَ: «أو غير ذلكَ؟» قلتُ: هو ذاكَ. قالَ: «**فأعني على نفسِكَ بكثرةِ السجودِ**»[2].

ولحديث أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبدُ من ربهِ وهو ساجدٌ، فأكثر الدعاءَ»[3].

ولحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يرفعه إلى النبي ﷺ: «**أما الركوعُ فَعَظِّموا فيه الرب، وأما السجودُ فاجتهدوا في الدعاءِ، فَقَمِنٌ أن يستجابَ لكم**»[4]. [5]

ولهذه الأحاديث السابقة، فقد اختلفَ العلماءُ ـ رحمهم الله ـ في أيّهم أفضلُ؟ طولُ القيامِ مع قلةِ السجودِ، أو كثرةُ السجودِ مع قصرِ القيامِ؟

فمنهم من قال: كثرةُ السجودِ والركوعِ أفضلُ من طولِ القيامِ.

واختارهُ طائفة من أصحابِ الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ لأحاديثِ فضلِ السجود آنفة الذكر.

---

(١) رواه مسلم برقم ٤٨٨.
(٢) رواه مسلم برقم (٤٨٩).
(٣) رواه مسلم برقم (٤٨٢).
(٤) رواه مسلم برقم (٤٧٩).
(٥) القَمِن: الخليقُ والجديرُ.

ومنهم من قالَ: إنهما سواء.

ومنهم من قال: طولُ القيامِ أفضلُ من كثرةِ الركوعِ والسجودِ.

لحديث جابر المذكور آنفا[1] «**أفضلُ الصلاةِ طولُ القنوتِ**»[2].

قال الإمام النووي. رحمه الله. المرادُ بالقنوتِ هنا القيامُ باتفاقِ العلماءِ فيما علمتُ.[3]

وقال الإمامُ الطبري. رحمه الله.: في قول الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[4] هو في هذا الموضع قراءةُ القارئِ قائماً في الصلاةِ... وقال آخرون: هو الطاعةُ، والقانتُ: المطيعُ.[5]

وقال ابن كثير. رحمه الله.: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ ﴾ أي: في حالِ سجوده وفي حال قيامهِ، ولهذا استَدَلَّ بهذهِ الآيةِ مَنْ ذهبَ إلى أنَّ القنوتَ هو الخشوعُ في الصلاةِ ليسَ هو القيامَ وحدهُ كما ذهبَ إليه آخرونَ، وقال ابن مسعود

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة ٢/٥٦٤، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٣٢/٦٩) ونيل الأوطار للشوكاني (٢/٢٧٠) عن كتاب (صلاة المؤمن) ص٣٧٤.

(٢) مسلم برقم (٧٥٦).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٢٨١).

(٤) الزمر: ٩.

(٥) تفسير الطبري الجزء الثاني عشر ٢٠٢.

ـ رضي الله عنه ـ: القانتُ: المطيعُ للهِ عزَّ وجلَّ ولرسولِه صلى الله عليه وسلم»[1].

واختار شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أنَّ تطويلَ الصلاة قِياماً وركوعاً وسجوداً، أولى من تكثيرِها قياماً وركوعاً وسجوداً[2].

قال الدكتورُ سعيد بن علي القحطاني: وسمعتُ الإمام عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز ـ رحمه اللهُ ـ يقولُ: قد تنازع أهلُ العلمِ في أيهما أفضلُ، طولُ القيامِ مع قلةِ السجودِ؟ أو كثرةُ السجودِ مع قلةِ القيام؟

منهم من فضَّل هذا، ومنهم من فضلَّ هذا، وكانت صلاةُ الرسول صلى الله عليه وسلم معتدِلَة، إن أطالَ القيامَ، أطالَ الركوعَ والسجودَ، وإنْ قصرَ القيامَ قصرَ الركوعَ والسجودَ، وهذا أفضلُ ما يكونُ.

وذكر ـ رحمه الله ـ أنَّ الأفضلَ أن يصلّى المسلمُ ما يستطيعُ، حتى لا يملّ، فإذا ارتاحتّ نفسُهُ للتطويلِ أطالَ، وإنّ ارتاحتْ نفسُهُ للتقصير قصرَ، إذا رأى أنَّ التقصير أخشعُ لهُ وأقربُ إلى قلبِه وراحة ضميره وتلذذه بهذه العبادة، وكلَّما كثرت السجداتُ كانَ أفضلُ، فإنْ استطاعَ المسلمُ ذلكَ فالأفضلُ طولَ القيام مع كثرةِ الركوع والسجود يجمعُ بينَ الأمرينِ، وهي صلاةٌ معتدلةٌ، إنْ أطالَ القيامَ أطالَ الركوعَ والسجودَ، وإنْ قصرَ قصرَ.[3]

---

(١) تفسير ابن كثير الجزء السابع ٨٨ط دار طيبة ـ الرياض ـ الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٢) صلاة المؤمن ٣٧٤.

(٣) د/ سعيد القحطاني ـ صلاة المؤمن ٣٧٥.

وقد كان النبي ﷺ يتحملُ كثيراً في العبادةِ ويتلذذُ بها، وربَّما يقومُ في صلاةِ الليلِ حتى تتفطرُ قدماهُ، فتقولُ له عائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله، لم تصنع هذا وقد غَفَرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ من ذنبِكَ وما تأَخَرَ؟ فيقولُ: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً**»[1].

وقد ثبتَ عنهُ ﷺ أنه قرأ في ركعة واحدةٍ من قيامِ الليلِ: سورةَ البقرةِ، والنساءِ، وآل عمرانَ، ورآه حذيفة ـ رضي الله عنه ـ يصلِّي أربعَ ركعاتٍ من الليلِ قرأ فيهنَّ: البقرةَ وآل عمرانَ، والنساءَ، والمائدةَ، أو الأنعامَ.[2]

١٢ ـ عددُ الركعاتِ التي كانَ النبي ﷺ يصليها بالليل:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «**كانَ النبي ﷺ يصلّي إحدى عشرة ركعة، كانت تلك صلاته ـ تعني بالليل ـ فيسجدُ السجدةَ من ذلكَ قدْرَ ما يقرأُ أحدكم خمسين آية قبل أنْ يرفَعَ**»[3].

وقد كان ﷺ يرتاحُ لذلكَ ولا يَمَلُّ من عبادةِ ربِّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ بل كانت الصلاةُ قُرَّةُ عينه، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُبِّبَ إليَّ النساءُ والطيب، وجُعِلَتْ قُرةُ عيني في الصلاةِ**»[4] وكانت الصلاةُ راحتهُ ـ ﷺ ـ فعن سالم بن أبي الجعد قال: قال رجل:

---

(١) متفق عليه، البخاري (٤٨٣٦) ومسلم (٢٨١٩).

(٢) رواه أبو داود برقم ٨٧٣، والنسائي برقم ١٠٤٩.

(٣) رواه البخاري في كتاب الوتر برقم ٩٩٤.

(٤) رواه النسائي (باب حب النساء) برقم ٣٩٤٠، وأحمد (١٢٨/٣) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٨٢٧/٣).

ليتني صَلَّيْتُ واسترحتُ فكأنهم عابوا عليه ذلكَ فقالَ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «**يا بلال أقمِ الصلاةَ أرِحْنا بها**»[1].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ «**كان يصلِّي بالليلِ إحدى عشرةَ ركعةً يوترُ منها بواحدةٍ**»[2] وفي رواية «**كان يصلي ما بين أن يفرغَ من صلاةِ العشاءِ وهي التي يدعو الناس العتمة إلى الفجرِ، إحدى عشرة ركعة يسلِّمُ بينَ كلِّ اثنتينِ ويوترُ بواحدةٍ**»[3].

وفي رواية: «**كان رسول الله ﷺ يصلّي بعد العشاءِ الآخرة إلى إلى أنْ يَنْصَدِعَ الفجر إحدى عشرة ركعةً، يسلِّم بينَ كلِّ اثنتينِ ويوترُ بواحدةٍ، وكان يمكثُ في سجوده بقدرِ ما يقرأُ الرجل منكم خمسين آية، قبل أن يرفع رأسَهُ ويركع ركعتينِ قبل الفَجرِ، ويضطجعُ على شقِّهِ الأيمنِ حتى يأتيه المؤذِّنُ**».

وفي أخرى: «**كان يصلّي ثلاثَ عشرةَ ركعة بركعَتَي الفجرِ**». وفي رواية: «**ما كانَ يزيدُ في رمضانَ ولا في غيرهِ على إحدى عشرة ركعتي يصلِّي أربَعا**[4] **فلا تسأل عن حسنهنَّ وطولهنّ، ثم يصلِّي**

---

(١) رواه أبو داود (كتاب الأدب) برقم ٤٩٨٥، ورقم ٤٩٨٦، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٩٤١/٣).

(٢) قوله بواحدة رواه أيضاً مسلم (٢٥٣/١).

(٣) قوله بواحدة رواه أيضاً مسلم (٢٥٤/١).

(٤) قوله: يصلي أربعاً إلخ، هذه أربع لم تكن بسلام واحد، بل جمع الراوي بين الشَّفْعَين لتناسب بينهما، لكونِهما في سلسلةٍ واحدةٍ بدونِ جلسةٍ في البين، قاله أبو عمر في التمهيد (انظر: مختصر قيام الليل

أربعا فلا تسأل عن حسنهنّ وطولهنّ، ثم يصلّي ثلاثاً»[1].

أما الأُمَّةُ، فقال لهم رسول الرحمة ـ ﷺ ـ: «**خذوا من الأعمال ما تُطيقونَ، فإنَّ الله لا يملّ حتى تملُّوا»**[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنَّهُ قالَ: «**إن الدِّين يُسْر، ولنْ يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غَلبهُ، فسدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدْوةِ والروحةِ وشيءٍ من الدلجةِ، والقصد القصد تبلغوا»**[3].

قال الدكتور سعيد بن علي القطحاني: وسمعتُ سماحةَ الإمام ابن باز ـ رحمه الله ـ يقولُ: وهذا يدلُّ على أنَّ الأفضلَ في حقِّنا القصدُ وعدم التطويلِ الذي يشقّ علينا حتى لا نَمَل، وحتى لا نفتر من العبادةِ، فالمؤمنُ يصلِّي ويجتهدُ ويتعبَّدُ لكن من غيرِ مشقَّة، بلْ يتوسِّطُ في الأمورِ حتى لا يملّ العبادةَ[4].

١٣ ـ يختم تهجده بوتر:

وذلك لحديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**اجعلوا آخرَ صلاتكم بالليل وِتْـراً**»، وفي لفظ لمسلم: «**من صلّى من الليّلِ، فليجعل آخر صلاتهِ وِتْرًا» فإن رسول الله** ﷺ

(للمروزي) ص١٢٠.

(١) رواه مسلم (١/٢٥٤) والبخاري (ص١٥٤) وغيرهما ١٢ (عن المرجع السابق نفس الصفحة).

(٢) متفق عليه: البخاري (١٩٧٠) ومسلم (٧٨٢).

(٣) متفق عليه، البخاري (٣٩ ٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦).

(٤) صلاة المؤمن (د/ سعيد القحطاني) ص٣٧٦ ـ ٣٧٧.

كان يأمر بذلك»[1] فإذا طلعَ الصبحُ فقد ذهبَ كل صلاةِ الليلِ والوترِ، لما روى الترمذي عن سليمان[2] بن موسى عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قالَ: «**إذا طلعَ الفجرُ فقد ذهبَ كلُّ صلاةِ الليلِ والوترِ، فأوتروا قبل طلوعِ الفجرِ**»[3].

١٤ ـ تعريف الوتر:

الوِتْرُ) بفتح الواو وكسرها (**لغة**: العدد الفردي، كالواحد والثلاثة والخمسة، ومنه قولُ النبي ﷺ: «**إنَّ اللّه وِتْرٌ يحبُّ الوتر**»[4].

والوترُ اصطلاحاً: صلاةُ الوترِ، وهي صلاة تُفْعَلُ ما بينَ صلاةِ العشاءِ وطلوع الفجرِ، تختم بها صلاةُ الليل، وسميت بذلكَ لأنها تصلي وتراً، ركعةً واحدةً، أو ثلاثاً، أو أكثرَ، ولا تكون شَفْعاً.

١٥ ـ حكمُ الوترِ:

الوترُ سنة مؤكدة عند جماهيرِ أهلِ العلمِ منَ الصحابةِ والتابعينَ ومن بعدهم، وعند صاحبي أبي حنيفة، وقد قال أبو حنيفة بوجوبِ الوترِ مستدلاً بأدلة لا تثبت له الوجوب[5].

عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: إن الوِتْرَ ليس بحتمٍ ـ أي لازم ـ كصلاتكم

---

(١) متفق عليه، البخاري برقم ٩٩٨، ومسلم برقم ٧٥١.

(٢) في ز: سلمان.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٢/٢) والحاكم (٣٠٢/١) والبيهقي في سننه (٤٧٨/٢) وصحح الحاكم إسناده، وأقره الذهبي.

(٤) متفق عليه، البخاري (٦٤١٠) ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٥) انظر: صحيح فقه السنة (أبو مالك) الجزء الأول ص٣٨١ ـ ٣٨٢).

المكتوبة، ولكن رسول الله ﷺ أوتر، ثم قال: «**يا أهل القرآنِ أوتِروا فإنَّ اللّه وتْرٌ يحبُ الوِتْر**»[1] وفي رواية: «**إن اللّه وتر يحب الوتر، فأوتروا يا أهل القرآنِ**»[2].

١٦ ـ وقت الوتر:

أجمع أهل العلم على أن ما بين صلاةِ العشاءِ إلى طلوعِ الفجرِ وقت للوتْر.

وقته المستحبُّ: الأفضلُ أنْ يكونَ الوترُ في الثلثِ الأخيرِ منَ الليلِ.

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «من كل الليل قد أوْتَرَ رسول الله ﷺ، من أولِ الليلِ وأوسطهِ وآخرهِ، فانتهى وترُهُ إلى السَّحَرِ»[3].

ويستحبُّ بالاتفاقِ أن يجعل الوتر آخرَ النوافلِ التي يصليها بالليل، لحديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**اجعلوا آخر صلاتِكم بالليلِ وتراً**»[4].

وهذا إذا وثقَ باستيقاظهِ آخرِ الليلِ، فيستحبُّ لهُ تأخير الوترِ إلى آخرِ الليلِ، فإن خَشِيَ ألا يستيقظَ للوترِ آخرَ الليلِ فيستحبُّ لهُ أن يوترَ

---

(١) أي: أنه تعالى واحد يحب صلاة الوتر ويثيب عليها، قال نافع، وكان ابن عمر لا يصنع شيئاً إلا وتراً.

(٢) حسن، أخرجه أحمد (٨٦/١، ٩٨) والترمذي (٣١٦/٢) وحسَّنَه، وابن ماجة (٣٧٠/١) والنسائي (٢٢٨/٣، ٢٢٩).

(٣) متفق عليه، البخاري (٩٩٦) ومسلم (٧٤٥).

(٤) متفق عليه، البخاري (٩٩٨) ومسلم (٧٥١) وقد تقدم قريباً.

قبل النوم، لحديث جابر بن عبدالله ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «**من خاف منكم ألا يستقيظ من آخرِ الليلِ، فليوتر منْ أوله وليرقدْ، ومن طمعَ منكم أن يستيقظَ من آخر الليل فليوتر من آخرهِ، فإنَّ صلاة آخرِ الليلِ محضورةٌ، فذلكَ أفضلُ**»[1].

وعن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «مَتَى تُوتِر؟» قالَ: أوترُ ثمَّ أنامُ، فقالَ لعمر: «متى توترُ؟» قالَ: أنامُ ثم أوترُ، قالَ: فقال لأبي بكر: «أخذت بالحزمِ أو الوثيقةِ» وقالَ لعمر: «أخذت بالقوة»[2].

١٧ ـ ماذا يقرأُ في الوتْرِ؟

روى النسائي عن أُبيّ بن كعب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قالَ: كانَ رسول الله ﷺ يقرأُ في الوتر بـ «سبح اسم ربك الأعلى»، وفي الركعة الثانية بـ «قل يا أيها الكافرون»، وفي الثالثة بـ «**قل هو الله أحد**»، ولا يُسلِّم إلاّ في آخرهنّ، ويقولُ بعد التسليم: «**سبحان الملك القدوس**» ثلاثاً[3] زاد في رواية، «**ويطيلُ في آخرهنُّ**» يعني في آخرِ الثلاث من قوله: «**سبحانَ الملكِ القدوسِ**» يمد بها صوتهَ في الآخرةِ ويقولُ: «**ربِّ الملائكةِ والروح**».

١٨ ـ عدد ركعاتِ الوترِ وصفتهِ:

يجوزُ الوتر بركعةٍ واحدةٍ، أو ثلاثٍ، أو خمسٍ، أو سبعٍ، أو تسعٍ.

---

(١) صحيح، أخرجه مسلم (٧٥٥) والترمذي (٤٥٥) وابن ماجة (١١٨٧).

(٢) صحيح، أخرجه أبو داود (١٤٢١) وابن ماجة (١٢٠٢) وابن خزيمة (١٠٨٤).

(٣) صحيح، أخرجه أبو داود (١٤٢٣) والنسائي (٣/٢٤٤) وبن ماجة (١١٧١).

أ ـ الوتر بركعةٍ واحدةٍ: وهو جائز عندَ الجمهور، لأنَّهُ يحصلُ بالركعة الوتر، ولقوله ﷺ: «**صلاةُ الليل مثنى مثنى، فإذا خَشيَ أحدكم الصُّبحَ صلّى واحدةً فأوترتْ لهُ ما قد صلَّى**»[1].

ولحديث ابن عمر أن النبي ﷺ قالَ: «**الوترُ ركعةً من آخرِ الليلِ**»[2].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ: «**كان يصلّي من الليل إحدى عشرةَ ركعة، يوترُ منها بواحدةٍ**»[3].

(ب) الوتر بثلاث ركعات:

وهو جائزٌ على صفتينِ كلتاهما مشروعةٌ وهما:

(الأولى) أن يصلّي ركعتينِ ويسلمُ، ثم يصلِّي الثالثةَ وحدهَا.

فعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «أنه كان يسلِّم بينَ الركعتينِ والوترِ حتى يأمر ببعض حاجته»[4] وقد ورد مرفوعاً عنهُ قال: «**كان رسول الله ﷺ يَفْصِلُ الشفع والوترَ بتسليم يُسمعناه**»[5].

ويشهد له حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ «أن رسول الله ﷺ كان

---

(١) متفق عليه، البخاري (٩٩٠) ومسلم (٧٤٩) من حديث ابن عمر.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم (٧٥٢) وغيره.

(٣) صحيح، أخرجه مسلم (٧٣٦) وأبو داود (١٣٣٥) والترمذي (٤٤٠) والنسائي (٣/٢٣٤) وأحمد (٦/٣٥).

(٤) صحيح، أخرجه البخاري (٩٩١) عن مالك (١/١٢٥).

(٥) صحيح بطرقه، أخرجه أحمد (٢/٧٦) والطحاوي (١/٢٧٨) وابن حبان، (٢٤٣٣ ـ ٢٤٣٥) وقواه الحافظ في الفتح (٢/٤٨٢).

يقرأُ في الركعتينِ اللتين يوترُ بعدهما «**سبح اسم ربك الأعلى**» و«**قل يا أيها الكافرون**» ويقرأ في الوتر بـ «**قل هو اللّٰه أحد**» و«**قل أعوذ برب الفلق**» و«**قل أعوذ برب الناس**»[1].

وقد بوب عليه في «صحيح ابن حِبّان»: «ذكرُ الخبرِ الدال على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفصلُ بالتسليمِ بين الركعتين والثالثة».

(**الثانية**) أن يصلِّي الثلاثَ بتشهدٍ واحدٍ:

فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «ما كان رسول الله ﷺ في رمضانَ ولا غيره يزيد على إحدى عشرة ركعة: يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلِّي أربعاً فلا تسأل عن حسنهنَّ وطولهنَّ، ثم يصلّي ثلاثاً...»[2] وعنها ـ رضي الله عنها ـ «**كان ﷺ يوترُ بثلاثٍ لا يقعدُ إلا في آخرهنّ**»[3].

تنبيه: لا يشرعُ أن يصَلّي ثلاثاً بتشهدينِ وتسليم كصلاةِ المغربِ، لحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا توتروا بثلاث، أوتروا بخمس أو بسبع، ولا تشبهُوا بصلاة المغرب**»[4].

---

(١) حديث صحيح بدون ذكر المعوذتين، من حديث ابن عباس وأبيّ بن كعب.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (١١٤٧) ومسلم (٧٣٨) وغيرهما.

(٣) أخرجه مالك (٤٦٦) والنسائي (٣/٢٣٤) والطحاوي (١/٢٨٠) والحاكم (١/٣٠٤) والبيهقي (٣/٣١).

(٤) صحيح: أخرجه الحاكم (١/٣٠٤) والبيهقي (٣/٣١) وابن حبان (٢٤٢٩)، والدار قطني (٢/٢٤) قالَ الحافظُ في «التلخيصِ»: وإسنادِهِ كلهم ثقاتٌ، ولا يضرُّ وقف مَنْ أوقفهُ. أهـ.

(ج) الوتر بخمسِ ركعاتٍ: وهو جائزٌ، ويستحبُّ إنْ أَوْتر بخمسٍ ألا يجلِسَ للتشهُدِ إلاّ في الخامسة.

فعن عائشة . رضي الله عنها . قالت: «**كان النبي ﷺ يصلِّي من الليلِ ثلاثَ عشرةَ ركعة، يُوتر مِنْ ذلك بخمس لا يجلس إلا في آخرها**»[1].

(د) الوتر بسبعِ أو تسعِ ركعاتٍ: وهو جائزٌ، ويستحب إن أَوْتَر بذلك أن يسردَ الركعاتِ، ولا يجلسَ للتشهدِ إلا في الركعةِ قبلَ الأخيرةِ .ولا يسلمُ. ويقومُ إلى الأخيرةِ. ويتشهدُ ويسلِّمُ. فعن عائشة .رضي اللهِ عنها . في وتر النبي ﷺ قالت: «**كنا نُعدُّ له ﷺ سوَاكَهُ، فيبعثُهُ الله ما شاءَ أن يبعثهُ منَ الليلِ، فيتسوَّكَ ويتوضأ، ويصلِّي تسعَ ركعاتٍ لا يجلسُ فيها إلا في الثامنة، فيذكر الله ويحمدهُ ويدعُوه، ثم ينهضُ ولا يسلِّمُ، ثم يقومُ التاسعة، ثم يقعدُ فيذكُر الله ويحمدهُ ويدعُوه، ثمَّ يسلِّم تسليماً يُسْمِعْنَاه، ثم يصلِّي ركعتين بعدما يصلِّي وهو قاعد، فتلكَ إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسَنَّ نبي الله ﷺ وأخذَ اللحمَ، أوْترَ بسبعٍ، وصنعَ في الركعتينِ مثلَ صنيعهِ الأوَّلِ، فتلكَ تسعُ يا بنيَّ**»[2].

١٩ ـ ما يقول في قنوت الوتر؟

القنوت: هو اسم للدعاءِ في الصلاةِ في محلّ مخصوصٍ منَ القيامِ.

---

(١) صحيح، أخرجه مسلم (٧٣٧) وأبو داود (١٣٢٤) والترمذي (٤٥٧).

(٢) صحيح، أخرجه مسلم (٧٤٦) وأبو داود (١٣٢٨) والنسائي (٣/١٩٩).

ذكر أبو داود عن الحسن[1] بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- قالَ: علَّمني رسول الله ﷺ كلمات في قنوت الوتْر: «**اللهم اهدني فيمن هدَيْتَ، وعافني فيمنْ عافيتَ، وتولَّني فيمن تولَّيْتَ، وباركْ لي فيما أعطيتَ، وقني شرَّ ما قضيتَ، إنك تَقْضي ولا يُقضى عليكَ، وإنهُ لا يذِلُّ من وَالَيْتَ، تباركتَ ربنا وتعاليت**»[2] رواه الأربعة، واللفظ لأبي داود، ورواه أحمد.

وفي رواية الترمذي وإحدى روايات النسائي: «**فإنك تَقْضي**» بزيادة (فاء) وزاد النسائي فيه: «**ولا يَعِزُّ مَنْ عَادَيتَ**» بعد قوله: «**وإنه لا يذِلُّ مَنْ وَالَيْتْ**» وفي رواية من الزيادة: «**وصلى الله على النبي**»[3].

وذكر النسائي عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ كانَ يقولُ في آخر وتره: «**اللهم إني أعوذُ برضاكَ من سخَطكَ، وبمعافاتك من عقوبتِكَ، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أثنيت على نفسك**»[4] **ويستحبُ رفع اليدينِ في القنوت، فعن أنس في قصة دعاء النبي ﷺ على قتلة القراء-: «لقد رأيت رسول الله ﷺ كلما صلى الغداةَ -الصبحَ- رفعَ يديهِ يدعو عليهم»**[5].

---

(١) في ظ: الحسين.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٢٥، ١٤٢٦) والترمذي (٤٦٤) والنسائي (٣/٢٤٩) وابن ماجة (١١٧٨) وأحمد (١/١٩٩).

(٣) هذه الزيادةُ أخرجها النسائي (٣/٢٤٨) من طريق موسى بن عقبة بن علي عن الحسن بن علي.

(٤) صحيح، أخرجه أبو داود (١٤٢٧) والترمذي (٣٥٦٦) وقال: حديث حسن غريب.والنسائي (١/٢٥٢) وابن ماجة (١١٧٩) كما أخرجه أحمد (١/٩٦، ١١٨).

(٥) صحيح، أخرجه أحمد (٣/١٣٧) والبيهقي (٢/٢١١).

٢٠ ـ هَل يجوز التنفُّلُ بعد الوتر؟ وهل يكررُ الوتر؟

من صلى الوترَ، ثم بدا له بعد ذلكَ أن يصلِّي نفلاً، فللعلماءِ فيهِ قولانِ[(١)].

(الأول) أنه يجوزُ: وله أن يصلّي ما شاءَ لكنْ لا يعيدُ الوتر: وهوَ مذهبُ أكثرِ العلماءِ منَ الحنفيةِ، والمالكيةِ، والحنابلةِ، والمشهورِ عند الشافعية، وبه قالَ النخعي، والأوزاعي، وعلقمة، وهو مرويٌّ عن أبي بكر، وسعد، وعمّار، وابن عباس، وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ.

ولحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ: «**كان يُسلِّمُ تسليماً يسمعُنَا، ثم يصلّي ركعتينِ بعدما يسلِّمُ وهوَ قاعدٌ**»[(٢)] ولحديث أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أنه ﷺ: «**كانَ يركعُ ركعتينِ بعد الوترِ وهو جالس**»[(٣)] ولحديث جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من خاف منكم ألا يستيقظَ من آخرِ الليلِ فليوترْ من أولِه وليرقد... الحديث**»[(٤)] ويُفهمُ منهُ أنهُ إذا استيقظَ ـ وقد أوترَ قبل النوم ـ فلهُ أنْ يصلّي كما هو واضحٌ.

---

(١) «فتح القدير (٣١٢/١) و«الزرقاني» (٢٨٥/١)، و«المجموع» (٥٢١/٣) و«كشاف القناع» (٤٢٧/١) و«بداية المجتهد» (٢٩٧/١) عن كتاب صحيح فقه السنة (أبو مالك) الجزء الأول ص٣٨٦.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٣) إسناده لَيّن، الترمذي (٤٧١) وابن ماجة (١١٩٥) وله شاهد في الصحيح.

(٤) صحيح أخرجه مسلم (٧٥٥) وغيره.

وأما منع تكرير الوتر:

فلحديث طلق بن علي ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قالَ: «**لا وتران في ليلة**»[1].

(**الثاني**) لا يجوزُ التنفَّلُ بعدَ الوِتْرِ إلاَّ أنْ ينقضَ وتره ويصلِّي ثم يوتِرُ:

ومعنى نقضُ الوترِ: أن يبدأ بركعة يشفعُ بها وترَهُ، ثم يصلِّي شَفْعاً ما شاء، ثم يوتِرُ، وهذا هو القولُ الآخرُ عند الشافعية، وهو مرويّ عن عثمان وعلي وأسامة وابن عمر وابن مسعود وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ وحجتهُمْ: قوله ﷺ: «**اجعلوا آخر صَلاتكم بالليل وتراً**»[2].

والراجحُ: القولُ الأولُ لثبوتِ فعلِ النافلَة بعدَ الوتر عن النبي ﷺ فدَّل على الجوازِ، ولأَنَّ نقضُ الوتر ـ على الوجهِ الذي تقدَّمَ ـ ضعيفٌ من وجهين:

١ ـ أنَّ الوتر الأولَ مضى على صحته، فلا يُتوجَّه بإبطالِهِ بعد فراغِهِ، ولا ينقلب إلى النفلِ بتشفيعه.

٢ ـ أن النفل بواحدةٍ غير معروف في الشرعِ، والله تعالى أعلم. [3]

---

(١) حسن، أخرجه الترمذي (٤٦٨) وأبو داود (١٤٣٩) والنسائي (٣/٢٢٩) وغيرهم.

(٢) متفق عليه، البخاري (٩٩٨) ومسلم (٧٥١).

(٣) صحيح فقه السنة (أبو مالك) ص٣٨٦ ـ ٣٨٧.

٢١ ـ هل يشترَطُ أن يُسبَقَ الوترُ بصلاةِ شَفْعٍ:

بمعنى: هلْ للمصلِّي أنْ يقتصر على ركعةٍ واحدةٍ، لا يسبقها صلاةٌ؟ وكذلكَ في الثلاثِ وغيرها؟

فذهبَ المالكية . وهو قولٌ عند الشافعيةِ . إلى أنَّ الوترَ بركعةٍ واحدةٍ لا يكونُ إلا بعد شفع يسبقُها، قالوا: والأصلُ في ذلكَ حديث: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشىَ أحدكم الصبحَ صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلَّى» وذهبَ الشافعيةُ والحنابلةُ إلى جوازِ الإيتار بركعةٍ واحدةٍ، قالوا: لكن الاقتصار عليها خلاف الأولى، وأدنى الكمال ثلاثُ ركعاتٍ[1].

قال الشيخ أبو مالك كمال بن السيد سالم:

قلت: ولعلّه يُسْتَدَلُّ للجواز بما يأتي:

١ . حديث عائشة . رضي الله عنها . «**كانَ النبي ﷺ، يصلِّي وأنا راقدةٌ معترضةٌ على فراشِهِ، فإذا أرادَ أن يوتِرَ أيقظني فأوترْتُ**»[2].

وظاهرهُ أنها كنت تُوترُ دونَ أن تقدم على وتْرِها شَفْعاً.

٢ . حديث عائشة . رضي الله عنها . المتقدمُ قريباً في صلاته ﷺ

(١) «المنتقى» للباجي (١/٢٢٣)، «حاشية القليوبي» (١/٢١٢) و«كشاف القناع» (١/٤١٦) والمغني (٢/١٥٠).

(٢) صحيح، أخرجه البخاري (٥١٢) ومسلم (٥١٢).

الوترُ تسعاً وسبعا، ثم صلاتُه ركعتينِ وهو جالسٌ... الحديث» وفيه أن الوتر متقدمٌ على الشفع، ففيه حجةٌ على أنه ليس من شرطِ الوِتْرِ أنْ يتقدَّمَهُ شفعٌ، والله أعلم[1].

٢٢ ـ قضاءُ الوترِ:

إذا نامَ المرءُ عن الوِتر أو نسيَهُ، فإنهُ يصلِّيهِ إذا قامَ، أو ذكرَهُ في أي وقتِ كان، لما رواه أبو داود عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قال: قال رسول الله ﷺ: **«من نامَ عن الوِترِ أو نسيَهُ، فليصلِّ إذا أصبحَ أو ذكرَهُ»**[2] ولعموم قوله ﷺ **«من نسىَ صلاةً، أو نامَ عنها، فكفارتها أن يصلِّيها إذا ذكرها»**[3] ويستحبُّ المبادرةَ بقضائه قبلَ الظهرِ، ليكتبَ له أجرُ صلاته بالليل، فعن عمر بن الخطاب. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قالَ: قالَ رسول الله ﷺ: **«من نامَ عن حزْبه أو شيء منهُ، فقرأهُ فيما بينَ صلاةِ الفجرِ وصلاةِ الظهرِ، كتبَ له كأنَّما قرأه من الليلِ»**[4].

٢٣ ـ كم يقضي الوتر؟

عن عائشة . رضي الله عنها . قالت: كانَ النبي ﷺ **«إذا نامَ منَ**

---

(١) صحيح فقه السنة (أبو مالك) ٣٩٠.

(٢) صحيح، أخرجه الترمذي (٤٦٥) وأبو داود (١٤١٣) وابن ماجة (١١٨٨) وأحمد (٣/٤٤) وانظر «الإرواء» (٢٤٢) والمشكاة (١٢٦٨) وهو في صحيح الجامع (٦٥٦٢).

(٣) صحيح، رواه أحمد في مسنده، ورواه البخاري ومسلم، والترمذي والنسائي، وهو في صحيح أبي داود (٤٦٨) وفي صحيح الجامع (٦٥٧١).

(٤) صحيح، أخرجه مسلم (٧٤٧) والترمذي (٥٧٨) وأبو داود (١٢٩٩) والنسائي (٣/٢٥٩) وغيرهم.

الليلِ أو مرضَ صلى بالنهار ثِنْتَيْ عشرةَ ركعةَ...»(١) وقد عُلِمَ أن النبي ﷺ كان يصلّي من الليل إحدى عشرة ركعة، فعلم أن قضاء الوتر بالنهارِ يكونُ شفعةً فمن كانت عادته الإيتار بواحدة، قضى من النهار ركعتينِ، ومن كانت عادته الإيتار بثلاثٍ، قضاها أربعاً، وهكذا.

الحادي عشر: الأسبابُ المعينةُ على قيامِ الليّلِ:

معرفةُ فضلِ قيامِ الليّلِ، ومنزلةُ أهله عندَ الله تعالى، وما لهم من السعادةِ في الدنيا والآخرة، وأنَّ لهم الجنة، وقد شهد اللهُ لهم بالإيمانِ الكاملِ، وأنهم لا يَسْتَوون هم والذينَ لا يعلمونَ، وأنَّ قيامَ الليلِ من أسبابِ دخول الجنةِ، ورفعِ الدرجاتِ في غرفها العالية، وأنَّه من صفاتِ عبادِ الله الصالحين، وأن شرفَ المؤمنِ قيامُ الليل، وأنَّهُ ممّا ينبغي أن يُغْبَطَ عليهِ المؤمنُ. إلخ مما سبق في فضلِ قيامِ الليل.

معرفةُ كيدِ الشيطانِ: وتثبيطهِ عن قيام الليلَ والترهيبِ من تركِ شيءٍ من قيامِ الليّلِ، كما جاءَ في الأحاديث السابقةِ من الترهيبِ من ذلك، كحديثِ عبدالله بن مسعود، وحديثِ أبي هريرة، وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وحديث عبدالله بن عمر، السابقة.

ولحديثِ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قال رسول الله ﷺ: **«إن اللّه يُبغضُ كُلَّ جعظريٍّ جَوَّاظ»**(٢) **سَخَّابٍ**(٣) **بالأسواق، جيفة بالليلِ،**

(١) صحيح، أخرجه مسلم (٧٤٦) وغيره.

(٢) الجعظري: الشديد الغليظ. والجوَّاظ: الأكولُ، وقيلَ: الجموع المنوع.

(٣) سخَّاب: صَيَّاح

حمارٌ بالنهارِ، عالمٌ بأمرِ الدنيا جاهلٌ بأمرِ الآخرةِ»[1].

قصر الأملِ وتذكرُ الموتِ:

فإنه يدفع إلى العمل ويذهب الكسل لحديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أخذ رسولُ الله ﷺ بمنكبيّ فقالَ: «**كن في الدنيا كأنكَ غريبٌ أو عابرُ سبيل**» وكان ابنُ عمرَ يقولُ: «**إذا أمسيتَ فلا تنتظرِ الصباحَ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المساءَ، وخذ من صحتكَ لمرضِكَ، ومن حياتِكَ لموتِكَ**»[2].

قال الإمام البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ:

اغتنم في الفراغِ قدرَ ركوع   فعسى أن يكونَ موتُكَ بغتةً
كم صحيح رأيت من غيرِ سِقَمِ   ذهبتْ نفسهُ الصحيحة فَلْتَة

ولما نُعِيَ إليه عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي الحافظ[3] أنشد:

إنْ عشتَ تفجع بالأحبَّةِ كلهم   وبقاءُ نفسكَ لا أبالكَ أفجعُ

وقال آخر[4]:

---

(١) رواه ابن حبان في الإحسان برقم ٢٧، ١/٢٧٣، والبيهقي في السنن، وصحح إسناده على شرط مسلم شعيب الأرنؤوط في حاشيته على صحيح ابن حبان (الإحسان) ١/٢٧٤، وصحح إسناده الألباني في الصحيحة برقم ١٩٥، وحسن إسناده في صحيح الترغيب برقم ٦٤٥.

(٢) رواه البخاري (١٤١٦).

(٣) هدي الساري مقدمة صحيح البخاري لابن حجر ص٤٨١.

(٤) قيام الليل لمحمد بن نصر ص٤٢، والتهجد وقيام الليل لابن أبي الدنيا ص٣٢٩٩.

صلاتُك نورٌ والعبادُ رقودٌ ونومُكَ ضدٌّ للصَّلاةِ عنيدُ
وعمر غنم إن عقلتَ ومهلةٌ يسيرُ ويغني دائباً ويبيدُ

وقال بعض الصالحين(١):

عجبتُ من جسمٍ ومن صحَّةٍ ومن فتىً نامَ إلى الفجرِ
فالموْتُ لا تؤمَنُ خطفاتُهُ في ظلمِ الليّلِ إذا يسرى
من بين منقول إلى حُفْرَةٍ يفترشُ الأعمالَ في القبرِ
وبين مأخوذ على غِرَّةٍ باتَ طويلَ الكبرِ والفخْرِ
عَاجَلَهُ الموتُ على غَفْلَةٍ فماتَ محسوراً إلى الحشرِ

اغتنام الصحةِ والفراغ:

ليكتبَ لهُ ما كانَ يعملُ، لحديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مرض العبد أو سافرَ، كتِبَ لهُ ما كانَ يعملُ مقيماً صحيحاً**»(٢).

فينبغي للعاقلِ ألاّ يفوتهُ هذا الفضلُ العظيمُ، فيجتهدُ في حالِ الصحةِ والفراغِ، والإقامةِ في الأعمالِ الصالحةِ، حتى تكتبَ لهُ إذا عجزَ أو شُغلَ، ولهذا قالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ: الصحةُ والفراغ**»(٣).

---

(١) قيام الليل لابن أبي الدنيا ص٣٣٠، وقيام الليل لمحمد بن نصر ص٩٢.
(٢) رواه البخاري (٢٩٩٦).
(٣) رواه البخاري (٦٤١٢).

وعن ابن عباس . رضي الله عنهما . قال: قال رسول الله ﷺ لرجلُ وهو يعظُهُ: «**اغتَنِمْ خمساً قبل خمس: شبابَكَ قبل هَرَمك، وصحَّتَكَ قبل سقَمك، وغناكَ قبلَ فقرِكَ، وفراغَكَ قبلَ شغلِكَ، وحياتَكَ قبل مَوتِكَ**»[1].

الحرصُ على النوم مبكراً:

ليأخذ قوَّةً ونشاطاً، يستعينُ بذلكَ عى قيامِ الليلِ وصلاةِ الفجرِ، لحديث أبي برزة . رضي الله عنه . أن رسول الله ﷺ كان يكرهُ النومَ قبل العشاءِ والحديث بعدها[2].

الحرصُ على آدابِ النوم:

وذلكَ بأنْ ينامَ على طهارةٍ، وإنْ لم يكنْ على طهارةٍ توضأَ، فصلَّى ركعتينِ سنة الوضوءِ، ثم يدعو بما ثبتَ من أذكارِ النوم، ويجمع كَفَّيْهِ ثم ينفُثُ فيهما ويقرأُ فيهما: «قل هو الله أحد» و«**قل أعوذ برب الفلق**» و«**قل أعوذ برب الناس**»، ثم يمسح بهما ما استطاعَ من جسده، يبدأُ بهما على رأسِه ووجهِه، وما أقبلَ منْ جَسدِه، يفعلُ ذلكَ ثلاث مراتٍ، ويقرأُ آيةَ الكرسي، والآيتين من آخرِ سورة البقرة، ويكملُ أذكارَ النومِ[3].

---

(١) رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ٣٠٦/٤، وابن المبارك في الزهد، ١٠٤/١ برقم ٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ١٠٨٨.

(٢) متفق عليه، البخاري (٥٦٨) ومسلم بمعناه (٤٦١).

(٣) انظر)الأذكار النووية(بتحقيق عامر بن علي ياسين، ط دار ابن خزيمة، باب ما يقول: إذا أراد النوم واضطجع على فراشه ص٢٠٠ وما بعدها إلى ٢١٤.

وعليه أن يأخذ بالأسبابِ، بأنْ يضعَ ساعةً عند رأسه تنبّههُ، أو يوصي من حَوْلَهُ من أهلهِ أو أقاربهِ، أو جيرانهِ، أو زملائه أن يوقظوه.

العنايةُ بجملة الأسبابِ التي تعينُ على قيام الليّل:

فلا يكثرُ الأكلَ، ولا يتعبُ نفسَهُ بالنهارِ بالأعمالِ التي لا فائدةَ فيها، بل ينظمُ أعمالهُ النافَعَة، ولا يتركَ القيلولَةَ بالنهارِ، فإنَّها تعينُ على قيام الليلِ، ويجتنبُ الذنوبَ والمعاصي، وقد ذُكرَ عن الإمام الثوري .رحمه الله. أنَّه قالَ: حُرمتُ قيامَ الليل خمسةَ أشهرِ بذنبٍ أذنبْتَهُ.

فالذنوبُ قد يُحْرَمُ بها العبدُ، فيفوتهُ كثيرٌ من الغنائم: كقيام الليلِ، ومنْ أعظمِ البواعثِ على قيامِ الليلِ: سلامَةُ القلبِ للمسلمينَ، وطهارته من البدعِ، وإعراضه عن فضولِ الدنيا، ومن أعظم البواعث على قيامِ الليلِ كذلك، حب اللهِ تعالى، وقوة الإيمانِ بأنهُ إذا قامَ ناجى ربَّهُ، وأنهُ حاضرُهُ ومشاهدُهُ، فتحملُهُ المناجاةُ على طولِ القيام[1] ففي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنَّهُ قالَ: «**إنَّ في الليلِ لساعةً لا يوافُقها عبدٌ مسلمٌ يسألُ اللّه خيراً من أمْرِ الدنيا والآخرَةِ إلا أعطاهُ إيّاهُ، وذلكَ كلَّ ليلةٍ**»[2].

---

(١) انظر مختصر منهاج القاصرين لابن قدامة ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) رواه مسلم عن جابر برقم ٧٥٧، وانظر: صلاة المؤمن للدكتور سعيد القحطاني الجزء الأول من ص٣٧٧ ـ ٣٨١.

الثاني عشر: «أحوال الصالحينَ معَ الليلِ»:

اعلمْ ـ رحمكَ الله ـ أنهُ لما كانتِ الدنيا دارَ اكتسابٍ للآخرةِ، وسوقُ مَتْجَرٍ لها، واستعداد للمسيرِ إليها والقدوم عليها، وكانت التجاراتُ مختلفةً، والبضائعُ متباينةً، والأرباحُ متفاوتةً، والمغبونُ فيها هو المغبونُ الذي لا يقولُ سأربحُ غداً، ولا يهتدي من أمرِه رشداً، ولا يتَّجِرُ لسلعةٍ أبَداً،...

وكانتْ صلاة الليّلِ من أنفقها سوقاً وأكثرِ بضائعهَا حقوقاً، وجبَ على العاقلِ المنتفع بعقله أن ينظرَ لنفسه، ويأخذَ منها لحظةً، فيفرحُ بهذا الليلِ إذا أقبلَ وطالَ، ويحزنُ إذا انْقَلَصَ وزالَ، وهو موطنٌ تَنْتَعشُ فيهِ الأرواحُ، وتبتهجُ وترتاحُ، وتتقلَّبُ بينَ مَسَرَّاتٍ وأفراح، وتكثرُ من المساءلةِ والإلحاحِ، وتمتازُ من خيرِ ربِّها وتمتاح، وتَسْتمنحُ من سماحِ من بيدِه السماحُ، ومن يُغْدَي على فضله ويُراح، فهي قائمةٌ بين يدي خالقِها، عاكفةٌ على مناجاةِ بارئِها، تَتَنَسَّمُ من تلكَ النفحاتِ، وتقتبسُ من أنوارِ تلكَ القرباتِ، وما يَردُ عليها من تلكَ المقاماتِ، فتارةً تذكرُ مماتَها وسالف زَلاَّتِها وأيام بطالتها، فَتَجدُّ وتجتهدُ، وتعدّ وتستعدُّ، وترغبُ وتسألُ، وتتضرَّعُ وتتوسلُ، وتحارُ وتبتهلُ، وعسى ولعلَّ، وما ذلكَ على الله بعزيز، وإنهُ عليهِ يسير، وهو على كل شيء قديرٌ[1].

واعلمْ ـ وفقكَ الله ـ أنهُ ليسَ عندَ المحبينَ ألذُّ من أوقاتِ الخلوةِ

---

(١) كتاب التهجد (عبدالرحمن الإشبيلي) ص١٨٦.

بمناجاةِ محبوبِهِم، هو شفاءُ قلوبِهم، ونورُ أفئدتِهم، وهدايةُ أرواحِهم، وقد جاءَ في الأثرِ المشهورِ: «كذبَ من ادَّعى محبَّتي، فإذا جَنَّهُ الليلُ غابَ عنِّي، أليس كلُ محبٍّ يُحبُّ خلوةَ حبيبه، فها أنذا مطلعٌ على أحبابي، إذا جنَّهم الليلُ جعلتُ أبصارَهُم في قلوبِهم، فخاطبوني على المشاهَدَةِ، وكلَّموني على حضوري، غَداً أُقِرُّ أعينَ أحبابي في جناني»[1].

إن طريقَ النوافلِ لله تعالى هو طريقُ المحبينَ لربهم حتى يحبهم.

روى البخاري ـ رحمه الله ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ عن الله تباركَ قالَ: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنتُهُ بالحرب، وما تقرَّبَ إلى عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُّ عليه، ولا يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سمعهُ الذي يسمعُ بهِ، وبصرهُ الذي يُبْصرُ بهِ، ويدهُ التي يبطِشُ بها، ورجلهُ التي يمشي بها، فوعزَّتي وإنْ سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددتُ عن شيءٍ أنا فاعِلُهُ ترددى عن نفسِ المؤمنِ، يكرهُ الموتَ وأنا أكرهُ مساءتَهُ**»[2] وفي غيرِ كتابِ البخاري: «لابدَّ لَهُ منهُ» ومعلومٌ أن صلاةَ الليلِ سيدةُ النوافِلِ.

قالَ بعضُ العلماءِ: ليسَ في الدنيا نعيمٌ يشبهُ نعيم أهلِ الجنةِ، إلا ما يجدُهُ أهلُ الليلِ من طيبِ الصلاةِ ولذةِ المناجاةِ.

---

(١) لطائف المعارف (٨٩).

(٢) صحيح أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢) وأخرجه غيره.

ويروى عن **الفضيل بن عياض**. رحمه الله. أنه قالَ: إني لأستقبلُ الليلَ فيهولُني طولُهُ، فأفتتحُ القرآنَ فيفرغُ وما قضيتُ نهمتي.

وكانَ طاووسُ اليماني يفرشُ فراشَهُ، فيتَقَلَّى كما تتقَلَّى الحبَّةُ في المقْلى، ثم يثور عنه ويقوم إلى الصلاةِ فيصلُى إلى الصبحِ ثم يقولُ:

«إنَّ ذكرَ جهنَّم طيَّرَ نوْمَ العابدينَ».

قالَ بعضُ الصالحينَ: إذا لم تقدرْ على صيامِ النهارِ وقيامِ الليلِ، فاعلم أنكَ مكْبُولٌ قد كبَّلتْكَ خطيئتُكَ.

قال علي بن أبي طالب. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. علامةُ الصالحينَ: صفرةُ الألوانِ من السَّهَرِ، وعَمشُ العيونِ من البكاءِ، وذبولُ الشفاةِ من الصيامِ، عليهم غبرةُ الخاشعينَ.

وروى عنه. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أنه صلَّى الصبحَ يوماً فلما سلَّم انفتل على يمينه وغلبته كآبةٌ، فمكثَ حتى طلعتِ الشمسُ، ثم قلَبَ يدَهُ وقالَ: لقد رأيتُ أصحابَ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما رأيتُ اليوم شيئاً يشبههم، كانوا يصبحونَ صُفْراً شُعثاً غُبْراً، قد باتوا لله سجَّداً وقياماً يتلونَ كتابَ الله، يُرَاوِحُونَ بين أقدامِهم وجباهِهم، وكانوا إذا ذكروا الله ما دُواكما تميدُ الشجرُ في يومِ الريحِ، وكأن القومَ غافلونَ. يعني من حَوْلَهُ.

وقال الأوزاعي: من أطالَ القيامَ بالليلِ، هوَّنَ عليه موقفهُ يومَ القيامةِ.

وقال **عبد الله بن وهب**: كلُّ ملذوذ لَه لذةٌ واحدةٌ إلا العبادةَ، فإنَّ لها ثلاث لذات: إذا كنتَ فيها، وإذا تذكرتَها، وإذا أعطيتَ ثوابها.[1]

كان عتبة الغلام يقولُ في مناجاته: إن تُعَذّبني فإني لكَ محبٌّ، وإنْ ترحَمني فإني لك محبٌّ.

لو أنكَ أبصرتَ أهلَ الهوى   إذا غارَت الأنْجُمُ الطُّلعُ

فهذا ينوحُ على ذنبهِ   وهذا يصلّي وذا يركَعُ

من لم يشارِكْهم في هواهُم وذوقُ حلاوَةِ نجواهم، لم يدْرِ ما الذي أبكاهُم.

كانوا **أبو سليمان الداراني** . رحمه الله . يقولُ: أهلُ الليلِ في ليلهِم ألَذُّ من أهلِ الهوى في لهوهم، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاءَ في الدُّنيا!!

وسَط الليّلِ للمحِبّينَ للخلوةِ بمناجاة حبيبهِمْ، والسحَرُ للمذنبينَ للاستغفارِ من ذنوبهِم، فوسطُ الليّلِ خاصٌ لخلْوةِ الخواصّ، والسَّحَر عامٌّ لرفعِ قصصِ الجميعِ، وبروزِ التَّواقيعِ لأهلها بقضاءِ الحوائجِ، فمن عجزَ عن مسابقَةِ المحبينَ في ميدانِ مضمارِهم، فلا يعجَزُ عن مشاركةِ المذنبينَ في استغفارِهم واعتذارِهم، صحائف التائبينَ خدودهم، ومدادُهم دموعُهم.

قال بعضهم: إذا بكى الخائفونَ، فقد كاتبوا اللهَ بدموعهم، **لا** تزالُ القصصُ تُسْتَعْرَضُ وتُوقَّعُ بقضاءِ حوائجِ أهلِها إلى أنْ يطلعَ الفجرُ.

---

(١) مختارات من كتاب التهجد لعبد الرحمن الإشبيلي من ص ١٨٦ ـ ٢٥٥.

ينـزلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا فيقولُ: «**هل من تائب فأتوبُ عليه، هل من مستغفرٍ فأغفرُ لهُ، هل من داعٍ فأجيبُ دعوتَهُ، إلى أن ينفجرَ الفجرُ**» فلذلكَ كانوا يفضلون صلاةَ آخر الليلِ على أوّله.

وقال الحسن: إن العبْدَ ليذنبُ الذنبَ فيحرَمُ بهِ قيام الليّلِ.

كانت امرأةُ حبيبِ العجمي توقظُهُ وتقولُ:

ذهبَ الليلُ وبينَ أيدينا طريقٌ بعيدٌ، وزادنا قليلٌ، وقوافل الصالحين قد سَارَتْ قدَّامَنا ونحنُ قد بقينا.

فاللهم أعنّا على قيامِ الليّلِ، واجعلهُ لنا فيْضاً منْكَ بالرحماتِ والبركاتِ ورفعِ الدرجاتِ، إنكَ سميعٌ مجيبٌ.

هذا، وعند اشتدادِ الكروبِ، وضيق الحيَلِ، وانغلاقِ الأبوابِ، فلا سبيلَ لتفريج الكروبِ، وتيسيرِ الأمورِ، وفتح أبوابِ الرجاء، إلا بقرعِ بابِ الملكِ العلِّي العظيمِ الذي بيدِهِ مقاليدُ كلَّ شيءٍ، والقادرُ على كل شيءٍ، والقيامُ بينَ يديهِ ومناجاتهِ في جنحِ الليَّلِ.

فعن علي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قالَ: ما كان فينا فارسٌ يومَ بدرٍ غيرَ المقدادِ، ولقد رأيتنا وما فينا إلاّ نائمٌ، إلا رسول لله صلى الله عليه وسم تحت شجرةٍ يصلّي ويبكي حتى أصبحَ[1].

---

(١) صحيح، أخرجه أحمد (٩٧٣) وانظر: صحيح الترغيب (٥٤٦).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه: أنَّ رسول الله ﷺ عامَ غزوةِ (**تبوك**)، قامَ من الليلِ يصلّي، فاجتمعَ وراءَهُ رجالٌ من أصحابِهِ يحرسونَهُ، حتى صلَّى وانصَرفَ إليهم...» الحديث[1].

(١) حسن، أخرجه أحمد (٦٧٧١).

الثالث عشر: «فضلُ قيامِ الليلِ»

ويشتملُ على النقاطِ التاليَةِ:

١ ـ «خصَّ اللّه تعالى رسوله محمداً ﷺ بقيامِ الليل على سبيل الوجوبِ زيادةً له في علوِّ قدرِه»:

إن اللّهَ سبحانه وتعالى لما انتدبَ نبيَّهَ محمداً ﷺ للدورِ الكبيرِ الشَّاقِّ الثّقيلِ، وهو تحملُ أعباءِ الدعوةِ، وتبليغ رسالة ربِّه إلى العالمينَ، أمرهُ بقيام الليلِ، وترتيلِ القرآنِ، إنها العبادةُ التي تفتحُ القلبَ، وتُوَثِّقُ الصِّلَةَ، وتيسّرُ الأمرَ، وتشرقُ بالنُّورِ، وتفيضُ بالعزاءِ والسَّلوى والراحةِ والاطمئنانِ.

قال اللّه تعالى مخاطباً رسولَهُ محمداً ﷺ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ٧٩ ﴾[1].

قال الشيخ أبو بكر الجزائري ـ حفظه اللّه ـ: وقولُهُ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ ﴾ أي: صلاة زائدة على الفرائضِ الخمسِ، وهي قيامُ الليلِ، وهو واجبٌ عليهِ بهذهِ الآيةِ، وعلى أمتهِ مندوبٌ إليهِ مُرَغَّبٌ فيهِ[2].

وقال الشيخ عبدالرحمن ناصر السعدي ـ رحمه اللّه ـ: وقولُهُ:

---

(١) الإسراء: ٧٩.

(٢) أيسر التفاسير (الجزائري) ٣/٢١٩ الطبعة الأولى ١٤/٤١٤هـ ١٩٩٣م.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أي: صل به في سائر أوقاته. ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: لتكونَ صلاةُ الليلِ زيادةً لكَ في عُلُوّ قدْرِكَ، ورفع الدرجات، بخلاف غيرِكَ، فإنها تكونُ كفارةً لسيئاته، ثم قال: ويحتملُ أن يكونَ المعنى: أن الصلواتِ الخمسِ فرضٌ عليكَ، وعلى المؤمنينَ، بخلافِ صلاةِ الليلِ، فإنَّها فرضٌ عليكَ بالخصوص، ولكرامَتِكَ على الله تعالى أن جعلَ وظيفتَكَ أكثرَ من غيرِكَ، وليكثُرُ ثوابُكَ وتنال بذلكَ المقامَ المحمودَ[1].

وقال الإمام ابن كثير: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أَمْرٌ له ﷺ بقيامِ الليّلِ بعدَ المكتوبة. الصلواتُ الخمسُ. ثم قالَ: واختلفَ في معنى قولِهِ: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيلَ: معناه أنك مخصوصٌ بوجوبِ ذلك وحدَكَ، فجعلوا قيامَ الليلِ واجباً في حقّه ﷺ دونَ أمّته، رواهُ العوفي عن ابن عباس، وهو أحد قولي العلماءُ، وأحد قولي الشافعي. رحمه الله. واختارهُ ابن جرير[2]، وقيل: إنما جعلَ قيامُ الليلِ في حقّه نافلةً على الخصوصِ لأنَّهُ قد غفرَ لَهُ ما تقدَّمَ من ذنبه وما تأخّرَ، وغيره من أمته، إنما يكفِّرُ عنهُ صلواتهُ النوافُل الذنوبَ التي عليه، قالهُ مجاهد، وهو في المسندِ عن أبي أمامة الباهليّ. [3] [4]

وقال الإمامُ ابن عاشور في قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: نافلةً لأجلِكَ،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن الجزء الثالث ٩٩.

(٢) انظر تفسير الطبري المجلد التاسع ١٤١ قال «نافلة لك»: خالصة لك دون أمتك.

(٣) المسند (٥/٢٥٦).

(٤) تفسير ابن كثير ط دار طيبة. ـ الرياض ـ الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م المجلد الثالث الجزء الخامس ص١٠٣.

وفي هذا دليلٌ على أن الأمرَ بالتهجُّدِ خاصٌ بالنبي ﷺ، فالأمرُ للوجوبِ، وبذلكَ انتظمَ في عدادِ الصلواتِ الواجبةِ، فبعضها واجبٌ عليهِ وعلى الأمَّةِ، وبعضها واجبٌ عليهِ خاصَّةً.[(١)]

وقال الإمامُ ابن القيم ـ رحمه الله ـ: والمقصودُ أنَّ النافلةَ في الآية ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾، لم يُرَدْ بها ما يجوزُ فعلُهُ وتركُهُ، كالمستحَبِّ، والمندوبِ، وإنَّما المرادُ بها الزيادةُ في الدرجاتِ، وهذا قدرٌ مشتركٌ بينَ الفرضِ والمستحبِّ، فلا يكونُ قولهُ تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ نافياً لما دلَّ عليه الأمرُ بالوجوب[(٢)] في حقِّ النبي ﷺ، وأما بالنسبة للأمَّة فهو سنةٌ مؤكَدَةٌ. وقولُهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾: تعليلُ لتخصيصه بإيجابِ التهجدِ عليه، والرجاءُ من الله تعلى وعدٌ، فالمعنى: ليبعثكَ ربُّكَ مقاماً محموداً[(٣)].

قالَ الإمامُ الطبري: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾، وتأويلُ الكلامِ لعلَّ ربَّكَ أن يبعثَكَ يومَ القيامَةِ مقاماً تقومُ فيهِ محموداً تحمدُهُ وتغبط فيه،.. ثم قالَ: وأكثرُ أهلِ العلمِ أن ذلكَ هو المقامُ الذي يقومُهُ ﷺ يومَ القيامَةِ للشفاعَةِ العظمى، ليريحهُم ربُّهُم من عظيمِ ما هم فيه من شدَّةٍ ذلكَ اليوم[(٤)].

وقال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن

(١) تفسير التحرير والتنوير الجزء ١٤/١٤٦.

(٢) زاد المعاد ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة السابعة والعشرون ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م ـ الجزء الأول ٣٢٣.

(٣) التحرير والتنوير ١٤/١٤٦.

(٤) تفسير الطبري ـ المجلد التاسع ١٤٣ ـ ١٤٤.

﴿يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ قلتُ: لرسول الله ﷺ تشريفاتُ يوم القيامَة لا يشركُهُ فيها أحدٌ، وتشريفاتٌ لا يساويه فيها أحدٌ، فهو أولُ من تنَشقُّ عنهُ الأرضُ، ويُبعثُ راكباً إلى المحشرِ، ولهُ اللواءُ الذي آدم فمن دونه تحتَ لوائه، ولهُ الحوضُ الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، ولهُ الشفاعَةُ العظمى عند الله تعالى ليأتيَ لفصل القضاء بين الخلائقِ، وذلكَ بعدما يسألُ الناس آدمَ ثم نوحاً ثم إبراهيمَ ثم موسى ثم عيسى، فكلٌّ يقولُ: «لَسْتُ لها» حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقولُ: «**أنا لها، أنا لها**»... ومن ذلكَ أنه يشفع في أقوام قد أُمِرَ بهم إلى النَّارِ فيردونَ عنها، وهو أولُ الأنبياءِ يقضي بين أمَّته، وأولهم إجازة على الصراطِ بأمته، وهو أولُ شفيع في الجنة، كما ثبتَ في حديث مسلم وفي حديث الصور: أن المؤمنينَ كلهم لا يدخلونَ الجنة إلاَّ بشفاعته، وهو أولُ داخلٍ إليها وأمَّته قبلَ الأمم كلهم، ويشفعُ في رفعِ درجاتِ أقوامٍ لا تبلغها أعمالهم، وهو صاحبُ الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليقُ إلا لهُ، وإذا أذنَ الله تعالى في الشفاعةَ للعصاة شفَعَ الملائكةُ والأنبياءُ والمؤمنونَ، فيشفع هو في الخلائقِ لا يعلمُ عدتَّهم إلا الله، ولا يشفعُ أحدٌ مثلَهُ ولا يساويه في ذلكَ، ثم قال الإمامُ ابن كثير: ولنذكر الآن الأحاديثَ الواردةَ في المقامِ المحمودِ وبالله المستعان.

وذكرَ عدةَ أحاديثَ نذكرُ منها ما يأتي:

قال البخاري: حدثنا إسماعيلُ بن أبان، حدثنا أبو

الأحوص، عن آدم بن علي، سمعتُ ابن عمر يقولُ: إنَّ الناسَ يصيرونَ يومَ القيامةِ جُثاً، كلُّ أمة تتبعُ نبيَّها، يقولونَ: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعَةُ إلى النبي ﷺ، فذلكَ يومُ يبعثهُ الله مقاماً محموداً.[1]

قال ابن جرير: حدثني محمد بن عبدالله بن عبدالحكم، حدثنا شعيب بن الليث، حدثني الليث، عن عبيدالله بن أبي جعفر أنه قالَ: سمعتُ حمزة بن عبدالله بن عمر يقولُ: سمعتُ عبدالله بن عمر يقولُ: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الشمسَ لتدنو حتى يبلغَ العرقُ نصفَ الأذنِ، فبينما هم كذلكَ استغاثوا بآدمَ فيقولُ: لستُ صاحبَ ذلكَ، ثم بموسى فيقول كذلكَ، ثم بمحمدٍ فيشفعُ بين الخلقِ، فيمشي حتى يأخذَ بحلقةِ بابِ الجنةِ، فيومئذٍ يبعثُهُ الله مقاماً محموداً**»، وهكذا رواه البخاري في «الزكاة» عن يحيى بن بُكير، وعبدالله بن صالح، كلاهما عن الليث بن سعد[2] وزاد «فيومئذٍ يبعثهُ الله مقاماً محموداً، يحمدهُ أهلُ الجمعِ كلُّهم».

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، حدثنا قتادة، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «**يجتمعُ المؤمنونَ يومَ القيامةِ، فيُلْهَمُون ذلكَ فيقولونَ: لو استشفعنا**

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧١٨).

(٢) تفسير الطبري (١٥/٩٨) وصحيح البخاري برقم (١٤٧٥).

إلى ربِّنا فأراحَنا من مكاننا هذا، فيأتون آدمَ فيقولونَ: يا آدمُ، أنتَ أبو البشرِ، خلقكَ اللّٰه بيدِه، وأسجدَ لكَ ملائكتَهُ، وعلمكَ أسماءَ كلِّ شيءٍ، فاشفع لنا إلى ربِّكَ حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقولُ لهم آدمُ: لستُ هناكم، ويذكرُ ذنبه الذي أصابَ، فيستحيي ربه عزَّ وجلَّ، من ذلك، ويقولُ: ولكن ائتوا نوحاً، إنه أولُ رسول بعثهُ اللّٰه إلى أهلِ الأرضِ، فيأتونَ نوحاً فيقول: لستُ هناكم، ويذكرُ خطيئة سؤاله ربَّه ما ليس لهُ به علمٌ، فيستحيي ربَّه من ذلكَ، ولكن ائتوا إبراهيم خليلَ الرحمنِ، فيأتونه فيقولُ: لستُ هناكم، ولكن ائتوا موسى، عبد كلَّمهُ اللّٰه وأعطاهُ التوراةَ، فيأتونَ موسى فيقول: لستُ هناكم، ويذكرُ لهم النفسَ الذي قتلَ بغيرِ نفس، فيستحيي ربه من ذلكَ، ولكن ائتوا عيسى عبد اللّٰهِ ورسولهُ، وكلمتهُ وروحهُ، فيأتونَ عيسى فيقولُ: لستُ هناكم، ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر لهُ ما تقدمَ من ذنبهِ وما تأخرَ فيأتوني» قال الحسن هذا الحرف: «فأقومُ فأمشي بينَ سماطيْن من المؤمنينَ» قال أنس حتى أستأذن على ربي، فإذا رأيتُ ربي وقعتُ لَهُ - أو خرَرْتُ - ساجداً لربي، فيدعُني ما شاءَ اللّٰه أن يدعني» قالَ: «ثم يقالُ: ارفعْ محمد، قُلْ يُسمعَ واشفع تُشَفَّع، وسل تُعطه، فأرفع رأسي، فأحمدُهُ بتحميدٍ يَعلِّمُنيهِ، ثم أشفَعُ فيحد لي حَدّاً، فأدخلهم الجنة»:

«ثم أعودُ إليه الثانية، فإذا رأيتُ ربي وقعتُ ـ أو خررتُ ساجداً لربي ـ فيدعني ما شاء اللّٰه أن يدعني، ثم يقالُ: ارفعْ محمد، قلْ: يسمع، وسلْ تُعطه، واشفع تُشَفَّع، فأرفعُ رأسي فأحمدُهُ بتحميد يعلمنيه، ثم أشفعُ فيحدّ لي حدّاً، فأدخلُهُم الجنَّةَ، ثم أعودُ في الثالثة، فإذا رأيتُ ربي وقعتُ ـ أو خَرَرْتُ ـ ساجداً لربي، فيدعني ما شاءَ اللّٰه أن يدعُني، ثم يقالُ: ارفعْ محمد، قل يسمعْ، وسلْ تعطه، واشفعْ تشفَّعْ، فأرفعُ رأسي فأحمدُهُ بتحميدٍ يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حدّاً فأدخلُهُم الجنةَ، ثم أعود الرابعة فأقولُ:

يا ربِّ، ما بَقِيَ إلا من حبسَهُ القرآنُ» فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «فيخرجُ من النّار من قالَ: «لا إله إلا اللّٰه» وكان في قلبه من الخير ما يزنُ شعيرة، ثم يخرجُ من النَّار من قالَ: «لا إله إلا اللّٰه» وكان في قلبه منَ الخيرِ ما يزنُ بُرَّةً، ثم يخرجُ من النَّار من قالَ: «لا إله إلا اللّٰه» وكان في قلبِه منِ الخيرِ ما يزنُ ذرةً».

أخرجاه (في الصحيح) من حديث سعيد،[1] وهكذا رواهُ الإمامُ أحمد، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله[2].

(١) المسند (٣/١١٦) وصحيح البخاري برقم (٤٤٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٣).
(٢) المسند (٣/٢٤٤).

قال البخاري: وحدثنا على بن عَيَّاش، حدثنا شعيب بن أبي حمزة، عن محمد بن المنكَدر، عن جابر بن عبدالله، أن رسولَ الله ﷺ قالَ: «**من قالَ حينُ يسمعُ النداءَ: اللهم ربَّ هذه الدعوة التَّامَّة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعثْهُ مقاماً محموداً الذي وعدتَهُ، حلَّتْ لَهُ شفاعتي يومَ القيامةِ**» انفرد به البخاري دون مسلم(١) (٢).

٢ ـ صلاة الليلِ أفضلُ الصلواتِ بعدَ المفروضة:

«**أفضلُ الصيام بعدَ رمضانَ شهرُ اللّهِ المحرَّم، وأفضلُ الصَّلاةِ بعد الفريضةِ صلاةُ الليل**»(٣).

وفي قولِه: «**وأفضلُ الصلاةِ بعدَ الفريضة صلاةُ الليلِ**».

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: الحديثُ حجة أبـي إسحاق المروزي من أصحابنا ومن وافقهُ، على أن صلاةَ الليلِ أفضلُ منَ السنَنِ الرواتب، لأنها تشبهُ الفرائض، وقالَ أكثرُ العلماءِ: الرواتبُ أفضلَ، والأولُ أقوى وأوفقُ لنَصّ الحديثِ.

قال الطيبي: ولعمري إنَّ صلاةَ التهجدِ لو لم يكن فيها فضلُ سوى قولِهُ تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧١٩).

(٢) انظر: بقية الأحاديث في تفسير ابن كثير ـ الجزء الخامس ١٠٤ ـ ١١٠.

(٣) رواه مسلم في كتاب الصيام، بابُ فضلِ صوم المحرم برقم ١١٦٣.

﴿لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾[1] وغيرهما من الآياتِ لكفاهُ مزية[2].

٣ ـ صلاةُ الليل ـ تطوعاً ـ أفضلُ من صلاةِ النهارِ:

قال رسول الله ﷺ: «**فَضلُ صلاةِ الليلِ على صلاةِ النهارِ، كفضلِ صدقةِ السرِّ على صدقةِ العلانيةِ**»[3].

وذلكَ لأنها تؤدي في السرَّ ففضلُها وثوابها أعظمُ من صلاةِ النهارِ.

قال عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ ركعةُ بالليلِ أفضلُ من عشر بالنَهارِ[4].

٤ ـ القائمُ بالليلِ مقامُه محمودٌ:

قال الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ: اختلفَ العلماءُ في كونِ القيامِ بالليلِ سبباً للمقامِ المحمودِ على قولينِ:

أحدهما: أن البارئ تعالى يجعلُ ما شاءَ من فعله سبباً لفضله، من غير معرفة بوجهِ الحكمةِ فيهِ، أو بمعرفةِ وجهِ الحكمةِ.

الثاني: أنَّ قيامَ الليلِ فيه الخلوةُ معَ البارئ والمناجاةُ دونَ الناس، فأُعطِيَ الخلوة به ومناجاته في قيامِهِ وهو المقامُ المحمودُ، ويتفاضلُ فيهِ

(١) السجدة: ١٦ ـ ١٧.

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (محمد عبدالرحمن المباركفوري) ط دار الفكر ـ الجزء الثاني ٥١٦.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن. الترغيب (٩٢٨).

(٤) مختصر قيام الليل ٦٣.

الخلقُ بحسبِ درجاتِهم، فأجلُّهم فيهِ درجة محمدٌ ﷺ، فإنه يُعْطَى مالا يُعْطى أحدٌ، ويشفعُ مالا يشفعُ أحد.[1] هذا، وكما قالَ لهُ ربُّهُ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾. وقال له سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾[2].

أي: فسبّحهُ في أوقاتِ الليلِ، وأدبارِ الصلواتِ فإنَّ ذكرَ اللهِ تعالى، مُسَلّ للنفسِ، مؤنسٍ لها، مهوّنٍ للصبرِ[3].

وكذلكَ قالَ له ربه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾[4] أي: فسبحه في ثنايا الليلِ، وعند إدبارِ النجومِ في الفجرِ، هنالكَ مجالُ الاستمتاعِ بهذا الإيناسِ الحبيبِ، والتسبيح زادٌ وأنسٌ ومناجاةٌ للقلوبِ، فكيفَ بقلبِ المحبِّ الحبيب القريبِ؟؟؟[5]

عن علي ـ رضي الله عنه ـ: أدْبَار السجود: «الركعتانِ بعدَ المغربِ، وأَدْبار النجومِ: الركعتانِ قبل الفجرِ». وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «وأدبار السجودِ»: هو التسبيحُ في أدبارِ الصلواتِ كلها[6] وهو الصحيح، لأن كلَّ صلاةٍ مشتملة على السجودِ.

---

(١) تفسير القرطبي ـ الجزء العاشر ٣١٢.

(٢) ق: ٤٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ـ الجزء الخامس ٩٥.

(٤) الطور: ٤٥.

(٥) في ظلال القرآن ـ المجلد السادس ٣٤٠٢.

(٦) مختصر قيام الليل (المروزي) ص٧٨.

٥ ـ «قائمُ الليلِ من الشاكرينَ»:

لقد كانَ الرسول ﷺ يهتمُ بقيامِ الليلِ ويجتهدُ فيه، اجتهاداً عظيماً، حتى إنهُ ولكثرة قيامه بالليلِ وطولِ الوقوف في صلاته بين يدي مولاهُ، كانتْ تتفَّطرُ قدماهُ، فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ **كان يقومُ من الليلِ حتى تتفَّطرَ قدماهُ**، فقالتْ عائشةُ: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر اللهُ لكَ ما تقدمَ من ذنبكَ وما تأخرَ؟ قالَ: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً**»[(١)] إنه لا يتم الشكرُ لله تعالى على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، إلا بالمحافظة على قيامِ الليلِ والاهتمامِ به، فإنَّ التهجُّدَ دليلُ الشكرِ، وعنوانُ القربِ، وأمارةُ الحبِّ الخالصِ لله تعالى، وسبحانَ الله الشكور القائلُ: ﴿لئن شكرتم لأَزيدنكم ولئن كفرتُم إنَّ عذابي لشديد﴾[(٢)] إن منزلةَ الشكر من أعلى المنازل، وهي فوق منزلة «الرضى» وزيادة، فالرضى مندرجٌ في الشكرِ، إذ يستحيلُ وجودُ الشكرِ بدونه، وهو نصفُ الإيمانِ، والإيمانُ نصفان:

نصفُ شكرٌ، ونصف صبرٌ، وقد أمرَ الله به ونهى عن ضدِّه، وأثنى على أهله، ووصفَ به خواصّ خلقه، وجعلَهُ غايةَ خلقه وأمره، ووعَدَ أهلَهُ بأحسنِ جزائه، وجعلَهُ سبباً للمزيدِ من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأهله هم القليلونَ من عباده، قال تعالى:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[(٣)]

---

(١) متفق عليه، البخاري، كتاب التفسير سورة الفتح برقم (٤٨٣٧) ومسلم باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة برقم (٢٨٢٠).

(٢) إبراهيم: ٧.

(٣) سبأ: ١٣.

وقد أمرَ الله تعالى عبادهُ أن يشكروهُ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[1] وأخبرَ عن أنبيائه ورسُله عليهم السلامُ أنهم كانوا من الشاكرينَ، فقال تعالى عن نوح عليه السلامُ: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴿٣﴾ ﴾[2] وقال سبحانه عن إبراهيم . عليه السلامُ: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ ﴾[3] ولذلكَ فقد كانت وصيةُ الرسول ﷺ لمعاذ . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . بقوله: «**والله يا معاذ، إني لأحبّك، فلا تنس أن تقول دبر كلِّ صلاةٍ: اللهم أعني على ذكرِكَ وشكرِكَ وحسنِ عبادتِكَ**»[4] وقد ذكر القرآن الكريم عن سليمان . عليه السلام. قولُهُ: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[5].

إن الشكر كما قال الإمام ابن القيم . رحمه الله .: هو ظهورُ أثر

(١) البقرة: ٧٢.

(٢) الإسراء: ٣.

(٣) النحل: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٤) صحيح، رواه أحمد (٥/٢٤٥ ـ ٢٤٧) وأبو داود (١٥٢٢) والنسائي (٣/٥٣) عن معاذ، وصححه ابن حبان (٣/٢٣٤) والحاكم (١/٢٧٣) .

(٥) النمل: ١٩.

نعمةِ اللهِ تعالى على لسانِ عبدِهِ: ثناءً واعترافاً، وعلى قلبِهِ شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحِهِ انقياداً وطاعةً[1].

٦ ـ «قيامُ الليلِ دَأْبُ الصالحين»:

ففي كتابِ اللهِ الكريمِ وفي سورةِ آل عمران، وبعدَ أن ذكرَ اللهُ أهلَ الكتابِ، وما عليهِ أكثرهم من فسوقٍ وعصيانٍ، واعتداء على الأنبياءِ وعلى أهل الإيمانِ الصادقينَ..

خصَّ منهم أُمَّةً مؤمنَةً صادقةً، فقالَ: ﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾[2].

قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ: المشهورُ عندَ كثيرٍ من المفسرينَ ـ كما ذكرهُ محمد بن إسحاق وغيره، ورواهُ العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن هذه الآياتُ نزلت فيمن آمنَ من أحبار أهل الكتابِ، كعبدالله بن سلام، وأسد بن عُبيد، وثعلبة بن سعيه، وأُسيْد بن سَعْيَه، وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدمَ ذكرُهُم بالذَّمِّ من أهلِ الكتابِ، وهؤلاءِ الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ أي: ليسوا كلهم على حَدٍّ سواء، بل منهم المؤمنُ ومنهم المجرمُ، ولهذا قالَ تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾أي: قائمةٍ بأمرِ اللهِ مطيعةً

---

(١) انظر: مدارج السالكين (ابن القيم) الجزء الثاني ص ١٧٢ ـ ٢٩٠ ط دار الجيل بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ١٩٩١م.

(٢) آل عمران: ١١٣.

لشرعه، مُتَّبعةً نبيَّ الله ـ محمداً ﷺ ـ فهي «قائمة» يعني مستقيمة، ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ أي: يقومونَ الليلَ، ويكثرونَ التهجد، ويتلونَ القرآنَ في صلواتهم،[1] فهذا الاستثناءُ في الآيةِ الكريمةِ، قُصِدَ به إنْصَافُ طائفةٍ من أهلِ الكتابِ، وقد وصفهم اللهُ تعالى بهذه الأوصافِ الكريمةِ[2]. في هذه الآية والآية والتي بعدها: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[3].

وقد أخبر الرسول ﷺ أن قيامَ الليلِ، هو من دَأبِ الصالحينَ من الأممِ السابقةِ، فهو من علاماتِ صِدْقِ إيمانهم، ودليلِ صلاحهم، فعن بلال ـ رضي الله عنه ـ قالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «**عليكم بقيامِ الليّلِ، فإنهُ دَأْبُ الصالحينِ قبلكم، وقُرْبَةٌ إلى الله تعالى، ومنهاةٌ عن الإثمِ، وتكفيرٌ للسيئاتِ، ومَطْرَدَةٌ لِلداءِ عن الحَسَدِ**»[4].

---

(١) تفسير ابن كثير ١٠٥/٢.

(٢) انظر: التفسير المنير ٤٨/٤ ـ ٤٩.

(٣) آل عمران: ١١٤.

(٤) حديث صحيح، رواه أحمد، والترمذي، والحاكم والبيهقي عن بلال، وروا غيرهم من طرق أخرى، وهو في صحيح الجامع (٤٠٧٩) وقال الألباني: صحيح.

٧ ـ رحمة الله تعالى للزوجين المتعاونين على قيام الليل وكتابتهما من الذاكرين:

فعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«رحمَ الله رجلاً قامَ من اللَّيل، فصلّى وأيقظَ امرأتَهُ، فإن أبتْ نضَحَ في وجهها الماءَ، ورحمَ الله امرأة قامتْ من اللّيل فصلَّتْ وأيقظتْ زوجَها، فإنْ أبى نَضَحَتْ في وجهِهِ الماءَ»**[1].

وهذه رحمةٌ خاصةٌ يكتبها الله تعالى لعبادهِ المتقينَ المتهجدين.

وعن أبي هريرة وأبي سعيد ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«إذا أيقظَ الرجلُ أهلَهُ فصَلَّيَا ركعتينِ ـ زاد النسائي: جميعاً ـ كُتِبا من الذاكرينَ الله كثيراً والذاكراتِ»**[2].

وهذا والله فضلُ عظيمٌ منَ اللهِ العلّي العظيم، ومعلومٌ أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أعدَّ للذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ مغفرةً وأجراً عظيماً، كما جاء في سورة الأحزاب[3] فيا سعادة مَنْ عَمَّهُ الله بكرَمِهِ وكَتَبَه معهُمْ.

وكان الرسول ﷺ يوقِظُ أهلَهُ:

فقد كان النبي ﷺ يصِّلي من الليلِ، فإذا أَوْتَرَ قال لعائشة ـ رضي

(١) حسن، رواه أبو داود (١٣٠٨) بإسناد صحيح. والنسائي (٣/٢٠٥) وابن ماجه (١٣٣٦) وابن خزيمة (٢/١٨٣) وابن حبان في صحيحه (٦٤٦) والحاكم (١/٣٠٩).

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود بإسناد صحيح (١٣٠٩) وابن ماجة (١٣٣٥)، وصححه ابن حبان (٦٤٥).

(٣) الأحزاب آخر آية (٣٥): «والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً».

الله عنها . «قومي فأوتِري يا عائشة»[1].

وعن علي . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . طرقَهُ وفاطمةَ . رضي الله عنها . بنت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة فقال: «ألا تُصَلِّيان؟» فقلتُ: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيدِ الله، فإذا شاءَ أن يبعثنا بعثنا، فانصرَفَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ قلْتُ له ذلكَ،ولم يرجعْ إليَّ شيئاً، ثم سمعتهُ وهو مدْبرٌ يضربُ فخذه ويقولُ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾[2].

قال ابن بطال . رحمه الله .: فيه فضيلةُ صلاةِ الليّلِ، وإيقاظُ النائمين من الأهل والقرابةِ لذلكَ[3]وقال الطبري . رحمه الله .: لولا ما علِمَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عظيم فضل الصلاة في الليّل، ما كانَ يزعجُ ابنتَهُ وابن عمه، في وقت جعَلَهُ الله لخلقه سكناً، لكنَّهُ اختارَ لهما إحرازَ تلك الفضيلةِ على الدَّعة والسكون، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾[4].

وقول علي . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . «إنما أنفُسنا بيدِ الله» اقتباسُ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَاۖ

(١) متفق عليه، البخاري (٩٩٧) ومسلم واللفظ له (٧٤٤) .

(٢) الكهف: ٥٤.

(٣)فتح الباري لابن حجر: ١١/٣.

(٤) طه: ١٣٢.

فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

وقولُهُ: «**بعثنا**» المقصودُ: أيقظَنَا، وقولُهُ: «طرقَهُ» ذكر النووي ـ رحمه الله ـ أن الطَّرْقَ هو الإتيانُ في الليلِ، وأنْ ضَرْبَ النبي ﷺ لفخذه، المختار في معناه: أنه منْ سرعة جوابِه وعدَم موافقَتِه لُه على الاعتذار، ولهذا ضربَ فخذهُ»[2].

وعن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ ـ قالت: استيقظ رسولُ الله ﷺ ليلة فَزِعاً، فقال: «**سبحانَ الله ماذا أَنْزلَ الله من الخزائن؟ وماذا أُنزل من الفتَن؟ أيقظوا صواحبَ الحجرات ـ يريد أزواجَهُ ـ لكَيْ يَصلّين، رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة**»، وفي لفظ «**ماذا أُنْزِلَ الليلة**»[3].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «... فيهِ التّحريضُ على صلاةِ الليلِ، وعدم الإيجاب يؤخذُ من تركِ إلزامهنَّ بذلك، وفي الحديث استحباب ذكر الله تعالى عند الاستيقاظ، وإيقاظ الرجل أهلَهُ بالليلِ للعبادةِ، لاسيّما عند آية تحدث[4] وقال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ:

---

(١) الزمر: ٤٢.

(٢) صلاة المؤمن لسعيد القحطاني ط مؤسسة الجريسي ـ الرياض الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م ص٣٦٤ ـ ٣٦٥ (الجزء الأول).

(٣) رواه البخاري (كتاب العلم) باب العلم والعظة بالليل برقم ١١٠، وذكره في غير ذلك.

(٤) فتح الباري: ٣/١١.

«رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة» هذا كناية عما يقدمه الإنسانُ لنفسه من الأعمال الصالحة، يقول: «رُبَّ غنيّ في الدنيا لا يفعل خيراً، وهو فقيرٌ في الآخرة، ورُبَّ مُكْتَس في الدنيا ذي ثروة ونعمة عارٍ في الآخرة شقيٌّ»[1] وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن أباهُ عمر بن الخطاب كان يصلي من الليل ما شاء الله، حتى إذا كان من آخرِ الليلِ أيقظ أهلَهُ للصلاة، يقولُ لهم: الصلاة الصلاة، ثم يتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾[2].

٨ ـ أهلُ قيامِ الليلِ يسمَّونَ عبادُ الرحمن ـ سبحانه ـ:

فمن صفات عباد الرحمن أنهمَ يبيتُون لربهم سُجَّداً وقياماً، قال العلي الأعلى في حقهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾[3].

هذا التعبير في الآية الكريمة يبرز من الصلاةِ السجودُ والقيامُ، لتصوير حركة عبادِ الرحمنِ، في جنحِ الليّلِ والناسُ نيامٌ، فهؤلاء قومٌ يبيتونَ لربهم سجَّداً وقياماً، يتوجهونَ لربهم وحدَهُ، ويقومونَ لهُ وحدَهُ، ويسجدون لهُ وحَدُه، هؤلاء قومٌ مشغولونَ عن النومِ المريحِ

---

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ ٦٨/٦.

(٢) موطأ الإمام مالك، كتاب صلاة الليل برقم (٥) قال الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط في حاشيته على جامع الأصول (٦٩/٦): «إسناده صحيح» وصححه الألباني في حاشيته على مشكاة المصابيح للتبريزي ٣٩٠/١ برقم ١٢٤٠ ـ عن كتاب صلاة المؤمن/ ٣٦٦.

(٣) الفرقان: ٦٤.

اللذيذ، بما هو أَرْوَحُ منه وأمتَعُ، مشغولونَ بالتوجه إلى ربهم، وتعليقِ أرواحهم وجوارحهم به، ينامُ الناس وهمْ ساجدون قائمونَ، ويخلدُ الناسُ إلى الأرض، وهم يتطلعون إلى عرشِ الرحمن، ذي الجلالِ والإكرام[(١)] إنهم يحيونَ الليلَ راحةً لأنفسهَمْ، وشكراً لفضلِ ربهم عليهم، ولما كان السجودُ أشدُّ أركانِ الصلاة تقرباً إلى الله تعالى، لقوله ﷺ: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاء»[(٢)] ولقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ (١٩)﴾[(٣)] ولأن السجود غايةُ التواضُع والعبادة لله تعالى، وفيه تمكينُ أعز أعضاء الإنسان وأعلاها وهو وجههُ من الترابِ الذي يُدَاسُ ويُمْتَهن، ولأنَّهُ نهاية الخضوع، مع أنَّهُ الذي أباهُ الجاهلون، قدمَهُ لذلك، وأتبعَهُ ما يتلوهُ في المشقَة تحقيقاً، لأنَّ السجودَ على حقيقته، فيَتَمحَّصُ الفعلان للصلاة فقال: «وقياماً» أي: ولم يفعلوا فعل الجاهلين من التكبرِ عن السجود، بل كانوا كما قال الحسن ـ رحمه الله ـ نهارُهم في خشوعٍ، وليلُهم في خضوع[(٤)].

٩ ـ أصحاب قيامِ الليلِ هم أهل الإيمانِ الكاملِ:

ولقد شهد لهم ربهم بذلك فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا

(١) في ظلال القرآن (سيد قطب) المجلد الخامس ص٢٥٧٨، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة الشرعية الثانية عشرة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة (٤٨٢) وأبو داود (٨٧٥) والنسائي (٢/٢٢٦) وفي صحيح أبي داود (٨١٩) والإرواء (٤٥٦) والنسائي (٢/٢٢٦) في المجتبى، وفي صحيح الجامع برقم (١١٧٥).

(٣) العلق: ١٩.

(٤) انظر: نظم الدرر (برهان الدين البقاعي) المجلد الخامس ص٣٣٥، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[1].

قوله: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: إيماناً حقيقيًا، من يوجد منهُ شواهد الإيمانِ. وهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ فتليتْ عليهم آياتُ القرآنِ، وأتتهم النصائح على أيدي رسلِ الله، ودعوا إلى التذكّرِ، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لها، خضوع ذكْرٍ لله، وفرح بمعرفَته. ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا بقلوبهم ولا بأبدانِهم، فيمتنعونَ من الانقياد لها، بل متواضعونَ لها، قد تلقّوها بالقبولِ، وقابلوها بالانشراح والتسليمِ، وتوصلوا بها إلى مرضاتِ الربّ الرحيمِ، واهتدوا بها إلى الصِّراط المستقيمِ.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾:

عن مجاهد والحسن ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ هو قيامُهم من الليّلِ، قال مجاهد: يقومونَ يصلُّون من اللَّيل. وعن الضحاك قال: هم قومٌ لا يزالونَ يذكرونَ الله تعالى، إما في الصلاة وإما قياماً وإما قعوداً، وأما إذا استيقظوا من منامِهم هم قومٌ لا يزالونَ يذكرونَ الله تعالى[2].

(١) السجدة: ١٥ ـ ١٧.

(٢) مختصر قيام الليل (المروزي) ٣٧.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ أي: ترتفعُ جنوبُهم، وتنزعجُ عن مضاجعها اللذيذةِ، إلى ما هو ألذُّ عندهم منْهُ وأحبُّ إليهم، وهو الصلاةُ في الليلِ، ومناجاة اللهِ تعالى[1].

إن جنوبَهم تتجافى عن الفراشِ في الظاهرِ قياماً بحق العبادة والطاعة، والجهدِ والتهجّدِ، وفي الباطنِ تتباعَدُ قلوبُهم عن كلِّ حبيبٍ سوى الله تعالى، فالليلُ زمان الأحبابِ، قال الله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[2] يعني عن كلِّ شغلٍ وحديثٍ سوى حديث محبوبكم الأعلى، وهو الله تعالى، والنهارُ زمان أهل الدُّنيا، قال الله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾[3] أولئك قال لهم: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[4]

إذا ناجيتمونا ركعتين في الجمعة، فعودوا إلى متجَرِكُمْ، واشتغلوا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: الجزء الرابع/ ١٢١ ـ ١٢٢.

(٢) غافر: ٦١.

(٣) النبأ: ١١.

(٤) الجمعة: ١٠.

بحرفتِكُمْ، وأما الأحبابُ فالليلُ لهم، إنْ كانوا في أُنْسِ القُرْبَةِ فليلُهم أقصرُ من لحظةٍ، كما قالوا[1]:

ليلةٌ كادَ يلتقي طرَفاها قِصَراً وهي ليلةُ الميعادِ

وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: جامعين بين الوصفيْن خوفاً أن تردَّ أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذابِ الله وطمعاً في ثوابه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ في وجوهِ الخيرِ[2] من زكاةٍ مفروضةٍ، وصدقةٍ مسنونةٍ، إرضاءً لربهم وطمعاً فيما عندَهُ من جناتٍ ونعيمٍ.

١٠ ـ نفيُ التسْويةِ بيْن قوَّامِ الليلِ وبين غيرهم:

قال العلي الأعلى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[3].

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي: هذه مقابلةٌ بينَ العاملِ بطاعةِ اللهِ تعالى وغيرِه، وبين العالم والجاهلِ، وأنَّ هذا من الأمورِ التي تَقرَّرَ في العقول تبايُنها، وعُلِمَ علْماً يقيناً تفاوتها، فليس المعرضُ عن طاعةِ

(١) انظر: صحيح وصايا الرسول ﷺ (سعد يوسف أبو عزيز) المكتبة التوفيقية ـ الحسين ـ القاهرة ـ الجزء الأول/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن/ الجزء الرابع: ١٢٢.

(٣) الزمر: ٩.

ربهِ المتبعُ لهواهُ، كمنْ هو قانتٌ، أي: مطيعٌ لله تعالى، بأفضلِ العباداتِ، وهي الصلاةُ، وأفضلُ الأوقاتِ، وهي أوقاتُ الليلِ، فوصفه بكثرةِ العملِ وأفضلهِ، ثم وصفه بالخوفِ والرجاءِ، وذكر أن متعلّقَ الخوفِ، عذابُ الآخرة على ما سلفَ من الذنوب، وأنَّ متعلّق الرجاءِ، رحمة الله، فوصفَهُ بالعملِ الظاهرِ والباطنِ.(١)

١١ ـ المحافظون على قيام الليل محسنون مستحقون لرحمة الله تعالى وجنته:

من صفاتِ أصحابِ الجنةِ أنهم كانوا يقومونَ بالليلِ للصلاة والذكرِ والدعاءِ والاستغفارِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾(٢).

أي: إن الذين اتقوا ربَّهم، فلم يشركوا به شيئاً، ولمْ يعصوهُ بتركِ الواجبات، ولا بفعل المحرماتِ، هؤلاء يوم القيامة في بساتين وعيونٍ تجري في تلك البساتين، وقوله: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ﴾ أي: ما أعطاهُم ربُّهم منْ ثواب هو نعيمُ مقيمٌ في دارِ السلامِ، ثم ذكرَ الله تعالى مقتضياتِ هذا العطاءِ العظيمِ والثوابِ الجزيلِ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ

(١) تيسير الكريم الرحمن/ الجزء الرابع: ٢٩٩.

(٢) الذاريات: ١٥ ـ ١٩.

﴿ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: كانوا قبلَ دخولهم الجنة محسنينَ في الدُّنيا، فأحسنوا نيَّاتِهم، وأخلَصوا أعمالهم لله، وأتوا بها على سنة رسول الله ﷺ، ثم ذكرَ موجباً آخر للجنة ونعيمها فقال: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي: لا ينامونَ إلا قليلاً، إذ أكثر الليل يقضونهُ في الصلاة وهو التهجد وقيامُ الليل، ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: وفي السُدسِ الأخيرِ من الليل هِمْ يستغفرونَ أي: يقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار، وغير ذلك من أدعية الاستغفار، ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾﴾ أي: وزيادةً على الزكاةِ المفروضة في كلِّ مالٍ بلغ النصابُ، فإنهم أوجبوا على أنفسِهِمْ في أموالِهم حقّاً يبذلونه للسائلِ الذي يسألُ، والمحروم الذي لا يسألُ لحيائِه وعفَّتِه، هذه موجباتُ العطاء الكريم الذي أعطاهم من النعيم المقيم في جناتٍ وعيونٍ.

١٢ ـ لا تعلمُ نفسٌ ما أخفي لهم من قرةِ أعينٍ:

قال الله تعالى في حقِّ أصحاب الإيمانِ الكاملِ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[1].

قوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ﴾: يدخل فيه جميعُ نفوسِ الخلقِ، لكونهِ

(١) السجدة: ١٦ ـ ١٧.

نكرة في سياقِ النفي، وهي تعمّ، أي: فلا يعلَمُ أحدٌ ﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في هذه الآية:

أي: فلا يعلم أحدٌ عظمة ما أخفى الله لهم في الجناتِ من النعيم المقيم، واللذاتِ التي لم يطلعْ على مِثلها أحدٌ، لَمَّا أخفوا أعمالهم، كذلكَ أخفى الله لهم من الثواب، جزاءً وفاقاً؛ فإنَّ الجزاء من جنسِ العملِ.

قال الحسن البصري: أخْفَى قومٌ عملهم، فأخفى الله لهم ما لم ترَ عينٌ ولمْ يخطرْ على قلب بشر[1] قال البخاري ـ رحمه الله ـ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ الآية: حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا سفيان، عن أبي الزِناد، عن الأعرج عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحينَ مالا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بشر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ ورواه مسلم والترمذي من حديث سفيان بن عُيَيْنَة، به، وقال الترمذي: حسن صحيح[2].

إن حقيقة الجنةِ وما طُبعت عليه من النعيمِ المقيم، واللذة الدائمة المستمرةِ والمتجددةِ، والتي لا تنقضي، إنما هي من المغيَّباتِ التي لا يمكنُ

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧٧٩)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) وسنن الترمذي برقم (٣١٩٧).

لنفسٍ من النفوس أن تتصورَها أو تحيطَ بأى جزئيةٍ من جزئياتها، وهو مُلْكٌ كبيرٌ كما وصفه المنعم تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾[1] إن الجنة تختلف تماماً في كل شيء، ولا تَتَّفِقُ مع ما في الدنيا إلا في الأسماء، كما قال ابن عباس. رضي الله عنهما .: «لا يوجد في الجنة مما هو في الدنيا إلا الأسماء» وقال بعضُ العلماء: «كل ما خَطَرَ ببالِكَ، فالجنةُ خلافُ ذلكَ»[2].

١٣ ـ قيامُ الليل بابٌ عظيمٌ لدخول الجنة وعلوّ الدرجاتِ:

من الأوصاف الكريمةِ التي وصف الله تعالى بها عباده المتقين المستحقين للجنة، في سورة آل عمران: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.[3]

أنهم من المستغفرين بالأسحار، وفي هذا إشارة إلى قيام الليلِ، للصلاةِ والذكرِ والاستغفارِ، قال الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ

(١) الإنسان: ٢٠.
(٢) الغاية، مباحث حول الجنة تأليف عدلان بن ساري العنزي ص٤٠، طبعة دار القاسم ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.
(٣) آل عمران: ١٥ ـ ١٧.

مِّن ذَٰلِكُمْۚ﴾ فإنَّهم مدُّوا صلاةَ التهَجّدِ إلى وقتِ السَّحَرِ، فجلسوا يستغفرون الله تعالى[1].

وفي سورة الذاريات يصفُ الحقُّ تبارك وتعالى المتقينَ المنعَّمينَ في جناتٍ وعيونٍ، بأنهم المؤدونَ لصلاة التهجدِ معظم الليلِ، والمستغفرونَ بالأسحارِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[2] فهم معَ هذا الاجتهاد يعدُّونَ أنفسَهُمْ مذنبينَ، ويسألون الله تعالى غفرانَ ذنوبِهم، لوفورِ علمِهم باللّهِ، وأنهم لا يقدرونَ أن يقدرونَه حقَّ قدرِه، وإن اجتهدوا، لقولِ سيِّدِ الخلقِ ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليكَ»[3].

إن استغفارَهُم ذلكَ كانَ على بصيرةٍ، لأنَّهم نظروا مالَهُ سبحانَه في الآفاقِ، وفي أنفسِهِمْ من الآياتِ والحِكَمِ البالِغَةِ التي لا تُحْصى، فعلموا أنَّه أُهلٌ لأنْ يطاعَ وَيُخشَى، فاجتهدوا وتركوا الهجوعَ، وأجروا الدموعَ، ثم قابلوا ذلكَ بنعمه، فإذا الأعمالُ في غايةِ التقصيرِ، فأقبلُوا على الاستغفارِ عالمين بأنهُ لا يمكنُ أن يُقَدَّرَ حقَّ قدرِه[4].

وعن عبدالله بن سلام ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢٦٢/١.

(٢) الذاريات: ١٥ ـ ١٨.

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٩) والنسائي (١٠٢/١، ١٠٣) وعبدالرزاق (٢٨٨١) وأحمد (٥٨/٦) وابن حبان (١٩٣٢) كلهم عن حديث عائشة بأتم منه.

(٤) نظم الدرر الجزء السابع/ ٢٧٥.

«أيها الناسُ أفشوا السلامَ، وأطعموا الطعامَ، وصلوا الأرحامَ، وصلّوا بالليلِ والنّاسُ نيام، تد خلوا الجنةَ بسلام»[1].

وعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قلتُ يا رسول الله إني إذْ رأيتك طابَتْ نفسي، وقرَّتْ عيّني، أنبئني عن كل شيء، قال: **«كل شيء خُلقَ من الماء»** فقلتُ: أخبرني بشيء إذا عملتُهُ دخلتُ الجنة؟ قال: **«أطْعم الطعام، وأفشِ السلامَ، وصلِ الأرحامَ، وصلِّ بالليل والناسُ نيَامٌ، تد خلِ الجنَةَ بَسلامٍ»**[2] و«طابت نفسي»: فرحت واستبشرت. وجاء في حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في صلاة الجماعة: «والدرجات: إفشاءُ السّلامِ، وإطعامُ الطعامِ، والصلاةُ بالليل والناسُ نيامٌ»[3].

١٤ ـ القائمون بالليل لهم غرف خاصةٌ في الجنَّة:

عن عبدالله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: **«إنَّ في الجنةِ غُرَفاً يُرَى ظاهرُها من باطِنها، وباطنُها من ظاهرِها» فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطَاب الكلامَ، وأطعمَ الطعام، وبات قائماً والناسُ نيامٌ»**[4].

(١) صحيح، رواه الترمذي (٢٤٨٥) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجة (٣٢٥١) والحاكم (١٣/٣) وقالا: صحيح على شرط الشيخين، ووافق الذهبي الحاكم.

(٢) صحيح، رواه أحمد (٢٩٥/٢) وابن حبان في صحيحه (٢٥٥٠) واللفظ له، والحاكم (١٦٠/٤) وصححه.

(٣) الحديث حسن، رواه الترمذي (٣٢٣١) وقال: حسن غريب، وله شواهد، وهو عند أحمد (٣٦٨/١) وانظر: كلام الناجي عنه في عجالة الإملاء (ق٦٠ ـ ٦٤).

(٤) صحيح قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٤/٢) رواه أحمد والطبراني في الكبير، وإسناده حسن، واللفظ له، ورواه الحاكم (٨٠/١).

(**أطابَ الكلامَ**: أحسَنَهُ واختارَ أرَقَّهُ وأعذَبَهُ).

وعن أبي مالك الأشعري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ في الجنة غرفاً يُرى ظاهرُها من باطِنِها، وباطِنُها من ظاهِرِها، أعدَّها الله لمن أطْعَمَ الطعام، وأفشى السَّلام، وصلّى بالليلِ والناسُ نيامٌ**»[1].

إن الله سبحانه وتعالى وهو أكرمُ الأكرمينَ لم يجعل قيام الليلِ، سبباً لدخول الجنةِ فقط، ولكن للتَّرقي إلى غرفٍ خاصَّة، كما جاء على لسانِ المعصومِ محمد ﷺ في هذينِ الحديثينِ الشريفينِ.

١٥ ـ قيام الليل يغبط عليهِ صاحِبُهُ لعظيم ثوابِهِ:

فعن عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حسدَ إلا في اثنتينِ، رجلٌ آتاهُ الله القرآنَ فهو يقومُ بهِ آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، ورجلٌ آتاهُ الله مالاً، فهو ينفِقُهُ آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ**»[2].

قوله: «**لا حسد**» أي: لا غبطة، فقيامُ الليلُ يغبَطُ عليهِ صاحِبُهُ، لعظيمِ ثوابِهِ، فهو خيرٌ من الدنيا وما فيها.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٥٠٩) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢٥٤) وقال: رواه الطبراني في الكبير، ورواته ثقات.

(٢) رواه مسلم (باب فضل من يقوم بالقرآن) برقم (٨١٥).

١٦ ـ قراءة القرآنِ في قيامِ الليلِ غنيمةٌ عظيمةٌ:

فعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قام بعشر آيات لم يُكْتَبْ من الغافلينَ، ومن قامَ بمائة آية كتب من القانتين، ومن قامَ بألف آيةٍ، كتبَ من المقنطرينَ**»[(١)].[(٢)]

إن قارئ القرآن العظيم في قيام الليلِ، حتماً سيكونُ بفضل اللهِ تعالى وَمنتهِ من الذاكرينَ لله تعالى وليس من الغافلينَ، ويمكن أن يرتفع بكثرة قراءتهِ ليكون من القانتين، ثم من المقنطرينِ الذين يرزقهم الله تعالى الأجرَ الكثيرَ.

١٧ - قائمُ الليلِ مستحقٌ لمدح الرسول ﷺ:

لقد مدحَ الله تعالى عزَّ ذكرهُ أهلَ قيام الليلِ في مواضعَ كثيرةٍ من كتابهِ العظيم، وكذلكَ مدحَ رسولُ الله ﷺ قوَّامَ الليل في شخص عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ فقال: «نعم الرجلُ عبدالله لو كانَ يصلِّي من اللّيلِ» قال سالم: فكانَ عبدالله بعد ذلكَ لا ينامُ من الليلِ إلا قليلاً»[(٣)].

وقال عبدالله بن عمر: رأيتُ كأنَّ بيدي قطعةً من استبرقٍ، وليسَ مكانٌ في الجنة أريدهُ إلا طارتْ بي إليه، فقصصتُها على حفصَة ـ أم

(١) المقنطرين: أي: ممَّن كتب له قنطار من الأجر ـ الترغيب والترهيب للمنذري (١/٤٩٥).

(٢) رواه أبو داود (باب تحزيب القرآن) برقم (١٣٩٨) وابن خزيمة في صحيحه (٢/١٨١) برقم ١١٤٢، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١/٢٦٣) وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٨٠٢).

(٣) متفق عليه، البخاري (٣/ ٥، ٦) ومسلم (٢٤٧٩).

المؤمنين . رضي الله عنها . فقصَّتْها على النبي ﷺ فقال: «**إنَّ أخاكَ رجُل صالحٌ، لو كان يقومُ من الليلِ**»[1] أي فلا يتم صلاحُ العبدِ إلاّ بقيام الليل.

وقولُهُ: «لو كان يصلّي من الليلِ» أي: أتمنى أن يفعل ذلكَ حَتى يكونَ أكثرَ فضلاً، وليست (لو) شرطية.[2]

وكما مدَح رسول الله ﷺ قائمُ الليلِ في شخص عبدالله بن عمر . رضي الله عنهما . فقد ذَمَّ من لا يقومُ الليلَ.

فعن عبدالله بن عمرو بن العاص . رضي الله عنهما . قال: قال رسول الله ﷺ:

«**يا عبدالله، لا تكنْ مثلَ فلانٍ، كان يقومُ الليلَ فتركَ قيامَ الليلِ**»[3].

وقولُهُ: «يقومُ الليلَ»: أي: يتهجَّدُ جزءاً من الليلِ، وفلانٌ: كناية عن الشخصِ، وأُبْهِمَ للسِّتْرِ، وهذا من فائقِ أدَبِهِ وعظيمِ خُلُقه ﷺ.

وعن ابن مسعود . رضي الله عنه . قال: ذُكِرَ عند النبي ﷺ رجلٌ نامَ ليلةً حتى أصبحَ، قال: «**ذاكَ رجلٌ بالَ الشيطانُ في أُذُنيه**»[4].

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري (باب فضل قيام الليل) وصحيح مسلم (كتاب فضائل عبدالله بن عمر) ورواه الترمذي في المناقب وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للإمام النووي تأليف الدكتور مصطفى سعيد الجن وآخرين المجلد الثاني ص٨٥ ط مؤسسة الرسالة . الطبعة السادسة والعشرون ١٤٢٥هـ . ٢٠٠٤م.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري في الصوم (٣/٣١) ومسلم في الصيام (١١٥٩).

(٤) متفق عليه، البخاري (٣/٢٣، ٢٤) ومسلم (٧٧٤) وأخرجه النسائي (٣/٢٠٤).

وقوله: «**أصبحَ**» أي: طلَعَ الفجْرُ، و«**بالَ الشيطانُ**»: في بَوْلِ الشيطانِ أقوال:

١ . أنه على الحقيقة، ولا مانعَ من ذلكَ حيثُ جاءَ في غير موضعٍ أن الشيطانَ يشاركُ الإنسان في مأكلِه ومشربِه... إذا لم يستعذْ بالله تعالى.

٢ . كناية عن سدِّ الشيطانَ أذنَ الذي ينامُ عن الصلاةِ حتى لا يسمعَ الذكرَ.

٣ . كناية عن ازدراء الشيطان به[(١)]. وعن ابن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: حسبُ الرجل من الغيبةِ، أو من الشرِّ، أن ينامَ ليلةً حتى يصبِحَ وقد بال الشيطانُ في أذنه.[(٢)]

١٨ ـ قائم الليلُ يُعطى ما سألَ:

فعن جابر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «**إن في الليلِ لساعةً، لا يوافقها رجلٌ مسلمٌ يسألُ الله تعالى خيراً من أمرِ الدنيا والآخرةِ، إلا أعطاهُ إياهُ، وذلكَ كل ليلةٍ**»[(٣)].

من فضل الله تعالى على عبدِه المؤمنِ الصادقِ في إيمانه، القائمِ آناءَ الليلِ راكعاً وساجداً وذاكراً لمولاه أنه يرزقُه إجابةَ دعائه، وتحقيق المسألةِ التي يرجوها منهُ سبحانَه، وهذهِ منَّةٌ منَ اللهِ تعالى اختصَّ بها عباده المتقينَ.

---

(١) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين الجزء الثاني/ ٨٦.

(٢) مختصر قيام الليل/ ١٠٣.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٧٥٧).

وعن عقبة بن عامر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قالَ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «الرجلُ من أمتي يقومُ من الليل يعالجُ نفسَهُ إلى الطهور، وعليه عُقَدٌ، فإذا وضَّأ يَدَيْه انحلَّتْ عُقْدةٌ، وإذا وضَّأ وجهَهُ انحلت عُقْدةٌ، وإذا مسَحَ رأسَهُ انحلت عُقدةٌ، وإذا وضَّأ رجليهِ انحلَّت عُقْدةٌ، فيقولُ اللّه عزَّ وجلَّ للذينَ وراءَ الحجابِ: انظروا إلى عبدي هذا يعالِجُ نفسَهُ يسألني، ما سألني عبدي فهو لَهُ»[(١)].

و«**الطَّهور**» بفتح الطَّاء: الماءُ، وبضَمِّها «**الطُّهور**»: الفعل.

فانظر أخي المسلم إلى فضل اللّه تعالى على عبدهِ المتهجِّد بإجابةِ ما سأَلَ.

١٩ ـ قيامُ الليلِ شرفٌ عظيمٌ للمؤمن:

فعن سهل بن سعد ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: جاءَ جبريلُ ـ عليه السلامُ ـ إلى النبي ﷺ فقالَ: «يا محمدُ ـ ﷺ ـ «عش ما شئْتَ فإنكَ ميِّت، وأَحببْ من شئْتَ فإنَّكَ مفارِقُهُ، واعملْ ما شئْتَ فإنَّكَ مَجْزِيٌّ به» ثم قالَ: «يا محمد ـ ﷺ ـ شرفُ المؤمن قيامُ الليل، وعِزُّهُ استغناؤهُ عن الناسَ»[(٢)].

ويا له من شرفٍ عظيم أكرَمَ اللّه بهِ أهلَ قيام الليّل، إنه لشَرَفٌ يتنافَسُ فيهِ المؤمنونَ الصادقون، ويتسابقُ إليهِ المتَّقُونَ، ويعتزُّ بهِ

(١) صحيح، رواه أحمد (٤/١٥٦، ١٥٩، ٢٠١) وابن حبان في صحيحه (٢٥٤٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/٣٢٥) وصححه ووافقه الذهبي، وحَسَّنَ إسناده المنذري في الترغيب والترهيب.

الصالحونَ، فهو تاجُهُم وشرفُهُم وكمالُ حبِهم لربِهِم العظيم.

روى عن أبي هريرة . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . مرفوعاً، وعن الحسن . رحمه الله . وعن وَهْب بن منبه . رحمه الله .: قيامُ الليلِ يُشَرَّفُ به الوَضِيعُ، وُيَعزُّ بهِ الذليلُ، وصيامُ النهارِ يقطعُ عن صاحبِهِ الشهواتِ، وليسَ للمؤمنينَ راحةً دونَ دخول الجنَّةِ.(١)

٢٠ ـ قوّامُ الليل من الذينَ يحبهم اللهُ تعالى ويضحَكُ إليهم ويستبشرُ بهم:

فعن أبي الدرداء . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثةٌ يحبهُم اللّهُ، ويضحَكُ إليهم ويستبشرُ بهم، الذي إذا انكشفتْ فئةٌ قاتَلَ وراءَها بنفْسه للّه عزَّ وجلَّ، فإمَّا أن يُقْتَلَ، وإمَّا أن ينصرَهُ اللّه عزَّ وجلَّ وَيكْفيَهُ فيقولُ: انظروا إلى عبدي هذا كيفَ صَبَرَ لي بنفسه. والذي لَهُ امرأة حسَنَةٌ، وفراشٌ ليِّنٌ حَسنٌ، فيقومُ من اللّيلِ فيقولُ: يَذَرُ شهوتَهُ ويذكرُني، ولو شاءَ رقَدَ. والذي إذا كانَ في سفرٍ، وكانَ معَهُ ركبٌ فسَهِروا، ثم هَجَعُوا ـ ناموا ـ فقامَ من السحَرِ في سَرَّاءَ وضَرَّاءَ**».(٢)

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يحبُّهم اللّه، وثلاثَةٌ يَشْنَؤُهم ـ يبغضهم ـ اللّه، الرجل يلقى العدوّ في فئة فَيَنْصُبُ لهم نحْره حتى يُقْتَلَ أو يُفْتَحَ**

(١) مختصر قيام الليل/ ٦٣.

(١) حسن، قال الهيتمي في مجمع الزوائد (٢/٢٥٥) رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

لأصحابِه، والقومُ يسافرونَ فيطولُ سُرَاهم حتى يُحبُّوا أن يَمَسُّوا الأَرضَ فينزلونَ، فَيَتَنَحى أحدُهُم فيصلِّي حتى يوقظُهم لرحيلهم، والرجلُ يكونُ لهُ الجارُ يؤذيهِ جارُهُ، فيصبرُ على أذاهُ، حتى يفرّق بينهما موتٌ أو طعنٌ، والذين يَشْنَؤهُم اللّٰه: التَّاجِرُ الحَلاَّف، والفقيرُ المختالُ، والبخيلُ المنَّان»(١).

ومن هذين الحديثين الشريفين، نرى صورة صلاة الليل بالسفَرِ، وأنه يكونُ أعظمُ ثواباً لما في السفر من المعاناة وتحمل الصعّابِ.

٢١ ـ قائمُ الليل يعطيه اللهَ ما رَجا ويُؤَمّنُه ممَّا يخافُ:

فعن ابن مسعود ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ قال: «**عَجِّبَ رَبُّنَا**(٢) **تعالى من رجلَيْنِ: رجلٌ ثارَ عن وِطَائه ـ فراشه ـ ولِحافه منْ بينِ أهلِه وحبِّه إلى صلاتِه ـ أي في الليلِ ـ فيقولُ اللّٰه جَلَّ وعلا: انظروا إلى عبدي ثَارَ عن فراشِه ووطائه منْ بينَ حبِّه وأهْلِه إلى صلاتِه، رَغْبَةً فيما عندي، وشفقةً مما عندي، ورجلٌ غزا في سبيلِ اللّٰهِ، وانهزَم أصحابُهُ، وعلِمَ ما عليهم من الإنصرافِ في الانهزامِ، وماله في الرجوعِ، فرجَعَ حتى يُهْرِيق دمَهُ، فيقولُ اللّٰه عزَّ وجلَّ لملائكتهِ: انظروا إلى عبدي، رجعَ رجاءً فيما عندي، وشفقةً مما عندي حتى**

(١) حديث صحيح، المشكاة (١٩٢٢) وصحيح الجامع الصغير (٣٠٧٤) وصححه.

(٢) قوله: «عجب ربنا» قال أبو سليمان الراضي: المراد بالعَجَبِ: الرِّضا، فكأنه قال: إن ذلك الصنيع، قد حل من الرضا عند اللّٰه تعالى حلول العجب عندكم، وقد يكون المراد بالعجب هنا، أن اللّٰه تعالى يُعَجِبُ ملائكته من صنيعهما لندور ما يحدث ذلك في العادة، واللّٰه أعلم.

يُهُرِيق دمَهُ»[1] **وروا الطبراني موقوفاً بإسنادٍ حسن، ولفظه: «إنَّ اللّه ليضحَكُ إلى رجليْن، رجلٌ قامَ في ليلةٍ باردةٍ من فراشه ولِحَافه، ودِثارِه، فتوضَأ ثم قامَ إلى الصلاة، فيقولُ اللّه عز وجل لملائكتِه: ما حَملَ عبدي هذا على ما صنعَ؟ فيقولونَ: ربَّنا رَجاءَ ما عندكَ، وشفقةً مما عندكَ، فيقولُ اللّه تعالى: فإني قد أعطيته مَا رَجَا وآمنتُهُ مما يخافُ»...**

ثم ذَكَر بقيةَ الحديث: **إن اللّه سبحانَهُ وتعالى يعطي قوّامَ الليّلِ ما يسألونَه، ويجيبُ سؤالهم ويزيدهم على ما سألوا من فضلِه وكرَمِه ومنَّتِه، وفوقَ ذلكَ فإنهُ يؤمنهم مما يخافون من عذابِه ونارِه وغضَبِه، إنهم لا يخافونَ ولا يحزنونَ، وكما قال ربُّ العالمين:**

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[2].

٢٢ إلى ٢٥ - قيامُ الليل يقربُ من الرّبِّ تعالى، ويكفر السيئاتِ، وينهى عن الإثم، ويُطرُدُ الداءَ من الجسد:

فعن أبي أمامة الباهليّ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . عن رسول الله ﷺ قال: «عليكم

---

(١) حسن، رواه أحمد (٤١٦/١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٥/٢): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير، وإسناده حسن، وله عند الطبراني في الكبير نحوه موقوفاً، وفيه أبو عبيدة ولم يسمع من أبيه، ورواه ابن حبان في صحيحه (٢٥٤٨)، (٢٥٤٩).

(٢) الأنبياء: ١٠٣.

بقيامِ الليلِ، فإنَّه دأْبُ الصالحينَ قبلكُمْ، وقربَةٌ إلى ربكم، ومَكْفَرَةٌ للسيئات، ومنهاةٌ عن الإثم»[1].

وعن سلمان الفارسي ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «عليكم بقيام الليِّلِ، فإنهُ دأبُ الصالحينَ قبلكم، ومَقْرَبَةٌ إلى ربكم، ومَكْفَرَةٌ للسيئاتِ، ومنهاةٌ عن الإثـمِ، ومَـطْـرَدَةٌ للداءِ عن الجسد»[2].

ومن هذين الحديثين الشريفين يتبين لنا أنَّ من فضْل قيامِ الليلِ ما يأتي:

٢٢ ـ يقربُ العبد من ربه عز وجلّ، وفي ذلك من الرّضا والقبولِ والحبِّ ما فيه.

٢٣ ـ أنه يكفُر السيئاتِ، وكفى بذلكَ فضلاً لقيامِ الليّلِ..

٢٤ ـ أنَّهُ ينهى عن الإثم، وفي هذا حفظٌ للعبدِ من المعاصي.

٢٥ ـ أنه طاردٌ للداءِ من الجَسدِ، حيثُ يتجلّى العليّ الأعلى على عبدِه وهو يقِفُ بينَ يديهِ ويناجيهِ، فيصلح لَهُ روحَهُ مادتَهُ ويطردَ الداءَ عن جَسدِهِ.

---

(١) حسن، رواه الترمذي (٣٥٤٩) وابن أبي الدنيا في كتاب التهجد، وابن خزيمة (١٧٧/٢) والحاكم (٣٠٨/١) وقال: صحيح على شرط البخاري.

(٢) صحيح، رواه الطبراني في «الكبير» والترمذي في الدعوات (٢٧٢/٢) معلقاً من حديث أبي أمامة، وقد وصله الحاكم (٣٠٨/١) وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٠) وفي إرواء الغليل ١٩٩/٢ برقم (٤٥٢) وفي صحيح سنن الترمذي (١٧٨/٣) وأخرجه البيهقي في السنن (٥٠٢/٢) والطبراني في «الكبير» (١٠٩/٨).

٢٦ ـ قيام الليلِ بـابٌ عظيمٌ من أبـواب الخير ودخـول الجنة:

فعن معاذ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قلتُ يا رسول الله أخبرني بعملٍ يدخلني الجنةَ ويباعدُني من النارِ؟ قال: «لقد سألتَ عن عظيم، وإنهُ ليسيرٌ على من يسَّرَهُ الله تعالى عليه: تعبدِ الله لا تشرك به شيئاً، وتقيمُ الصلاةَ، وتؤتي الزكاةَ، وتصوم رمضانَ، وتحجُّ البيتَ، ثم قال: ألا أدلُّكَ على أبواب الخير؟ الصوُم جُنَّةٌ، والصدقَةُ تطفئُ الخطيئَةَ كما يطفئُ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجلِ من جَوْفِ الليَّلِ» ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ ١٧﴾ (السجدة: ١٦، ١٧) ثم قال: ألا أخبرُكَ برأسِ الأمْرِ، وعموده، وذرْوَةِ سنامه»[(١)] قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمْرِ الإسلام، وعموده الصلاةُ، وذرْوَةُ سنامه الجهادُ» ثم قالَ: «ألا أخبرُكَ بملاك ذلك كله؟» قلتُ: بلى يا رسول الله فأخذَ بلسانه قالَ: «كُفَّ عليكَ هذا» قلتُ: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكَلَّمُ بهِ؟ فقالَ: «ثَكلتْكَ أمُّكَ! وهل يكبُّ الناسَ في النّارِ على وجوهِهم، إلاّ حصائدُ ألسِنَتهِمْ»[(٢)].

(١) ذِرْوة سنامه: أعلاه.

(٢) رواه الترمذي (٢٦١٩) وقالك حديث حسن صحيح، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: وهو حديث صحيح بطرقه، وأخرجه أحمد (٥/٢٣١).

والشاهدُ معنا في الحديث قولُه ﷺ وهو يعدّدُ أبوابَ الخيرِ، «**وصلاةُ الرجلِ من جوفِ الليّلِ**» فهي بابٌ عظيمٌ من أبواب الخير.

قال الشيخ محمد بن علان الصديقي: وختم بهِ. أي: بالتهجُّد من جوفِ الليَّلِ. لشرَفِه، ولما كانَ التأخيرُ ذكراً يوهم التأخر مكانةً وقدراً، دفعَ ذلك بقولهِ: (ثم تلا: تتجافى جنوبهم عن المضاجع للقيام للصلاة)[1].

جوفُ الليّل: وسَطَهُ. **تتجافى**: ترتفعُ وتبتعدَ. عن المضاجِعِ: عن الفُرُشِ والمرقَدِ، ومن الخيرِ العظيمِ لصلاةِ الليّلِ، أنها تطفيء الخطيئةَ أيضاً كالصدَقة.

٢٧ ـ أهل قيامُ الليلِ ينادى عليهم يومَ القيامةِ ويكرمونَ بالسبْقِ إلى دخولِ الجنة:

فعن ابن عباس. رضي الله عنهما. قال: إذا كانَ يومُ القيامَةِ مُدَّت الأرضُ مَدَّ الأديم، وزيد في سعَتِها كذا وكذا، وجُمِعُ الخلائقُ بصعيد واحدٍ، جِنُّهُمْ وإنْسُهُم، وينادي منادٍ، ستعلمون اليوم من أصحابُ الكرَمِ، ليَقُم الحمَّادون للهِ على كلِّ حال، فيقومونَ فيسرحونَ إلى الجنة، ثم يُنادِي منادٍ الثانية: ستعلمونَ اليومَ من أصحابُ الكَرَم، ليقم الذين كانت جنوبُهُم تتجافى عن المضاجع يدعونَ ربهم خوفاً وطمعاً، فيقومونَ ويسرحونَ إلى الجنة، ثم يُنادِي منادٍ الثالثة: ستعلمونَ

(١) دليل الفالحين (محمد بن علان الصديقي) الجزء الرابع ص٣٥٥ ط دار الفكر ـ بيروت.

اليومَ من أصحابُ الكرمِ، ليقم الذينَ كانت لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ، يخافون يوماً تتقلبُ فيه القلوبُ والأبصارُ، فيقومونَ فيسرحونَ إلى الجنةِ.

وعن شهرِ بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إذا جَمَع الله الأولين والآخرينَ يومَ القيامةِ نادى منادٍ: أينَ الذينَ كانوا تتجافى جنوبُهم عن المضاجِعِ، فيقومونَ وهم قليلٌ، ثم يُحاسَبُ سائرُ الناسِ**»[(١)].

٢٨ ـ نزول الملائكةِ والسكينة وحضور عمارِ الدار صلاةَ المُصلِّي بالليل لاستماع القرآن:

عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رجل يقرأُ سورة الكهفِ، وعندَهُ فرسٌ مربوطٌ بِشَطنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سحابةٌ فجعلَتْ تدنو، وجعَلَ فرسهُ ينفرُ منها، فلما أصبَحَ أتى النبي ﷺ فذكرَ ذلكَ لَهُ فقالَ: «**تلكَ السكينةُ تنزلت للقرآنِ**»[(٢)].

وحدث أبو سعيد الخدري أن أُسَيْدَ بن حُضَيْر، بينما هو ليلة يقرأُ في مَرْبَده، إذْ جَالَتْ فرسهُ، فقرأَ ثم جَالَتْ أخرى، فقرأَ ثم جالَتْ أيضاً، قال أسيدٌ: فخشيتُ أن تطأ يحيى فقمتُ إليها، فإذا مثل الظُّلةِ فوقَ رأسي، فيها أمثالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ في الجَوّ حتى ما أراها، قال: فغدوتُ

---

(١) حسن، أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد برقم (٢٠٣) وإسناده حسن للكلام الذي في «شهر بن حوشب».
(٢) متفق عليه، البخاري (٩/٥٢) ومسلم (٧٩٥) وأخرجه الترمذي (٢٨٨٧).

على رسول الله ﷺ، (فذكرتُ له ذلكَ) فقال رسول الله ﷺ: «**تلك الملائكةُ كانت تستمعُ لكَ، ولو قرْأْتَ لأَصْبَحَتْ يراها الناسُ ما تستترُ منهم**»[1] وعن عبادة بن الصامت ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قالَ: إذا قامَ أحدكم من الليلِ فليجهر بقراءتِه، فإنهُ يطرُدُ بجَهْرِ قراءتِه الشياطينَ وفُسَّاقَ الجنّ، وإن الملائكة الذين هم في الهواء وسكان الدار ـ من مؤمني الجنّ ـ يستمعو لقراءته. ويصلونَ بصلاتِه، فإذا مضت هذه الليلة، أوصت المستأنفة فتقولُ: نبهيهِ لساعتِه وكوني عليهِ خفيفةً[2].

٢٩ ـ القيامُ لصلاةِ الليلِ يحرّرُ القائمَ من عقدِ الشيطانِ:

فعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأس، أحدكُم، إذا هو نامَ، ثلاثَ عقَد، يضربُ على كل عُقْدَة، فإنْ توضأَ انحلَّتْ عقدةٌ، فإنّ صلَّى انَحلَّتْ عُقَدُةُ، فأصبحَ نشيطاً طيب النفسِ، وإلاَّ أصبحَ خبيَثَ النفسِ كسلان**»[3] هذا، والأذكارُ التي يقولُها العبدُ إذا أَوى إلى فراشه تحفظُهُ من عقَدِ الشيطانِ، وتيسرُ لَهُ القيامَ لصلاةِ الليّلِ، فعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ قال: «**إذا جاء أحدكم إلى فراشه فلينْفضْهُ بَصَنفَة ثوبِهِ ثلاثَ مراتٍ، وليقل: باسمكَ ربّي وضعتُ جنبي وبكَ**

(١) صحيح، رواه مسلم في «صحيح مسلم بشرح النووي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت. الجزء السادس ص٨٢ ـ ٨٣.

(٢) مختصر قيام الليل (المروزي) ص١٤١.

(٣) متفق عليه، البخاري (٣/٢٠) ومسلم (٧٧٦) وأخرجه مالك (١/١٧٦) وأبو داود (١٣٠٦) والنسائي (٣/٢٠٣).

أرفعُهُ، إنْ أمسَكْتَ نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادكَ الصالحينَ»[1].

و«**الصَّنِفَة**»: المراد بها هنا طرفُ الثوب، وقيلَ: جانبه.

وعن البراءِ بن عازب ـ رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: **«إذا أتيْتَ مَضْجِعَك فتوضأ وضوءَكَ للصلاةِ، ثم اضطجعْ على شقِّكَ الأيمنِ، ثم قلْ: اللهَّم أسلمتُ وجهي إليكَ، وَفوَّضْتُ أمري إليكَ، وألجأتُ ظهري إليكَ، رغبةً ورهبةً إليكَ، لا ملْجأَ ولا مَنْجي منك إلا إليك، آمنتُ بكتابكَ الذي أنزلتَ، ونَبيكَ الذي أرسلْتَ، فإن متَّ من ليلتِكَ مُتَّ على الفطرةِ، واجعلها آخرَ ما تتكلُم بهِ»**[2].

وعن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ **أنَّ النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشِهِ كلَّ ليلةٍ، جمع كفَّيْهِ ثم نفَثَ فيهما، فقرأ: «قل هو اللّه أحد» و«قل أعود برب الفلق» و«قل أعوذ برب الناس» ثم يمسح بهما ما استطاع من جسدِهِ، يفعلُ ذلك ثلاثَ مرات.**[3]

و«**النَّفْثُ**» شبيهُ بالنَّفخِ، وهو أقلُّ من التَّفْلِ.

وعن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ قال: «**كان النبي ﷺ**

---

(١) رواه البخاري (٦٣٢٠) ومسلم (٢٧٧١٤) وأبو داود (٥٠٥٠) والترذي (٣٣٩٨) وابن ماجة (٣٨٧٤).
(٢) رواه البخاري (٦٣١٣) ومسلم (٢٧١٠) وأبو داود (٥٠٤٦) والترمذي (٣٣٩١) وابن ماجة (٣٨٧٦).
(٣) رواه البخاري (٥٠١٧) ومسلم (٢١٩٢) والموطأ (٩٤٢/٢) وأبو داود (٣٩٠٢) والترمذي (٣٣٩٩) وابن ماجة (٣٨٧٥).

إذا أوى إلى فراشه قالَ: «باسْمِكَ أموتُ وأحيا»، وإذا قامَ قالَ: «الحمدللّه الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشورُ»[1].

وعن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه أمر رجلاً إن أخذ مضجعه قال: «اللَّهم أنتَ خلقتَ نفسي وأنتَ توفاها، لكَ مماتُها ومحْياها، إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتَّها فاغفر لها، اللهم أسألكَ العافية» فقال لهُ رجلٌ: سمعت من عمر؟ فقالَ: من خير من عمرَ، من رسول الله ﷺ[2].

وعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: وكَّلني رسول الله ﷺ بحفظِ زكاةِ رمضانَ، فأتاني آتٍ فجعلَ يحثو من الطعام، فأخذتُهُ فقلتُ: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ، قالَ: «إني محتاجٌ وعَلَيَّ عيالٌ، وليَ حاجةٌ شديدةٌ، قالَ: فخلَّيْتُ عنهُ، فأصبحتُ، فقالَ: النبي ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرُكَ البارحَةَ؟» قالَ: قلتُ: يا رسول اللّه، شكا حاجةً شديدةً وعِيَالاً، فرحمتُهُ، فخلَّيْتُ سبيلَهُ، قالَ: «أما إنه قد كذبكَ وسيعود» فعرفت أنُه سيعودُ لقول النبي ﷺ: إنه سيعودُ، فرصدتهُ، فجاءَ يحثو من الطعام.. وذكر الحديث إلى أن قالَ: فأخذتُهُ ـ يعني في الثالثة ـ فقلتُ لأرفعنَّكَ إلى رسول اللّه ﷺ، وهذا آخرُ ثلاثِ مراتٍ تزعُم أنك

---

(١) رواه البخاري (٦٣١٢) ومسلم (٢٧١١) وأبو داود (٥٠٤٩) والترمذي (٣٤١٣) والنسائي (٧٤٧) في عمل اليوم والليلة عن حذيفة بن اليمان.
(٢) رواه مسلم (٢٧١٢) والنسائي (٧٩٦) في عمل اليوم والليلة.

لا تعودُ، ثم تعودُ، قالَ: دعني أعلمكَ كلماتٍ ينفعك اللّهُ بها، قلتُ: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشِكَ فاقرأ آية الكرسي ﴿اللّه لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم الآية، فإنكَ لن يزال عليك من اللّه حافظٌ، ولا يقربُكَ شيطانٌ حتى تصبحَ، فخلّيتُ سبيلهُ، فأصبحْتُ، فقال لي رسول اللّه ﷺ: «ما فعل أسيرُكَ البارحةَ؟» فقلتُ: يا رسول اللّه، زعَمَ أنه يعلمني كلماتٍ ينفعني اللّه بها، فخليتُ سبيلهُ، قال: ما هي؟« قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشكَ فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿اللّه لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وقال لي: لن يزال عليك من اللّه حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ـ وكانوا أحرصَ شيء على الخير ـ فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقكَ وهو كذوبٌ، تعلم من تخاطبُ منذ ثلاث يا أبا هريرة؟» قال: لا، قال: ذاك شيطان»[1].

٣٠ ـ القائمُ بالليلِ الذي غلبه النومُ يكتبُ له قيامُهُ بنيتِهِ ويكونُ نومُهُ صدقة عليهِ:

وهو الحديث الشريف الذي فتح اللّه لنا به الحديث عن التَّهجُّد والمتهجدينَ بالليلِ ابتغاءَ مرضاتِ اللّه ربِّ العالمينَ، ورجاء ثوابه العظيم، وهو كما سبقَ: عن أبي الدرداء ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ قالَ: **«مَنْ أتى**

(١) رواه البخاري (٢٣١١) والنسائي (٩٥٩) في عمل اليوم والليلة، من حديث أبي هريرة، والترمذي (٢٨٨٣) من حديث أبي أيوب الأنصاري، وهو عند أحمد في المسند (٥/٤٢٣).

فراشَهُ وهو ينوي أنْ يقومَ يصلِّي من الليّلِ، فغلبته عيناهُ حتى أصبحَ، كُتِبَ لهُ ما نوى، وكانَ نومُهُ صدقة عليهِ من ربِّه» [1].

وهذا من كرمَ الله تعالى ومنَّته على عباده قوامُ الليلِ، أصحابُ النّيّاتِ الصادقَة، والتي يعلمها ربُّهُمْ عزَّ وجلَّ، الذي يعلَمُ السرَّ وأخفى، وهنا في هذا الحديث الشريف زيادة على ما سبق، فإنَّهُ لم يُطلب منه أنْ يأتَي بحزْبِه أو صلاته التي نام عنها نهاراً تعويضاً عمَّا تركه بالليل لغلبة النَّوم، بل إنَّ الله تعالى بفضله وكرَمه العظيم يكتبُ لهُ بنّيته الصادقَةما كانَ يقومُ به ليلاً منْ صلاة، وقراءة وغير ذلك، ولم يقف الخير الكريمُ من الله تعالى عند هذا الحدِّ، بلْ زادَهُ تكرمةً منْهُ وفضلاً، بأنْ جعلَ نومه هذا، صدقة من الله عليه، ونعم العطاءُ الأسمى، صدقةُ من الله عليه، فهي صدقةٌ مقبولةٌ بلا شك لأنها من الله الكريم، وإلى الله العلي العظيم.

---

(١) صحيح، رواه النسائي (٣/٢٥٨) وابن ماجة بإسناد جيد (١٣٤٤) وابن حبان في صحيحه.

الباب الرابع

الفصل الثاني

صدقة الذكر

الفصل الثاني

صدقة «الذكر»

ويشتمل على ما يلي:

١ ـ صدقة التسبيحِ والتحميدِ والتهليلِ والتكبيرِ.

٢ ـ صدقة الاستغفارِ.

٣ ـ (تحذير محمدي): تصدقوا قبل ألا تجدوا من يأخذُ صدقاتكم.

٤ ـ خاتمة في أهم فوائدِ الصدقات والآثارِ المترتبةِ على منعها.

«صدقة الذكر»

ذكر الله تعالى أفضل الصدقات وخير الأعمال وأحبّها إلى الله تعالى: عن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن فقراءَ المهاجرينَ أتوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: ذهبَ أهلُ الدُّثور ـ الأمْوَالِ ـ بالدرجات العُلى والنعيم المقيم، يصلُّونَ كما نُصلِّي ويصومونَ كما نصوم، ولهم فضلٌ من أموالٍ: يَحجونَ، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقونَ. فقال ﷺ: «**ألا أعُلِّمكم شيئاً تدركونَ به من سبقكم، وتسْبقون به مَنْ بْعدَكمْ، ولا يكونُ أحدٌ أفضل منكم إلا من صنعَ مثلَ ما صنعتم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**تسبحونَ، وتحمدونَ، وتكبرونَ، خلفَ كل صلاة ثلاثاً وثلاثينَ**» قال أبو صالح الراوي عن أبي هريرة، لما سُئلَ عن كيفية ذكرهن، قال: يقول: سبحانَ الله، والحمدُ لله، والله أكبرُ، حتى يكونَ منهنَّ كلهنَّ ثلاثاً وثلاثينَ» (1).

وزاد مسلم في روايته: فرجعَ فقراءُ المهاجرينَ إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموالِ بما فعلنا. ففعلوا مثله؟ فقالَ رسولُ الله: «**ذلكَ فضل الله يؤتيه من يشاءُ**».

وعن معاذ بن جبل ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم،**

(1) متفق عليه، البخاري (٢/٢٧٠، ٢٧٢) ومسلم (٥٩٥) وأخرجه مالك في «الموطأ» (١/٢٠٩) وأبوداود (١٥٠٤).

وخيرٌ لكم من إنفاقِ الذهبِ والفضةِ، ومن أن تلقوا عدوكُم، فتضربوا أعناقَهم، ويضربوا أعناقكم؟». قالوا: بلى يا رسول الله!

قال: «ذكرُ الله عزّ وجلّ»[1].

وعن أبي هريرة ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمدُ، وهوَ على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدلَ عشرِ رقاب»[2] وكُتبَتْ له مائة حسنة ومُحيَتْ عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومهُ ذلكَ حتى يمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا رجلٌ عمل أكثرَ منه»[3].

وعن أبي أيوب الأنصاري ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ عن النبي ﷺ قالك «من قالَ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، ولهُ الحمدُ، وهو على كل شيء قدير، عشر مرات، كان كمنْ أعتقَ أربعةَ أنْفُسٍ من ولدِ إسماعيل»[4].

وعن سعد بن أبي وقاص ـ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٣٩)، من حديث معاذ بإسناد منقطع، وله شاهد أخرجه الترمذي (٣٤٣٧) ـ تحفة)، وابن ماجة (٣٧٩٠) والحاكم (٤٩٦/١) وأحمد (٥/١٩٥) من حديث أبي الدرداء وهو صحيح، وصححه الألباني في صحيح الكلم الطيب رقم (١).

(٢) عدل عشر رقاب، أي: في ثواب عِتْقِها.

(٣) متفق عليه، البخاري (١١/١٦٧، ١٦٩) ومسلم (٢٦٩١) وأخرجه مالك في «الموطأ» ١/٢٠٩، والترمذي (٣٤٦٤).

(٤) متفق عليه، البخاري (١١/١٦٩) ومسلم (٢٦٩٣).

فقال: «**أيعجزُ أحدُكم أن يكْسبَ في كل يوم ألف حسنة؟!**» **فسأله سائلٌ من جُلسائه: كيفَ يكسبُ ألف حسنة؟ قال: «يسبحُ مائة تسبيحة، فَيَكتبُ له ألف حسنة، أو يُحطُّ عنه ألف خطيئة»**[1].

وعن أبي هريرة . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأَنْ أقول: سبحان اللّه، والحمدُ للّه، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبرُ، أحَب إلي مِمَّا طلَعَتْ عليه الشمسُ**»[2].

فالأحاديث الشريفة السابقة تبين لنا وبكل جلاء ووضوح أن ذكرَ اللهَ عزَّ ذكره وجلَّ ثناؤه، فوقَ ما قَدَّم أهلُ الأموالِ من صدقاتٍ ونفقاتٍ في سبيلِ الله تعالى.

هذا، ومما جاء أيضاً في فضلِ ذكرِ الله تعالى. والتحذيرِ من الغفلةِ عنه ما يأتي:

(أ) من كتاب الله الكريم:

قال الإمام ابن القيم . رحمه الله .: وهو . أي ذكر الله تعالى . في القرآنِ على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيَّداً: كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٥) وأخرجه الترمذي (٣٤٥٩) بلفظ «وتحُطُّ».

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٥).

ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَـٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِى نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾[2].

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان: كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾[4].

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته: كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[5].

الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَـٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ وَٱلۡقَـٰنِتِينَ وَٱلۡقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَـٰشِعِينَ وَٱلۡخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ

(١) سورة الأحزاب: ٤١ ـ ٤٤.
(٢) سورة الأعراف: ٢٠٤.
(٣) سورة الأعراف: ٢٠٤.
(٤) سورة الحشر: ١٩.
(٥) سورة الأنفال: ٤٥.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾(١).

الخامس: الإخبار عن خسرانَ مَن لها عنه: كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾(٢).

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاءً لذِكْرِهم لَهُ: كقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾(٣).

السابع: الإخبارُ أنهُ أكبرُ من كلِّ شيء: كقوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾(٤). أي ذكر العبد ربه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنَّه جَعَلهُ خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحُها: فقد ختمَ به عمل الصيام بقوله تعالى:

---

(١) سورة الأحزاب: ٣٥.

(٢) سورة المنافقون: ٩.

(٣) سورة البقرة: ١٥٢.

(٤) سورة العنكبوت: ٤٥.

﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾[1].

وختم به الحج في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[2].

وختم به الصلاة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾[3].

وختم به الجمعة في قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[4].

فإذا كان خاتمةُ الحياة الدنيا (لا إله إلا اللّٰه). وإذا كان آخر كلام العبد (لا إله إلا اللّٰه) أدخله الله الجنة.

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) سورة البقرة: ٢٠٠.

(٣) سورة النساء: ١٠٣.

(٤) سورة الجمعة: ١٠.

التاسع: الإخبارُ عن أهلهِ بأنهم همُ أهلُ الانتفاعِ بآياته، وأنَّهم أولوا الألباب دونَ غيرهم: كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[(١)].

العاشرُ: أنهُ جعلهُ قرينَ جميعِ الأعمالِ الصالحة وروحها: فقد قرنه سبحانه وتعالى بالصلاة كقوله: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾[(٢)].

وقرنه بالصيام، وبالحج ومناسكه، بل هو روح الحج، ولُبُّه ومقصودُهُ، كما قال النبي ﷺ: «**إنما جُعل الطَّواف بالبيت، والسَّعْي بينَ الصفا والمروةِ، ورَمْي الجِمَار: لإقامةِ ذكرِ الله**»[(٣)]. وقرنَهُ بالجهاد، وأمرَ الله تعالى بذكرِه عند ملاقاة الأقرانِ ومكافحة الأعداء، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[(٤) (٥)].

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) سورة طه: ١٤.

(٣) حسن، رواه الترمذي (٩٠٢) وأبو داود (١٨٨٨) عن عائشة.

(٤) سورة الأنفال: ٤٥.

(٥) تهذيب مدارج السالكين م٢ من ص٧٣٦ ـ ٧٤٠ (مع تصرف يسير).

(ب) من السنَّةِ المطهَّرَةِ:

عن معاذ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«ما عمل آدميٌّ عملاً أنْجى لهُ من عذابِ اللّهِ من ذِكْرِ اللّه»**[(١)].

عن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسو الله ﷺ: **«كَلِمَتَان خفيفتان على اللسان، ثقيلتانِ في الميزانِ، حبيبتانِ إلى الرحمنِ، سبحان اللّه وبحمده، سبحان اللّه العظيم»**[(٢)].

وعن أبي ذر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«ألا أُخبرك بأحبِّ الكلامِ إلى اللّهِ؟ إنَّ أحبَّ الكلام إلى اللّه: سبحان اللّه وبحمده»** [(٣)].

وعن أبي مالك الأشعري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الطُّهُورُ[(٤)] شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ للّه تملأ الميزانَ، وسبحانَ اللّهِ والحمدُ للّهِ تملآنِ ـ أو تَمْلأُ ـ ما بين السماوات والأرضِ»**[(٥)].

وعن سعد بن أبي وقاص ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: **عَلِّمْني كلاما أقوله. قال: «قل لا إله إلا اللّه وحده**

---

(١) رواه أحمد، الروض النَّضير ٢٣٦، الترغيب٢ / ٢٢٨، ٢٢٩، وهو في صحيح الجامع برقم (٥٦٤٤) وقال الألباني: صحيح.

(٢) متفق عليه، البخاري (١٧٥/١١) ومسلم (٢٦٩٤) والترمذي (٣٤٦٣)

(٣) رواه مسلم (٢٧٣١) (٨٥).

(٤) الطُّهور: الطهارة، و(شطر): نصف.

(٥) رواه مسلم (٢٢٣).

لا شريك له، اللّه أكبر كبيراً، والحمد للّه كثيراً، وسبحان اللّه رب العالمين، ولا حوْلَ ولا قوَّةَ إلا باللّه العزيزِ الحكيم»، قال فهؤلاء لرَبّي، فما لي؟ قال: «قلْ اللهمَ اغفر لي، وارحمني، واهدِني، وارزقني»[1].

وعن أبي هريرة . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . أن رسول الله ﷺ قال: **«يقولُ اللّه تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معهُ إذا ذكرني؛ فإذا ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملاٍ ذكرتهُ في ملاٍ خير منهم»**[2].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سَبَقَ المفَرِّدون»، قالوا: وَمَا المفردون يا رسول اللّه؟ قال: «الذاكرون اللّه كثيراً والذاكراتُ»**[3].

وعن أبي موسى . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قال: قال لي رسولَ الله ﷺ: **«ألا أدلّك على كنزٍ من كنوزِ الجنة؟»، فقلتُ: بلى يا رسولَ اللّه، قال: «لا حول ولا قوة إلا باللّه»**[4].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد . رضي الله عنهما . أنهما شهدا على رسول الله ﷺ قالَ: **«لا يقعُد قومٍ يذكرون اللّه إلا حفَّتهم الملائِكة، وغشيتهم الرحمةُ، ونزلتَ عليهم السكينةُ، وذكرهمُ اللّه فيمنْ عندَهُ»**[5].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٦).

(٢) متفق عليه، البخاري (١٣/٣٢٥) ومسلم (٢٦٧٥) والترمذي (٣٥٩٨).

(٣) مسلم (٢٦٧٦) وأخرجه الترمذي (٥٣٩٠).

(٤) متفق عليه، البخاري (١١/١٥٩) ومسلم (٢٧٠٤) وأبو داود (١٥٢٦) والترمذي (٣٤٥٧).

(٥) صحيح مسلم (٢٧٠٠) ورواه الترمذي (٣٣٧٥) والبغوي (١٢٤٠).

وعن معاوية ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن رسول الله ﷺ: «**خرجَ على حَلَقَةٍ من أصحابِه، فقالَ: ما أجلسكُم؟ قالوا: جلسنا نذكرُ اللّه، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنَّ علينا. قال: آللّه ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا آللّه ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إنِّي لم أستحْلفْكم تهمةً لكم، ولكن أتاني جبريل فأخبرني: أن اللّه يباهي بكم الملائكة**»[1].

وسأل أعرابي رسولَ اللهِ ﷺ: «**أيُّ الأعمالُ أفضلُ؟ فقالَ: أن تفارقَ الدنيا ولسَانُك رطب بذكرِ اللّه**»[2].

وقال لهُ: ﷺ رجلٌ: «**إن شرائعَ الإسلام قد كَثُرت عَلَيَّ، فمُرني بأمرٍ أتشبَّثُ بهِ، فقالَ: لا يزال لسانُكَ رطباً من ذكرِ اللّه**»[3].

وعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «**إن للّه تعالى ملائكةً يُطوفُونَ في الطُّرقِ يلتمسونَ أهلَ الذكرِ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون اللّه تنادوا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحُفُّونَهُمْ بأجنحتهم إلى السماءِ الدنيا، قال: فيسألهمُ ربُّهم ـ وهو أعلمُ بهم ـ ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجِّدونك، فيقول: هل رأوني؟**

(١) رواه مسلم (٢٧٠١) والترمذي (٣٣٧٦) والنسائي (٢٤٩/٨).

(٢) صحيح، أخرجه أحمد ٤/١٨٨، والبغوي (١٢٤٥) والترمذي (٣٣٧٢) عن عبدالله بن بُسْر المازني.

(٣) صحيح، رواه الترمذي (٣٣٧٢) عن عبدالله بن بسر، وأخرجه أحمد (١٨٨/٤) وصححه بن حبان (٢٣١٧) والحاكم (٤٩٥/١) ووافقه الذهبي، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط وهو كما قالوا: [رياض الصالحين بتحقيقه ص٥٤١].

قال: فيقولون: لا، واللهِ ما رأوْك، قال: فيقولُ: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولونَ: لو رأوْك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً وتحميداً، وأكثر تسبيحاً، قال: فيقولُ: فما يسألونني؟ قال: يقولون: يسألونَكَ الجنةَ، قال: يقولُ: هل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوْها، قال يقولُ: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولونَ: لو أنهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حِرْصاً وأشدَّ لها طلباً وأعظمَ فيها رغبةً؟ قال: فَمِمَّ يتعوَّذُون؟ قال: يقولون: من النارِ، قالَ: يقولُ: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا، والله يا رب ما رأوها، قالَ: يقولُ: فكيفَ لو رأوْها؟ قال: يقولون: لا، والله يا رب ما رأوها، قال: يقولُ: فكيفَ لو رأوْها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافَةً، قال: فيقولُ أشهدكم أني قد غفرتُ لهم، قال: يقول ملكٌ من الملائكة: فيهم فلان، ليس منهم، إنما جاءَ لحاجةٍ، قال: هُمُ الجُلَساءُ لا يَشْقى بهم جَلِيسُهُم»[1].

وعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قَعَدَ مقْعَداً لم يذكر الله فيه، كانت عليه من الله ترةً، ومن اضطجع مَضْجعاً لا يذكرُ الله فيه، كانتْ عليهِ من اللهِ تِرَة**»[2].

---

(١) متفق عليه، البخاري (٦٤) ومسلم (٦٨٩).

(٢) رواه أبو داود، وهو في الصحيحة برقم ٧٨، وفي صحيح الجامع برقم (٦٤٧٧) وقال الألباني: صحيح.

. ومعنى (تِرَة) أي: نقْص، وتَبِعَة، وحسرة.

وعن أبي موسى الأشعري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ قال: «**مثلُ الذي يذكر ربهُ والذي لا يذكرهُ، مثل الحيِّ والميِّت**»[1].

فالأحاديث الشريفة السابقة كالنَّهر العظيم الفيَّاضِ بالخيراتِ والبركاتِ والحسناتِ والمكرُماتِ للذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ.

فمنها ما يُعْلِمُ بحبِّ الله تعالى للتَّسبيحِ والتحميد، وأنه يُثْقل ميزان الذَّاكرِ لله تعالى يوم الدين، وأنه يملأ ما بينَ السماءِ والأرضِ.

ومنها ما يُعلم بأنَّ الله تعالى يذكرُ عبدهُ بذكرِه لهُ، وأن الذاكرين هم السابقونَ، ومنها ما يُعْلم بأن من أنواعِ الذكرِ ما هو كنز من كنوزِ الجنة)**لا حول ولا قوة إلا بالله**(ومنها ما يُعلم بتنزُّلِ رحماتِ الله تعالى ومغفرته على الذاكرينَ ومَنْ جَالَسهم، وإن لم يكْن منهم، وأن الله تعالى يباهي بهم ملائكته.

ومنها ما يُعلِم بأنَّ الذكرِ أفضلُ الأعمالِ وأن من مات ذاكراً لله تعالى دخلَ الجنة، أما غيرُ الذاكرينَ لله تعالى فهم المحرومونَ وهم أموات غير أحياء، لغفلتهم ونسْيانِهم ذكر الله تعالى، والمجلسُ الذي لا يُذكرُ الله تعالى فيهِ، هو مجلس لا خير ولا بركة فيه، وعلى أصحابه تِـرَة، أي نَقْصٌ وحرمان وتبعةٌ وندامـةٌ وحسـرةٌ، كما جاءَ في معنى الحديثينِ الأخيرينِ.

---

(١) متفق عليه، البخاري (١١/١٧٥، ١٧٧) ومسلم (٧٧٩).

معنى الذكرُ:

الـذِّكْر تـارةً يقالُ ويـرادُ به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحْفظَ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلا أنَّ الحفظ يقال اعتباراً بإحْرازِه، والذكر يقالُ اعتباراً باسْتحضَارِه.

وتارةً يقالُ لحضور الشيء القلب أو القولِ، ولذلكَ قيلَ: الذكرُ ذِكْرَان: ذِكْر بالقلْبِ وذكرٌ باللسانِ[1].

وقال القرطبي. رحمه الله. أصل الذكر: التَّنبّه بالقلب للمذكورِ والتيقّظ له،وسمِّى الذكرُ باللسانِ ذكراً لأنهُ دلالة على الذِّكر القلبي، غيرَ أنه لما كثُرَ إطلاق الذكرِ على القولِ اللساني صارَ هو السابق للفهمِ[2].

ما يشملُهُ الذكرُ:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية . رحمه الله .: إن كلَّ ما تكلمَ بهِ اللسانُ وتصورهُ القلبُ مما يقرِّب إلى الله تعالىِ: من تَعلُّم علمٍ وتعليمه، وأمر بمعروف ونهْى عن منكرٍ، فهو من ذكر الله[3]. وقالَ السعدي. رحمه الله.: كلُّ مَنْ كانَ في عبادة فهو في ذكر اللهِ، ومن تركَ منْهيًّا لله فهو في ذكرِ الله[4].

---

(١) المفردات: كتاب الذال ص١٧٩.

(٢) تفسير القرطبي: م٢، ص١٧١.

(٣) مجموع الفتاوى (٦٦١/١٠).

(٤) المواهب الربانية ص٥.

وقال ابن رجب .رحمه الله. **الذكرُ المطلقُ[1] يدخلُ فيهِ الصلاةُ وتلاوةُ القرآنِ، وتعلمه، والعلمُ النافعُ، كما يدخلُ فيهِ التَّسبيحُ والتكبيرُ والتَّهليلُ[2].**

كان رسولُ الله ﷺ أكمل الخلقِ ذكراً:

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه اللّه ـ: كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكْراً لله عزَّ وجلَّ، بل كانَ كلامهُ كلُّه في ذكر الله وما والاه، وكان أمرُه ونهيُهُ وتشريعة للأمةِ ذكراً منهُ لله، واخبارهُ عن أسماء الربِّ وصفاتهِ، وأحكامه وأفعالهِ، ووعْدهِ ووعيده ذكراً منه لهُ، وثناؤُه عليهِ بآلائهِ، وتمجيدهِ وحمْدهِ وتسبيحه ذكراً منهُ لهُ، وسؤاله ودعاؤُه إياهُ، ورغبتهُ ورهبتُه ذكراً منه لُه، وسكوتُه وصمتُه ذكراً منهُ لهُ بقلبه، فكانَ ذاكراً لله في كلِّ أحيانه، وعلى جميعِ أحوالهِ، وكانَ ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائماً وقاعداً وعلى جنْبه، وفي مشيه وركوبه ومسيره، ونزوله وظعنه وإقامتهِ[3].

هذا، ونكتفي بالكلام، في موضوع صدقة الذكرِ عن:

١ ـ صدقة التسبيح والتحميد والتهليل والتكبيرِ.

٢ ـ صدقة الاستغفارِ.

---

(١) وقد يأتي الذكر في القرآن أو السنة مقيداً، فيكون المراد منه بحسب قيده، كقوله تعالى: «فاذكروا اسم الله عليها» الآية ٣٦ سورة الحج.

(٢) جامع العلوم والحكم (ص٤٢٢) [انظر: المشوق لذكر الله ص١٢].

(٣) زاد المعاد٢/٣٦٥ (تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخر).

كنموذجين جليلينِ من نماذجِ الذكرِ العظيم[1].

١ ـ (صدقةُ التسبيحِ والتحميدِ والتهليلِ والتكبيرِ):

عن أبـي ذَرٍّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ أن رسـول الله ﷺ قـالَ: «**يصبحُ على كل سُلاَمى[2] من أحدكم صدقةٌ، فكل تسبيحة صدقةٌ، وكل تحميدة صدقةٌ، وكل تهليلة، صدقةٌ، وكل تكبيرةٍ صدقةٌ، وأمرٌ بالمعروفِ صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكرِ صدقةٌ، ويجزئ من ذلكَ ركعتانِ يركعهما من الضُّحَى**»[3].

سبحانَكَ ربي، ما أجَلَّكَ وما أعظمكَ وما أكرمَكَ.

سبحانك ربي، خيرُك عميمٌ، ورزقك كريمٌ، وفضلكَ عظيمٌ.

سبحانك ربي، لا ينفد مدَدُكَ، ولا ينقطعُ عطاؤُك، وعندك خزائنُ كل شيء.

عطاؤكَ يا من عزَّ ذكرُكَ وجلَّ ثناؤُكَ، لا يعطيه غيرُكَ، ولا يقدرُ عليه سواكَ، فأنتَ وحدكَ الرزّاقُ ذو القوَّةِ المتينِ، تكلف عبادَكَ العملَ القليل، وتثيبهم عليه بالعطاءِ الجزيلِ، مِنَّةً منكَ وفضلاً، وأنتَ العليمُ الحكيمُ.

عبدُكَ يسبحُ تسبيحةً فتمنحهُ صدقةً، ويحمد تحميدةً، فتهبه

---

(١) انظر في الذكر والدعاء كتاب العبد الفقير «مَنَازل الأصفياء بين الذكر والدعاء» فهو خلاصة ما كتبه العلماء الأجلاء عن الذكر، ويقع في حوالي (٤٠٠ صفحة) وطبع عدة مرات.

(٢) السُّلاَمَى: المفصل.

(٣) رواه مسلم (٧٢٠) وأبو داود (١٢٨٦).

صدقةً، ويهلل فترزقه صدقةً، ويكبرُ فتعطيه صدقةً.

والله عزَّ وجلَّ يحبُّ التسبيحَ والتحميدَ والتهليلَ والتكبيرَ، فعن سمرة بن جندب ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أحبُّ الكلامِ إلى اللّه أربعٌ: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إلهَ إلا اللّه، واللّه أكبر، بأيهن بدأتَ»**(١). وعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قالَ: قال رسولِ اللّهِ ﷺ: **«لأنْ أقولُ: سبحانَ اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبرُ، أحَبُّ إليَّ مِمَّا طلعت عليهِ الشمسُ»**(٢).

الباقياتُ الصالحاتُ، والتسبيحُ والتحميدُ والتهليلُ والتكبيرُ: قال اللّه تعالى في سورة الكهف: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾(٣).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ **«الباقياتُ الصالحاتُ»** الصلوات الخمسُ، وهكذا قال غيرُ واحدٍ من أهلِ السلفِ، منهم: سعيد بن جبير، وعمرو بن شرحبيل.

وذهب آخرون إلى أن الباقياتِ الصالحات، هي الكلماتُ المأثورُ فضلُها: **سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبرُ**، ومن هؤلاء عثمان بن عفان، وعبداللّه بن عباس، وسعيد بن المسيب، وعبداللّه بن عمر، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، والحسن، وقتادة، ومنهم من زاد

---

(١) رواه مسلم (٢١٣٧) وأبو داود (٤٩٥٨) والترمذي (٢٨٣٨) وغيرهم.

(٢) رواه مسلم (٦٩٥) والترمذي (٣٥٩١).

(٣) الكهف: ٤٦.

على هذه الأربعة قول: «**ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله**».

ومنهم من قال بأنَّ «**سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبرُ**» من الباقيات الصالحات، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سبحان اللهِ، والحمد للهِ، ولا إلهَ إلا اللهِ، واللهُ أكبرُ، من الباقياتِ الصالحاتِ**».

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**استكثروا من الباقياتِ الصالحاتِ**» قيلَ: وما هُنَّ يا رسول الله؟ قال: «**المِلَّة**» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «**التكبيرُ، والتهليلُ، والتسبيح، والحمد لله،ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله**»(١).

وفريق رابع يرى أنَّ «الباقيات الصالحاتِ»: كلُّ عمل صالحِ من قولٍ أو فعلٍ يبقى للآخرةِ، ورجحه الطبري حيثُ قالَ: وأولى الأقوال في ذلك بالصوابِ قولُ من قالَ: هُنَّ جميعُ أعمالِ الخيرِ، كالذي روى عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، لأن ذلك كله من الصالحات التي تبقى لصاحبِها في الآخرةِ، وعليها يجازي ويُثَابُ» وإن الله عز ذكرهُ لم يُخصِّصْ من قولِهِ: «والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربكَ ثواباً» بعضاً دونَ بعضٍ في كتابٍ، ولا بخبرِ عن رسول الله ﷺ، فإنَ ظنَّ ظانٌّ أن ذلكَ مخصوصٌ بالخبرِ الذي رويناه عن رسول الله ﷺ، فإنَ ذلكَ بخلافِ ما ظنّ، وذلكَ أن

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣/٧٥).

الخبر عن رسولِ الله ﷺ، إنما وَرَدَ بأنَّ قول: سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولا إله إلا الله، والله أكبرُ، هُنَّ منَ الباقيات الصالحات، ولم يقلُ: هُنَّ جميعُ الباقياتِ الصالحاتِ، ولا كُلُّ الباقياتِ الصالحاتِ، وجائزٌ أن تكونَ هذه باقياتٌ صالحاتٌ، وغيرها من أعمالِ البِّر أيضاً بَاقياتٌ صالحاتٌ[1].

٣ ـ معنى «سبحانَ اللهِ»:

حاصلُ المعنى الأصلي للتَّسْبيحِ في الشرع هو: تنزيهُ اللهِ عزَّ وجلَّ في الاعتقادِ والقولِ والعملِ، عما لا يليق بهِ سبحانَه، في ذاتهِ وأسمائهِ وصفاتهِ وأقوالهِ وأفعالهِ، وهذا المعنى الشرعي للتسبيحِ موافقٌ للمعنى اللغوي للتسبيح، وبذلكَ يكونُ تفسيرُ التسبيحِ بأنه «تنزيه اللهِ تعالى عن السّوءِ» مجمعاً عليهِ لغةً وشرعاً، وقد سبقَ إلى بيانِ هذا الإجماعِ أبو إسحاق الزَّجَّاج، حيث قالَ: «جاء عن النبي ﷺ. أن قوله: «سبحانَ اللهِ» تنزيهُ اللهِ منَ السوءِ، وأهلُ اللغةِ كذلكَ يقولونَ، من غيرِ معرفةٍ بما فيهِ عن النبي ﷺ، ولكن تفسيره يجمعون عليه، وبين ذلكَ أيضاً الواحديُّ . فيما نقله عنه الإمامُ النووي . أنه قالَ: «أجمعَ المفسرونَ وأَهْلُ المعاني على أنَّ معنى (تسبيحُ الله تعالى) تنزيهه وتبرئتُه من السوءِ» وبهذا يعلَمُ أنَّ التسبيح هو والتنزيه شيءٌ واحدٌ، إذ يُقْصَدُ بكلٍّ منهما: تجريدُ ما لا يليقُ نسبته إلى الله

(١) أنظر: تفسير الطبري٩/٢٥٣ ـ ٢٥٦، وتفسير البحر٦/١٢٧ ، وتفسير ابن كثير٥/١٦٠ ـ ١٦٣.

ـ عز وجلَّ ـ من وصف، أو سِمَة، أو قولٍ أو فعلٍ ـ مما هو لائقٌ بكماله، فيثبتُ له ما يليقُ بهِ، وينزه عما لا يليقُ بهِ. ومن هنا فَسَّرَ بعضُ أهل العلم التسبيحَ بقولِه: «سبحان الله: تنزيهُ اللهِ تعالى عن كلِّ ما لا ينبغي أنْ يوصَفَ بهِ، وفسَّرَ بعضُهم التسبيحَ بقولِه: «وتنزيه الله عزَّ اسمُهُ: أَلاَّ يُوصَفَ بوصفٍ لا يليقُ بهِ».

ويشهدُ لما سبقَ ما ثبت من حديث حذيفة بن اليمان ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة، فكانَ عليه الصلاة والسلامُ يقرأُ مترسِّلاً، إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سَبَّحَ» الحديث[1].

وفي رواية: «**إذا مَرَّ بآية فيها تنزيُه الله عزَّ وجلَّ سبَّحَ**»، فجعَلَ تنزية اللهِ عز وجلَّ ـ في الروايةِ الثانية ـ مكانَ التسبيح ـ في الروايةِ الأولى ـ فكانَ كالتفسيرِ لهُ.

وقد وردت آثارٌ كثيرةٌ في معنى التسبيحِ، فعن ابن عباس: «سبحانَ الله: تنزيهُ اللهِ عزَّ وجلَّ عن كلَّ سوءٍ» وهكذا وردَ عن مجاهد، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأثر عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ.

وبهذا قالَ عامة السَّلَفِ، وتطابَقتْ عليه أقوال أهلِ العلمِ من الخَلَفِ[2].

فقولُ: «**سبحان الله**» أي: تعالى الله وتقدَّسَ وتنزّه، فالتسبيحُ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٥٣٦) برقم (٧٧٢) بلفظ طويل.

(٢) انظر التسبيح في الكتاب والسنة، للدكتور محمد بن إسحاق كندو، مكتبة دار المنهاج ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ (مجلدان).

يتضمَّنُ التقديس والتنزيه من كلِّ سوء، ومما لا يليقُ بهِ سبحانهُ وتعالى من الشريكِ والولدِ والصاحبة، والتَّبْرِئَة من النقائصِ مطلقاً، فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلُحُ لغيرهِ[1].

هذا ومن المعلوم في الكتابِ الكريم أن كلَّ شيءٍ يُسَبِّحُ الله تبارك وتعالى، كما قالَ جلَّ شأنهُ في سورة الإسراءِ:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾[2].

وهذه الآية الكريمةُ عند المحققينَ،أكثرُ شمولاً، وأبلغُ عموماً في إسنادِ التسبيح إلى الكائنات، فإنَّها تدلُّ بمنطوقها أن كلَّ ما يصدقُ عليهِ، أنَّهُ شيءٌ، يُسبح بحمدِ الله تعالى، وتدلّ بمفهومِها على عَدمِ وجودِ شيءٍ لا يسبحُ بحمدِ الله تعالى جلَّ وعلاه[3].

هذا وقد خص الدكتور محمد بن إسحاق كندوُ المبحث الثالث من الباب الأول، لذكرِ أنواعِ التسبيح باعتبارِ فاعله، وقسمه إلى خمسة مطالب:

(**الأول**) تسبيحُ اللهِ تعالى لنفسهِ المقدسة كقولهِ تعالى في أول سورة الإسراءِ:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى

---

(١) ماذا يحب الله وماذا يبغضُ، لعدنان الطرشة ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض، الطبعة الخامسة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٢) الإسراء: ٤٤.

(٣) التسبيحُ في الكتابِ والسنةِ ١/٣٥٠ ـ ٣٥٢.

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[1].

(الثاني) تسبيحُ الملائكةِ لله تعالى، كقولهِ جلَّ شأنُه في سورة الأعراف:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾[2].

(الثالث) تسبيحُ صالحي البشرِ لله تعالى، منَ الأنبياءِ وغيرِهم، ومحمد ﷺ هوَ أفضَلُ من سبَّح الله تعالى ونَزَّهَ، وأبلغ منْ دعا إلى التسبيحِ ونَوَّهَ، وقد جاءَ إعلانُ ذلكَ في قولِه جلَّ ثناؤهُ:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[3].

(الرابع) تسبيحُ الكائناتِ كلِّها للهِ تعالى، ففي كتابِ الله تعالى نحو ثلاث عشرة آية، من إحدى عشرةَ سورة، أسند فيها التسبيحُ إلى هذه الكائناتِ مجملة في بعضها، ومفصلة في بعضِها الآخَرِ، كقوله تعالى في سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾[4] مُجْمَلَة. وكقوله تعالى في سورةِ الرعدِ:

---

(١) الإسراء: ١.

(٢) الأعراف: ٢٠٦.

(٣) يوسف: ١٠٨.

(٤) الحديد: ١.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾[1] مفصلة.

(**الخامس**) تسبيحُ أهلِ الجنةِ فيها لله تعالى، كقولِه سبحانهَ في سورةِ يونس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾[2] [3].

حكم تسبيح الله تعالى:

خلاصةُ القول في حكم تسبيح الله تعالى: أنَّ التسبيحَ عبادةٌ قوْليَّةٌ اعتقاديةٌ، ورد الأمرِ بها في الكتابِ والسنَّة، وعلى العبدِ تحقيقها لفظاً ومعنى، فيكونُ عند نطقِه بلفظِ التسبيحِ في الصلاةِ أو خارجِها، مستحضراً معناهُ بقَلْبِه معتقداً له، ويكونُ بذلكَ قد أتى بالتسبيحِ على التمام والكمالِ إن شاءَ الله تعالى، فالتسبيحُ حق من حقوقِ الله تعالى التي يجبُ إفرادُهُ بها، وأنَّها عبادةٌ عظيمةٌ، شرَعَها اللهُ تعالى وأمرَ بها عبادَهُ أمْرَ إيجابٍ تارةً، وأمْرَ نَدْب تارةً أخرى[4].

---

(١) الرعد: ١٣.

(٢) يونس: ٩ ـ ١٠.

(٣) انظر المبحث الثالث بالتفصل في المجلد الأول، الباب الأول من كتاب: التسبيح في الكتاب والسنة (د/كندو) من ص٢٤٧ ـ ٣٥٨.

(٤) التسبيح في الكتاب والسنة ١ /٤٠٧، ٤٢٢.

(ب) معنى «الحمدُ لله»:

قال أبو جعفر الطبري ـ رحمه الله ـ: معنى (الحمد لله): الشكرُ خالصا لله جلَّ ثناؤُه، دونَ سائر ما يُعبدُ من دونه، ودونَ كل ما يُرَى من خلْقه، بما أنعمَ على عباده من النعم التي لا يحصيها العددُ، ولا يحيطُ بعددها غيرُهُ أحدٌ، في تصْحيح الآلات لطَاعته، وتمّكين أجْسام المكلَّفينَ لأداء فرائضه، معَ ما بسطَ لهم في دنياهم من الرزق، وغَذَّاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاقٍ منهم لذلكَ عليه، ومعَ ما نبَّههمُ عليه، ودعاهم إليه من الأسبابِ المؤدية إلى دوام الخلود في دارِ المقامِ في النعيمِ المقيم، فَلِربِّنا الحمد على ذلكَ كلِّه أوَّلاً وآخراً.

قال ابن عباسٍ: الحمد للهِ هوَ الشكرُ لله والاستخذاء[1] لله، والإقرارُ بنعمته وهدايته، وابتدائه، وغيرِ ذلكَ[2].

وقال آخرون: «**الحمد لله**»: معناهُ: الثناءُ الكاملُ على الله تعالى، فهو سبحانَهُ يستحقُّ الحمد بأجمعه، إذْ لهُ الأسماءُ الحسنى والصفات العلا، قال رسول لله صلى الله عليه وسلَّم: «**ما أنعَم الله على عبد نعمةً فقال: الحمد لله، إلا كانَ الذي أعطاهُ أفضلَ مما أخذَ**»[3].

---

(١) انظر في فضل التسبيح كتاب (التسبيح في الكتاب والسنة) كندو، من ص٤٢٢ ـ ٤٦٧ الاستخذاء: الخضوع والانقياد.

(٢) تفسير الطبري١ / ٥٩ ـ ٦٠.

(٣) صحيح سنن ابن ماجة (٣٠٦٧).

وقال رسول الله ﷺ: «**الحمدُ للّه تمْلأُ الميزانَ، وسبحانَ اللّه والحمد للّه تمْلآنِ أو تملأُ ما بينَ السماواتِ والأرضِ**»[(١)]

قيلَ: لو قُدِّر ثوابُهما جِسْماً، لملأَ ما بين السماوات والأرضِ، وسبب عظَمِ فضلِهما، ما اشتملتا عليه من التَّنْزِيه للّه تعالى بقولِهِ: (**سبحان اللّه**) والتفويضُ والافتقارُ إلى الله تعالى بقولِهِ: (**الحمد للّه**)[(٢)].

قال العلامة عبدالرحمن السَّعدي: (الحمد للّه): هو الثناءُ على الله بصفاتِ الكمال، وبأفعالِهِ الدائرةِ بينَ الفضلِ والعدلِ، فلَهُ الحمدُ الكاملُ، بجميعِ الوجوهِ[(٣)].

فالحمد متعلقٌ بالكمالِ، فلأَنَّ الله سبحانَهُ وتعالى كاملٌ كمالاً مطلقاً، فهوُ يحمدُ، فموطِنُ الحمد الكمال، وموطنُ الذمّ النَّقْصُ.

إنَّ نعَمَ اللهِ تعالى علينا عظيمةٌ، وآلاؤُهُ جَسِيمة، وفضلُهُ لا حدَّ لهُ، وكرمُهُ لا يدَّله، وعطاؤُه لا مثيل له..

الإسلامُ نعمُة، والإيمانُ نعمةٌ، والتوحيدُ نعمةٌ، والخَلقُ في أحسنِ تقويم نعمة، والأهلُ نعمةٌ، والأبناءُ نعمةٌ، والزوجةُ نعمةٌ، والمسكنُ نعمةٌ، والمطعمُ نعمةٌ، والمشربُ نعمةٌ، والملبسُ نعمةٌ، والأمنُ نعمةٌ، والماءُ نعمةٌ، والهواءُ نعمةٌ، والبصرُ نعمةٌ، والسمعُ نعمةٌ، واليدُ نعمةٌ، والعقلُ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء.
(٢) ماذا يحب الله تعالى وماذا يبغض؟ ٣٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن١ / ٣٢.

نعمةٌ، والعافيةُ نعمةٌ، والسلامةُ من الكوارثِ والزلازل والرعب نعمةٌ، والأمنُ نعمةٌ....

وخلاصة الأمر: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾[1].

فَلَهُ الحمدُ على نعمِه، ولهُ الشكرُ على عطائِه، ولهُ الفضلُ ومنهُ الفضلُ، وهوَ العزيز الحميدُ، حمد نفسَهُ جلَّ وعلا في أوَّلِ آيةٍ من كتابِهِ الكريم، لِيُثْنيَ على نفسِه، فهو أهلُ الثناءِ والحَمْدِ، وليعَلِّم عبادهَ أن يحمدوهَ ويشكروهُ ويمجّدوهُ، ويبتدئُوا بحمدِه، وينتهوا بحمدِه، ويلهجوا بحمدِه، فهو أهلُ الثناءِ والمجدِ، وله الحمدُ في الأولى والآخرة، وأيُّ أَمرٍ لا يُبْتَدَأُ بحمدِ الله فهو أجذمُ[2] افْتُتحَتْ خمسُ سور من أبدع السورِ في القرآنِ الكريمِ بحمدِ اللهِ تعالى، حمدٌ له على ربوبيّتِه وألوهيَّتِه، وحمدٌ لهُ على خلقِ السماواتِ والأرضِ، وحمد له على إنزالِ الكتابِ، وحمد له على سعةِ علمِه وكمالِ إحاطتِه، وحمدٌ له على أنهُ فطرَ السماواتِ والأرضَ، وخلقَ الملائكةَ، ويزيدُ في الخَلْقِ ما يشاءُ..

ابتداءُ خمسِ سورٍ من القرآن الكريم بالحمد:

بدأت سورة (**الفاتحة**) بالحمدِ، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

---

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) أجذم: أي مقطوع عن الخير والبركة، يقال: (جَذمَهُ) جَذْماً: قطعه، فهو مجذوم، انظر: المعجم الوسيط ١/١١٣.

وبدأتْ سورة (**الأنعام بالحمد**) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

وبدأت سورة (**الكهف**) **بالحمد** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾.

وبدأت سورة (**سبأ**) **بالحمد** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾.

وبدأت سورة (**فاطر**) **بالحمد** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

وَوَرَدَ ذكرُ الحمدِ في القرآن الكريم كثيراً ومُنوَّعاً ليعرف الله تعالى عبادَهُ كيف يحمدونه ويثنون عليه:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾(١) **وقال سبحانه:** ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾(٢).

---

(١) القصص: ٧٠.

(٢) الروم: ١٧ ـ ١٨.

وقد حمد اللهُ تعالى نفسَهُ العاليةَ المقدسة قبلَ أن يحمدَهُ حامدٌ، وفي أَوَّلِ الخلْقِ وآخرهُ، وعند الأمْرِ والشرعِ حمد نفسهُ على ربوبيَّته للعالمينَ، وحَمِدَ نفسهُ على تفرُّده بالإلهيةِ وعلى حياته، وحمدَ نفسهُ على امتناعِ اتصافهِ بما لا يليقُ بكمالهِ، من اتخاذ الولد والشريكِ، وموالاةِ أحد من خلقهِ لحاجتهِ إليه، وحمدَ نفسَهُ على عُلوّه وكبريائه، وحمد نفسهُ في الأولى والآخرة، وأخبر عن سَرَيَانِ حمده في العالمِ العلويّ والسّفليّ، ونَبَّه على هذا كُلّه في كتابهِ وحمدَ نفسهُ عليه.

فالحمد كُلّه لله ربِّ العالمينَ، فإنهُ المحمودُ على ما خلقهُ وأمرَ بهِ ونهى عنهُ، فهو المحمودُ على طاعاتِ العبد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم، وهوُ المحمودُ على خلقِ الأبرارِ والفجارِ والملائكة والشياطينِ، وعلى خلقِ الرسُلِ وأعدائهم، وهو المحمودُ على عدله في أعدئه، كما هو المحمودُ على فضلهِ وإنعامهِ على أوليائه، فكلُّ ذرَّة من ذراتِ الكون شاهدةٌ بحمده، ولهذا سبحَ بحمدهِ السماوات السبع والأرض ومن فيهن ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾[1] ولهذا يقول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «**ربنا ولك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد**»[2].

---

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) رواه مسلم (٤٧٦) وأبو داود (٨٤٦) والترمذي (٣٥٤١) وغيرهم.

فلهُ سبحانهُ الحمدُ حمداً يملأُ المخلوقاتِ والفضاءِ الذي بينَ السماواتِ والأرضِ، وملءَ بعدَ ذلكَ مما يشاءُ اللّه أنَ يملأَ بحمدِهِ..

وجميع أسمائه تباركَ وتعالى حمدٌ، وصفاته حمدٌ، وأفعاله حمدٌ، وأحكامهُ حمدٌ، وعدْله حمدٌ، وانتقامُهُ من أعدائه حمدٌ، وفضلُهُ في إحسانِهِ إلى أوليائِه حمدٌ، والخلْقُ والأمرُ إنما قامَ بحمدِهِ، ووُجِدَ بحمدِه، وظهرَ بحمدِه، والله تعالى أنزلَ كتابهُ بالحمدِ، وشرعَ دينهُ بالحمدِ، وأوجَبَ ثوابهُ وعقابه بالحمدِ، فَحَمْدُه من لوازم ذاتِه، إذ يستحيلُ إلاَّ أن يكون محموداً، فالحمد سبب الخلقِ وغايته، بالحمدِ أوجدَهُ وللحمدِ وُجِدَ، فحمدُهُ واسعٌ لما وسعَهُ علمهُ ورحمتُهُ، وقد وسعَ ربنا كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً، فلمْ يُوجِدْ شيئاً ولم يُقَدِّرْهُ ولم يُشْرع إلا بحمدِه ولحمدِه، وكلُّ ما خلقهَ وشَرعَهَ فهو متضمِّنٌ للغاياتِ الحميدة، ولابد من لَوَازمِها، ولوازمِ لَوَازمِهَا، ولهذا ملأَ حمدُهُ سماواته وأرضه وما بينهما وما شاءَ من شيءٍ بَعْدُ مما خلقهُ ويخلُقُهُ بعد هذا الخلقِ، فحمدهُ ملأَ ذلكَ كلَّه..

وحمده تعالى أنواعٌ:

حمدٌ على ربوبيتِه، وحمدٌ على تفرُّده بها، وحمدٌ على ألوهيته وتفردِه، وحمد على نعمتِه، وحمدٌ على منَّتِه، وحمدٌ على حكمتِه، وحمدٌ على عدْله في خلقه، وحمد على غناه عن إيجاد الولدِ والشريكِ والوليِّ من الذُّلِّ، وحمدٌ على كمالِه الذي لا يليقُ بغيرِه، فهو محمودٌ

على كلِّ حالٍ وفي كلِّ آنٍ ونفسٍ، وعلى كلِّ ما فَعَلَ وما شرَعَ، وعلى كل ما هو مُتصفٌ به، وعلى كلِّ ما هو مُنَزَّهٌ عنهُ، وعلى كلَّ ما في الوجودِ من خيرٍ وشرّ، ولذَّةٍ وألم وعافيةٍ وبلاء، فكمَا أنَّ المُلْكَ كلهُ لهُ، والقدرة كلَّها لهُ، والعزة كلها له، والعلم كله لهُ، والجمال كلهُ لهُ، والحمدُ كله لهُ، كما في الدعاء المأثور: «**اللهم لكَ الحمد كلُّه، ولك الملك كلّه، وبيدكَ الخيرُ كلُّه، وإليكَ يرجع الأمر كله، وأنت أهلٌ لأَن تُحمد**»...

وكما أن الله تعالى بدأ كتابهُ بالحمدِ، فكذلكَ نبيُّه ﷺ كان يبتدئ كلامه بالحمدِ، ويفتتحُ خطابهَ بالحمد: «**الحمد للّه، نحمدهُ ونستعينُهُ ونستهديه ونستغفرُهُ ونتوب إليه...**».

حينما تتعمَّقُ في فهم أبعاد الحمد، وأسرار الحمد، ودقائق الحمد، تجد أمراً عجيباً: فالله تعالى حميدٌ مجيدٌ، وهو المحمود على كل حالٍ، وكتابهُ بدأَ بالحمدِ، وكلمةُ التوحيدِ تُقْرنُ بالحمد: «**لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملكَ، ولهُ الحمدُ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ**».

والركن الثاني من أركانِ الإسلام (الصلاة):

كله يفيضُ بالحمدِ، ويبتدئُ بالحمدِ، «**سبحانك اللهم وبحمدكَ وتباركَ اسمك وتعالى جدّكَ ولا إلهَ غيركُ**»[1].

(١) رواه مسلم (٣٩٩) عن عمر، وأبو داود (٧٧٥) والترمذي (٢٤٢) وابن ماجة (٨٠٤) عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، والحاكم في المستدرك (١/٢٣٥).

. دعاءُ الاستفتاحِ في الصلاة، والقراءةُ في الصلاةِ تبدأُ بالحمدِ للهِ ربِ العالمينَ، والركوعُ: سبحانَ ربِّيَ العظيم وبحمده والرفعُ من الركوع: سمعَ الله لمن حمدهُ، والمأموم يقولُ: ربنا ولكَ الحمدُ.

ومما يقالُ بعدَ الرْفعِ منَ الركوع: اللهم لكَ الحمدُ حمداً طيباً كثيراً مباركاً فيهِ[1] كما يحبُ ربنا ويرضى، اللهم لك الحمدُ كما ينبغي لجلالِ وجهِكَ وعظيمُ سلطانِكَ، لكَ الحمدُ مل السماوات والأرض، وملَ ما شئتَ من شيء بعد[2] وفي السجود: سبحانَ ربيَ الأعلى وبحمدهِ وفي التَّشَهّدِ: إنكَ حميدٌ مجيدٌ، وبعد الصلاةِ: الحمدُ للّه ثلاثاً وثلاثين.

كان النبي ﷺ يصلِّي بأصحابه، فلما رفَعَ رأسَهُ من الركعةِ قالَ: «**سمع الله لمن حمدهُ**» فقال رجل وراءه: **ربَّنا ولَكَ الحمدُ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يُحب ربنا ويرضى**، فلما انصرفَ ﷺ من الصلاة قالَ: «**من المتكلِّمُ**»؟ قالَ الرجلُ: أنا، قالَ: «**رأيتُ بضعةَ وثلاثينَ ملكاً يَبْتتدِرُونها أيهم يكتُبُها أوَّلُ**»[3].

وفي **الحج يقولُ الأبرارُ**: إن الحمدَ والنعمةَ لكَ والملكَ، لا شريكَ لكَ. والنبي ﷺ يُبْتَدَأُ بالحمدِ، بل اسمُهُ يحملُ معاني الحمد، فهو محمدٌ، وأحمد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ

(١) رواه مسلم (٦٠٠) وأبو داود (٧٦٣) والنسائي (٢/١٣٢).
(٢) رواه مسلم (٤٧٦) وأبو داود (٨٤٦) والترمذي (٣٥٤١) وغيرهم.
(٣) رواه البخاري (٧٩٩) والموطأ (٢١٢/١) وأبو داود (٧٧٠) وغيرهم.

ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٦﴾[1] فأحمد، إشارةً إلى النبي ﷺ وَفعلِه، وتَنْبيهاً أنه كما وُجِدَ اسمه أحمد، فهو محمود في أخلاقه وأحواله وصفاته وأفعاله، وخصَّ لفظة أحمد فيما بَشَّرَ به عيسى ـ عليه السلامُ ـ تنبيهاً أنه أَحمد منهُ ومن الذينَ من قبله، فهو أحمدُ، وفعلُهُ أحمد، وصفاته أحمدُ، وعبادتُهُ أحمدُ، وأخلاقُهُ أحمدُ، ودينهُ أحمدُ.

وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾[2] فهو إشارة إلى اسمه ﷺ، وإشارةٌ إلى ما تحملُهُ كلمةُ (**محمد**) من الصفاتِ والأفعال المحمودةِ، وهذا المحمد الأحمد ملأَ الكونَ بابتهالاتِ الحمدِ، وعَمَّرَ الليالِي بأنوارِ الحمد، وملأَ القلوبَ برحيقِ الحمدِ، وبثَّ في النفوسِ والأسماع والأفئدة عَبيرَ الحمدِ، فإذا الثناءُ العاطر، والدعاءُ الآسرُ، والعباراتُ الخلابةُ، والكلماتُ الجذَّابةُ: «**اللهم لكَ الحمدُ أنتَ قيِّمُ السماواتِ والأرضِ ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن، وبك الحمد أنتَ الحقُّ، ووعدكَ حقّ، ولقاؤُكَ حقّ، وقولكَ حقّ، والجنةُ حقّ، والنارُ حقّ، والنبيونَ حقّ، ومحمد ﷺ حقّ والساعةُ حقّ، اللهم لكَ أسْلَمْتُ ولكَ آمنتُ،**

---

(١) الصف: ٦.

(٢) الفتح: ٢٩.

وعليكَ توكلتُ، وإليكَ أَنَبْتُ، وبكَ خَاصَمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قدَّمتُ وما أخرْتُ، وما أسررْتُ وما أعلنتُ، أنتَ المقدمُ وأنتَ المؤخرُ لا إله إلا أنتَ» [1].

ويعلِّمُ النبي ﷺ أصحابه أنَ يلهجُوا بالحمد، ويعمرو به أوقاتهم، وينيروا بهِ بصائرهُمْ وأبصارهِمُ، فيقولُ: «**مَنْ قال: لا إله إلا اللّه وحدَهُ لا شريكَ لهُ الملكُ وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير في يوم مائة مرَّة، كانت له عدل عشرِ رقاب، وكُتبَتْ له مائة حسنة، ومحيتْ عنهُ مائةُ خطيئة، وكانت حرزاً لهُ من الشيطان يومهُ ذلكَ حتى يمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضل مما جاءَ به إلا رجلَ عملَ أكثرَ من ذلكَ»** [2].

ويقول ﷺ: «**أفضلُ الدعاءِ الحمد للّه**» [3].

ويقول ﷺ: «**الطهورُ شَطْرُ الإيمانِ، وسبحانَ اللّه والحمد للّه تمْلأنِ أو تَمْلأُ ما بينَ السماءِ والأرضِ**» [4].

ويقول ﷺ: «**من قالَ سبحانَ اللّه وبحمده في يوم مائة مرة، حُطتْ عنهُ خطاياهُ وإن كانت مثل زبد البحرِ**» [5].

(١) متفق عليه، البخاري (١١٢٠) ومسلم (٧٦٩) وأبو داود (٧٧١) وغيرهم.

(٢) متفق عليه، البخاري (١١/١٦٨) ومسلم (٢٦٩١) وأخرجه مالك في الموطَّأ (١/٢٠٩) والترمذي (٣٤٦٤).

(٣) حسن، رواه الترمذي، وغيره عن جابر، وهو في الصحيحة (١٤٩٧) وفي صحيح الجامع (١١٠٤).

(٤) رواه مسلم (٢٢٣).

(٥) متفق عليه، رواه البخاري ومسلم، وأحمد والترمذي وابن ماجة، وهو في مختصر مسلم (١٩٠٨)

فالله تعالى أحقُّ من ذُكِرَ، وأحقُّ من حُمِدَ، وأَوْلى من شُكِرَ، أهل الثناء والمجد، أحقُّ ما قالَ العبدُ، وكلنا لهُ عبدٌ، له الحمدُ حمداً كثيراً طيباً مباركاً، لهُ الحمدُ ملءَ السماواتِ والأرضِ وما بينهما، وملءَ كلِّ شيءٍ بَعْدَ، لهُ الحمدُ حتَّى يرضى، وله الحمدُ بعد الرِّضا، ولهُ الحمدُ عدد خَلقِه وزِنَةَ عرشِه ورضا نفسِه، ومدادَ كلماتِه، سبحانهَ لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسِه»[1].

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ تحت عنوان: أسرارُ عبوديةِ الحمد: فعندَ قولِه: «**الحمدَ للَّه ربِّ العالمين**» نجد تحت هذه الكلمةِ: إثباتُ كل كمالِ للربِّ فعلاً، ووصفاً واسماً، وتنزيهه سبحانهُ وبحمدِه عن كلِّ سوءٍ وعيبٍ، فعلاً ووصفاً واسماً، وإنما هو محمودٌ في أفعالِه وأوصافِه وأسمائِه.

فأفعالهُ كلُّها حكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ لا تخرجُ عن ذلكَ، وأوصافُه كلُّها أوصافُ كمالٍ، ونُعُوتُ جلالٍ، وأسماؤُهُ كلها حُسنَى. وحمدُهُ تعالى قد مَلأَ الدّنيا والآخِرَةَ، والسماواتِ والأرضَ وما بينهما وما فيهما، فالكوْنُ كلُّه ناطِقٌ بحمدِه، فحمدُهُ هو سببُ كل شيءٍ موجودٌ، وهو غاية كلِّ موجودٍ، وكلُّ موجودٍ شاهدٌ بحمدِه.

وفي صحيح الجامع (٦٤٣١).

(١) انظر كتاب «الله أهل الثناء والمجد» د/ ناصر بن مسفر الزهراني، العبيكان ـ الرياض، الطبعة الرابعة ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، من ص٦٠٨ ـ ٦٢٠.

فإرسالُهُ رسلهُ بحمدِهِ، وإنزاله كتبِهِ بحمدِهِ، والجنَّة عُمرَتْ بحمدِهِ، والنارُ عُمِّرتْ بأهلِها بحمدِهِ، كما أنهما إنما وُجدَتَا بحمدِهِ. وما أُطيعَ إلا بحمدِهِ، وما عُصِيَ إلا بحمدِهِ، ولا تسقطُ ورقةٌ إلا بحمدِهِ، ولايتحرَّكُ في الكونِ ذرةٌ إلاَّ بحمدِهِ، فهو سبحانهُ وتعالى، المحمودُ لذاتهِ وإن لم يحمدُهُ حامدٌ، كما أنه هو الواحدُ الأحدُ، وإن لم يُوَحِّدْهُ العبادُ، وهو الإلهُ الحقّ وإن لم يؤَلّهوهُ[1]، سبحانهُ هو الذي حمدَ نفسهُ على لسانِ الحامدِ، كما قال النبي ﷺ: «إن الله تعالى قال على لسان نبيِّه: سمعَ اللّه لمنْ حمدهُ» [2]، فهوَ الحامدُ لنفسهِ في الحقيقةِ على لسانِ عبدِهِ، فإنه هو الذي أجرى الحمدَ على لسانهِ وقلبِهِ، وإجراؤه بحمدِهِ فلهُ الحمدُ كلهُ، ولهُ الملكُ كلهُ، وبيدهِ الخيرُ كلهُ، وإليهِ يرجعُ الأمرُ كلهُ، علانيتُهُ وسرُّهُ، فهذهِ المعرفةُ نُبذةٌ يسيرةٌ من معرفةِ عبوديةِ الحمدِ، وهي نقطةٌ من بحرٍ لُجِّيٍّ[3] من عبوديته، ثم قال ابن القيم:

ومن عبوديته أيضاً:

أن يَعلمَ أن حَمده لربهِ نعمةٌ منهُ عليهِ، يستحقُّ عليها الحمد، فإذا حمدَهُ عليها استَحقَّ على حمدهِ حمداً آخر، وهلُمَّ جَرًّا، فالعبدُ ولو اسْتنفَدَ أنفاسَهُ كلّها في حمدِ ربهِّ على نعمةٍ من نعمهِ، كانَ ما يجبُ

(١) التأليهُ: هو التعبيدُ، والتألُّه: هو التَّنسُّكُ والتعبدُ، فقوله: وإن لم يؤلهوهُ: أي وإن لم يَعبدُوه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -.

(٣) لجِّيٍّ: أي واسع عميق كبيرٍ عظيم.

عليهِ من الحمدِ عليها فوْقَ ذلك، وأضعاف أضعافهَ، ولا يحصى أحدٌ البَتَّةَ[1] ثناءً عليه بمحامدِهِ، ولو حمده بجميعِ المحامدِ فالعبدُ سائرٌ إلى اللهِ بكلِّ نعمةٍ من ربِهِ، يحمدهِ عليها، فإذا حمدَهُ على صرفها عنهُ، حمدهُ على إلهامِهِ الحمدُ.

ثم قال ابن القيم: ومن عبوديةِ الحمدِ: تَسْلِيُطُ الحمدِ على تفاصيلِ أحوالِ العبدِ كلِّها، ظاهرِها وباطنها، على ما يحبُّ العبدُ منها وما يكرَهُ، بلْ على تفاصيلِ الخلقِ كلهم، برهم وفاجِرِهم، علويهم وسُفْليهمْ، فهو سبحانهَ المحمودُ على ذلك كلِّه في الحقيقة، وإن غابَ عن شهودِ العبدِ حكمة ذلكَ، وما يستحقُّ الربُّ تباركَ وتعالى من الحمدِ على ذلكَ، والحمدُ لله هوَ إلهامُ[2] منَ الله تعالى للعبادِ، فمستقلٌّ ومستكثرٌ على قدْرِ معرفةِ العبدِ بربِهِ.

وقد قالَ النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «**فأَقعُ ساجداً فيُلْهمُني اللّه مَحَامدَ أحمدُهُ بها لم تخطر على بالي قطّ**».

ثم قال: **ومن عبوديةِ الحمدِ:** شهودُ العبدِ لعجزِهِ عن الحمدِ، وأنَّ ما قامَ به منهُ، فالربُّ سبحانَهُ هوَ الذي ألهمَهُ ذلكَ، فهو محمودٌ عليه، إذ هوَ الذي أجراهُ على لسانِهِ وقلبِهِ، ولولا الله

(١) البَتُّ: هو القطع، يقالُ: هذا الأمرُ لا أفعلُهُ البتَّةَ، أي لا أعودُ لفعله أبداً.

(٢) الإلهامُ: هو أن يُلقي الله في النفس أمراً يبعثُهُ على الفعلِ أو التركِ، وهو نوعٌ من الوحْي يخصّ الله به من شاء من عبادِهِ.

ما اهتدى أحدٌ[1].

إن الإنسانَ يشربُ كأسَ الماءِ، ويأكلُ الطعامَ، ويأوي إلى بيته، ويلتقي مع أهل بيته، هذه نعَمٌ لا يختلفُ فيها اثنانِ على وجه الأرض، فالجائع يأكلُ فيشعرُ أنَّ الطعام نعمةٌ، والعطشان يشربُ الماءَ القراحَ البارِدَ فيرْتَوى ويشعرُ أنَّ الماءَ نعمةٌ، والمشرَّدُ إذا أَوى إلى بيتهِ يشعرُ أن المَأْوَى نعمةٌ، فهذه نعمٌ لا يختلفُ عليها اثنانِ على وجهِ الأرض، ولكنَّ أُنَاساً عَزَوْا هذهِ النعم إلى البقرِ فعبدوها منَ دونِ الله، وأُناساً عَزوها إلى الشمسِ فعبدوها من دونِ الله....

لكن اللّه سبحانَهُ وتعالى هوُ المنعمُ وَحده، وهو المستحقَّ للحمدِ وحدَهُ وصاحبُهُ، «**الحمدُ للّه ربِّ العالمين**».

إن الحمدَ للّه تعالى مُتَغَلْغلٌ في قلبِ كلِّ مسلم، فكلُّ خَليَّة من خلاياهُ تحمدُ الله عزَّ وجلَّ، بل إنَّ كُلَّ قَطْرَة في دمه تحمدُ الله عزَّ وجلَّ، إنهُ يحمدُ الله تعالى على أن أوجَدَه، لَوْ لَمْ يُوجِدْهُ هل لهَ عندهُ شيء، أَوْجَدَهُ، وأمدَّهُ، وهداهُ إليه، وأرادَ أنْ يسعدهُ في جنةِ الخلد، لذلكَ فآخرُ دعوى المهتدينَ الصادقينَ في الجنة كما قالَ ربُّ العالمينَ: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[2] [3].

---

(١) عن كتاب (أسرارِ الصلاة) لابن القيم، تحقيق أبو عبيدة بن عبدالغني، مكتبة ابن الإسلام ـ الزيتون ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م ص٤١ ـ ٤٤.

(٢) يونس: ١٠.

(٣) موسوعة أسماء الله الحسنى د محمد راتب النابلسي ط دار المكتبي ـ دمشق الطبعة الخامسة

(ج) معنى «لا إلهَ إلا اللهُ»:

معنى «**لا إله إلا الله**»: لا معبودَ بحقٍّ إلاَّ اللهُ، فهي مشتملةٌ على الكفْرِ بالطاغوتِ والإيمانِ بالله، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾[١].

فإنكَ لما نفيْتَ الإلهيَّة وأثبتَّ الإيجابَ لله سبحانهَ، كنتَ ممّنَ كفرَ بالطاغوتِ وآمَنَ بالله، ولذا يقولُ ابن القيم: «والنَّفْيُ المحْضُ ليس توحيداً، وكذلكَ الإثباتُ بدونِ النَّفْي، فلا يكونُ التوحيدَ إلا متضمِّناً للنفيِ والإثباتِ، وهذا هو حقيقةُ التوحيدِ.

و«**لا إله إلا الله**»: كلمةُ التوحيدِ والإخلاص والركنِ الأولِ من أركانِ الإسلامِ، فهي أصلُ الدينِ وأساسه، وهي العمودُ الحامل للفرضِ والسنَّة، فعن معاذ بن جبل ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخلَ الجنة**»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**أفضلُ الذكرِ: لا إله إلا الله**»[٣].

وكلمة «**لا إله إلا الله**» هي شعارُ المسلمين وعنوانهم البارزِ،

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م ـ الجزء الثاني من ص٦٩٣ ـ ٦٩٥.

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) حديث صحيح، رواه أو داود (٣١١٦) ورواه الحاكم في المستدرك (١/٣٥١) وأقره الذهبي، وهو في صحيح الجامع برقم (٦٤٧٩) وفي الإرواء (٦٨٧).

(٣) صحيح سنن الترمذي (٢٦٩٤).

يحققُ بها العبدُ عبوديتَهُ لربِّه تعالى، إقراراً وخضوعاً وتمجيداً له جلَّ وعَلاَ، وكلمةُ التوحيدِ (**لا إله إلا اللّٰه**) لا تنفعُ قائلها عندَ ربهِ إلا بشروطٍ سبعةٍ:

(**الأول**) العلمُ بمعناها، قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦﴾[2] وفي الصحيح عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وهو يعلمُ أن لا إله إلا اللّٰه دخلَ الجنة**»[3].

(**الثاني**) اليقينُ، بأن يكونَ القائلُ مستيقناً بمدْلُولِ هذهِ الكلمةِ يقيناً جازماً، فإنَّ الإيمان لا يُغني فيه إلا اليقينَ، لا عِلْمَ الظن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾[4] فاشترَطَ في صِدْقِ إيمانهم كونهم لم يرْتابوا، أي: لم يَشُكُّوا، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) محمد ١٩.

(٤) الزخرف: ٨٦.

(٣) رواه أحمد في مسنده، ورواه مسلم في صحيحه، وهو في مختصر مسلم برقم (٩) وفي صحيح الجامع برقم (٦٥٥٢).

(٤) الحجرات: ١٥.

«**أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأني رسول اللّه، لا يَلْقَى اللّه بهما عبدٌ غيرُ شَاكٍّ فيهما فيُحجَبَ عن الجنة**»[(١)] وفي الصحيح أيضاً أن الرسول ﷺ أرسلَ أبا هريرةَ بنَعْليه قائلاً لهُ: «**مَنْ لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا اللّه مسْتَيْقناً بها قلبُه، فَبَشِّرْهُ بالجنَّة**»، فاشترطَ في دخول قائلها الجنة، أن يكونَ مُسْتَيقناً بها قلبهُ غير شَاكٍّ فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروطُ.

(الثالث) القبولُ لما اقتضَتْهُ هذه الكلمةُ بقلبه ولسانه: وقد حدّثنا القرآنُ الكريمُ أن اللّه تعالى عَذَّبَ المكذبينَ من الأمم الذينَ رفضوا هذه الكلمة، واستكبروا عنها، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾[(٢)] فجعلَ اللّهُ علَّة تعذيبهم وسببه هو استكبارهم عن قول لا إله إلا اللّه، وتكذيبهم من جاء بها.

(الرابع) الانْقيَادُ لما دَلَّت عليه، المنافي لترك ذلكَ: قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾[(٣)] وقال: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ومسلم في صحيحه، وهو في صحيح الجامع برقم (١٠٠٩).

(٢) الصافات: ٣٥-٣٦.

(٣) الزمر: ٥٤.

﴿٢٢﴾[1] ومعنى ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ ﴾ أي يَنْقَادَ، «وهو محسن» أي مُوَحدٌ، و«العروة الوثقى» فُسِّرَتْ)بلا إله إلا الله(.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قالَ: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتى يكون هَوَاه تبعاً لما جئتُ به**» وهذا تمامُ الانقيادِ وغايتِه.

(الخامس) الصدقُ: وهو أن يقولها صَدقاً من قلْبه، يواطئُ قَلبُهُ لسانه: قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

فهم كاذبون في قولهم، يبطنونَ غير ما يعلنونَ، وفي الصحيحيْن عن معاذ بن جبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قالَ: «**ما منْ أحد يشهدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ صِدْقاً من قلْبِه إلا حَرَّمَهُ الله على النارِ**»[3] فاشترط في إنجاءِ هذهِ الكلمةِ منَ النارِ أن يقولها صِدْقاً من قلبِهِ.

(السادس) الإخلاصُ، وهو تصفيةُ العملِ بصالح النيةِ عن جميع شوائبِ الشِّرْكِ: قال الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) لقمان: ٢٢.

(٢) البقرة: ٨ ـ ٩.

(٣) متفق عليه.

زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[2].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أسعدُ الناسِ بشفاعتي من قال لا إلهَ إلا الله خالصاً من قلْبِه ونفسِه».

وفي الصحيح عن عثمان بن مالك رضي الله عنه. عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله حَرَّمَ على النارِ من قالَ لا إله إلا الله يبتغي بها وجهَ الله عَزَّ وَجَلَّ».

(السابع) المحبةُ، لهذه الكلمة (لا إله إلا الله) ولِمَا اقْتَضَتْهُ وَدَلَّتْ عليه، ولأهلِها العاملينَ بها الملتزمين لشروطِها، وَبُغْضِ ما ناقَضَ ذلكَ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾[3] **فأخبرَ تعالى أنَّ عبادَهُ المؤمنين أشدُّ حُبّاً له، وذلكَ لأنهم لم يتخذوا من دونِهِ أنداداً، وعلامَةُ حُبِّ العبدِ ربه، تَقْدِيمُ مَحَابِّهِ وإنْ خالفَتْ**

(١) الزمر: ٣.

(٢) البينة: ٥.

(٣) البقرة: ١٦٥.

هواه، وبُغض ما يُبغضُ ربه وإن مالَ إليه هواهُ، وموالاة من والى الله ورسولَهُ، ومعاداةُ من عاداهُ، واتباع رسول الله ﷺ واقتفاء أَثَرِه وقبول هداهُ[1].

(د) معنى «الله أكبرُ»:

«**اللّه أكبرُ**»: أي أن الله تعالى هو أكبرُ من كلِّ شيءٍ، ويقالُ: أبلغُ لفظةٍ للعربِ في معنى التعظيم والإجلالِ: اللّه أكبرُ، أى صفة بأنهُ أكبرُ من كل شيءٍ، قالَ الشاعرُ:

رأيــتُ اللّهَ أكــبرَ مـن كـل شـيءٍ   محــاولــةً وأكــثرهــم جـنــوداً

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: قولُ العبدِ «الله أكبرُ» خيرٌ من الدنيا وما فيها، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: بينما نحنُ نصلي مع رسول الله ﷺ إذ قالَ رجلٌ من القوم: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «من القائل كلمة كذا وكذا؟» فقال رجلٌ من القومِ: أنا يا رسول الله، قال: «**عَجِبْتُ لها، فتحتْ لها أبوابُ السماءِ**»[2].

إن المؤمنَ الصادقَ حينما يقولُ: «**اللّه أكبرُ**» فإنهُ يتضاءلَ أمامَهُ كل مخلوقٍ، فهو لا يعتزُّ إلا باللهِ العزيزِ الحكيم، ولا يثقُ إلا باللهِ الموفق الكريم، ولا يعتمدُ إلا على اللهِ القويِ المتينِ، ولا يتوكلُ إلاّ على اللهِ،

(١) العقيدة في الله (عمر الأشقر) من ص٢٣٠ـ ٢٣٢.
(٢) رواه مسلم (٦٠١) والترمذي (٣٥٩٢) والنسائي (١٢٥/٢).

فهو حسبُهُ ونعمَ الوكيلُ، ذلكَ لأنهُ يقولُ: «**اللّٰه أكبر**» حقيقةً ويعلمُ حقَّها ومعناها.

إن المؤمنَ يسمع «الله أكبر» كل يوم خمسَ مرات في الأذانِ، ويجيبُ المؤذن فيقولُ بعدهُ: الله أكبرُ الله أكبرُ، الله أكبرُ الله أكبرُ، ثم يقولُ في آخر الأذانِ: الله أكبر الله أكبرُ. قبل «لا إله إلا الله» ويقولُ في كلِّ حركاتِ الانتقالِ في الصلاة «الله أكبرُ».

إن الذي يقولُ: «**اللّٰه أكبرُ**» ويقدرُها حقَّ قدرِها، فإنهُ لا يخافُ إلاّ اللّهَ، ولا يطيعُ إلاّ اللّهَ، ولا يعتمدُ في كلِّ جزئياتِ حياته إلا منهجَ الله عزَّ وجلَّ، أما الذي يقولُ: «**اللّٰه أكبرُ**» ويطيعُ مخلوقاً ويعصي خالقَهُ، فكأنَهُ ما قالها ولا مرَّةً، ولو قالها بلسانِهِ مائةَ ألفَ مرةً.

إن طاعتَكَ أيُّها المؤمنُ لله الكبيرِ المتعالِ هي أكرم شيءٍ لكَ، وهي التي تحدِّدُ مكانتكَ عندَ الله عز وجلّ، يجبَ أنْ تعتزَّ بالله عزَّ وجلُّ، وأنْ تثقَ بالله، وأن تُوقنَ بأنَّ لكَ معاملةً خاصةً عندَ ربكَ، لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[1] [2].

المفاضلة بين التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير:

قد عُلِمَ اشتراك التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير في الفضل

(١) الجاثية: ٢١.

(٢) انظر: موسوعة أسماء الله الحسنى للدكتور محمد راتب النابلسي ـ الجزء الأول، من ص٦٥٧ ـ ٦٧٨ (اسم الله الكبير) ط دار المكتبي ـ دمشق، الطبعة الخامسة ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

من وجوه كثيرة، والنصوص الواردة بهذا الفضل المشترك بين هذه الكلمات الأربع تدل بظاهرها على أنها متساوية في الفضل غير متفاضلة، لكن وردت بشأن كل واحدة منها نصوص أخرى تدل على أنها متفاضلة.

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن هذه الكلمات الأربع تشترك في الفضل في مواضع عديدة، وينفرد كل منها بالفضل في مواضع أخرى يكون فيها أفضل مما سواه بمقتضى الشرع، ولكن التَّهليل أفضل على الإطلاق، لما له من الخصائص والمزايا في الدين.

والمنهج القويم في التعبد لله تعالى والثناء عليه بهذه الأذكار، أن يأتي العبد في كل زمان وفي كل مكان وفي كل حال، بما هو أفضل منها مفرداً أو مجموعاً مع غيره، وفق ما دلَّتْ عليه النصوص من الكتاب والسنة، والله أعلم[1].

٢ ـ «صدقةُ الاستغفارِ»:

روى مسلم ـ رحمه الله ـ عن عائشة أم المؤمنينَ ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إنه خُلقَ كلُّ إنسانٍ من بنِي آدم علىِ ستينَ وثلاثمائة مفصل، فمن كبَّرَ الله، وحمدَ الله، وهَلَّلَ الله ـ وسبَّحَ الله، واستغفر الله، وعزلَ حجراً عن طريقِ الناسِ أو شوكةً أو عظْماً عن طريقِ الناسِ، أو أمرَ بمعروفٍ أو نَهَى عن منكرٍ، عددَ الستينَ والثلاثمائة، فإنه يمسي يومئذٍ وقد زحْزح**

(١) التسبيح في الكتاب والسنة (كندو) الجزء الأول ٤٦٨ ـ ٤٧٥.

نفسهُ عنِ النارِ»[1].

ومحل الشاهدِ في هذهِ الصدقةِ الجليلةِ قولهُ ﷺ في هذا الحديث: «واسْتَغْفَرَ اللّه».

الاستغفارُ بابٌ عظيمٌ من أبوابِ رحمةِ اللهِ تعالى وعفوه ومغفرته لعبادهِ.

والاستغفارُ **لغة** مصدرُ قولِهم: استغفرُ يستغفرُ، والسين فيه للطلبِ، أي: طلب المغفرةِ، وهو مأخوذٌ من مادة (غَ فَ رَ) التي تدلُّ على السَّتْرِ في الغالبِ الأعمِّ، فالغَفْرُ: السَّتْر، والغَفْرُ والغُفْرَان بمعنى (واحد) يقال: غَفَرَ اللّه ذَنبَهُ غَفْراً ومَغْفِرَةً وغُفْرَاناً.

واصطلاحاً: الاستغفارُ من طلبِ الغفرانِ، والغفرانُ: تَغْطِيَةُ الذنبِ بالعفوِ عنهُ، وهو أيضاً طلبُ ذلكَ بالمقال والفعالِ[2].

والغفورُ، والغَفَّارُ، وغافِرُ الذنبِ، من أسماءِ الله تعالى.

(فالغفورُ والغَفَّارُ) من أبنية المبالَغَة، ومعناهما: الساتر لذنوبِ عبادهِ المتجاوزُ عن خطاياهم وذنوبِهم.

والغُفْرانُ والمغفِرَة من الله تعالى: أن يصونَ اللّه العبدَ منَ أن يمسهُ العذابُ.

وقال الخطابيُّ الحافظُ ـ رحمه اللّه ـ : الغَفَّار: هو الذي يغفر

(١) متفق عليه، البخاري (٢٢٦/٥) ومسلم (١٠٠٩) والمذكور، رواية مسلم.

(٢) انظر: نضرة النعيم٢ / ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

ذنوبَ عبادهِ مرَّةً بعدَ أخرى، كلما تكرَّرَت التوبةُ من الذنب تكررت المغفرة، فالغفارُ: السَّتَّارُ لذنوب عباده، والمُسْدِلُ عليهم ثوْبَ عطفه ورأفته، ومعنى السترُ في هذا أنهُ لا يكشفُ أمرَ العبدِ لخلْقه، ولا يَهْتِكُ سِتْرَهُ بالعقوبةِ التي تحقّره في عيونهم[1].

ولعظيمَ فضلِ الاستغفارِ وكرامته عندَ الله تعالى، فقد وردتْ مادةُ (غفر) في القرآنِ العظيمِ ثمانٍ وتسعينَ ومائة مرةٍ»[2].

---

(١) شأنُ الدعاء (للخطابي) ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآنِ الكريمِ مادة (غفر).

الآياتُ الواردةُ في الاستغفارِ:[(١)]

أولاً: تأميلُ الراجينَ وتأنيسُ المذنبين بمغفرته سبحانه، لأنهُ هو الغفورُ الرحيمُ: من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾[(٢)].

ثانياً: أمْرُ اللّه تعالى بالاستغفارِ: من ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾[(٣)].

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾[(٤)].

ثالثاً: دعوةُ الأنبياءِ والصالحينَ أقوامهم للاستغفارِ: من ذلكَ قول هود ـ عليه السلامُ ـ لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾[(٥)]

---

(١) نسير على تقسيم نضرة النعيم كأساس، ثم نزيد عليه ما شاء اللّه تعالى.

(٢) البقرة: ٢١٨.

(٣) محمد: ١٩.

(٤) البقرة: ١٩٩.

(٥) هود: ٥٢.

وقول العزيز لامرأته: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)﴾[١].

رابعاً: الاستغفارُ من صفات الأنبياءِ والصالحينَ: من ذلكَ قولُ إبراهيمَ. عليه السلامُ.: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾[٢] وقولُ موسى. عليه السلام.: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)﴾[٣]. وقول السحرة لفرعونِ موسى: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣)﴾[٤].

خامساً: الاستغفارُ يكونُ للنفسِ وللغيرِ: من ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾[٥].

سادساً: غفران الله عزَّ وجلَّ (قبولُ الاستغفارِ) يرتبطُ بالتوبةِ والعملِ الصالحِ: من ذلك قولِهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) يوسف: ٢٩.

(٢) الشعراء: ٨٢.

(٣) القصص: ١٦.

(٤) طه: ٧٣.

(٥) النساء: ٦٤.

ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[1].

سابعاً: الاستغفارُ المقبولُ يرتبطُ بمشيئةِ اللّٰه عزَّ وجلَّ: قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٩﴾﴾[2].

ثامناً: قبول الاستغفار يكونُ للمؤمنينَ: قال اللّٰه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾﴾[3].

تاسعاً: قبولُ الاستغفار يكونُ للكافرِ إذا أسلَمَ وحسنَ إسلامُهُ: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾[4].

عاشراً: لا يقبلُ اللّٰه استغفاراً من مشركٍ أو فاسقٍ: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾[5]. وقال سبحانه:

---

(١) الأنفال: ٢٩.

(٢) آل عمران: ١٢٩.

(٣) المائدة: ٩.

(٤) الأنفال: ٣٨.

(٥) النساء: ١١٦.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾[1].

حادي عشر: الأوقاتُ المفضلةُ للاستغفارِ «السَّحَر»: قال تعالى عن المتقين: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[2].

ثاني عشر: أثرُ الاستغفارِ في الدُّنيا:

(أ) (**منعُ العذاب**): **قال تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[3].

(ب) (**الرحمة**): **وقال ثمود عليه السلام لقومه:** ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾[4].

(ج) الإمدادُ بالمطر، وبالأموالِ والبنين والجناتِ والأنهار:

قال تعالى على لسانِ نوحٍ عليه السلام. : ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ

---

(١) التوبة: ٨٠.

(٢) الذاريات: ١٧-١٨.

(٣) الأنفال: ٣٣.

(٤) النمل: ٤٦.

كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[1].

(د) (**المتاعُ الحسنُ**)[2]: **قال تعالى**: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾[3].

(هـ) **الإمدادُ بالقوَّة**: **قال تعالى على لسان هود. عليه السلامُ**: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[4].

ثالث عشر: البشارةُ بالمغفرةِ ودخول الجنة في الآخرة:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[5].

---

(١) نوح: ١٠ ـ ١٢.

(٢) الآتي في (ج) زيادة على ما في نضرة النعيم.

(٣) هود: ٣.

(٤) هود: ٥٢.

(٥) آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(الأحاديثُ الواردةُ في الاستغفار):

جاء في موسوعةِ (نضرةِ النعيم) ذكر سبع وخمسينَ حديثاً في الاستغفارِ، نذكرُ بعضها مما يتعلقُ بأحوال ومناسباتٍ مختلفةٍ:

حديث (سيدُ الاستغفارِ):

عن سدَّادِ بن أوْس . رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . عن النبي صلى الله عله وسلم قالَ: «سيد الاستغفارِ أن يقولَ العبدُ: اللهم أنتَ ربي لا إلهَ إلا أنتَ، خَلَقْتَني وأنا عبدُكَ، وأنا على عَهْدِكَ ووعدكَ ما استطعْتُ، أعوذ بكَ من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لكَ بنعمتكَ عَلَيَّ وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ، منْ قالها من النهارِ مُوقناً بها فماتَ من يومه قبلَ أن يُمْسي فهو منَ أهلِ الجنَّة، ومن قالها من الليَّلِ وهو مُوقنٌ بها فماتَ قبلَ أن يُصْبِحَ فهوُ مِنْ أهلِ الجنَّةِ»[1].

وقوله: «سيِّدُ الاستغفارِ»: أي أعظمُ صيغِ الاستغفار، وأفضلها وأجمعُها للمعاني الموجبة لغفرانِ الذنوبِ.

ذكر أفضليةِ هذا الدعاءِ على غيرِهِ من الأدعيةِ:

قال الشيخ العلامةُ أبي العون محمد بن أحمد السَّفَاريني في كتابه: «نتائجُ الأفكارِ في شرحِ حديثِ سيد الاستغفارِ»

(١) رواه البخاري (١١/٨٣ ـ ٨٤).

ووجهُ أفضليةِ هذا الدعاءِ على غيرهِ من صيغِ الاستغفارِ:

أنهَ بدَأَ فيهِ بالثناءِ على الله تعالى بعد بدايتِهِ بـ (اللهم) التي هي بمعنى: يا أللّه، التي معناها: أدعو الله.

ثم خاطبَ الباري جلَّ وعلا، اسْتِشْعَاراً بشدَّةِ القُرْب، واسْتغْرَاقاً في مقامِ المشاهدةِ(١).

ثم اعترفَ بأنهُ مرْبُوبٌ مفعولٌ للرّبِّ الفاعلِ دونَ غيرِهِ.

ثم اعترفَ بأنه لا إله غيرُهُ معبودٌ بحقّ إلا هو سبحانهَ، فأتى بما يُشْعِرُ بتوحيدِ الربوبيةِ وتوحيدِ الألوهيةِ.

ثم اعترف بالعبوديةِ الخالصةِ لهُ سبحانَهُ، وأنهُ مقيمٌ على الوعدِ، ثابتٌ على العهدِ، منَ الإيمانِ بهِ، وكتابهِ، وبسائرِ أنبيائهِ ورسُلهِ، ثم اسْتَدْرَكَ على نفسه أنه مقيمٌ على ذلكَ بحسبِ طوْقهِ واستطاعتهِ، لأنهُ أعجزُ وأقلُّ وأضْعَفُ من تأديةِ الربوبيةِ حقَّها، والقيام على العهدِ والوعدِ من غيرِ انحرافٍ ما.

ثم إنهُ استعاذَ بهِ سبحانهَ من شرِّ كلِّ ما صنعَ منَ التقصيرِ في القيامِ بما يجبُ عليهِ من شكرِ الإنعامِ، ومن ارتكابِ الآثامِ.

ثم أقرَّ واعترفَ بتَرادُفِ نعمتهِ عليهِ، وبما يصيبُ من الذنوبِ

---

(١) المقصود بالمشاهدة: قوة اليقين، ومزيد العلم، وارتفاع الحُجُب المانعة من ذلك، كالشّرك والبدع والمعاصي بأنواعها، لا نفس معاينة الحقيقة، انتهى من مدارج السالكين (٣/٢٤٢).

والمعاصي، ثم سأله سبحانه المغفرةَ من ذلكَ كلِّه، معترفاً بأنه لا يغفرُ الذنوبَ سواهُ سبحانهَ وتعالى، ففي ضمنِ ذلكَ ما هو ثناءٌ على الله تعالى بجميلِ أوصافهِ وآلائهِ، منْ عدمِ مُعاجَلَتهِ بالعقوبةِ، ومن إيصالهِ الرزقِ إليهِ، وحفظهِ منَ المصائبِ والبلايا، ومن شياطينِ الإنس والجنِّ[(١)].

وقال الشيخُ شعيبُ الأرنؤوط في تعليقهِ على هذا الحديث في رياض الصالحينَ: جمع رسولُ الله ﷺ في هذا الحديث من بديعِ المعاني، وحسنِ الألفاظ، ما يحق لهُ أن يُسمَّى به (**سيدُّ الاستغفار**) ففيهِ الإقرارُ لله وحدهُ بالألوهيَّةَ، والاعتراف بأنهُ الخالقُ، والإقرارُ بالعهدِ الذي أخذهُ عليهِ، والرجاء بما وعدَ به، والاستعاذةُ من شرِّ مَا جَنَى العبدُ على نفسه، وإضافةَ النعماء إلى مُوجدهَا وإضافةَ الذنب إلى نفسه، ورغبتهِ في المغفرةِ، واعترافهِ بأنهُ لا يقدرُ أحدٌ على ذلكَ إلاَّ اللهُ سبحانَهُ[(٢)].

حديث غفرانِ الذنوبُ ولو بلغتْ عنانَ السَّماءِ:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «**قال الله يا بن آدمَ، إنكَ ما دَعَوْتني وَرَجوْتَني غفرتُ لكَ على ما**

(١) نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار للشيخ أبي العون محمد بن أحمد السفاريني، ط دار الصميعي - الرياض - الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ص١٧٠ - ١٧١.

(٢) الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيقه وتعليقه على رياض الصالحين للنووي ص٧٠٣ ط مؤسسة الرسالة - الطبعة السادسة عشر ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

كانَ منكَ وَلاَ أُبالي، يا بن آدمَ، لو بلغتْ ذنوبُكَ عَنَانَ[1] السَّماءِ، ثم استغفرتني غفرتُ لكَ ولا أبالي، يا بن آدمَ، إنكَ لو أَتيتني بِقُرابِ الأرضِ[2] خطايا، ثم لقيتني لا تشركْ بي شيئاً، لأَتيتُكَ بها مغفرةً»[3].

كثرةُ استغفارِ الرسول ﷺ مع أن الله تعالى قد غَفر لهُ ما تقدَّمَ من ذنبِه وما تأخَرَ: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: **«واللّه إني لأستغفرُ اللّه وأتوبُ إليهِ في اليومِ أكثرَ من سبعينَ مرَّةً»[4].**

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قالَ: كنَّا نُعدُّ لرسول اللّه ﷺ في المجلسِ الواحدِ مائةَ مرةٍ: **«ربِّ اغفر لي وتُب عليَّ إنكَ أنتَ التوابُ الرحيمُ»[5].**

ذَنوبُ العبادِ واستغفارهم ربهم أبقاهم: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيدهِ لَوْ لَمْ تُذْنبوُا، لذهبَ اللّه بكم، ولجاءَ بقومٍ يذنبونَ فيستغفرون اللّه تعالى**

---

(١) عَنان: بفتح العين: السَّحاب، وبكسرها لجام الدابة.

(٢) بِقُراب الأرض ـ بضم القاف ـ أي بما يُقارب ملأها، وهو مصدر قَارَبُ يُقَارِبُ.

(٣) رواه الترمذي (٣٥٤٠) وحسَّنه، وهو كما قال، وذكره الحافظ في الفتح وقال: رواه ابن حبان وصححه.

(٤) البخاري (١١/٨٥).

(٥) رواه أبو داود (١٥١٦) والترمذي وقال حديث صحيح، وإسنادهِ صحيحٌ. ورواه الحاكم (١/٥١١) وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

فيغفرُ لهم»[1].

إحباطُ عملِ منْ يتألَّى على الله ألا يغفر لفلانٍ: عن جندبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدَّثَ **«أنَّ رَجلاً قال: والله لا يغفرُ الله لفلان، وإنَّ الله تعالى قالَ: مَنْ ذَا الذي يَتألَّى**[2] **عَلَيَّ ألاَّ أغفرَ لفلان، فإني قد غفرتُ لفلان، وأحْبَطْتُ عملكَ» أو كما قالَ»**[3].

رحمةُ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقومِه ودعائِه لهم بالمغفرَةِ: عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: **كأني أنظرُ إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نبيّاً من الأنبياءِ ضَرَبَه قومُه فأدموه، وهو يمسَحُ الدمَ عن وجهِهِ ويقولُ: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمونَ»**[4].

اللّه تعالى عز ذكرهُ وجلَّ ثناؤُهُ يفتحُ بابَ الإجابةِ والمغفرةِ في الثلث الأخير من الليلِ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: **«يَنْزِلُ ربُّنَا كلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدنيا حينَ يبقى ثلثُ الليلِ الآخِرِ فيقولُ: مَنْ يدعوني فأستجيب له؟ ومن يسألُني فأُعْطيه؟ ومن يستغفرني فأَغْفِرَ لَهُ»**[5].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) يتألى: يَحْلِف.

(٣) مسلم (٢٦٢١).

(٤) البخاري ـ الفتح ـ ٦ (٣٤٧٧) واللفظ له، ومسلم ٣ (١٧٩٢).

(٥) البخاري ـ الفتح ـ ١٣ (٧٤٩٤) ومسلم (٧٥٨) واللفظ له.

وصيّةُ رسولِ الله ﷺ للنساءِ بالإكثارِ من الاستغفارِ:

عن ابن عمر . رضي الله عنهما . أن النبي ﷺ قال: «**يا معشَر النّسَاء تصدَّقْنَ، وأكثرْنَ من الاستغفار، فإني رأيتكُنَّ أكثرَ أهل النَّار**» قالت امرأة منهُنَّ: مَا لنَا أكثر أهلِ النّار؟ قال: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وتكْفُرْنَ العَشيرَ. الزوجُ. ما رأيتُ منْ ناقصَاتِ عقلٍ ودينٍ أغْلَبَ لذي لُبٍّ منكنَّ**» قالت: ما نُقْصَانُ العقلِ والدينِ؟ قالَ: «**شهادةُ امرأتينِ بشهادةِ رجلٍ، وتمكثُ الأيام لا تصلِّي**»[1]. رواه مسلم، وفي رواية البخاري من حديث أبي سعيد الخدري. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. «**أَلَيْسَ إذاَ حَاضَتْ لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟**» قُلت: بلى، قالَ: «**فذلك من نقصان دينها**».

الْفَزَعُ إلى الذكرِ والدعاءِ والاستغفارِ عند خُسُوفِ الشمسِ:

عن أبي موسى الأشعري . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قالَ: خُسفَتِ الشمسَ في زمن النبي ﷺ، فقام فَزِعاً يخشى أن تكونَ الساعةُ، حتى أتى المسجدَ فقامَ يصلِّي بأطَولِ قيام وركوع وسجود، ما رأيتُهُ يفعلُهُ في صلاة قَطُّ، ثم قالَ: «**إنَّ هذه الآياتَ التي يرسلُ الله، لا تكونُ لموْتِ أحدٍ ولا لحياته، ولكنَّ الله يرسلُهَا يخوّفُ بها عبادَهُ، فإذا رأيتم منها شيئاً فافزعوا إلى ذكرِه ودعائِه واستغفارِه**» وفي رواية ابن

---

(١) رواه مسلم (٧٩) والبخاري (١/٣٤٥).

العلاء: كُسفَت الشمسُ. وقالَ: «يخوِّفُ عبادَهُ»[1].

صِيغَةٌ مباركةٌ من صِيَغِ الاستغفارِ، تغفرُ جميعَ الذنوبِ حتى الفرار من الزحفِ: عن ابن مسعود . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال أستغفر اللّه العظيم الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ وأتـوبِ إليه ثلاثة غُفِرَتْ ذُنوبُه وإن كان قد فَرَّ من الزَّحف**»[2].

لزومُ الاستغفارِ يُخرِجُ من الضّيقِ، ويُفرِّجُ الهمَّ، ويجلبُ الرزقَ من حيث لا يُحتَسَبُ: عن ابن عباس . رضي الله عنهما . قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لَزِمَ الاستغفارَ جَعَلَ اللّه لهُ من كلِّ ضيقٍ مَخْرَجاً، ومن كلِّ هم فَرَجاً، ورزقَهُ من حيثُ لا يحتَّسِبُ**»[3].

الاستغفارُ كَفَّارَةُ المجلس:

عن أبي هريرة . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جَلَسَ في مَجْلِسٍ فكَثـرَ فيهَ لغطُهُ، فقالَ قبل أن يقومَ من مجلسه ذلكَ: سبحَانَكَ اللهم وبحمدِكَ، أشهدُ أن لا إله إلاَّ أنتَ أستَغفرُكَ**

---

(1) البخاري ـ الفتح ٢(٤٠٥٩) ومسلم (٩١٢) واللفظ له.

(2) رواه أبو داود (١٥١٧) والترمذي (٣٥٧٢) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: رواه عن زيد مولى رسول الله ﷺ وليس عن ابن مسعود كما ذكر المؤلف، وفي سنده من لم يوثّقهُ غير ابن حبان، وأخرجه الحاكم (٥١١/١) من طريق آخر عن ابن مسعود، وصححه ووافقه الذهبي، قال شعيب الأرنؤوط: وهو كما قال وصححه في صحيح سنن أبي داود (٢٨٣/١) وقال: صحيح.

(3) رواه أبو داود (١٥١٨) واللفظ له، وأحمد في المسند (٢٢٣٤) تحقيق أحمد شاكر وصَحَّح إسناده، وابن ماجة (٣٨١٩).

وأتوبُ إليكَ، إلا غُفِرَ لهُ ما كانَ في مجلسهِ ذلكَ»[1].

الإستغفارُ بينَ السجدتيْنِ في الصَّلاةِ:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي ﷺ يقولُ: بين السجدتيْنِ: «**اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، واهدني، وارزقني**» رواه أبو داود واللفظ له، والترمذي، وابن ماجة، والحاكم في المسْتدرك وقال: صحيح الإسناد، وفي رواية له: «**اللهم اغفر لي وارحمني، واجبرني، وارفعني، واهدني، وارزقني**»[2].

الاستغفارُ في الصلاة قبلَ السلامِ:

عن أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أنه قال للنبي صلى الله عليه سلم: عَلِّمْني دعاءً أدعو به في صلاتي، قالَ: «**قل اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفرُ الذنوبُ إلاَّ أنتَ، فاغفر لي مغفرةً من عندِكَ، وارحَمني إنَّك أنتَ الغفور الرحيم**»[3].

الاستغفار بين التشهد والتسليم:

عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في حديث طويل، أن رسول الله ﷺ كان من آخرِ ما يقولُ بينَ التشهّدِ والتسليمِ: «**اللهمَ اغفر لي ما**

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٣٣) وقال حديث حسن غريب، واللفظ له، وابن حبان (٢٣٦٦) في صحيحه،، وقال محقق جامع الأصول (٢٧٧/٤) إسناده حسن،

(٢) رواه أبو داود (٨٥٠) والترمذي (٢٨٤) وابن ماجة (٨٩٨) والحاكم في المستدرك (٢٦٢/١) و(٢٧١/١) وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٣) متفق عليه، البخاري (٨٣٤) ومسلم (٢٧٠٥) والترمذي (٣٥٢١) وغيرهم.

قدَّمْتَ وما أخَّرْتُ، وما أسْرَرْتُ وما أعلنتُ، وما أسْرَفْتُ، وما أنتَ أعلمُ بهِ مني، أنتَ المقدمَّ وأنتَ المؤخرُ لا إله إلاَّ أنتَ»[١].

الاستغفار عقب الصلاة:

عن ثوبان ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قالَ: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا انْصَرَفَ من صلاته استغفرَ ثلاثاً وقالَ: «**اللهم أنت السلامُ ومنكَ السلامُ، تباركتَ يا ذا الجلالِ والإكرام**» قالِ الوليد: فقلتُ للأوزاعي: كيفَ الاستغفار؟ قال: تقول: **أستغفرُ الله، أستغفر الله، أستغفر الله**»[٢].

الاستغفارُ للمتوفى في صلاة الجنازَة:

عن عوف بن مالك ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظتُ من دعائه وهو يقولُ: «**اللهم اغفر لهُ وارحمهُ، وعَافه واعْفُ عنهُ، وأكْرِمْ نُزُلهُ، ووسِّع مدخلهُ، واغسلْه بالماءِ والثلج والبردِ، ونَقِّه من الخطايا كما نَقَّيْتَ الثوبَ الأبيضَ من الدَّنَسِ، وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهلِه، وزوجاً خيراً من زوجِه، وأدخلهُ الجنةَ وأعذهُ من عذابِ القبرِ (أو من عذابِ النارِ) قالَ: حتى تمنَّيْتُ أن أكونَ أنا ذلكَ الميت**»[٣].

الإكثارُ من الاستغفارِ قبلَ الموتِ:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ أن يقولَ

---

(١) متفق عليه، البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨) والترمذي (٣٥٢١) وغيرهم.

(٢) رواه مسلم (٥٩١) وأبو داود (١٥١٣) والترمذي (٣٠٠) وغيرهم.

(٣) رواه مسلم (٩٦٣).

قبلِ موته: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه»[1] **طِبْتَ حَيّاً، وطِبْتَ مَيِّتاً يا سيدي يا رسول اللهِ، بنفسي أنتَ وروحي وأبي وأُمِّي.**

الاستغفارُ وإبليسُ اللعينُ:

روى أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد، عن أبي سعيد الخدري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عن النبي ﷺ قال: «**قالَ إبليسُ: وعزَّتُكَ لا أَبْرَحُ أغوي عبادَكَ ما دامتْ أرواحُهم في أجسادهم، فقالَ: وعزتي وجلالي لا أزالُ أغفرُ لهم ما استغفَروني**»[2].

من الآثار الواردة في الاستغفار:

قال أبو موسى الأشعري ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: كان لنا أَمَانان، ذهبَ أحدُهما، وهو كونُ الرسولِ ﷺ فينا، وبَقِيَ الاستغفارُ معنا، فإن ذَهَبَ هلكنَا[3] وهو ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ يشير إلى قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾[4].

قال الربيع بن خُثَيْم (تابعِيٌ من الثانيةِ) تضرَّعوا إلى

---

(١) متفق عليه، البخاري (٢/٢٣٣) ومسلم (١/٣٥١).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/٤١) والطبراني في (الدعاء) برقم (١٧٧٩) وأبو يعلى في مسنده (٢/٤٥٨) كلهم من طريق يونس. هو ابن محمد المؤَدِّب، وإسناده متَّصل، ورجاله ثِقاتٌ أثبات. (نتائج الأفكار ص١٣٣، ١٣٤).

(٣) التوبة إلى الله، للغزالي (١٢٤).

(٤) الأنفال: ٣٣.

ربكُم، وادعوهُ في الرخاءِ، فإن مَنْ دَعاهُ في الرخاءِ أجابَهُ في الشدَّة، ومن سألَهُ أعطاهُ، ومن تواضعَ لهَ رفعهُ، ومن تَضَرَّع لهُ رحمهُ، ومن استغفرهُ غفرَ لهُ»[1].

وعن بعضِ الأَعـرَابِ أنـه تَعلَّقَ بأستار الكعبةِ وهو يقولُ: اللهم إنَّ استغفاري معَ إصراري لُؤْمٌ، وإنَّ تَرْكِيَ الاستغفارَ معَ علمي بسعة عفوِكَ لَعَجْزٌ، فكم تَتَحَبَّبُ إليَّ بالنعم معَ غِنَاكَ عَنّي، وأَتبغَّضُ إليكَ بالمعاصي مع فقري إليكَ، يا مَنْ إذا وَعَدَ وَفَّى، وإذا تَوَعَّدَ تَجَاوَزَ وَعَفَا، أَدْخِلْ عظيم جُرْمي في عظيم عفوكَ يا أرحمَ الراحمينَ[2].

من فوائد الاستغفار:

١. الاستغفارُ يَجْلِبُ الغيْثَ المدْرَارَ للمستغفرينَ، ويجعلُ لهم جناتٍ ويجعل لهم أنهاراً.

٢. الاستغفارُ يكون سبباً في إنعامِ الله عزَّ وجلَّ على المستغفرينَ بالرزقِ منَ الأموالِ والبنين.

٣. تسهيلُ الطاعات، وكثرة الدعاءِ، وتيسيرِ الرزقِ.

٤. زوالُ الوحشةِ التي بينَ الإنسان وبينَ اللهِ.

٥. المستغفرُ تصغُرُ الدنيا في قلبِهِ.

---

(١) منهاج الصالحين (٩٥١).

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/١٤٢).

٦. ابتعادُ شياطينِ الإنسِ والجنِّ عنهُ.

٧. يجدُ حلاوة الإيمانِ والطاعةِ.

٨. حصولُ محبةِ الله لهُ.

٩. الزيادةُ في العقْلِ وفي الإيمانِ.

١٠. تيسيرُ الرزقِ وذهابُ الهمِّ والحزْنِ.

١١. إقبالَ اللهِ على المستغفرِ وفرحَهُ بتوبتِهِ.

١٢. وإذا ماتَ تَلَقَّتْهُ الملائكةُ بالبُشْرى.

١٣. إذا كان يومُ القيامةِ كانَ الناسُ في الحَرّ والعرَقِ، وهو في ظلِّ العَرْشِ.

١٤. إذا انصرف الناسُ من الموقفِ، كانَ المستغفرُ منْ أهلِ اليمينِ معَ أولياءِ اللهِ المتقينِ.

١٥. تحقيقُ طهارةِ الفردِ والمجتمعِ منَ الأفعالِ السَّيئةِ.

١٦. دعاءُ حملةِ عَرْشِ رَبِّنَا الكريمِ لهُ(١).

١٧. المستغفرُ يداومُ طهارةَ النفسِ من الذنوبِ والآثامِ، كما يداومُ على طهارةِ البدنِ من الأدرانِ.

هذا، ومع عطاء الله تعالى الواسعِ للمستغفرِ، في الدنيا والآخرَةِ، إلا أن الله الكريمَ الجوادَ، أبي إلاّ أن يزيد عبده عطاءً زائداً، ألا وهوَ

(١) انظر نضرة النعيم في باب الاستغفار ـ المجلد الثاني ـ من ص٢٥٢ إل ص٣٠٢.

اعتبارُ كلِّ استغفارٍ بمثابةِ صدقةٍ مقبولةٍ عندَ الله تعالى، وهو ما يدلُّ عليه نصُّ الحديث الصحيحِ الشريفِ الذي هو عُمْدَ تنا في هذهِ الصدقةِ المباركةِ، صدقةُ الاستغفارِ، ألا فتباركَ الله ذو الجلالِ والإكرام.

وإني أدعو نفسي وكلَّ المؤمنين والمؤمنات إلى العمل بقولِ الله عز وجلَّ في سورةِ آلِ عمران: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[1].

تَحْذيرِ محمَّدي

«تصدقوا قبل ألا تجدوا من يأخذُ صدقاتِكم»

عن حارثة بن وهب . رضي الله عنه . قال: سمعت النبي ﷺ يقولُ: «**تصدَّقُوا، فسيأتي عليكمْ زمانٌ يمشي الرجلُ بصدقتِه فيقولُ الذي يأتيهِ بها، لَوْ جِئتَ بالأمسِ لقبلتُها، فأمَّا الآن فلا حاجة لي فيها**»[2].

وعن أبي موسى . رضي الله عنه . عن النبي ﷺ: «**ليأتينَّ على الناسِ**

(١) آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥.

(٢) متفق عليه، انظر اللؤلؤ والمرجان ج١، ص٢٠٨، (١٨) (باب الترغيب في الصدقة قبل ألا يوجد من يقبلها).

زمانٌ يطوفُ الرجلُ فيه بالصدقة من الذهب ثم لا يجدُ أحداً يأخذها منهُ، ويُرى الرجلُ الواحدُ يتبعهُ أربعونَ امرأة يلذن بهِ، من قلة الرِّجالِ وكثرةِ النِّساء»(١).

وعن أبي هريرة ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قال: قال النبي ﷺ: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتى يكثُر فيكم المال، فيفيض حتَّى يُهِمَّ ربَّ المالِ من يقبلُ صدقته، وحتى يَعْرِضه فيقولُ الذي يعرضُهُ عليه: لا أَرَبَ لي**»(٢). أي: لا حاجة لي لاستغنائي عنهُ.

إن كلمات المصطفى ﷺ الواردة في الأحاديث الثلاثة السابقة. دَعْوة إلى المسلمينَ والمسلمات بالمسارعة إلى البذلِ والإنفاقِ والتصدّق في سبيلِ اللّه تعالى، وفي نفسِ الوقتِ فهي تحذِّرُ وتخوّفُ من زمانٍ سيأتي على الناسِ يفيضُ المالُ فيه، حتى يقلق صاحبُ المال ويحزنُهُ أمْرَ من يأخذُ زكاةَ ماله، لفقد المحتاج لأخذ الزكاة، لعموم الغنى لجميعِ الناس، فيطوفُ الرجلُ بصدقته وكلُّ أمله أن يجد من يقبلها منهُ، فلا يجدُ مسكيناً ولا فقيراً ولا سائلاً يقبلُها منه، فيتحسَّرُ ويحزنُ ويغتَمُّ، لأنهُ لمْ يجدْ منْ يأخذ صدقتهُ، فَحُرِم خيْرات كثيرة وفقدَ حسنات عظيمة، يرزقهُ اللّه بها الثواب والمغفرة والجنة، وزيادة المالِ والخيرِ حتى يفيضَ، ليسَ بمستبعدٍ على اللّه الغني الحميدِ، وقد حدثَ أن فَاضَ

---

(١) متفق عليه، انظر اللؤلؤ والمرجان ج١، ص٢٠٨، (١٨) (باب الترغيب في الصدقة قبل ألا يوجد من يقبلها).

(٢) متفق عليه، انظر اللؤلؤ والمرجان ج١، ص٢٠٨، (١٨) (باب الترغيب في الصدقة قبل ألا يوجد من يقبلها).

مالُ المسلمينَ في عهد عمر بن عبدالعزيز. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. حتى لم يبقَ مستحقّ للزكاةِ، فوَجَّه الخليفةُ الخامس مالَ الزكاةِ إلى أبوابِ أخرى حتى روى أنه زوَّج منهُ الشبابَ وأعتقَ العبيدَ، فعلى كل من رزقهُ الله النعمة ووسَّعَ عليه أن يحمدَ الله تعالى ويشكره على واسعِ فضله ومنته، وعلى أنْ أوجدَ لهُ من يقبلُ منهُ زكاتَهُ وصدقتَهُ من الفقراءِ والمساكينِ، يحملونَ له زاده إلى الدار الآخرة في يوم لا ينفعُ فيه الإنسانُ إلا ما قدَّمُه من خيرِ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران ٣٠.

خاتمة (أ)

أهمُّ فوائدِ الصدقات المفروضة وغير المفروضةِ، وأهم الآثار المترتبة على منعها:

جاء في كتاب: (إتحاف المسلمين بما تيسر من أحكام الدين)، للشيخ عبدالعزيز المحمد السلمان ج٢ ص١٧٥، وما بعدها. حتى رقم ٧٧، فصل في ذكر الفوائد المترتبة على أداءِ الزكاة، وبذلِ صدقةِ التطوعِ، وذِكْرِ بعضِ المضارِّ المترتبةِ على منعِ الزكاة أو بعضها، وأخذَ يتكلمُ عن ذلكَ وهو خلاصةُ ما سبق الحديثِ عنهُ عن الصدقاتِ، وننقلُ ذلكَ كما ذكرهُ:

١. إمتثال أُمر اللهِ ورسولهِ.

٢. تقديمُ ما يحبهُ الله تعالى على محبةِ المالِ.

٣. الصدقة برهانٌ على إيمانِ صاحبِها كما في الحديث: «والصدقةُ برهانٌ».

٤. شكرُ نعمةِ اللهِ المتفضِّلِ على المخرجِ بما أعطاهُ من المالِ.

٥. السلامة من وبالِ المالِ في الآخرةِ.

٦. تنميةُ الأخلاقِ الحسنةِ والأعمالِ الفاضلةِ الصالحةِ.

٧. التطهيرُ من الذنوبِ والأخلاقِ الرذيلة، قالَ اللهُ تعالى ﴿خُذْ مِنْ

أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾[1].

٨. إضعافُ مادةِ الحسدِ والحقدِ والبغضِ، أو قطعها كلياً.

٩. تحصينُ المالِ وحفظه، لحديثِ «**حصَّنوا أموالكم بالزَّكاةِ**».

١٠. الصدقةَ دواءٌ من الأمراضِ لحديث «**داووا مرضاكُم بالصدقةِ**».

١١. الإتصافُ بأوصافِ الكرماءِ.

١٢. أنها سببُ لدفعِ البلاءِ.

١٣. التمرنُ على البذلِ والعطاءِ.

١٤. أنها سببُ لدفعِ جميعِ الأسقامِ، لحديث: «**باكرو بالصدقةِ فإن البلاء لا يتخطَّاها**».

١٥. أنها سببٌ لجلبِ المودةِ، لأنها إحسانٌ، والنفوسُ مجبولةٌ على حب من أحسنَ إليها.

١٦. أنها سببُ للدعاءِ من القابضِ للدافعِ.

١٧. أن منعَ الزكاةِ سببٌ لمنعِ القطرِ، لحديث: «**ولا منعوا الزكاة إلا حبسَ عنهمُ القطرُ**».

١٨. الابتعادُ عن البخلِ والشحِّ.

---

(١) سورة التوبة: ١٠٣.

١٩ . الفوزُ بالمطلوبِ والنجاة من المرهوب، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾[١]، وقد فسر الفلاحُ بأنهُ الفوزُ بالمطلوبِ، والنجاةِ من المرهوبِ، وهذا من جوامعِ الكلمِ.

٢٠ . أنها تدفعُ ميتةَ السوءِ، كما في الحديث: «**إن الصدقة تطفئ غضبَ الربِّ وتدفعُ ميتةُ السوءِ**».

٢١ . أن المتصدقِ يكونُ في ظلِّ الله يومَ القيامة كما في الحديث: «**سبعة يظلهم الله في ظله، وذكرَ منهم رجلٌ تصدقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمُ شمالهُ ما تنفق يمينهُ**» الحديث.

٢٢ . الفوزُ بالثناءِ من اللهِ تعالى، لأنَّ اللهَ مدحَ المنفقينَ والمتصدقينَ.

٢٣ . ٢٤ . ٢٥ . الفوزُ بالأجرِ منَ اللهِ، والأمنُ مما يخافُ منهُ، وَنَفْى الحزنِ عنهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾[٢].

٢٦ . أن أداء الزكاة سببٌ لنزولِ المطرِ كما أنَّ منعها سبب لِحَبْسهِ.

---

(١) سورة التغابن: ١٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٧٤.

٢٧. أنها سببٌ لمحبةِ الله تعالى، لأن المتصدقَ محسنٌ على المتصدقِ عليهِ، والله يحب المحسنينَ.

٢٨. السلامةُ منَ الكفرِ بنعمةِ اللهِ.

٢٩. الخروجُ من حقوقِ اللهِ وحقوقِ الضعفاءِ.

٣٠. ٣١. ٣٢. أنها سببٌ للرزقِ والنصرِ والجبرانِ، كما في الحديث: **«وكثرةُ الصدقةِ في السرِّ والعلانيةِ، ترزقوا وتنصروا وتجبروا»**.

٣٣. أنها تطفئُ عن أهلِها حرَّ القبورِ، كما في الحديث **«إن الصدقَةَ لتطفئُ عن أهلها حرَّ القبورِ»**.

٣٥. السلامةُ من اللعنِ الوارد في مانعِ الزكاة، لما روى الأصبهاني عن علي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قالَ: **«لعنَ رسولُ اللهِ ﷺ آكل الرِّبا وموكله وشاهدُهُ وكاتبهُ والواشمة والمستوشمة ومان الصدقةِ والمحلل لَهُ»**.

٣٦. الفوزُ بالقربِ من رحمةِ الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: ٥٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٥٦.

٣٧. الوعد بالخلف للمنفقِ، لحديث: «**اللهم أعطِ منفقاً خلفاً**».

٣٨. الظفر بدعاءِ الملائكة للمنفق.

٣٩. أن في إخراجِ الزكاةِ حل للأزماتِ الاقتصاديةِ وسوءِ الحالةِ الاجتماعيةِ.

٤٠. أن الله تعالى يعينُ المتصدقَ على الطاعةِ ويهيئُ لهُ طرقَ الرشادِ والسدادِ، ويذللُ لهُ سبل السعادة، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾[1].

٤١. أن منَع الزكاةِ يخبثُ المالَ الطيِّب لحديث: «**من كسبَ طيباً خَبَّثهُ منعُ الزكاةِ، ومن كَسَب خبيثاً لم تطيبهُ الزكاةُ**»[2].

٤٢. أن منَع الزكاةِ سببٌ لتلفِ المالِ لحديث: «**ما تلفَ مالٌ في برٍ ولا بحرٍ إلا بحبسِ الزكاةِ**»[3].

٤٣. أن منَع الزكاةِ سببٌ للابتلاءِ بالسنين، لما في الحديث قال ﷺ: «**ما منَع قومٌ الزكاةَ إلا ابتلاهم الله بالسنينَ**»[4].

٤٤. أن من لم يؤدِّ حقَّ اللهِ في مالهِ، فهو أحد الثلاثةِ الذين هم أول من يدخل النارَ، لحديث أبي هريرة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عرضَ على أولُ ثلاثةٍ يد خلونَ الجنةَ، وأول ثلاثةٍ يد خلونَ النارَ، فأما أولُ ثلاثةٍ يد خلونَ الجنةَ، فالشهيدُ، وعبدٌ مملوكٌ**

(١) سورة الليل: ٥ ـ ٧.

(٢) رواه الطبراني في الكبير بإسناد منقطع.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط وهو حديث غريب.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

أحسنَ عبادةَ ربه ونصحَ لسيده، وعفيفٌ متعففٌ ذو عيالٍ، وأما أول ثلاثة يد خلونَ النارَ، فأمير متسلِّطٌ، وذو ثروةٍ من مالٍ لا يؤدي حق الله في ماله، وفقيرٌ فخورٌ»[1].

٤٥ . ٤٦ . أن الصدقةَ يذهبُ الله بها الكبر والفخر لحديث: «**إنَّ صدقةَ المسلم تزيدُ في العمرِ وتمنعُ ميتةَ السوءِ ويذهبُ الله بها الكبر والفخر**»[2].

٤٧ . السلامةُ من التطويقِ بالشجاع الأقرع كما في الحديث: «**ما من أحد لا يؤدي زكاةَ مالهِ إلا مثل لهُ يومَ القيامةِ شجاعاً أقرعَ يطوَّقُ به عُنُقَهُ**».

٤٨ . السلامةُ من صفة المنافقينَ لما في الحديث: «**ظهرت لهم الصلاةُ فقبلوها، وخفيت لهمُ الزكاةُ فأكلوها، أولئك همُ المنافقونَ**»[3].

٤٩ . ٥٠ . أن البلاءَ لا يتخطى الصدقَةَ، وأنها تسدُّ سبعين باباً من السوءِ، لما ورد عن رافع بن خديج قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**الصدقةُ تسد سبعينَ باباً من السوءِ**»[4].

٥١ . أن الصدقة حجابٌ من النارِ لمنْ احتسبَها يبتغي بها وَجه اللهِ عزَّ وجلَّ، لما روى عن ميمونة أنها قالت: يا رسول اللهِ أفتنا في الصدقةِ؟

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه، وابن حبان مفرقاً في موضعين.

(٢) رواه الطبراني.

(٣) رواه البزار.

(٤) رواه الطبراني في الكبير.

فقالَ: «**إنها حجابٌ من النارِ لمن احتسبَها يبتغي بها وجهَ اللهِ عزَّ وجلّ**»[1].

٥٢ . أن إخراجَ الصدقةِ يؤلمُ سبعينَ شيطاناً، لما روى عن بريدة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا يخرجُ شيئاً من الصدقةِ حتى يفك عنها لحي سبعينَ شيطاناً**»[2].

٥٣ . يسخر الله للمتصدقِ ما يكونُ سبباً لنموِّ ماله، كَبَركةٍ في ماءِ نهرٍ، وسقيِ أرضٍ، لما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه. أن رسولَ الله ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يمشي في فلاة من الأرض فسمعَ صوتاً في سحابةٍ: أسق حديقةَ فلان**»[3].

٥٤ . أن الصدقة لا تنقص المال خلافاً لما يظنهُ بعضُ الجهَّالِ لحديث: «**ما نقصتْ صدقةٌ من مالٍ**»[4].

٥٥ . «**أن الصدقة إذا كانت من كسبٍ طيبٍ فإنَّ اللهَ يتقبلُها بيمينهِ ثم يربّيها لصاحبها كما ورد في الحديث**»[5].

٥٦ . أن الصدقةَ سببٌ من أسبابِ المعيَّةِ الخاصة، لأنَّ المتصدق محسنٌ وقال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾[6].

---

(١) رواه الطبراني.

(٢) رواه أحمد والبزار والطبراني وابن خزيمة في صحيحه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) متفق عليه.

(٦) سورة النحل: ١٢٨.

٥٧ . أن المصدقين والمصدقات يضاعف لهم ثوابُ أعمالهم الحسنة بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى حيث شاءَ الله عز وجلَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾[١].

٥٨ . أن الصدقةَ تطفئُ غضبَ الربِ، كما في الحديثِ الشريف: «**إنَّ الصدقةَ لتطفئُ غضبَ الربِ وتدفعُ ميتةَ السوءِ**»[٢].

٥٩ . أن إخراجَ الزكاةِ كلَّ سنة يُري الفقراءَ أنَّ الأغنياءَ لهم فضلٌ عليهم فيدافعون عنهم ما استطاعوا، أما كفُّ اليدِ عن الفقراءِ ومنعِ المعروفِ أن يصلَ إليهم فإنهُ يوغرُ صدورَهم ويملؤُها حقداً عليهم، ويجتهدونَ في سلبِ حياتِهم للوصولِ إلى أموالِهم المخزونة، فتكونُ الحياةُ مهددة، والأمنُ مفقودٌ، قالَ بعض الشعراء:

وأحسبُ الناسَ لوْ أعطوا زكاتَهم   لما رأيتَ بني الإعدامِ شاكينا

٦٠ . أن منَع الصدقاتِ يزيلُ النعمَ ويخرِّبُ الديارَ، وتأمل قصةَ أصحابِ الجنة في سورة (ن) . القلم . وقصة المنافق في سورة التوبة.

أقول: ثم ذيل الشيخُ الجليلُ عبدالعزيز المحمد السلمان كلامه الطيب المفيد الجامع بقولِه: هذا آخرُ ما تيسَّرَ من الفوائدِ، وفيه فوائد أخرى ومضار على المنع . أي منع الزكاة . تستحقُّ وحدها مصنفاً آخرُ، ولكن في هذا إن شاءَ الله كفايةً وبركةً ونفْعاً. انتهى كلامُ الشيخِ.

(١) سورة الحديد: ١٨.

(٢) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه وقال الترمذي: حسن غريب.

وإني أحبُّ أن أضيف بأنَ المصدقينَ والمصدقاتِ قد أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً. قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[1].

كما أضيفُ أن تضعيفَ الأجرِ للأمةِ الإسلاميةِ هو خصوصيةٌ لها من دونِ اليهودِ والنصارى، فقد أخرجَ البخاري ـ رحمه الله ـ في كتاب الإجارة ـ باب ـ (الإجارة إلى صلاةِ العصرِ) ج٣ ص٩٠.

عن عبدالله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ أن رسولَ الله قال: «**إنما مثلكم واليهودُ والنصارى كرجلٍ استعملَ عمالاً، فقالَ: من يعملُ لي إلى نصفِ النهارِ على قيراطٍ، قيراطٍ، فعملت اليهودُ على قيراطٍ، ثم عملت النصارى على قيراطٍ قيراطٍ، ثم أنتم الذينَ تعملون من صلاةِ العصرِ إلى مغاربَ الشمسِ على قيراطينِ قيراطينِ، فغضبَ اليهود والنصارى وقالوا: نحنُ أكثرُ عملاً، وأقلُّ عطاءً، قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلكَ فضلي أوتيهِ من أشاءُ**».

(١) سورة الأحزاب: ٣٥.

(ب)

مهلاً... مهلاً.. أصحابَ المالِ والثراءِ... إلى أينَ؟

إن الغني الحق ليسَ بهذا المالِ الذي بينَ أيديكم، ولكنه الغني بالله تعالى فهو بحقّ الغني الدائمُ الذي ليسَ بعدهُ فقرٌ ولا عوزٌ أبداً، إن اللهَ وحدهُ هو الغنيُّ الحميد، وهو وحدهُ مالك الملكِ لا يشاركُه فيهِ أحدٌ، وما سواهُ عبيدٌ لا يملكونَ لأنفسهم ولا لغيرِهم مثقالَ ذرةٍ ولا أصغرَ إلا بأمرِ اللهِ تعالى ولأجلِ محددٍ وزمانٍ قصيرٍ، وهو عُمر الإنسانِ على هذه الدنيا، فمن أرادَ أن يكونَ غنيا حقا فليكن غناهُ باللهِ تعالى طاعةً لأمرهِ واتباعاً لسنةِ رسولهِ محمدٍ ﷺ.

يا أصحاب المالِ والثراءِ...

إن كنتم تحبونَ المالَ حقا، فليكن حبكم لهُ حب العقلاءِ الفطناءِ، لا حب الحمقى الجهلاء، فإنَّ الذي يحبُّ شيئاً يتمنى أن يبقى معهُ أطولَ مدةٍ ممكنة، والمؤمنون أولوا النورِ والهدى يعملونَ على إبقاءِ مالهم الذي يحبونَه بقاءً خالداً يتعدى زمن هذهِ الحياةِ الدنيا الفانيةِ إلى الحياةِ الآخرةِ ليبقى هناكَ ثقلاً في الميزانِ ورضا من الرحيم الرحمن. لأنهم يعلمونَ علمَ اليقينِ أن كلَّ الدنيا ستفنى بما عليها من مالٍ ومتاعٍ ولن يبقى إلاّ ما عندَ اللهِ القائل:

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (النحل: ٩٦).

ولقد تصدقت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ بشاة ولم يبق منا إلا كتفها، ولما سألها المصطفى ﷺ عنها قالت: «**ما بقي إلا كتفها**، **فقال لها**: «**بل بقى كلُّها إلا كتفها**» (رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٨٤٩).

يا أصحابَ المالِ والثراءِ..

إن التصدق والبذلَ والإنفاق في سبيل الله تعالى لا ينقصُ المالَ أبداً بل يباركهُ ويكثرهُ وينميهِ ويديُم بقاءه، فالصادقُ المصدوقُ محمدٌ ﷺ قال: «**ما نقصَ مالٌ من صدقة...**» والله الحقّ العظيمُ قال: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سبأ: ٣٩).

ويقول جل شأنه: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ (التغابن: ١٧).

يا أهلَ المالِ والثراءِ:

إن شُكر الله تعالى بطاعتهِ والبذلِ في سبيلهِ رحمة بالفقراءِ والمساكينِ هو قيد النعمةِ ودوامها، وأما منعها عن مستحقيها والبخلُ بها وعصيانُ

أمرِ الله تعالى فيها، فهو المذهبُ لها، ولبركَتها ولخيرِها، والجالب للعذاب والمهانَة والحسرة: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ (إبراهيم: ٧)، وعد الله الحق وقراره الأكيد الذي لايقف أمامه واقف.

يا أهلَ المالِ والثراءِ:

إن الذينَ يعبدونَ ربَّهم ويطيعونه وينفقونَ في سبيلِه لهم أجرُهم بأفضلِ مما عملوا وما قدَّموا، وليس هذا في الآخرَة فحسب، بل في الدنيا قبلَ الآخرة، قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل: ٩٧).

قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ أي في الدنيا، بالرزق الحلال، وبالتوفيقِ إلى حلاوةِ الطاعةِ، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ جنات عاليةٍ ونعيمٍ مقيمٍ في الآخرةِ.

وأما الذينَ يؤثرونَ حبَّ المالِ على حبِّ الله تعالى وطاعته، ويبخلونَ بما آتاهم الله من فضله، ويمنعونَ حقَّ السائل والمحروم فيما استخلفهم الله فيه، فإن حياتَهم الدنيا شقاءٌ وضنكٌ وهوان، وأُخْرَاهُم عذابٌ وحسرةٌ وحرمانٌ، إنهم الذينَ صدقَ فيهم قول الشيطانِ اللعينِ، كما جاءَ في حديث عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قالَ: قالَ رسول الله

ﷺ: «**قال الشيطانُ ـ لعنهُ اللّه ـ: لن يَسْلَمَ مني صاحب المال من إحدى ثلاث أغدو عليه بهنَّ وأرُوح: أخذهُ من غيرِ حلّه، وإنفاقه في غيرِ حقّه، وأحببُهُ إليه فيمنعهُ من حقه**» (حديث حسن، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٤٥): رواه الطبراني وسنده حسن).

وها هو ذا اللّه الغنيُّ الحميدُ، ينذرُ من تولى وأعرضَ وبخلَ بماله ولم ينفق في سبيل اللهِ تعالى، أن يذهبهم الله تعالى ويأت بقومٍ آخرينَ مؤمنينَ صادقينَ ينفقونَ في سبيل اللهِ تعالى ولا يبخلونَ، قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ (سورة محمد ﷺ: ٣٨).

يا أهل المالِ والثراءِ...

أما علمتم أن الله تعالى قد جعلَ أولَ وصف للمشركين بعد الإشراك هو عدمُ إيتاء الزكاة، قالَ الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ (فصلت: ٦ ـ ٧).

يا أهل المالِ والثراء...

أما دَريتمُ أن الندم الأكبر والحسرة الأبشع تكونُ عندَ الموتِ لمن لم يتصدَّق وينفق في سبيل الله الكريم، حتى ولو كان من زمرة جماعة المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ (المنافقون: ٩ـ ١١).

يا أهلَ المالِ والثراءِ....

لقد جربَ المجربونَ فما وجدوا السعادةَ في مالٍ ولا جاهٍ ولا سلطانٍ، ولا لذةٍ ولا شهوةٍ، فتلك سعادةٌ رخيصةٌ موقوتةٌ، لا تحملُ معنى السعادة، إلا وهماً شيطانياً وخيالاً نفسياً، لا يبقى ولا يدومُ، بل كثيراً ما نجد أن غضَبَ الله تعالى ولعنته قد حلتْ على أصحابِ المالِ الكانزينَ الكافرينَ بنعمتهِ جلَّ شأنُه، فيحكُمُ الله تعالى عليهم بالحرمانِ منَ النعمةِ وهي بينَ أيديهم، فيصابونَ بالأمراضِ التي تمنعهم من التمتعِ بها، ويقضونَ بقيةَ حياتِهم في عذابٍ ليوصلَ بالعذابِ الأنكى بعد الموتِ، ثم الأكبر يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنونَ إلا من أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

يا أصحاب المالِ والثراءِ...

إن السعادةَ الحقةَ هي أن يحيا المصنوعُ وهو العبدُ بمنهجِ صانعِه وهوَ الرب جل وعلا، ومن أُسُسِ هذا المنهجِ إيتاءِ الزكاة، وشتانَ ما بينَ أحمقَ يركن إلى مخلوقٍ أقلَّ منهُ وهو المالُ يطلبُ سعادتَهُ منهُ، وبينَ عاقلٍ حكيم لا يركن إلا إلى ربِّ الأرضِ والسماواتِ وما بينهما، يطلبُ منهُ أنْ يحيا على الإسلام وأنْ يموت على الإيمانِ، هنالكَ تكون السعادة الحقَّةُ، والغنى الحقُّ، والرِّضا والرضوان، فالسعادة ينبوعٌ نوراني يتفجر من قلبِ المؤمنِ الصادق الموصول، بالله تعالى ورحَم الله الإمام ابن تيمية حين قال: «جنتي في قلبي» وصدق إنها مستقرة في قلبِ وعقلِ المؤمنِ، وجناتُ الدنْيا كلها لا بد أن تكون خادمة لها، إرضاءً لله الذي أعد للمحسنين جنات ونعيم في الآخرة، وأذاقهم من حلاوةِ الإيمانِ في قلوبهم مالا يعلمُهُ إلا مَنْ أخلصوا وصبروا ورضوا وذاقو حلاوةَ دائمةً لا تنقطعُ ولا تذوبُ.

يا أهل المال والثراء...

يقول الشاعرُ الحكيمُ:

لـذةُ الجسمِ - إن أتَـتْ - ومضات | تـلـمسُ الـسـطحَ مـالـهـا أعـمـاق
مـا بـرأت تـقـضـي المـآربَ منَّـا | ثـم تـمـضـي ومـالـهـا أعـلاق
قـد تظل الـذكـرى وتـلـكَ خيالُ | أو ألـيـمـان: حـسـرةٌ واحـتـراق

لـــذةُ الأهـــلِ والـبـنـيـنَ شـرابٌ   كـم بـنـا لـوعــةٌ لــهُ واشـتـيـاق
فـإذا الكأس أنـزعـت منـهُ صفوا   لارتــشـــاف فـإنــهـا تــهــراق
لـذةُ المـالِ: حـينَ يمضي لتقضي   بعضُ حـاجـاتـنـا وهــذا افـتـراق
إنـهـا لا تـكـونُ بـالجمـعِ والـعـدّ   تـســـاوي هـــذان والإمـــلاق
هـو هــمّ وجـمـعُـهُ كـد نفسٍ   وعـــنــــاءٌ وحـفـظُـهُ إرهـــاق
كـلـمـا زادَ خـوفـنـا زادَ منـهُ   وعـلـيـهِ ومـسَّـنـا الإقـــلاق
وفـــراق لـــهُ عـلـى الـكـرهِ آتٍ   دونَ ريـــبٍ مـتـى دعـا الـــرزاق
وحـســاب عـلـيه يـوم الـتـلاقـي   يـــتـــولاهُ ربُّـــنـــا الخـــلاق
لـــذةُ الجـــاهِ عـلـقـت بـسـرابٍ   ولـهـا كـم تحـلـبـتْ أشــداق
لـذةُ الصحبِ دونَ تقوى خداع   واخــتــلاسٌ وحـيـلــةٌ ونـفـاق
هـذه متعةُ الحيـاةِ على الأرضِ   وهـــذا كـســاؤهـا الـــبراق
فـمـن اخـتـارَ لـــذةَ لـيـس فيها   مـن عصيرِ الخيـالِ وهـم مـراق
فـلـديـهِ عـبـادة اللّهِ والـعـلـمُ   وحـــبٌّ لـلـخـيـرِ والأخـــلاق
هـهـنـا لـــذةُ الحـيــاةِ لمـن شـاءَ   وفـيـهـا يـطـيـب الاســتـغـراق
هـي في الأرضِ نفحة من نعيمٍ   سـبـق لـلـذائـقـين مـنـهُ مـذاق
وبـرحـبِ الجـنـانِ في الخلـدِ منهُ   نـهــرٌ دائـــمْ الـهـنـا دفـــاق

لقد صور لنا الكاتب الشاعر الأستاذ عبدالرحمن حسن حبنكه

الميداني في شعره الهادف المشع بنورِ الإيمان واليقينِ، صورَ لنا لذَّاتِ الدنيا على اختلافِ أنواعها من أهلِ وبنينٍ وأموال وجاه وصحبة، ونحو ذلكَ، وأشهدنا إياها على حقيقتها التي لا يفطنُ إليها الكثيرونَ، إنها سرابٌ وخيالٌ وكساءٌ براقٌ ليس إلا، وكله إلى ضياع وفناء، أما من طلب اللذةَ الباقيةَ والسعادةَ الدائمة، فليس أمامهُ إلاَّ أنْ يعبَد الله تعالى على هدي وبصيرة مستنيراً بالعلم المحمودِ، محبًّا للخيرِ وقائماً به في كل حالٍ، نيةً وقولاً وعملاً وسلوكاً أخلاقياً راقياً، كل ذلكَ في إطار منهج اللهِ القويم.

فبذلك تلذُ الحياةُ ويسعد بها صاحبها، لذةً بلا انقطاع، لأنَّها موصولة باللذة في الحياةِ الآخرةِ. تلكَ التي تشبهُ نهراً جارياً بالنعيم والخيرِ العميم والفضلِ العظيمِ الذي لا ينقطعُ.. لأنها دارُ الخلودِ ومقامُ المؤمنينَ المصَّدّقينَ.

والحمدُ للهِ الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والحمدُ لله حمداً يوافي نعمهَ ويكافئ مزيده ويرفعُ عنا غضبه ويدخلنا بهِ في روضاتِ ونعيمٍ مع عبادِ الله الصالحينَ.

والحمد لله حمداً كما ينبغي لجلالِ وجههِ وعظيمِ سلطانهِ، سبحانَك ربِّي لا نحصي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيت على نفسك.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدكَ ونبيكَ ورسولكَ وحبيبكَ وخليلك محمد المصطفى وعلى آله وصحبهِ وعلى كلِّ عبد بهديهِ اهتدى.

«ربنا تقبل منَّا إنكَ أنتَ السميعُ العليمُ».

عبدالله الفقير إلى ربه تعالى

عليش متولي بدوي البني

إمام وخطيب مسجد جمعه الحسينان ـ الأندلس ـ الكويت.

ومن قرية ميت الرخاء مركز زفتى ـ غربية. بجمهورية مصر العربية

وكان الانتهاء من هذا الكتاب بفضل اللّٰه تعالى وتوفيقه في غرة رمضان ١٤٢٩هـ ـ الموافق ١ من سبتمبر ٢٠٠٨م

(تم بحمد اللّٰه تعالى)

المراجع

«أولاً: من كتب التفسير»

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ تفسير فتح القدير ـ محمد بن علي الشوكاني ـ دار الوفاء بالمنصورة ج م ع ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤ ـ المتوَفّى (١٢٥هـ).

٣ ـ تفسير روح المعاني ـ لأبي الفضل شهاب الدين الألوسي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤، المتوفّى (١٢٧هـ).

٤ ـ تفسير جامع البيان، لأبي جعفر محمد ابن جرير الطبري ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م المتوفى (٣١٠هـ).

٥ ـ تفسير البغوي، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ـ دار طيبة ـ الرياض ـ الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م المتوفى (٥١٦هـ).

٦ ـ تفسير الكشاف لأبي القاسم جار الله الزمخشري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بجوار الجامع الأزهر بالقاهرة ـ الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م المتوفّى (٥٣٨).

٧ ـ تفسير المحرر الوجيز، لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي ـ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ـ المتوفَّى (٥٤٦هـ).

٨ ـ تفسير الفخر الرازي ـ لمحمد الرازي فخر الدين ـ دار الفكر للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م المتوفى (٦٠٤هـ).

٩ ـ تفسير القرطبي، لأبي عبدالله محمد القرطبي ـ الناشر دار الكتاب العربي....... المتوفى (٦٧١هـ).

١٠ ـ تفسير التحرير والتنوير ـ مؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م المتوفى (.....).

١١ ـ تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيّان الأندلسي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م ـ المتوفى (٥٤٧).

١٢ ـ الدر المصون، لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي ـ تحقيق د / أحمد محمد الخراط ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ـ المتوفى (٦٥٧هـ).

١٣ ـ تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير ـ تحقيق سامي بن محمد السَّلامَه ـ دار طيبة ـ الرياض ـ الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م المتوفى (٧٧٤هـ).

١٤ ـ تفسير البيضاوي، لناصر الدين أبي سعيد البيضاوي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ المتوفى (٧٩١).

١٥ ـ تفسير نظم الدرر، لبرهان الدين أبي الحسن البقاعي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م ـ المتوفى (٨٨٥).

١٦ ـ تفسير الدر المنثور، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ـ ١٩٩٠م ـ المتوفى (٩١١هـ).

١٧ ـ تفسير في ظلال القرآن، لسيد قطب ـ دار الشروق ـ بيروت ـ الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٨ ـ تيسير الكريم الرحمن، لعبد الرحمن ناصر السعدي، تحقيق محمد زهري النجار، عالم الكتب ـ الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ـ المتوفى (١٣٧٦هـ).

١٩ ـ صفوة البيان لمعاني القرآن ـ لحسنين مخلوف ـ دار الكتاب العربي بمصر، الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

٢٠ ـ تفسير تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير، لمحمد نسيب الرفاعي، مكتبة المعارف ـ الرياض، طبعة جديدة ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٢١ ـ تفسير أيسر التفاسير، لأبي بكر جابر الجزائري ـ ط .... عام ١٤١٤هـ.

٢٢ ـ التفسير المنير، للدكتور وهبه الزحيلي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٢٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ـ وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٤ ـ معجم ألفاظ القرآن الكريم ـ جمهورية مصر العربية ـ مجمع اللغة العربية ـ الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث ـ ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

ثانياً: «من كتب الحديث الشريف»

١ ـ المصَنَّف، لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة، حققه محمد عوامة ـ دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ المملكة العربية السعودية ـ جَدَّة ـ الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٢ ـ الفتح الرباني ـ ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل، ترتيب وتأليف أحمد عبدالرحمن البنا ـ دار الشهاب ـ القاهرة.

٣ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٤ ـ الجامع لشعب الإيمان ـ للإمام الحافظ أبي بكر البيهقي ـ تحقيق د/ عبدالغني عبدالحميد حامد ـ الدار السلفية ـ بومباي ـ الهند ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٥ ـ المسند الجامع ـ دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٦ ـ المفهم لما أشْكلَ من تلخيص كتاب مسلم، لأبي عباس أحمد بن عمر القرطبي ـ تحقيق محي الدين ديب مستو، وآخرون، دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٧ ـ السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ـ تحقيق محمد عبدالقادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٨ ـ السنن الصغرى، له أيضاً، تحقيق خليل مأمون شيحا ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٩ ـ الترغيب والترهيب، لزكي الدين عبدالعظيم المنذري، تحقيق محي الدين ديب مستو وآخرين، دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

١٠ ـ الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٩٨م.

١١ ـ الإفصاح عن معاني الصحاح في مذاهب الأئمة الأربعة، الوزيرعون الدين بن هبيرة الحنبلي ـ المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ عين شمس الشرقية.

١٢ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ـ محمد عبدالرحمن المباركفوري، إشراف عبدالوهاب عبداللطيف ـ دار الفكر ـ بيروت ـ..

١٣ ـ تأويل مختلف الحديث لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ـ تحقيق سليم الهلالي ـ دار ابن عفان ـ القاهرة ـ خلف الجامع الأزهر ـ الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٤ ـ تهذيب السنن لأبي عبدالله محمد أبي بكر الزرعي ـ تحقيق د/ إسماعيل بن غازي مرحبا ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٥ ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ـ محمد بن علان الصديقي ـ دار الفكر ....

١٦ ـ رياض الصالحين للإمام النووي ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة السادسة عشرة ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٧ ـ رياض الصالحين للإمام النووي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني...

١٨ ـ روح ورياحين من رياض الصالحين للنووي، إعداد عبدالهادي بن سعيد البستاني، وزياد بن محمد محمد ـ دار الكوثر ـ حي الفلاح مقابل بوابة رقم ٣ ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٩ ـ زوائد السنن على الصحيحين، صالح أحمد الشامي ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٠ ـ سنن النسائي ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق مكتب التراث الإسلامي ـ ط دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة السادسة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢١ ـ سنن الترمذي ـ لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق أحمد شاكر ـ ط دار الحديث ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٢ ـ سنن الدار قطني، لعلي بن عمر الدار قطني ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢٣ ـ سنن ابن ماجة بشرح الإمام السندي، تحقيق خليل مأمون شيحا ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٤ ـ شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين ـ دار الوطن للنشر ـ....

٢٥ ـ شرح السنة، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ـ تحقيق علي محمد معوض ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٦ ـ شرح مشكل الآثار، لأبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٧ ـ صحيح مسلم بشرح النووي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت...

٢٨ ـ صحيح سنن النسائي ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٩ ـ صحيح سنن ابن ماجة ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ الطبعة الأولى للطبعة الجديدة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٣٠ ـ صحيح سنن الترمذي ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ الطبعة الثانية للطبعة الجديدة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٣١ ـ صحيح سنن أبي داود ـ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ الطبعة الثانية للطبعة الجديدة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٣٢ ـ صحيح ابن حِبَّان بترتيب ابن بلبان ـ للأمير علاء الدين الفارسي ـ تحقيق شعيب الأنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٣٣ ـ صحيح ابن خزيمة، تحقيق د/ محمد مصطفى الأعظمي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٣٤ ـ صحيح الأحاديث القدسية، دراسة وتحقيق د/ حامد أحمد الطاهر ـ دار الفجر للتراث ـ خلف الجامع الأزهر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣٥ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ـ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ـ دار الفكر ـ ....

٣٦ ـ فتح الباري ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ـ المكتبة السَّلفية ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ ١٤٠٧هـ.

٣٧ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، للعلامة المناوي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ....

٣٨ ـ مرقاة المفاتيح، محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٣٩ ـ موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، مجموعة من المختصين ـ دار الوسيلة، جده ـ السعودية ـ الطبعة الرابعة ـ ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.

٤٠ ـ نزهة المتقين شرح رياض الصالحين للنووي، د. مصطفى سعيد الخنّ وأربعة آخرون، مؤسسة الرسالة ـ الطبعة السادسة والعشرون ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

ثالثاً: من كتب العقيدة

١ ـ الله أهل الثناء والمجد ـ د/ ناصر بن مسفر الزهراني ـ العبيكان ـ الرياض ـ الطبعة الرابعة ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٢ ـ العقيدة الصافية للفرقة الناجية ـ سيد سعيد عبدالغني ـ دار طيبة الخضراء ـ مكة المكرمة ـ العزيزية ـ الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٣ ـ العقيدة في الله ـ د/ عمر سليمان الأشقر ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ الطبعة السادسة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٤ ـ العقيدة الإسلامية وأسسها ـ عبدالرحمن حسن حَبَنّكة ـ دار القلم دمشق ـ الطبعة الرابعة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٥ ـ أحاديث العقيدة ـ د/ سليمان بن محمد الدبيحي ـ مكتبة دار المنهاج ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

٦ ـ القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف د. إبراهيم بن محمد البريكان ـ دار ابن القيم ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٧ ـ الاعتصام ـ لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ـ تحقيق سليم بن عيد الهلالي ـ دار ابن عفان ـ القاهرة خلف الأزهر ـ الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٨ ـ الاستقامة، لابن تيمية أبي العباس تقي الدين ـ تحقيق د/ محمد رشاد سالم ـ مكتبة السنة ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.

٩ ـ القواعد الطيبات في الأسماء والصفات ـ لابن القيم، والشنقيطي، وابن

عثيمين ـ اعتنى به أبو محمد أشرف بن عبد المقصود ـ مكتبة أضواء السلف ـ الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٠ ـ النبوات ـ لابن تيمية تقي الدين أبي العباس ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١١ ـ المِلَلُ والنِّحل ـ لأبي الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني ـ مؤسسة الحلبي ـ ١٤ ش جواد حسني القاهرة ـ مطبعة أبو سامي الحديثة ـ...

١٢ ـ أصول العقيدة الإسلامية ـ لأبي جعفر بن محمد الأزدي الطحاوي ـ مكتبة مكة المكرمة.

١٣ ـ القول المفيد على كتاب التوحيد ـ لمحمد بن صالح العثيمين ـ دار ابن الجوزي ـ الرياض ـ الطبعة الثانية محرَّم ١٤٢٤هـ.

١٤ ـ بدء الخلق والملائكة والجن والأنبياء ـ لأبي معاذ طارق بن عوض ـ دار ابن عفان ـ القاهرة خلف الجامع الأزهر ـ الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٥ ـ تبسيط العقائد الإسلامية ـ حسن أيوب ـ دار الندوة الجديدة ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٦ ـ تعريف الخلف بمنهج السَّلَف ـ د. إبراهيم بن محمد البريكان ـ دار ابن عفان القاهرة ـ خلف الجامع الأزهر ـ الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

١٧ ـ حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ رابعة الطويل ـ راجعة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ ـ الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ـ الكويت ـ...

١٨ ـ حقيقة التوحيد ـ محمد حسان ـ مكتبة فياض ـ المنصورة ج م ع ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٩ ـ شرح العقيدة الطحاوية ـ لعلي بن علي بن أبي العز الدمشقي ـ تحقيق ـ د / عبدالله بن عبدالمحسن التركي وشعيب الأرنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٠ ـ شرح الرسالة التَّدْمُريَّة لابن تيمية ـ للشيخ عبدالرحمن بن ناصر البرَّاك ـ كنوز أشبيليا ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢١ ـ شرح الدرة المضِيّة في عقيدة الفرقة المرضيَّة للإمام السفاريني ـ شرح صالح بن فوزان الفوزان ـ دار الكتاب والسنة للطباعة والنشر ـ عين شمس الشرقية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٢ ـ شرح العقيدة الواسطيَّة لابن تيمية ـ تأليف صالح بن فوزان الفوزان ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ الطبعة السابعة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٣ ـ شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم هِبَةَ الله ابن الحسن اللالكائي ـ تحقيق د / أحمد بن سعد الغامدي ـ دار طيبة ـ الرياض ـ الطبعة الثامنة ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٤ ـ شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز بن الحنفي، لابن أبي العز الحنفي ـ حققها وراجعها جماعة من العلماء، وخرج أحاديثها الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة التاسعة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٥ ـ شرح أسماء الله تعالى الحسنى ـ د / حصة بنت عبدالعزيز الصغير ـ دار القاسم ـ جدة بالسعودية ـ الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٢٦ ـ عقيدة المؤمن ـ أبو بكر الجزائر ـ مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ـ الطبعة الثانية ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٧ ـ عقيدة المسلم ـ محمد الغزالي ـ دار الريان للتراث ـ مطابع مؤسسة أخبار اليوم ـ القاهرة.

٢٨ ـ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ. راجعة عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ـ دار الخير ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٢٩ ـ قواعد في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة، لعادل بن محمد بن علي الشيخاني ـ دار أضواء السلف ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٠ ـ كتاب الإيمان لابن تيمية، علَّق عليها وصححها جماعة من العلماء ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٣١ ـ كتاب الإيمان ـ لمحمد بن إسحاق بن منده ـ مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٣٢ ـ موسوعة أسماء الله الحسنى ـ لمحمد راتب النابلسي ـ دار المكتبي ـ دمشق ـ الطبعة الخامسة ـ ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

٣٣ ـ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول (في التوحيد) لحافظ بن أحمد الحَكَمِي ـ ضبطه وعلَّق عليه وخرَّج أحاديثه عمر بن محمد أبو عمر ـ دار ابن عفان ـ القاهرة ـ خلف الجامع الأزهر ـ الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣٤ ـ مسالك أهل السنة فيما أشكل من نصوص العقيدة ـ د. عبدالرزاق بن

طاهر معاش ـ دار ابن عفان ـ القاهرة ـ خلف الجامع الأزهر ـ الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣٥ ـ مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٣٦ ـ منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في تقرير عقيدة التوحيد ـ إعداد إبراهيم بن محمد البريكان ـ دار ابن عفان القاهرة ـ خلف الجامع الأزهر ـ الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣٧ ـ مناهج اللغويين في تقرير العقيدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري د/ محمد الشيخ عَليو محمد ـ مكتبة دار المنهاج ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

رابعاً: من كتب الفقه

١ ـ الموطأ للإمام مالك بن أنس، رواية أبو مصعب الزُّهري المدني ـ تحقيق د/ بشار عواد، ومحمود خليل، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٢ ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ الأندلسي ـ تحقيق أسامة بن إبراهيم ـ الفاروق الحديثة ـ ش راتب باشا ـ حدائق شبرا ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣ ـ المغني لابن قدامة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ...

٤ ـ المحلّى لابن حزم ـ تحقيق أحمد شاكر ـ دار التراث ـ ٢٢ شارع الجمهورية ـ القاهرة ـ...

٥ ـ الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، لشمس الدين محمد بن محمد الخطيب الشربيني ـ تحقيق علي معوض، وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٦ ـ الفقه الإسلامي وأدلته ـ د/ وهبه الزحيلي، دار الفكر ـ دمشق ـ الإعادة التاسعة ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٧ ـ الانتصار في المسائل الكبار ـ على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لأبي الخطاب محفوظ الكلوذاني ـ تحقيق د/سليمان بن عبد الله العمير ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٨ ـ الفقه الحنبلي الميسر ـ د/وهبه الزحيلي ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٩ ـ البيان في مذهب الإمام الشافعي ـ اعتنى به قاسم محمد النوري ـ دار المنهاج ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٠ ـ الدراري المُضيَّة شرح الدرر البهية ـ كلاهما للإمام محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١١ ـ المضاربة في الشريعة الإسلامية ـ عبدالله بن حمد الخُوَيطر ـ كنوز أشبيليا ـ الطبعة الأولى للدار ١٤١٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٢ ـ أحكام المعاملات الشرعية، للشيخ على الخفيف، دار الفكر العربي ـ ٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٣ ـ الفقه المالكي في ثوبه الجديد د / محمد بشير الشقفه ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة السادسة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٤ ـ الروض المربع بشرح زاد المستنقع، تحقيق محمد عبدالرحمن عوض ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٥ ـ العدة في شرح العمدة ـ لبهاء الدين عبدالرحمن المقدسي ـ تحقيق د / عبدالله بن عبدالمحسن التركي ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٦ ـ الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لأبي محمد موفق الدين بن قدامة المقدسي ـ خرج أحاديثه ورجاله سليم يوسف ـ دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٧ ـ الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، للدكتور مصطفى الخِنّ وآخرين ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة السابعة ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٨ ـ التهذيب في اختصار المُدوَّنَة، لأبي سعد البراذعي ـ تحقيق محمد الأمين ولد محمد سالم بن الشيخ ـ دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ـ الإمارات العربية المتحدة ـ دبي ـ الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٩ ـ الذخيرة في فروع المالكية لشهاب الدين أبي العباس المشهور بالقرافي ـ تحقيق أبي إسحاق أحمد عبدالرحمن ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٠ ـ الإعلامُ بفوائد عمدة الأحكام لأبي حفص عمر بن علي المعروف بابن الملقن ـ تحقيق عبدالعزيز بن أحمد المشيقع ـ دار العاصمة ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢١ ـ المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لعبدالقادر بن بدران الدمشقي ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٢٢ ـ المدخل إلى مذهب الشافعي ـ د/ أكرم يوسف عمر القواسمي ـ دار النفائس ـ الأردن ـ عمان ـ الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٣ ـ التشريع الجنائي مقارناً بالقانون الوضعي ـ عبدالقادر عودة ـ مكتبة دار التراث ـ ٢٢ شارع الجمهورية ـ القاهرة ـ الطبعة الجديدة ـ ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٤ ـ الفقه الحنفي في ثوبه الجديد ـ عبدالحميد محمود طهماز ـ دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٥ ـ المهيَّأ في كشف أسرار الموطأ ـ لعثمان بن سعيد الكماخي ـ تحقيق أحمد علي ـ مركز التراث الثقافي المغربي ٥٢ شارع القسطلاني ـ الدار البيضاء ـ الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٦ـ بحر المذْهب في فروع مذهب الإمام الشافعي، لأبي المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل الرُّوياني ـ تحقيق أحمد عِزّ وعناية الدمشقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٧ ـ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ـ لشمس الدين محمد عرفه الدسوقي ـ مكتبة زهران ـ حارة لطفي خلف الأزهر ـ.

٢٨ ـ ردُّ المحتار على الدر المختار حاشية ابن عابدين على شرح الشيخ علاء الدين محمد بن علي الحصكفي لمتن «تنوير الأبصار» لشمس الدين التمرتاشي ـ تحقيق عبد المجيد طعمه حلبي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٩ ـ روضة الطالبين وعمدة المفتين للإمام النووي إشراف زهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٣٠ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ـ لابن قيّم الجوزية ـ تحقيق شعيب الأرنؤوط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة السابعة والعشرون ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٣١ ـ سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ـ تحقيق محمد سبحي حَلاَّق ـ دار ابن الجوزي ـ الرياض ـ الطبعة السابعة ١٤٢٧هـ.

٣٢ ـ صلاة المؤمن د / سعيد بن علي بن وهْف القحطاني ـ مؤسسة الجريسي ـ الرياض ـ الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣٣ ـ صحيح فقه السنة ـ لأبي مالك كمال بن السيد سالم ـ المكتبة التوفيقية ـ القاهرة ـ أمام الباب الأخضر ـ سيدنا الحسين....

٣٤ـ فقه الزكاة ـ د / يوسف القرضاوي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة العشرون ـ ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٣٥ ـ فقه السنة للشيخ سيد سابق ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الشرعية الثامنة ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٦ ـ نيل الأوطار لمحمد بن علي بن محمد الشَّوكاني ـ تحقيق أبو معاذ طارق بن عوض اللّه بن محمد ـ دار ابن عفان ـ القاهرة ـ خلف الجامع الأزهر ـ الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٧ ـ هداية الراغب لشرح عمدة الطالب لعثمان أحمد النجدي الحنبلي ـ تصحيح د / محمد بكر إسماعيل ـ المكتبة الفيصلية ـ مكة المكرمة ..

خامساً: من كتب التاريخ والسِّيَر المتعلقة بالرسول ﷺ وأصحابه

١ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى ـ للقاضي أبي الفضل عيّاض اليحصبي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ.

٢ ـ الوفا بأحوال المصطفى لأبي الفرج عبدالرحمن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٣ ـ الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد بن منيع المعروف بابن سعد ـ تحقيق محمد عبدالقادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٤ ـ السيرة الحلبية في سير الأمين المأمون ﷺ ـ لعلي برهان الدين الحلبي ـ دار المعرفة ـ.

٥ ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ، لابن كثير القرشي ـ تحقيق د/ باسم بن فيصل الجَوَبِرة ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٦ ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني تحقيق ـ عادل أحمد عبدالموجود، وعلي معوض ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٧ ـ الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري ـ الجامعة السلفية ـ الهند

ـ مكتبة الصحابة ـ جدّه ـ الشرقية ـ الطبعة الوحيدة الشرعية ـ ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٨ ـ أصحاب الرسول ﷺ لمحمود المصري ـ دار التقوى ـ الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٩ ـ الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ د / علي محمد محمد الصَّلاَّبي ـ مكتبة الصحابة ـ الإمارات ـ الشارقة ـ الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٠ ـ أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ـ لعمر رضا كَحَّالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة العاشرة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

١١ ـ البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ـ تحقيق د / أحمد أبو ملحم وآخرون ـ دار الريان للتراث ـ الإدارة ٣٥٠ ش الأهرام ـ الجيزة ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٢ ـ المنتقى من أخبار المصطفى ـ لأبي البركات مجد الدين بن تيمية الحرَّاني ـ تحقيق خالد بن ضيف الله الشَّلاحي ـ مؤسسة الرسالة العالمية ـ بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

١٣ ـ المختار من مناقب الأخيار ـ لابن الأثير مجد الدين أبي السعادات الجزري ثم الموصلي ـ تحقيق مأمون الصَّاغَرْجي وآخران ـ مركز زايد للتراث والتاريخ ـ العين ـ الإمارات العربية ـ الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٤ ـ الكامل في التاريخ لعز الدين أبي الحسن بن عبدالواحد الشيباني

المعروف بابن الأثير. تحقيق خليل مأمون شيحا - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٥ - تهذيب سِيَر أعلام النبلاء، لشمس الدين عثمان الذهبي - مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٦ - حياة الصحابة، لمحمد يوسف الكاندهلوي - المكتبة التجارية مصطفى الباز - مكة المكرمة - دار الفكر - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١٧ - خاتم النبيين ﷺ، لمحمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - الإدارة ٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة - ١٩٩٣م.

١٨ - رجال حول الرسول ﷺ لخالد محمد خالد، دار الكتاب العربي، بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٣م.

١٩ - سيرة النبي ﷺ لابن هشام - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - دار الفكر - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٢٠ - سُبُل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - ﷺ - لمحد بن يوسف ا لصالحي الشامي - تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي معوض. دار الفكر العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

٢١ - سيرة أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب - د / علي محمد الصَّلابي - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٢ - شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للعلامة

القسطلاني، ضبطه وصححه محمد عبدالعزيز الخالدي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٣ ـ شمائل الرسول ﷺ، للحافظ ابن كثير، تحقيق د/ مصطفى عبدالواحد ـ دار القبلة للثقافة الإسلامية ـ جدة ـ بالسعودية ـ الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

٢٤ ـ صور من حياة الصحابة، د/ عبدالرحمن رأفت الباشا ـ دار النفائس بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٥ ـ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ د/ علي محمد الصلابي ـ دار الإيمان ـ الإسكندرية (ج م ع) ١٧ شارع خليل الخياط ـ مصطفى كامل ـ....

٢٦ ـ عثمان ابن عفان ـ رضي الله عنه ـ د/ علي محمد الصلابي ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ القاهرة ـ السيدة زينب ـ الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٧ ـ عمر بن الخطاب د/ علي محمد الصلابي ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ القاهرة ـ السيدة زينب ـ الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٢٨ ـ فقه السيرة، محمد الغزالي ـ دار الكتب الحديثة ـ ١٣ شارع الجمهورية بعابدين ـ القاهرة ـ الطبعة السابعة ١٩٧٦م ـ خرج أحاديثها الشيخ الألباني.

٢٩ ـ فقه السيرة النبوية د/ محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ الطبعة الحادية عشرة ١٤١٢هـ.

٣٠ ـ محمد رسول الله ﷺ، محمد الصادق إبراهيم عرجون، دار القلم ـ

دمشق ـ الطبعة الثانية ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٣١ ـ وإنك لعلى خلق عظيم ـ ﷺ ـ إعداد وإشراف صفي الرحمن المباركفوري، وشارك في إعداده نخبة من الباحثين، شركة كندة للإعلام والنشر بالقاهرة ت ٢٧٢٣٢٢٥ ـ الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

٣٢ ـ هذا الحبيب ـ محمد رسول الله ﷺ ـ يا مُحبُّ، لأبي بكر الجزائري ـ مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ـ الطبعة الثانية ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.٤

سادساً: كتب متنوعة

١ ـ الرعاية لحقوق الله، للحارث بن أسد المحاسبي ـ تحقيق د/ عبدالرحمن عبدالحميد البر، دار اليقين ـ مصر ـ المنصورة ـ الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢ ـ أعلى النعيم الشوق إلى الله ورؤية وجهه الكريم ـ د/ سيد بن حسين العفاني، دار ماجد ـ عسيري ـ جدة ـ السعودية ـ الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٦م.

٣ ـ الآداب الشرعية، لعبدالله محمد بن مفلح المقدسي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٤ ـ الأخلاق الإسلامية وأسسها ـ عبدالرحمن حسن حبنكة، دار ا لقلم ـ دمشق ـ الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٥ ـ التسبيح في الكتاب والسنة، د/ محمد بن إسحاق كندو ـ مكتبة دار المنهاج ـ الرياض ـ الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٦ ـ الأخلاق بين الطَّبع والتَّطبع، أبي عبدالله فيصل بن عبده الحاشري، دار الإيمان ـ الأسكندرية (ج م ع) ـ ....

٧ ـ أسرار الصلاة، لابن القيم، تحقيق أبو عبيدة الوليد بن محمد بن سلامة، دار ابن الإسلام ـ القاهرة ـ الزيتون ـ الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٨ ـ الجنة، عدلان بن ساري العنزي، دار القالسم للنشر ـ الرياض ـ الطبعة الأولي ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٩ ـ أهل الجنة، يوسف الحاج أحمد ـ مكتبة ابن حجر ـ دمشق ـ الطبعة الأولي ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٠ ـ السلوك الاجتماعي، حسن أيوب، الطبعة الأولى بالكويت ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م

١١ ـ الحسد وكيف نتقيه، إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، بولاق أبو العلا ـ القاهرة....

١٢ ـ إغاثة اللهفان، لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٣ ـ آدب الدين والدنيا، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، تحقيق ياسين محمد السَّوَّاس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٤ ـ الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزَّتْ بيجوفيتش، مؤسسة العلم الحديث ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٥ ـ المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق محمد سويد، دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٦ ـ المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوّى، دار السلام ـ شارع الأزهر ـ القاهرة، الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٧ ـ الرّياض النديّة في ذكر الربانيين حُرَّاس الهوية الإسلامية، د / سيد بن حسين العفَّاني، دار العفَّاني، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م.

١٨ ـ البحر الرائق في الزهد والرقائق ـ دار الصفوة، شبرا ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٩ ـ الأربعين النووية، محمد بن صالح العثيمين، المكتبة الإسلامية ـ عين شمس الشرقية ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٢٠ ـ إيقاظ الهمم، المنتقى من جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، لسليم بن عيد الهلالي، دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة التاسعة، صفر ١٤٢٨هـ.

٢١ ـ الأكمل من هدي النبي المرسل، لخير الدين وانلي، مراجعة إنعام القدومي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٢ ـ القبورية، لأحمد بن حسن المعلم، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ربيع الأول ١٤٢٧هـ.

٢٣ ـ القيامة، د. محمد أديب صالح، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٢٤ ـ الحياة الآخرة، د/ غالب بن علي عواجي.

٢٥ ـ الشكر في القرآن، د/ كاملة الأنوار حجاب، دار الآفاق العربية، مدينة نصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٦ ـ أحكام المسألة والاستجداء في الفقه الإسلامي (حُكْم التَّسوُّل) لمحمد بلُّو بن محمد بن يعقوب الخياط، مؤسسة الريان بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٢٧ ـ إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية، راجعة طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل ـ بيروت ـ الطبعة....

٢٨ ـ الولاءُ والبراءُ في الإسلام، لمحمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، الريا، الطبعة الثانية عشرة ١٤٢٧هـ.

٢٩ ـ القلب ووظائفه في الكتاب والسنة ، لسلمان زيد اليماني، دار ابن عفان، القاهرة خلف الجامع الأزهر.

٣٠ ـ المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح، لشرف الدين الدمياطي، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي ـ دار الحديث أمام جامعة الأزهر، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣١ ـ الكبائر والصغائر أنواعها وأحكامها. لحامد بن محمد المصلح، دار الفضيلة ـ الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣٢ ـ الوابل الصَّيّب ورافع الكلم الطَّيّب، لابن قيم الجوزية، تحقيق عبدالرحمن بن حسن بن قائد، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة ـ الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٣٣ ـ الفوائد لابن قيم الجوزية، تحقيق سعيد اللحام، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٣٤ ـ الذنوب وأثرها السَّيء على الأفراد والمجتمعات والشعوب، لابن الجوزي، تحقيق إبراهيم بن عبدالله الحازمي، دار الشريف ـ الرياض ـ الطبعة الثانية ١٤١٣هـ.

٣٥ ـ بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٣٦ ـ براهين وأدلة إيمانية، لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٧ ـ بصائر للمسلم المعاصر، لعبدالرحمن حسن حبنكة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٣٨ ـ تلبيس إبليس لجمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي البغدادي، دار الجيل ـ بيروت ـ....

٣٩ ـ تربيتُنَا الروحية، سعيد حوّى، دار عمَّار، بيروت، طبعة عام ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٤٠ ـ تاريخ الأنبياء، د/ محمد الطيب النجار، مكتبة المعارف ـ الرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٤١ ـ جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام ﷺ، لابن قيم الجوزية، تحقيق زائد بن أحمد النشيري، عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٤٢ ـ جندالله، سعيد حوّى، دار عمَّار ـ بيروت، ط ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٤٣ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن قيم الجوزية، دار الجيل ـ بيروت ـ ط ـ...

٤٤ ـ خلق المسلم، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، الطبعة التاسعة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٤٥ ـ رسائل في التربية والأخلاق والسلوك، لمحمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٤٦ ـ رهبان الليل، د / سيد بن حسين العفَّاني، دار العفَّاني، القاهرة، خلف الجامع الأزهر، الطبعة الثالثة والعشرون ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٤٧ ـ سلاح المؤمن في الدعاء والذكر، لأبي الفتح محمد بن محمد بن الإمام، تحقيق محي الدين ديب مستو، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٤٨ ـ سنة الله في عقاب الأمم في القرآن الكريم، لعبد السلام بن نصر الله الشريف، دار المعراج الدولية، الرياض، الطبعة الأولي ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٤٩ ـ شرح حصن المسلم د / سعيد بن علي بن وهف القحطاني، شرحه مجدي بن عبد الوهاب أحمد، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، ط٢ الرياض، ١٤٢٧هـ.

٥٠ ـ شفاء العليل، لابن قيم الجوزية، اعتنى به خالد عبداللطيف العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٥١ ـ شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، لجلال الدين السيوطي، تحقيق يوسف علي بديوي، دار ابن كثير ـ دمشق الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

٥٢ ـ صفات يحبها الله ورسوله، د / عبد الحميد هنداوي، دار الصفوة، جزيرة بدران أول شبرا ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٥٣ ـ صلاح الأمة في علو الهمّة، د/ سيد بن حسين العفَّاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٥٤ ـ صحيح وصايا الرسول ﷺ، سعد يوسف أبو عزيز، المكتبة التوفيقية، أمام الباب الأخضر سيدنا الحسين ـ القاهرة ـ...

٥٥ ـ صيد الخاطر، لابن الجوزي، تحقيق د/ عبد الرحمن البر، دار اليقين ـ مصر ـ المنصورة، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٥٦ ـ صحيح قصص الرسول ﷺ، سعد يوسف أبو عزيز، المكتبة التوفيقية أمام الباب الأخضر سيدنا الحسين ـ القاهرة ـ....

٥٧ ـ صفة الصفوة، لابن الجوزي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٥٨ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٨٠م.

٥٩ ـ فقه إنكار المنكر ـ بدرية بنت سعود بن محمد البشر، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

٦٠ ـ فتح الوهاب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأبي عبيدة فتحي بن أحمد الغريب، مجمع البحرين ـ حلمية الزتون ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

٦١ ـ قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار، مكتبة دار التراث ٢٢ شارع الجمهورية ـ القاهرة ـ....

٦٢ـ كيف تخرج زكاة أموالك؟ أو الجُمَل في زكاة العُمَل لأبي بكر الجزائري، جمعية إحياء التراث الإسلامي ـ الكويت ـ...

٦٣ ـ كتاب الآداب، فؤاد بن عبدالعزيز السَّهْلوب، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٦٤ ـ كبائر الذنوب، يوسف الحاج، دار ابن حجر ـ دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٦٥ ـ كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبدالله محمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي، تحقيق د / الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

٦٦ـ مبشرات النصر والتمكين د / سيد بن حسين العفَّاني، دار العفَّاني، خلف الجامع الأزهر ـ القاهرة، الطبعة الأولي ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٦٧ ـ مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسي، علَّق عليه شعيب الأرنـؤوط وعبدالقادر الأرنـؤوط، مكتبة دار البيان ـ دمشق، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

٦٨ ـ مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، تحقيق أحمد فخري الرفاعي، وعصام فارس، دار الجيل ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

٦٩ ـ مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، راجعه بكر بن عبدالله أبو زيد، دار ابن القيم، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٧٠ـ مقاصد المكلفين، د / عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت شارع بيروت، الطبعة الثانية ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٧١ ـ مع الله، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٧٢ ـ ماذا يحب الله تعالى وماذا يبغض؟ عدنان الطرشَه، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الخامسة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٧٣ ـ ماذا يحب النبي محمد ﷺ وماذا يكره؟ عدنان الطرشة، العبيكان، الرياض، الطبعة الخامسة ٢٠٠٦م.

٧٤ ـ موسوعة، من أخلاق الرسول ﷺ، محمود المصري، دار التقوى، شبرا الخيمة ـ القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٧٥ ـ مواقف إيمانية، أحمد فريد، دار الصفوة، جزيرة بدران، أول شبرا ـ القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م).

٧٦ ـ لا تحزن د/عائض القرني، العبيكان، الرياض، الطبعة العشرون ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ما تشتمل عليه الموسوعة المختصرة	١٥
الباب الأول وما يتضمنه	١٦
تمهيد: الصدقة وكمالها	١٧
الباب الأول - الفصل الأول (ترتيب الأولى بالصدقة)	٢٩
أولا: نفس الإنسان	٣١
ثانيا: أولوا الأرحام	٣٦
ترتيب أولي الأرحام	٤٠
أ - الوالدان (الأم والأب)	٤٠
ب - الأولاد والزوجة والخادم	٤٣
ثالثا: اليتامى	٥١
رابعا: الفقراء والمساكين	٥٧
خامسا: الجار	٦٩
سادسا: الصاحب بالجنب	٨٤
سابعا: ابن السبيل	٨٧
ثامنا: (وما ملكت أيمانكم)	٩٢
تاسعا: (السائلون)	٩٥
الباب الأول (الفصل الثاني) الصدقة الجارية (الوقف)	٩٧

الباب الأول (الفصل الثالث) القرض الحسن ومنزلته من الصدقة	١١١
الباب الثاني (صدقات التطوع المالية)	١٣٣
الفصل الأول:	
أولا : الرسول صلى الله عليه وسلم، القدوة الحسنة والمثل الأعلى في الصدقة والجود وحب العطاء في سبيل الله تعالى	١٣٥
ثانيا : أمهات المؤمنين رضي الله عنهن والتصدق في سبيل الله تعالى	١٤٩
(الباب الثاني) الفصل الثاني - صدقات الآسرة	١٧٥
أولا : صدقة الزوج على نفسه وزوجه وولده ومن تلزمه نفقته	١٧٧
ثانيا : صدقة الزوجة على نفسها وزوجها وولدها	١٨١
ثالثا : ثواب المرأة التي تتصدق من بيت زوجها	١٨٥
رابعا : أجر المتصدق للخازن الأمين	١٨٩
خامسا : أجر الصدقة للعبد الذي يتصدق من مال سيده	١٩٣
الباب الثاني: (الفصل الثالث) بعض أوصاف المتصدقين	٢٠١
أولا : متصدق يحبه الله تعالى	٢٠٣
ثانيا : متصدق قريب من الله تعالى	٢٠٧
ثالثا : متصدق تعرفه الملائكة وتسوق إليه السحاب	٢٠٩

رابعا: متصدق في آعلى المنازل بالجنة	٢١٣
خامسا: متصدق يغبطه الناس	٢٢٠
الباب الثاني: الفصل الرابع **بعض أوصاف الصدقات**	٢٤١
أولا: صدقة تهلل منها وجه النبي صلى الله عليه وسلم	٢٤٣
ثانيا: صدقات مضاعفة	٢٥١
ثالثا: صدقات أجرها عظيم	٢٥٩
رابعا: صدقات عن ظهر غنى، وأعلاها الإيثار	٢٨١
خامسا: صدقة أبقت مالا وأورثت رضا ورضوانا	٢٩٦
الباب الثاني: (الفصل الخامس) **من آثار الصدقات العظيمة**	٣١٥
أولا: الصدقة المكفرة	٣١٧
ثانياُ: الصدقة تطفئ الخطيئة	٣٢٤
ثالثا: الصدقة تحمي العرض وتذب عن الشرف	٣٣٣
رابعا: صدقة السر تطفئ غضب الرب سبحانه	٣٣٨
العلاج الإلهي والمحمدي للغضب والانتصار عليه	٣٦٠
الباب الثاني (الفصل السادس) **صدقة المسروق**	٣٦٩

الباب الثاني (الفصل السابع) **صدقات متنوعة**	٣٨٥
أولا: صدقة الزروع والأشجار	٣٨٧
ثانيا: صدقة منيحة الناقة والشاة والعنز	٣٩٧
ثالثا: صدقة من أنفق زوجين في سبيل الله	٤٠٠
رابعا: صدقة ظل فسطاط في سبيل الله أو خدمة خادم أو طروقة فحل	٤٠١
خامسا: صدقة الناقة المخطومة في سبيل الله	٤٠٣
سادسا: صدقة إفراغ الماء من دلوك في دلو أخيك	٤٠٤
الباب الثالث **فضل الصدقة من لحظة الموت إلى دخول الجنة**	٤٠٧
أولا: تصدق قبل أن يأتيك الموت	٤٠٩
ثانيا: الصدقة تدفع ميتة السوء وتقي مصارعه	٤١٦
ثالثا: الصدقة تحمي صاحبها في فتنة القبر	٤٥١
رابعا: الصدقة من خير ما يقدمه المسلم لنفسه يوم القيامة	٤٥٩
خامسا: الصدقة تستر صاحبها من النار	٤٦٤
سادسا: الصدقة فداء للنفس من عذاب الله	٤٦٩
سابعا: المتصدق لا يخاف ولا يحزن يوم الفزع الأكبر	٤٧٤
ثامنا: الصدقة تنفع المتوفى	٤٨١

تاسعا: المتصدق في ظل صدقته يوم القيامة	٤٩٢
عاشرا: الصدقة تدخل صاحبها الجنة	٥٠٧
الباب الرابع: الصدقات غير المالية الفصل الأول: صدقة نوم المتهجد	٥١٥
الباب الرابع: **الفصل الثاني: صدقة الذكر**	٦٣١
خاتمة	٦٩٩
(أ) أهم فوائد الصدقات المفروضة وغير المفروضة، وأهم الآثار المترتبة على منعها	٦٩٩
(ب) مهلا... مهلا... أصحاب المال والثراء... إلى أين؟	٧٠٨
المراجع	٧١٨
الفهرس	٧٥٠